

الْفِتْنَةُ
وَمَوْقِفُ الْمُسْلِمِ مِنْهَا
فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ

إِعْدَادُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّحْبَانِي

دار القاسم للنشر

الرياض ١١٤٤٢ هـ . ص . ب ٦٣٧٣

ت : ٤٧٧٥٣١١ فاكس : ٤٧٧٤٤٣٢



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣).

أما بعد :

فإن التأمل في كتاب الله - تعالى - ومحاولة دراسة الموضوعات التي تطرق إليها بالتفصيل والبيان مما يكشف للناس جميعاً كثيراً من أسرار القرآن النيرات، ومعجزاته الباهرات، ومواعظه المبكيات، والتي لا يملك عاقل إلا الإذعان لها، والإصغاء إليها بخشوع وتذلل وانكسار.

(١) آل عمران : (١٠٢).

(٢) النساء : (١).

(٣) الأحزاب : (٧٠).

كيف لا وقد قال سبحانه عن هذا الكتاب :

﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾^(١).

وإن من أهم الموضوعات التي تعرض لها القرآن، واهتم بها اهتماماً كبيراً موضوع (الفتنة). هذا الموضوع الخطير، الذي يلفت نظر كل أحد، ويشير كوامن كل نفس، نظراً لما تحويه كلمة الفتنة من رهبة وشدة، تظهر جلية واضحة، لكل من تأملها، وأنعم النظر فيها.

ومن هنا فقد دعاني حديث القرآن عن الفتنة إلى التأمل والتدبر في الآيات والسور التي وردت فيها كلمة الفتنة تصريحاً أو تلميحاً، وذلك لمعرفة كيفية معالجة القرآن العظيم لموضوع الفتنة بكل مجالاتها ومظاهرها وآثارها.

ولقد وجدت ذلك جلياً واضحاً، ولأننا في عصر تجمعت فيه الفتن على المسلمين من كل صوب، وتراكت عليهم المحن من كل ناحية فقد كانت الآيات التي تحتوي على كلمة (فتن) تهز كياني، وتثير أشجاني، فاستخرت الله - تعالى - في البحث في هذا الموضوع الخطير، وكانت الأسباب التي دعيتي إلى ذلك على النحو التالي:

١ - كان موضوع الفتنة يستوقفني كثيراً عند قراءة كتاب إسلامي، أو مجلة إسلامية، أو عند سماع الخطبة يوم الجمعة، فاستجاشني هذا الموضوع، وشد انتباهي، وقلت في نفسي: لا بد أن يكون القرآن قد تعرض لهذا الموضوع، وفصل فيه، فذهبت أقلب صفحات المصحف الشريف، ورجعت إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، فوجدت أن القرآن الكريم قد تحدث عن هذا الموضوع بإسهاب، يذكر مجالاته، ويبين معانيه ومظاهره، ويجلي آثاره ونتائجه.

(١) الحشر: (٢١).

٢ - إن تخصيص موضوع الفتنة بالبحث والدراسة يهيء للموضوع جواً علمياً لدراسته بعمق وشمولية، تثري المعلومات حوله، وتبلور قضاياها، وتبرز معالمه.

٣ - إن هذا الموضوع «الفتنة» له صلة وثيقة بالقرآن الكريم، ويتضح ذلك من خلال دراسة الآيات القرآنية التي ذكرت فيها الفتنة تصريحاً أو تلميحاً، ونجدها تتحدث عن دروس وعظات وعبر، وفي ضوء هذا الموضوع يرجى من الجيل القرآني المنشود أن يجعله دراسة روحية ممتعة، وبذلك تعطي هذه العبر والعظات ثمراتها له وللأمة - بإذن الله -.

٤ - تأصيل هذا الموضوع الخطير بالنظر في كيفية حديث القرآن عنه، ومعالجة أوضاع الفرد والأمة على ضوء هذه الدراسة لمثل هذا الموضوع المهم.

• مخطط الرسالة

تشتمل خطة البحث على مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة.
فأما المقدمة فبينت فيها أهمية الموضوع، وسبب اختياره، وخطة البحث،
ومنهجه.

التمهيد: وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم الفتنة في اللغة.

المبحث الثاني: الفرق بين الفتنة والابتلاء.

المبحث الثالث: معاني الفتنة في القرآن.

الباب الأول: مجالات الفتنة، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول : الابتلاء، وفيه ثلاث مباحث :

المبحث الأول : ابتلاء الأنبياء، وفيه ثلاثة مطالب :

* **المطلب الأول :** ابتلاء موسى - عليه الصلاة والسلام - .

* **المطلب الثاني :** ابتلاء داود - عليه الصلاة والسلام - .

* **المطلب الثالث :** ابتلاء سليمان - عليه الصلاة والسلام - .

المبحث الثاني : ابتلاء أقوام الأنبياء، وفيه خمسة مطالب :

* **المطلب الأول :** ابتلاء قوم موسى .

* **المطلب الثاني :** ابتلاء قوم صالح .

* **المطلب الثالث :** ابتلاء كفار قريش .

* **المطلب الرابع :** ابتلاء الكافرين عموماً بالمؤمنين والعكس .

* **المطلب الخامس :** ابتلاء الناس جميعاً بالخير والشر .

الفصل الثاني : بث الفرقة والاختلاف

المبحث الأول : محاربة الإسلام بادعاء الدعوة إليه .

المبحث الثاني : محاربة الإسلام بالإفك على رسول الله - ﷺ - وزوجه .

المبحث الثالث : تشكيك الناس في صدق النبي - ﷺ - .

المبحث الرابع : إثارة العصبية والتحزب بين المسلمين .

الفصل الثالث : الصد عن سبيل الله - تعالى - وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الإغراء والإغواء .

المبحث الثاني : محاولة صرف الناس عن القرآن .

المبحث الثالث : محاولة خداع الناس، وإغراقهم بالشهوات .

الباب الثاني: مظاهر الفتنة، وأسبابها، وأساليب القرآن في التحذير منها، وفيه

ثلاثة فصول:

الفصل الأول : مظاهر الفتنة، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول: الشرك والكفر.

المبحث الثاني: النساء.

المبحث الثالث: إتيان الذكران.

المبحث الرابع: الحكم والسلطة.

المبحث الخامس: السحر.

الفصل الثاني : أسباب الفتنة، وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول: الأموال والأولاد.

المبحث الثاني: المعصية.

المبحث الثالث: اتباع الشيطان.

المبحث الرابع: موالة الكافرين.

المبحث الخامس: اتباع المتشابه.

الفصل الثالث : أساليب القرآن في التحذير من الفتنة، وفيه أحد عشر مبحثا :

المبحث الأول: الأمر.

المبحث الثاني: النهي.

المبحث الثالث: التهديد.

المبحث الرابع: التبيكيت والتقريع.

المبحث الخامس: النفسي.

المبحث السادس: الاستفهام.

المبحث السابع: التعجب.

المبحث الثامن: الخبر.

- المبحث التاسع : الدعاء .
- المبحث العاشر : الشرط .
- المبحث الحادي عشر : الاستثناء .

الباب الثالث : آثار الفتنة، وسبل النجاة منها، وفيه فصلا :

الفصل الأول : آثار الفتنة، وفيه ستة مباحث :

- المبحث الأول : تمييز الصادقين من الكاذبين .
- المبحث الثاني : كشف أستار المنافقين وفضحهم .
- المبحث الثالث : المغفرة والرحمة لمن فُتن، فجاهد وصبر .
- المبحث الرابع : تمييز الصادقين والشاكرين من القانطين والجاحدين .
- المبحث الخامس : التنبه لمحاولة أهل الكتاب فتنة المسلمين عن دينهم .
- المبحث السادس : الحذر من الشيطان وكيدهِ .

الفصل الثاني : سبل النجاة من الفتنة، وفيه تسعة مباحث :

- المبحث الأول : الاعتصام بالكتاب والسنة .
- المبحث الثاني : لزوم الجماعة .
- المبحث الثالث : قتال من يحاول فتنة المسلمين عن دينهم .
- المبحث الرابع : الصبر .
- المبحث الخامس : اللجوء إلى الله - تعالى - .
- المبحث السادس : مقاومة أسباب الفتنة .
- المبحث السابع : الحذر من الأعداء .
- المبحث الثامن : الحذر من الإشاعات .
- المبحث التاسع : الثقة بنصر الله - تعالى - .
- الخاتمة : وفيها بينت أهم نتائج البحث وثمراته .

* الفهرس:

- ١ - فهرس الآيات القرآنية.
- ٢ - فهرس الأحاديث.
- ٣ - فهرس الآثار.
- ٤ - فهرس الأعلام.
- ٥ - فهرس الأشعار.
- ٦ - فهرس الفرق والطوائف.
- ٧ - فهرس الأماكن والبلدان.
- ٨ - فهرس المراجع.
- ٩ - فهرس الموضوعات.


منهج البحث :

والمنهج الذي سرت عليه في كتابة البحث يمكن تلخيصه في النقاط التالية :

- ١ - سلكت منهج التفسير الموضوعي في بحثي لموضوع الفتنة، وماورد من جوانب تحليلية فهو مما تقتضيه طبيعة البحث، مما لا يعارض المنهج المذكور مع ندرة ذلك، وعدم التوسع فيه.
 - ٢ - التزمت بترقيم الآيات وعزوها إلى سورها في جميع مواضع الرسالة.
 - ٣ - خرجت الأحاديث من كتب السنة المعتبرة، وبينت درجة كل حديث قَدْر طاقتي صحةً وضعفاً حسب قوة الاستدلال في الحديث، ومكان وروده، ودواعي الاستشهاد به.
 - ٤ - حرصت على اختيار المصادر الأصلية، وعدم اللجوء إلى البديل من المراجع، إلا إذا كانت طبيعة النص تسمح بذلك، أو عند الضرورة، والتزمت العزو لكل مصدر أو مرجع أفدت عنه.
 - ٥ - ترجمت للأعلام الواردين في جميع مواضع الرسالة ما عدا الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والخلفاء الراشدين الأربعة - رضي الله عنهم أجمعين -، وكذلك من لم أقف على ترجمته.
 - ٦ - كذلك عرفت بالأماكن والبلدان والفرق مما يحتاج منها إلى تعريف.
 - ٧ - اجتهدت في ربط الموضوع بقضايا العصر حسب طاقتي وعلمي ؛ لأنني لا أريد أن يخرج بحثاً نظرياً بعيداً عن الواقع، فالثمرة منه بقدر إفادة الأمة حاضراً ومستقبلاً.
- وبعد :
- فهذا جهد المقل، أتقدم به، وكلي أمل أن يكون قد أعطى الثمرة المرجوة منه.

فإن أكن قد أصبت غنياً يعتد به فهذا الذي أردت ، وهو كله من فضل الله - تعالى - ورحمته ، ونعمه التي لا تحصى ، وإن أكن قد أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان ، والله - تعالى - ورسوله - ﷺ - منه بريئان ، وأستغفر الله - تعالى - من الخلل ، وأتوب إليه من الزلل ، وكلنا خطاء ، وخير الخطائين التوابون .

وفي الختام أتوجه بالشكر والتقدير بعد شكر الله - تعالى - إلى القائمين على جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية على ما يبذلونه من جهود طيبة ، وأعمال جليلة لخدمة أبنائهم من منسوبي الجامعة ، وإن أنس فلن أنسى فضيلة الأستاذ محمد البنداري - المشرف على الرسالة - والذي كان نعم الموجه والمرشد لي طيلة اشتغالي بالرسالة ، فضلاً عن العطف والكرم الذي منحني إياهما ، وكأني أحد أبنائه ، فجزاه الله - تعالى - خيراً ، وأثابه ، وشكر له رعايته وتوجيهه ، وأحسن خاتمتنا جميعاً ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، والله - تعالى - أعلم ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



التمهيد وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول: مفهوم الفتنة في اللغة
المبحث الثاني: الفرق بين الفتنة والابتلاء
المبحث الثالث: معاني الفتنة في القرآن

المبحث الأول مفهوم الفتنة في اللغة

قال ابن فارس^(١): «الفاء والتاء والنون أصل صحيح يدل على الابتلاء والاختبار»^(٢). تقول: فتنْتُ الذهبَ إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته، وهو مفتون وفتين^(٣). ويُسمى الصائغ: الفتَّان لِإِذَابته الذهب والفضة في النار^(٤). والفتَّان كذلك: الشيطان، وفي الحديث: «المؤمن أخو المؤمن، يسعها الماء والشجر، ويتعاونان على الفتَّان»^(٥)، وسُمي بذلك لكونه يفتن الناس

-
- (١) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين. من أئمة اللغة والأدب. أصله من قزوین، وأقام مدة في همدان، ثم انتقل إلى الريّ فتوفي فيها سنة ٣٩٥هـ، وإليها نسبته، من أشهر كتبه: «مقاييس اللغة» و«المجمل» و«جامع التأويل» في التفسير. «الأعلام» للزركلي (١٩٣/١) و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٠٣/١٧).
- (٢) «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٤٧٢/٤) مادة (فَتَنَ).
- (٣) «الصحاح» للجوهري (٢١٧٥/٦) مادة فتن، و«معجم مقاييس اللغة» (٤٧٢/٤).
- (٤) «تاج العروس من جواهر القاموس» لمحمد مرتضى الزبيدي (٢٩٨/٩)، مادة (فتن).
- (٥) أخرجه أبو داود في سننه من حديث صفية - رضي الله عنها - (٤٥١/٣ - ٤٥٢) برقم (٣٠٧٠) كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في قطاع الأرضين، بنحوه مع زيادة في أوله. والحديث ضَعْفَ إسناده محمد ناصر الدين الألباني كما في ضعيف سنن أبي داود ص ٣٠٩. وفي حديث آخر في صحيح البخاري كتاب الأذان برقم (٧٠١) أن رسول الله - ﷺ - سَمَى معاذاً - رضي الله عنه - (فتاناً) لأنه آذى الناس بالتطويل في صلاة العشاء. وفي حديث آخر أيضاً كما في صحيح مسلم في كتاب الجهاد برقم (٢٨٩٢) أن المجاهد في سبيل الله يؤمن الفتان وهو الملك الذي يمتحنه في القبر بالسؤال.

بخداعه وغروره^(١).

وقال الخليل^(٢): «الْفَتْنُ: الإحراق، يقال: وَرِقُ فَتْنٍ أي فضة محرقة، ويقال للحررة فتين، كأن حجارتهما مُحْرَقَةٌ»^(٣).

وافتن الرجل، وَفُتِنَ فهو مفتون إذا أصابته فتنة فذهب ماله أو عقله^(٤)، وقال في القاموس: «المفتون: المجنون»^(٥).

والفتون أيضاً: الافتتان، يتعدى ولا يتعدى، ومنه قولهم: قلبُ فاتن؛ أي مفتتن أو مفتون، قال الشاعر:

رخيم الكلام قطع القيا م أمسى فؤادي بها فاتناً^(٦)
ويقال: فَتَنَتِ المرأة إذا دهنته، وأفتنته أيضاً، ويقال: فَتِنَ الرجل يفتن فتناً إذا أراد الفجور^(٧).

(١) «الصحاح» (٢١٧٥/٦)، و«تاج العروس» (٢٧/٩)، وغريب الحديث

لإبراهيم بن إسحاق الحربي (٩٤١/٣).

(٢) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليمامي، من أئمة اللغة

والأدب، وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه النحوي، ولد بالبصرة، وبها توفي أيضاً

سنة ١٧٠هـ، من كتبه «العين» في اللغة، و«معاني الحروف» و«العروض» و«النقط

والشكل» وغيرها. «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٤٢٩/٧) والأعلام (٣١٤/٢).

(٣) «الصحاح» (٢١٧٥/٦).

(٤) «الصحاح» (٢١٧٦/٦)، و«تاج العروس» (٢٩٩/٩).

(٥) «القاموس المحيط» لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ص ١٥٧٥ مادة (فَتَنَ).

(٦) «لسان العرب» لابن منظور (٣١٨/١٣) مادة (فتن).

(٧) «لسان العرب» (٣١٨/١٣).

وأنشد أبو عبيدة^(١) لأعشى همدان^(٢) :
لئن فتتني فهي بالأمس أفتنت سعيداً فأمسى قد فلا كلّ مسلم^(٣)
وأنكر الأصمعي^(٤) أفتنت بالألف، فأنشد قول الشاعر:
* يعرضن إعراضاً لدين المفتن *
وأنشد أيضاً:

* لئن فتتني فهي بالأمس أفتنت *

(١) هو الإمام العلامة البحر، أبو عبيدة، معمر بن المثنى التميمي، مولا هم البصري،
النحوي، صاحب التصانيف، ولد سنة ١١٠ هـ. قال الذهبي في السير: «قارب مائة عام
أو كملها، فقليل: مات سنة ٢٠٩ هـ، وقيل: سنة ٢٢٠ هـ» وقال أيضاً: «كان هذا المرء
من بحور العلم، ومع ذلك فلم يكن بالماهر بكتاب الله، ولا العارف بسنة رسول الله
ﷺ»، ولا البصير بالفقه واختلاف أئمة الاجتهاد». «سير أعلام النبلاء» (٩/٤٤٥)،
(٤٤٧).

(٢) أعشى همدان هو: عبدالرحمن بن الحارث بن نظام بن جشم الهمداني، شاعر اليهانيين
بالكوفة، وفارسهم في عصره، ويعد من شعراء الدولة لا الأموية.
كان أحد الفقهاء. وقال الشعر فعرف، وكان من الغزاة في أيام الحجاج، وحين خرج
عبدالرحمن بن الأشعث انحاز إليه عبدالرحمن، وقاتل رجال الحجاج، ثم جيء به إليه أسيراً
بعد مقتل ابن الأشعث، فأمر به الحجاج، فضربت عنقه سنة ٨٣ هـ. «سير أعلام النبلاء»
(٤/١٨٥) و«الأعلام» (٣/٣١٢).

(٣) «الصحاح» (٦/٢١٧٦). وانظر ديوان أعشى همدان وأخباره ص ١٦٢.
(٤) الأصمعي: هو حجة الأدب، ولسان العرب، أبو سعيد، عبدالملك بن قريب بن
عبدالملك بن علي البصري اللغوي الأخباري، أحد الأعلام، ولد سنة بضعة وعشرين
ومائة، أثنى عليه الإمامان: أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين. وروى له مسلم في مقدمة
كتابه، وأبو داود في تفسير أسنان الإبل، والترمذي في تفسير أم زرع، توفي سنة ٢١٥ هـ،
وقيل: سنة ٢١٦ هـ. «سير أعلام النبلاء» (١٠/١٧٥) و«تهذيب التهذيب» لابن حجر
(٣/٥٠٩، ٥١٠).

فلم يعبا به، ولكن أهل اللغة أجازوا اللغتين. جاء في اللسان :
«وقال سيبويه^(١) : فتنه : جعل فيه فتنة ، وأفتنه : أوصل الفتنة إليه . قال
سيبويه : إذا قال : أفتنته فقد تعرض لفتن ، وإذا قال : فتنته فلم يتعرض
لُفتن»^(٢) : وحكى بعضهم : أفتن الرجل «بصيغة مالم يسم فاعله» أي فتن ،
ويقال : أفتن الرجل وافتن ، وكلاهما صحيح ، وأما فتنته ففتن فهي لغة
ضعيفة^(٣) .

والفاتن : المضل عن الحق ، وفتنته تفتيناً فهو مفتن أي مفتون جداً ،
والمبالغة من فتن فتنه ، والمصدر : إفتان ، ويقال : تفتان الرجال تحاربوا ووقعوا
في فتنة^(٤) .

والفتان «بكسر الفاء» : غشاء للرحل من آدم ، قال الشاعر :

(١) سيبويه : هو عمرو بن عثمان بن قنبر ، أستاذ النحاة والأدباء ، فارسي الأصل ، ينتمي بالولاء
إلى الحارث بن كعب بن عمرو ، لقب بسيبويه لأن وجنتيه كأنهما تفاعتان ، وقد كان في غاية
الجمال ، وسيبويه : كلمة فارسية ، معناها بالعربية رائحة التفاح .
ولد بالبصرة وهي أكبر مدينة في كورة اصطخر بفارس ، ويقال : إن مولده ومسقط رأسه كان
بالأهواز ، ثم هاجر أهله إلى البصرة فنشأ بها وطفق يطلب العلم على كثيرين ، منهم حماد بن
سلمة ، مفتى البصرة ، والأخفش الأكبر عبد الحميد بن عبد المجيد ، والخليل بن أحمد
الفراهيدي البصري . توفي سنة ١٨٠ هـ وقيل غير ذلك . انظر : «بغية الوعاة في طبقات
اللغويين والنحاة» للسيوطي (٢/ ٢٣٠) ، «ومعجم الأدباء» لياقوت الحموي (١٦/ ١١٥)
و «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١/ ١٩٦) .

(٢) «لسان العرب» (١٣/ ٣١٨) .

(٣) المرجع السابق .

(٤) «الصحاح» (٦/ ٢١٧٦) و «المعجم الوسيط» تأليف مجمع اللغة العربية بمصر (١/ ٦٧٣)
مادة (فتن) .

فثَّيْتُ كَفِي وَالْفِتَانُ وَنُمرِقي^(١) ومكائهن الكُور^(٢) والنِّسْعَانِ^(٣)
 والْفَتْنُ «بالفتح» الفنُّ «الضرب» والحال، ومنه قول الشاعر:
 إما على نفسي وإما لها والعيش فتنان فحلوا ومُرُّ^(٤)
 والْفَتْنَانِ: الغدوة والعشي، مثني فتن، لأنها حالان وضربان^(٥).
 وتطلق الفِتْنَةُ «بالكسر» ويراد بها الخِبرة^(٦).
 وقال في «القاموس»:
 «والفيتن «كحيدر»: النجار، وفاتون: خباز فرعون قتل موسى»^(٧).
 والفتائن: الحرار السود: أي الحجارة، قال الشاعر:

-
- (١) النُمرق: الوسادة الصغيرة. «مختار الصحاح» للرازي ص ٦٨٠.
 (٢) الكُور: بالضم: الرجل بأداته، والجمع (أكوار) و (كيران). المرجع السابق ص ٥٨٢ مادة (كور).
 (٣) النِّسْعَانِ: البطان والحَقَب، قال صاحب اللسان: «يقال للبطان والحقب هما النِّسْعَانِ»
 ا. هـ. «لسان العرب» (٣٥٣/٨) مادة (نَسَعَ).
 والبطان والحَقَب: الخزام الذي يجعل تحت بطن البعير، يشد به الرجل.
 «لسان العرب» (٣٢٤/١) مادة (حقب) و «مختار الصحاح» ص ٥٦، ٥٧ مادة (بطن).
 (٤) «لسان العرب» (٣٢١/١٣) مادة (فتن)، و «الصحاح» (٢١٧٦/٦) مادة (فتن) والقائل:
 ليبد بن ربيعة، انظر ديوانه ص ٢٦٩، وفيه بدل (الفتان) القِراب.
 (٥) «لسان العرب» (٣٢١/١٣)، و «القاموس المحيط» ص ١٥٧٥، وقائل البيت هو
 عمر بن أحمد الباهلي.
 (٦) «تاج العروس» (٢٩٨/٩).
 (٧) «القاموس المحيط» ص (١٥٧٥).
 (٨) المرجع السابق ص (١٥٧٥).

غِراس كالفتائن معرضاتٍ على آبارها أبداً عطون^(١)
قال في اللسان: وكأن واحدة الفتائن فتينة، وقال بعضهم: الواحدة:
فتينة، وجمعها: فتين، قال الشاعر:
ظعائن من بني الحُلاف تأوي إلى خرس نواطق كالفتينا^(٢)
وقال في تاج العروس: «فَتَنَ كَبَقَمَ: مدينة بالهند كبيرة حسنة على ساحل
البحر، ومرساها عجيب، وبها العنب والرمان الطيب»^(٣).
وأما الفُتنة «بالضم» فهي نوع من شجر السنط، أصفر الزهر عطُره^(٤).
وبعد هذا العرض يمكن تلخيص المعاني اللغوية التي تأتي عليها كلمة فتنَ
ومشتقاتها في الأمور التالية:

- ١ - الفِتنة: الابتلاء والاختبار، وهي كذلك التدليه والإغراء من قِبَل المرأة.
وهي أيضاً: الحروب التي تقع بين الناس، كما تطلق أيضاً على الحِيرة،
والجنون.
- ٢ - الفُتنة: نوع من شجر السنط.
- ٣ - الفُتون: إرادة الفجور.
- ٤ - الفُتنُ: الإحراق، وهو كذلك النوع والحال.
- ٥ - الفِتان: الصائغ، وهو كذلك: الشيطان.
- ٦ - الفِتان: غشاء للرحل من الأدم.
- ٧ - الفِتان: الحجارة السود.

(١) «لسان العرب» (١٣/٣٢٠)، والقاموس المحيط ص (١٥٧٥). والعُطُون «أن تراح الناقة
بعد شربها، ثم يعرض عليها الماء ثانية، وقيل: هو إذا رويت ثم بركت» لسان العرب
(١٣/٢٨٧) مادة (عطن) والقائل هو أبو قيس بن الأسلت.
(٢) «لسان العرب» (١٣/٣٢٠). والقائل: هو الكميت الأسدي.
(٣) «تاج العروس» (٩/٢٩٩).
(٤) «المعجم الوسيط» تأليف مجمع اللغة العربية بمصر (١/٦٧٣).

المبحث الثاني الفرق بين الفتنة والابتلاء

سَبَقَ أَنْ عُرِّفَ الْفِتْنَةُ بِأَنَّهَا الْإِبْتِلَاءُ وَالْإِخْتِبَارُ، تَقُولُ: فَتَنَتِ الذَّهَبَ إِذَا أَدْخَلْتَهُ النَّارَ لِتَنْظُرَ مَا جُودَتُهُ.

وَعُرِّفَ عِلْمَاءُ اللُّغَةِ الْإِبْتِلَاءَ أَيْضاً بِأَنَّهُ الْإِخْتِبَارُ وَالْإِمْتِحَانُ، قَالَ فِي اللِّسَانِ: «بَلَوْتُ الرَّجُلَ بَلَوًّا وَبِلَاءً وَابْتَلَيْتُهُ: اخْتَبَرْتُهُ، وَبَلَاهُ يَبْلُوهُ بَلَوًّا إِذَا جَرَّبَهُ وَاخْتَبَرَهُ»^(١) قَالَ الشَّاعِرُ:

بُلَيْتُ وَفَقْدَانُ الْحَبِيبِ بَلِيَّةٌ وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يَتَلَى ثُمَّ يَصْبِرُ^(٢)
وَقَالَ:

كَفَانِي الْبِلَاءُ وَأَنْيَ امْرُؤٌ إِذَا مَا تَبَيَّنْتَ لَمْ أَرْتَبْ^(٣)
وَالْإِبْتِلَاءُ مُصْدَرٌ، وَالْإِسْمُ مِنْهُ الْبِلَاءُ، وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى إِخْلَاقِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: بَلَى الثَّوبُ بَلَىً وَبِلَاءً أَيْ خَلِقَ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَالْمَرْءُ يَبْلِيهِ بِلَاءُ السَّرْبَالِ مَرُّ اللَّيَالِي وَاخْتِلَافُ الْأَحْوَالِ^(٤)
كَمَا يُطْلَقُ الْبِلَاءُ وَيُرَادُ بِهِ الْإِخْبَارُ، يُقَالُ: يَبْلِيكَ أَيْ يُخْبِرُكَ.

(١) «لسان العرب» (٨٣/١٤) مادة (بلا). وانظر «تهذيب اللغة» للأزهري (٣٩١/١٥) مادة (بلا).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٢٩٣/١) مادة (بلوى).

(٣) المرجع السابق (٢٩٤/١).

(٤) «لسان العرب» (٨٥/١٤)، و«المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني ص (٦١).

وتقول العرب: أبلني كذا أي أخبرني، فيقول الآخر: لا أبلبك، ومنه حديث أم سلمة^(١) - رضي الله عنها - حين ذكرت قول النبي - ﷺ -: «إِنَّ مِنْ أَصْحَابِي مَنْ لَا يَرَانِي بَعْدَ أَنْ أَفَارِقَهُ» فسألها عمر - رضي الله عنه -: «أمنهم أنا؟» فقالت: لا، ولن أبل أحدًا بعدك^(٢)، أي لن أخبر^(٣).

كما يطلق البلاء ويراد به الإنعام، قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾^(٤).

إن من يتأمل التعريف اللغوي لكل من الفتنة والابتلاء يجد أنه لا فرق بينهما، وهذا صحيح من جهة واحدة هي المعنى اللغوي، لكن من ينظر في الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة الفتنة وكلمة الابتلاء يجد الفرق بينهما واضحاً، وأبين ذلك في النقاط التالية:

- ١ - أن الفتنة أعم من الابتلاء حيث تأتي الفتنة على معانٍ كثيرة، والابتلاء واحد من هذه المعاني، وسيأتي بيان تفصيلي لمعاني الفتنة في القرآن في المبحث القادم - بإذن الله تعالى -.
- ٢ - رغم أن عدداً من الآيات القرآنية جاءت فيها الفتنة بمعنى الابتلاء إلا أن

(١) هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية أم المؤمنين، كانت زوج ابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد بن المغيرة فمات عنها فتزوجها النبي - ﷺ - في جمادى الآخر سنة أربع وقيل سنة ثلاث، وكانت ممن أسلم قديماً، وقيل إنها أول امرأة خرجت مهاجرة إلى الحبشة، وأول طعينة دخلت المدينة، وكانت موصوفة بالجمال البارع، والعقل البالغ، توفيت سنة ٦٣ هـ وهي آخر أمهات المؤمنين موتاً. انظر «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (٤/٤٥٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/٢٩٠، ٣٠٧، ٣١٧)، والطبراني في معجمه الكبير (٢٣/٣١٩) برقم (٧٢٤). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١١٧) بعد أن ذكر الحديث: «وفيه عاصم به ببدلة، وهو ثقة يخطئ» ا. هـ.

(٣) «معجم مقاييس اللغة» (١/٢٩٤). (٤) الدخان: (٣٣).

هناك فرقاً بينهما من حيث الاستعمال اللغوي ، وذلك يكمن في كون الفتنة أشد من الابتلاء ، ويتضح ذلك من خلال المثالين التاليين :

يقول ربُّنا - تعالى - في شأن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١) ، ويقول سبحانه في شأن موسى - عليه الصلاة والسلام - : ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾^(٢) .

والمراد بالابتلاء في قوله سبحانه : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ أي أن الله - تعالى - ابتلى إبراهيم بكلمات أي كلفه بها^(٣) ، فظهر عزمه وامتناله

(١) البقرة: (١٢٤) .

(٢) طه: (٤٠) .

(٣) اختلف في المراد بهذه الكلمات على أقوال : قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : هي ثلاثون سهماً ، هي الإسلام كله لم يتمه أحد كاملاً إلا إبراهيم - صلوات الله وسلامه عليه - عشرة منها في براءة (التائبون العابدون) الآية ، وعشرة في الأحزاب : (إن المسلمين والمسلمات) ، وعشرة في (سأل سائل) ، وقال ابن عباس أيضاً وقتادة : الكلمات عشر خصال ، خمس منها في الرأس : المضمضة والاستنشاق وقص الشارب والسواك وفرق الرأس ، وقيل بدل فرق الرأس : إعفاء اللحية ، وخمس في الجسد : تقليم الأظافر ، وحلق العانة ، ونتف الإبط ، والاستنجاء بالماء ، والاختتان . الخ .

انظر : «المحرر الوجيز» لابن عطية (٣٤٨/١) . و «جامع التأويل» للطبري (١/٥٧١ - ٥٧٧٥) .

القول الراجح :

قال ابن جرير : «والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله - عز وجل - أخبر عباده أنه اختبر إبراهيم خليله بكلمات أوحاهن إليه ، وأمره أن يعمل بهن فأتَمَّهُنَّ ، كما أخبر الله - جل ثناؤه - عنه أنه فعل . وجائز أن تكون الكلمات جميع ما ذكره من ذكرنا قوله في تأويل «الكلمات» ، وجائز أن تكون بعضه ؛ لأن إبراهيم - صلوات الله عليه - قد كان امتحن فيما بلغنا بكل ذلك ، فعمل به ، وقام فيه بطاعة الله ، وأمره بالواجب عليه فيه . وإذا كان ذلك =

تلك التكاليف؛ حيث أتى بها كاملة، فجوزي عليها أعظم الجزاء^(١).
 وقوله - سبحانه - : ﴿وَفْتَنَّاكَ فِتْنَةً﴾ المراد بالفتنة هنا كما يذكر
 المفسرون: تلك المحن والابتلاءات الشديدة التي مر بها موسى - عليه
 الصلاة والسلام - ومنها قتله للقبطي^(٢). والذي يتأمل الابتلاء الذي
 حصل لإبراهيم وموسى - عليهما الصلاة والسلام - يتبين له سرُّ التعبير عن
 الأول بالابتلاء، وعن الثاني بالفتنة؛ فإن الابتلاء بالقتل مثلاً أشد ولا شك
 من الابتلاء بالقيام بالتكاليف الربانية، وفي التفريق بين الفتنة والاختبار
 - وهو معنى الابتلاء - من حيث الاستعمال اللفظي نجد أبا هلال
 العسكري^(٣) يقول: «الفرق بين الفتنة والاختبار أن الفتنة أشد الاختبار

= كذلك فغير جائز لأحد أن يقول: عني الله بالكلمات التي ابتلى بهن إبراهيم شيئاً من ذلك
 بعينه دون شيء، ولا عني به كل ذلك، إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر عن الرسول
 - ﷺ - أو إجماع من الحجة. ولم يصح في شيء من ذلك خبر عن الرسول - ﷺ - بنقل
 الواحد، ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلته. «اهـ»
 «جامع البيان في تأويل القرآن» (١/٥٧٥، ٥٧٦).

- (١) «تفسير التحرير والتنوير» لمحمد الطاهر ابن عاشور (١/٧٠٣).
- (٢) سيأتي التفصيل لهذه الفتنة عند الحديث عن مجالات الفتنة - بإذن الله تعالى -.
- (٣) هو الحسن بن عبد الله بن سليمان بن سعيد بن يحيى بن مهران اللغوي العسكري، كان
 موصوفاً بالعلم والفقه، والغالب عليه الأدب والشعر. كان يتبرز - أي يلبس أحسن
 الثياب - احترازاً من الطمع والدناءة. من كتبه: كتاب «صناعتي النظم والنثر» و«التلخيص
 في اللغة»، و«جوهرة الأمثال»، و«شرح الحامسة» وغيرها. ومن شعره الجيد قوله:

قد تخطاك شباب وتغشاك مشيب
 فأتى ما ليس يمضي ومضى ما لا يثوب
 فتأهب لسقام ليس يشفيه طبيب
 لا توهمه بعيداً إنما الآتي قريب

«معجم الأدباء» لياقوت الحموي (٤/٢٦٠)، و«بغية الوعاة» للسيوطي (١/٥٠٦).

وأبلغه، ويكون في الخير والشر، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(١)، وقال: ﴿لَأَسْقِيَنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لَّنَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾^(٢) فجعل النعمة فتنة لأنه قصد بها المبالغة في اختبار المنعم عليه بها كالذهب إذا أريد المبالغة في تعريف حاله، والله - تعالى - لا يختبر العبد لتغيير حاله في الخير والشر، وإنما المراد بذلك شدة التكليف»^(٣) ا. هـ.

٣ - تأتي أفعال الابتلاء أحياناً مسندةً إلى الله - تعالى - بالاسم الظاهر مثل: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾^(٤)، ومثل: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾^(٥)، وأحياناً يأتي الإسناد في أفعال الابتلاء إلى الضمير مثل: ﴿ثُمَّ صَرَّفْنَا فِيهِم مِّنْهُمُ اثْنًا بِضَاعَةً﴾^(٦)، ومثل: ﴿وَلِيَبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾^(٧).

أما الفتنة فإننا لا نجد أن الأفعال منها تأتي مسندة إلى الاسم الظاهر من أسماء الله - تعالى - مطلقاً، ولعل السبب في ذلك - والله أعلم - كون الفتنة تأتي على معاني غير حسنة مثل: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يُفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٨)، ومن الأدب مع الله - عز وجل - عدم إسنادها إليه، ولذلك لما عَقَدَ صاحب التفسير الكبير سؤالاً حول قوله - تعالى - في شأن موسى - عليه

(١) التغابن: (١٥).

(٢) الجن: (١٦، ١٧).

(٣) «الفروق اللغوية» ص ١٧٨، ١٧٩، وانظر «الكشاف» للزمخشري (٣/٤٣٩).

(٤) البقرة: (١٢٤).

(٥) النحل: (٩٢).

(٦) آل عمران: (١٥٢).

(٧) الأنفال: (١٧).

(٨) النساء: (١٠١).

الصلاة والسلام - : ﴿وفتناك فتوناً﴾^(١) .

فقال : «هل يصح إطلاق اسم الفتان عليه - سبحانه - اشتقاقاً من قوله - تعالى - : ﴿وفتناك فتوناً﴾» .

أجاب بقوله : «لا يصح ذلك ؛ لأنه صفة ذم في العرف ، وأسماء الله - تعالى - توقيفية لا سيما فيما يوهم مالا ينبغي»^(٢) ا. هـ .

(١) طه : (٤٠) .

(٢) «التفسير الكبير» للفخر الرازي (٥٥/٢٢) .

المبحث الثالث معاني الفتنة في القرآن

جاء لفظ الفتنة في القرآن الكريم على عدة معانٍ، ويمكن الإشارة إليها فيما يأتي:

١ - وردت الفتنة بمعنى الابتلاء والامتحان، وذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم، قال الله - تعالى -: ﴿ألم* أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون* ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾^(١)، فمعنى ﴿وهم لا يفتنون﴾ أي وهم لا يبتلون! ومعنى: (فتناً) «أي اختبرنا الذين من قبلهم من الأمم ممن أرسلنا إليهم رسلنا، فقالوا مثل ما قالته أمتك يا محمد بأعدائهم، وتمكيناً إياهم من أذاهم، كموسى إذ أرسلناه إلى بني إسرائيل، فابتليناهم بفرعون وملئهم، وكعيسى إذ أرسلناه إلى بني إسرائيل، فابتلينا من اتبعه بمن تولى عنه، فكذلك ابتلينا أتباعك بمخالفك من أعدائك»^(٢).
وسياقي تفصيل لهذا المعنى عند الحديث عن مجالات الفتنة في القرآن - بإذن الله تعالى -.

٢ - وتأتي الفتنة بمعنى الصد عن السبيل والرد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾^(٣)، قال

(١) العنكبوت: (١ - ٣).

(٢) «جامع البيان في تأويل القرآن» لابن جرير الطبري (١٠/١٢١).

(٣) المائدة: (٤٩).

- القرطبي^(١) : قوله تعالى : (يُفْتَنُوكَ) معناه : يصدوك ويردوك^(٢) .
- ٣ - وتأتي الفتنة بمعنى العذاب ، قال الله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾^(٣) ، فمعنى : (فتنوا المؤمنين والمؤمنات) أي عذبوهم بإحراقهم بالنار^(٤) . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٥) . فمعنى (فُتِنُوا) أي عُدُّبُوا^(٦) .
- ٤ - وتأتي الفتنة بمعنى الشرك ، قال الله - تعالى - : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ

(١) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي المالكي ، أبو عبد الله القرطبي . إمام متقن متبحر في العلم ، له تصانيف مفيدة ، تدل على إمامته ، وكثرة اطلاعه ، ووفور فضله ، ومنها تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» و «شرح الأسماء الحسنى» ، و «التذكار في فضل الأذكار» ، و «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» ، وله أرجوزة جمع فيها أسماء النبي ﷺ - .

توفي سنة ٦٧١ هـ . «طبقات المفسرين» للداوودي (٢/٦٩ ، ٧٠) .

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٦/١٣٨) ، وانظر «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر» لابن الجوزي ص (٤٧٩) تحقيق محمد عبد الكريم الرازي .

(٣) البروج (١٠) .

(٤) «جامع البيان في تفسير القرآن» (١٢/٥٢٧) .

(٥) النحل : (١١٠) .

(٦) «إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم» للدماغاني ص (٣٤٨) .

فتنة^(١)، قال ابن كثير^(٢): (حتى لا تكون فتنة) أي شرك^(٣).

٥ - وتأتي الفتنة بمعنى الوقوع في النفاق والمعاصي، قال الله - تعالى - في حق المنافقين: ﴿ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأماني﴾^(٤)، فمعنى (فتنتم أنفسكم) أي أوقعتموها في النفاق، وأهلكتموها باستعمالها في المعاصي والشهوات^(٥).

٦ - وتأتي الفتنة بمعنى التشكيك والتلبيس، كما قال تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾^(٦) فإن معنى (ابتغاء الفتنة) كما قال الألوسي^(٧): «أي طلب أن يفتنوا المؤمنين المؤمنين»

(١) البقرة: (١٩٣).

(٢) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن درع، الحافظ عماد الدين أبو الفداء، كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، من كتبه: «تفسير القرآن العظيم» و«البداية والنهاية» في التاريخ و«مناقب الإمام الشافعي» وفاته سنة ٧٤٧هـ. انظر «طبقات المفسرين» للداوودي (١/١١١، ١١٣) و«الأعلام» (١/٣٢٠).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٢٧)، و«فتح القدير» للشوكاني (١/١٩١). وقد نسب ابن كثير القول بأن معنى الفتنة في الآية الشرك إلى عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما -، وأبي العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، والسدي، وزيد بن أسلم.

(٤) الحديد: (١٤).

(٥) «تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل» (٤/٢٦٦)، و«أنوار التنزيل وأسرار التأويل» للبيضاوي (٢/٤٥٤).

(٦) آل عمران: (٧).

(٧) هو محمود بن عبدالله الحسيني، الألوسي، شهاب الدين، أبو الثناء، مفسر، محدث، فقيه، أديب، لغوي، نحوي، مشارك في بعض العلوم، ولد ببغداد سنة ١٢١٧هـ، وتقلد الإفتاء فيها، وعُزل، وسافر إلى الموصل، فالقسطنطينية، ومَرَّ بماردين وسيواس، وأكرمه السلطان عبدالحميد، ثم عاد إلى بغداد، فتوفي بها سنة ١٢٧٠هـ في الخامس والعشرين من ذي =

- عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه»^(١).
- ٧ - وتأتي الفتنة بمعنى الشبهة في الحق والباطل ، قال الله - تعالى - : ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾^(٢) ، فالمعنى : «إلا يوال المؤمن من دون الكافر وإن كان ذا رحم به (تكن فتنة في الأرض) أي شبهة في الحق والباطل ، وظهور الفساد في الأرض بتولي المؤمن الكافر دون المؤمن ، ثم ردّ المواريث إلى الأرحام»^(٣).
- وتأتي الفتنة بمعنى الإضلال والإغواء ، قال تعالى : ﴿ما أنتم عليه بفاتنين﴾^(٤) أي بمفسدين أحداً بالإضلال والإغواء^(٥).
- وقال تعالى : ﴿ومن يرد الله فتنته﴾^(٦) فإن معنى الفتنة هنا الإضلال^(٧).
- ٩ - وتأتي الفتنة بمعنى الكفر ، قال - تعالى - : ﴿فليحذر الذين يخالفون عن

= القعدة . من تصانيفه : تفسيره «روح المعاني» و «كشف الطرة عن الغرة في شرح دارة الغواص» للحريري ، و «الأجوبة العراقية ، والأسئلة الإيرانية» و «حاشية على شرح القطر في النحو» .

«معجم المؤلفين» لعمر رضا كحالة (١٢/١٧٥) و «التفسير والمفسرون» لمحمد حسين الذهبي (١/٣٤٥) .

- (١) «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» للآلوسي (٣/٨٢) .
- (٢) الأنفال : (٧٣) .
- (٣) تفسير الطبري (٦/٢٩٨) ، و «زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي (٣/٣٨٦) .
- (٤) الصافات : (١٦٢) .
- (٥) «محاسن التأويل» للفاسمي (١٤/٥٠٦٨) ، و «إصلاح الوجوه والنظائر» ص ٣٤٩ .
- (٦) المائدة : (٤١) .
- (٧) «نزهة الأعين النواظر» ص ٤٧٩ ، و «البحر المحيط» لأبي حيان (٤/٢٦٢) .

أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴿^(١)﴾ فمعنى (أن تصيبهم فتنة) أي كُفِّر ^(٢).

١٠ - وتأتي الفتنة بمعنى المعذرة بالشيء، قال الله - تعالى -: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ ^(٣)، قال القرطبي: «قال قتادة ^(٤): معنى (فتنتهم) أي معذرتهم» ^(٥).

١١ - وتأتي الفتنة بمعنى القتل أو الأسر، قال الله - تعالى -: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ ^(٦)، فإن معنى الفتنة هنا: «حَمْلُ الكفار على المؤمنين وهم في صلاتهم ساجدون حتى يقتلوهم أو يأسروهم، فيمنعوهم من إقامتها، ويحولوا بينهم وبين عبادة الله - تعالى - وإخلاص التوحيد له» ^(٧).

(١) النور: (٦٣).

(٢) تفسير الطبري (٣٦١/٩)، و«تفسير القرآن العظيم» (٣٠٧/٣).

(٣) الأنعام: (٢٣).

(٤) هو قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز بن عمرو بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن سدوس، ثقة، ثبت، مفسر، حافظ، ولد أكمه. روى عن أنس بن مالك وأبي سعيد الخدري - رضي الله عنهما - وغيرهما. وروى عنه أيوب السخيتاني، وسليمان التيمي وغيرهما، قال ابن سيرين: قتادة هو أحفظ الناس، وقال مطر الوراق: كان قتادة إذا سمع الحديث أخذه العويل والزويل حتى يحفظه، وقال ابن حبان في الثقات: كان من علماء الناس بالقرآن والفقه، ومن حفاظ أهل زمانه.

مات بواسط سنة ١١٧هـ - رحمه الله - «تهذيب التهذيب» لابن حجر (٤/٥٤٠، ٥٤٢).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/٢٥٩)، و«إصلاح الوجوه والنظائر» ص ٣٤٩ و«التصارييف» لبيحيى بن سلام ص ١٨٢.

(٦) النساء: (١٠١).

(٧) تفسير الطبري (٤/١٠١)، و«نزهة الأعين النواظر» ص (٤٧٩).

١٢ - وتأتي الفتنة بمعنى الاختلاف وعدم اجتماع الكلمة، قال الله - تعالى - :

﴿وَلَا ضَعُفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾^(١) أي إن المنافقين يحاولون أن يفتنوكم أيها المؤمنون بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم، ويفسدوا نياتكم في مغزاكم^(٢).

١٣ - وتأتي الفتنة بمعنى الجنون، قال - تعالى - : ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾^(٣)، فالمفتون بمعنى : المجنون^(٤).

(١) التوبة : (٤٧).

(٢) «الكشاف» للزمخشري (٢/٢٧٧).

(٣) القلم : (٦).

(٤) «التصاريף» ليجي بن عبد سلام ص (١٨٢)، و«إصلاح الوجوه والنظائر» ص (٣٤٩)، وانظر «المحرر الوجيز» لابن عطية (١٦/٧٦).

الباب الأول
مجالات الفتنه
ويشتمل على ثلاثة فصول

الفصل الأول: الابتلاء
الفصل الثاني: بث الفرقة والاختلاف
الفصل الثالث: الصد عن سبيل الله - تعالى -

الفصل الأول الابتلاء

وفيه مبحثان :

المبحث الأول: ابتلاء الأنبياء

المبحث الثاني: ابتلاء أقوام الأنبياء

الفصل الأول الابتلاء

تمهيد:

إن الابتلاء سنة ربانية جارية؛ ذلك لأن طبيعة الحياة الدنيا، وطبيعة البشر فيها، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحمل بساحته، فكم يخفق له عمل، أو يخيب له أمل، أو يموت له حبيب، أو يمرض له بدن، أو يفقد منه مال، إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة... حتى قال الشاعر يصف الدنيا:

جبلت على كدر وأنت تريدها صفواً من الآلام والأكدار!
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار
وإذا كان هذا سنة الله - تعالى - في الحياة عامة، وفي الناس كافة، فإن أصحاب الرسالات خاصة أشد تعرضاً لنكبات الدنيا ومحنها. إنهم يدعون إلى الله - عز وجل - فيحاربهم دعاة الطاغوت، وينادون بالحق فيقاومهم أنصار الباطل، ويهدون إلى الخير فيعاديه أنصار الشر، ويأمرون بالمعروف فيخاصمهم أهل المنكر... وبهذا يحيون في دوامة من المحن، وسلسلة من المؤامرات والفتن، فتلك سنة الله - تعالى - الذي خلق آدم وإبليس، وإبراهيم ونمرود، وموسى وفرعون، ومحمداً - ﷺ - وأباجهل^(١): ﴿وكذلك جعلنا لكل

(١) هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي، أشد الناس عداوة للنبي - ﷺ - في صدر الإسلام، وأحد سادات قريش في الجاهلية. أدرك الإسلام، وكان يقال له: أبو الحكم فدعاه المسلمون: أباجهل، استمر في عداوته وعناده حتى كانت موقعة بدر الكبرى، =

نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً^(١)، ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾^(٢).

هذا هو شأن الأنبياء، وشأن ورثتهم، والسائرين على دربهم، والداعين بدعوتهم، مع الطغاة الصادين عن سبيل الله: ﴿وما نقيموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾^(٣) (٤).

سُئل نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام -: «أي الناس أشد بلاء؟ فقال: الأنبياء، ثم الأئمة فالأئمة، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»^(٥).

والعبد المؤمن لا يمكن حتى يبتلى، ولهذا سأل رجل الإمام الشافعي^(٦)،

= فشهدا مع المشركين، فكان من قتلها.

«الأعلام» (٨٧/٥)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٥٢٩/١).

(١) الأنعام: (١١٢). (٢) الفرقان: (٣١). (٣) البروج: (٨).

(٤) «الإيمان والحياة» للأستاذ يوسف القرضاوي ص ١٩٢، ١٩٣.

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٢٦٩/١)، والترمذي في سننه (٦٠١/٤)، كتاب الزهد، الباب

(٥٧) الحديث رقم (٢٣٩٨)، وابن ماجه في سننه (١٣٣٤/٢) كتاب الفتن، باب الضبر

على البلاء، برقم (٤٠٢٣)، والدارمي في كتاب الرقائق، باب في أشد الناس بلاء

(٣٢٠/٢). وإسناده حسن. انظر المسند للإمام أحمد بتحقيق شعيب الأرناؤوط وإخوانه

(٧٨/٣).

(٦) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبلي، أبو عبد الله:

أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد بفلسطين وحمل منها إلى

مكة وهو ابن سنتين. وزار بغداد مرتين، وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ فتوفي بها سنة ٢٠٤ هـ.

من كتبه: «الرسالة» في أصول الفقه، و«الأم» في الفقه، وغيرها. «تذكرة الحفاظ»

(٣٦١/١)، و«الأعلام» (٢٧/٦).

فقال : «أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟ فقال الشافعي : لا يمكن حتى يبتلى ، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ، فلما صبروا مكّتهم ، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم ألبته»^(١) .

وحقيقة إن الحديث عن الابتلاء واسع المساحة ، ممتد الأرجاء ، ولا يتسع هذا الفصل للإحاطة بجوانب الموضوع كلّها ، ولكنني أشير إشاراتٍ عابرةً مكتفياً بأمثلة من ابتلاء الله - تعالى - للأنبياء وأقوامهم في ضوء الآيات القرآنية التي ورد فيها لفظ الفتنة دون لفظ الابتلاء ، لأننا لو أردنا أن نلم بجميع جوانب الموضوع ما استطعنا ، وما لا يدرك كلّ لا يترك جلّه ، والله الموفق .

(١) «الفوائد» لابن القيم - رحمه الله - ص (٢٦٩) .

المبحث الأول ابتلاء الأنبياء

المطلب الأول: ابتلاء موسى - عليه الصلاة والسلام :

قال الله - تعالى - : ﴿ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ * إذ أوحينا إلى أمك مايوحى * أن اذنيه في التابوت فاقدفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني * إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتوناً... ﴿(١)﴾ .

تفيد نصوص القرآن الكريم كما في سورة طه وغيرها أن نبي الله موسى - عليه الصلاة والسلام - قد تعرض منذ ولادته وحتى نبىء وبعث لكثير من البلايا العظيمة والمحن الشديدة^(٢)، ومنها أن أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ومنها إلقاءه في اليم، ومنعه من الرضاع إلا من ثدي أمه، ومنها ابتلاؤه - عليه الصلاة والسلام - بقتل القبطي، فنجاه الله - تعالى -

(١) طه : (٣٧ - ٤٠) .

(٢) مما يدل على أن هذه المحن وتلك الفتن التي مر بها موسى - عليه الصلاة والسلام - كانت شديدة التنكير لكلمة الفتون في الآية ﴿وفتناك فتوناً﴾ قال ابن عاشور: «تنكيره للتعظيم أي فتوناً قوياً عظيماً» التحرير والتنوير (١٦ / ٢٢٠) .
وهذا فيه من التوكيد مالا يخفى إذ المفعول المطلق يؤكد لعامله .

من الغم، وغفر له ذنبه، ويسر له سبيل الهجرة إلى مدين^(١)، حيث قيل له: ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾^(٢). وفي مدين ابْتُلي بالعمل أجيراً لدى صهره مدة طالت إلى عشر سنين، ولدى عودته إلى مدين ضل الطريق في ليلة شاتية.

ولقد ورد بهذه الفتن وغيرها مما لم أذكره آنفاً حديثٌ يدعى «حديث الفتون» أذكره الآن بنصه ثم أتولى التعليق عليه - بإذن الله -.

«ذكر حديث الفتون»

روى الإمام النسائي^(٣) في كتاب التفسير من سننه الكبرى وغيره عن سعيد بن جبير^(٤) - رحمه الله - قال: سألت عبدالله بن عباس^(٥) - رضي الله

(١) مدين: بلد بالشام معلوم تلقاء غزة، وهو المذكور في كتاب الله - تعالى - . «معجم ما استعجم» لعبدالله بن عبدالعزيز البكري (١٢٠١/٢).

(٢) القصص: (٢٥).

(٣) هو الإمام الحافظ الثبت، شيخ الإسلام، ناقد الحديث، أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني النسائي، صاحب السنن. كان من بحور العلم، مع الفهم، والإتقان، والبصيرة، ونقد الرجال، وحسن التأليف. من مصنفاته: «السنن الكبرى» و«عمل اليوم والليلة» وغيرها. وفاته بمكة سنة ٣٠٣هـ.

انظر «سير أعلام النبلاء» (١٤/١٢٥)، و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٦/١٥٢).

(٤) هو الإمام الحافظ المقرئ المفسر، أبو محمد، ويقال: أبو عبدالله الأسدي الوالبي، أحد الأعلام. قرأ القرآن على ابن عباس، وقرأ عليه أبو عمرو بن العلاء، وطائفة. وكان رحمه الله من العبّاد العلماء، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي في شعبان سنة ٩٥هـ، وقصة قتله مشهورة. انظر «سير أعلام النبلاء» (٤/٣٢١).

(٥) هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي، أبو العباس: حبر الأمة، الصحابي الجليل. ولد بمكة، ونشأ في بدء عصر النبوة، وروى عنه الأحاديث الصحيحة، وله في =

عنهما - عن قول الله - تعالى - لموسى : ﴿ وَفْتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ فسألته عن الفتون ماهي ؟ فقال : استأنف النهار يا ابن جبير فإن لها حديثاً طويلاً . قال : فلما أصبحت غدوت على ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني ، قال : فقال ابن عباس : « تذاكر فرعون وجلساؤه ما وعد الله إبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً ، فقال : بعضهم : إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك وما يشكون ، ولقد كانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلك قالوا : ليس هكذا كان الله وعد إبراهيم فقال فرعون : فكيف ترون ؟ قال : فأتمروا بينهم ، وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجلاً معهم الشفار^(١) يطوفون في بني إسرائيل ، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بأجلهم ، وأن الصغار يذبحون ، قالوا : يوشع أن تفنوا بني إسرائيل ، فتصيرون إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم ، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر ، فيقل أبناؤهم ، ودعوا عاماً لا تقتلوا منهم أحداً ، فتشب الصغار مكان من يموتون من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم ، فتخافون مكائرتهم إياكم ، ولن يقلوا بمن تقتلون ، فأجمعوا أمرهم على ذلك ، فحملت أم موسى بهارون في العام المقبل الذي لا يذبح فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة ، حتى إذا كان العام المقبل حملت بموسى ، فوقع في قلبها الهم والحزن ، وذلك من الفتون يا ابن جبير ، مما دخل عليه في بطن أمه مما يراد به ، فأوحى الله إليها ﴿ أَلَّا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾^(٢) وأمرها إذا ولدته أن تجعله في تابوت ثم

= الصحيحين وغيرهما ١٦٦٠ حديثاً . كف بصره في آخر عمره ، فسكن الطائف ، وتوفي بها سنة ٦٨ هـ على الصحيح ، وسنه : إحدى وسبعون . « الإصابة » (٢ / ٣٣٠) و « الأعلام » (٩٥ / ٤) .

(١) جمع شفرة وهي السكين العظيمة . مختار الصحاح ص ٣٤١ .

(٢) القصص (٧) .

تلقية في اليم، فلما ولدته فعلت ماأمرت به، حتى إذا توارى عنها ابنها أتاها إبليس فقالت في نفسها: ما صنعت بابني لو دُبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إليّ من أن ألقيه بيدي إلى حيتان البحر ودوابه، فانطلق به الماء حتى أوفى به عند فرضة^(١) مستقى جوارى آل فرعون، فرأينه فأخذنه، فهممّن أن يفتحن الباب، فقال بعضهن لبعض: إن في هذا مالا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة فرعون بما وجدنا فيه، فحملنه كهيشته لم يحركن منه شيئا، حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأت فيه الغلام، فألقى عليه منها حبة لم يلق مثلها منها على أحد من الناس ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغا﴾^(٢) من كل شيء إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا إلى امرأة فرعون بشغارهم يريدون أن يذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير، فقالت للذباحين: انصرفوا عني، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل، فأتى فرعون فأستوهبه إياه، فإن وهبه لي كتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم أملككم، فلما أتت به فرعون قالت: ﴿قرة عين لي ولك﴾^(٣)، قال فرعون: يكون لك، وأما أنا فلا حاجة لي فيه، فقال: والذي يُحلفُ به لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت به، لهداه الله به كما هدى به امرأته، ولكن الله حرمه ذلك، فأرسلت إلى من حولها من كل أنثى لها لبن لتختار له ظئرا، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل ثديها، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق يجمع الناس ترجو أن تصيب له ظئرا يأخذ منها، فلم يقبل من أحد، وأصبحت أم موسى، فقالت لأختها: قصيه واطلبيه، هل تسمعين له ذكرا، أحيي ابني، أو قد أكلته دواب البحر وحيتانه، ونسيت الذي كان الله وعدها، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون، فقالت من الفرح حين

(١) الفرضة: الثغرة التي يستقى منها في النهر أو الثلثة. انظر مختار الصحاح ص ٤٩٨ مادة

فَرَضَ.

(٢) القصص: (١٠).

(٣) القصص: (٩).

أعيانهم الظؤورات : أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فأخذوها وقالوا : وما يدريك مانصحهم له ، هل يعرفونه ؟ حتى شكوا في ذلك ، وذلك من الفتون يا ابن جبر ، فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظؤورة الملك ، ورجاء منفعتة ، فتركوها .

فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر ، فجاءت ، فلما وضعتة في حجرها نزا إلى ثديها حتى امتلأ جنباه ، فانطلق البُشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئراً ، فأرسلت إليها ، فأتيت بها وبه ، فلما رأت مايصنع بها قالت : امكثي عندي حتى ترضعي ابني هذا فإنني لم أحب حبه شيئاً قط ، قال : فقالت : لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي ، فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه ، فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آله خيراً فعلت ، وإلا فإنني غير تاركة بيتي وولدي ، وذكرت أم موسى ماكان الله وعدّها ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت أن الله - تبارك وتعالى - منجز وعده ، فرجعت بابنها إلى بيتها من يومها ، فأنبته الله نباتاً حسناً ، وحفظه لما قضى فيه ، فلم يزل بنو إسرائيل وهم مجتمعون في ناحية المدينة يمتنعون به من الظلم والسحرة التي كانت فيهم ، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أزيريني ابني ، فوعدها يوماً تزيرها إياه فيه ، فقالت لحواصتها وظؤورتها وقهارمتها^(١) : لا يَبْقَيْنَ أحد منكم إلا استقبل ابني يهدية وكرامة ليرى ذلك ، وأنا باعثة أمينة تحصي كُلَّ مايصنع كلُّ إنسان منكم ، فلم تزل الهدية والكرامة والتحف تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون ، فلما دخل عليها نحلته وأكرمته ، وفرحت به ، وأعجبها ما رأت من حُسن أثرها عليه ، وقالت : انطلقن به إلى فرعون ، فلينحله ، وليكرمه ، فلما دخلوا به عليه جعلته في حجره ، فتناول موسى لحية

(١) جمع قَهْرَمَان ، وهو الوكيل والخازن ، الحافظ لما تحت يده ، والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس . انظر «لسان العرب» ١٢/٤٩٦ مادة (قهرم) .

فرعون حتى مدها فقال عدو من أعداء الله : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم أنه سيصرعك ويعلوك، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير، بعد كل بلاء ابتلي به، فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت : مابدا لك في هذا الصبي الذي قد وهبته لي؟ قال : ألا ترين يزعم أنه سيصرعني ويعلونني، فقالت : اجعل بيني وبينك أمراً تعرف فيه الحق، اثبت بجمرتين ولؤلؤتين، فقمهن^١ إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين علمت أنه يعقل، فقرب ذلك إليه، فتناول الجمرتين، فترعوها منه مخافة أن تحرقا يده، فقالت المرأة : ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعدما قد هم به، وكان الله بالغاً فيه أمره.

فلما بلغ أشده، وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سحره، حتى امتنعوا كل امتناع، فبينما هو يمشي ذات يوم في ناحية المدينة، إذ هو برجلين يقتتلان، أحدهما من بني إسرائيل، والآخر من آل فرعون، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى واشتد غضبه، لأنه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل، وحفظه لهم : لا يعلم إلا أن ذلك من الرضاع من أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره، فوكز موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل : ﴿ هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ﴾^(١)، ثم قال : ﴿ رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾^(٢)، ﴿ فأصبح في المدينة خائفاً يترقب ﴾^(٣) الأخبار، فأتى فرعون، فقيل له : إن بني إسرائيل قد قتلوا رجلاً من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم في ذلك، فقال : ابغوني قاتله ومن

(١) القصص : (١٥).

(٢) القصص : (١٦).

(٣) القصص : (١٨).

يشهد عليه، لأنه لا يستقيم أن يقضي بغير بينة ولا ثبت، فطلبوا له ذلك، فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبّتاً، إذ مرّ موسى من الغد، فرأى ذلك الإسرائيليّ يقاتل فرعونياً، فاستغاثه الإسرائيليُّ على الفرعونيّ، فصادف موسى وقد ندم على ماكان منه بالأمس وكره الذي رأى، فغضب موسى، فمدّ يده وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مبین﴾^(١)، فنظر الإسرائيليُّ موسى بعدما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قَتَلَ فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعدما قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مبین﴾ أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراد، وإنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي، فحاجز الفرعوني فقال: ﴿يَا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾^(٢)، وإنما قال ذلك مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله، فتتاركا فانطلق الفرعوني إلى قومه، فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس؟ فأرسل فرعونُ الذباحين، فسلك موسى الطريق الأعظم، فطلبوه وهم لا يخافون أن يفوتهم. وجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى، فأخبره الخبر، وذلك من الفتون يا ابن جبير...»^(٣).

(١) القصص: (١٨).

(٢) القصص: (١٩).

(٣) أخرجه الإمام النسائي في كتاب التفسير من سننه الكبرى (٣٩٦/٦) الباب (٢٣٧) الحديث رقم (١١٣٢٦)، وأخرجه أيضاً الإمام ابن جرير في تفسيره (٤١٥/٨) برقم (٢٤١٣١) وابن أبي حاتم وابن المنذر في تفسيرهما، وابن أبي عمر العدني في مسنده: «الدر المنثور» للسيوطي (٥٣٠/٤). وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (١٤٨/٣)، وفي كتابه «البداية والنهاية» (٢٨٠/١). والرواية التي سقتها رواية ابن جرير، وهي أخصر الروايات. وهي عند الباقرين طويلة جداً، لا يتسع المقام لذكرها، فلترجع.

هذا وقد جاء في إحدى روايات الحديث كما عند النسائي أن ابن عباس قال لسعيد : « فلما سار موسى بأهله كان من أمر الناس والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن . فشكا إلى الله - تعالى - ما يتخوف من آل فرعون في القتل وعقدة لسانه ، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون ، يكون له رداءً ، يتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه) .

التعليق على الحديث:

بدراسة متن الحديث في جميع الروايات يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام :
١ - ما وافق ماجاء في القرآن من قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - ومن أمثلة هذا القسم ما أخبر به الحديث من خوف أم موسى وحزنها ، ووحى الله - تعالى - لها بأن تضع موسى في التابوت ، ثم تلقيه في اليم ، وفعلها ذلك بعد الولادة .

وهذا صحيح يؤخذ به ؛ لأن بين أيدينا من آيات القرآن ما يشهد له بالصدق .

٢ - ما خالف ماجاء في القرآن من قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - ومن أمثلة هذا القسم ماجاء في رواية النسائي - رحمه الله - مما سبق ذكره أن ابن عباس ذكر لسعيد أن موسى - عليه الصلاة والسلام - دعا الله - تعالى - أن يعينه بأخيه هارون يكون له رداءً ، يتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه .

وهذا الكلام فيه نكارة ظاهرة ، من حيث إنه يوحى ببقاء عقدة موسى - عليه الصلاة والسلام - وأنه كان يستعين بأخيه ليتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، والمعروف مما جاء في القرآن أن موسى - ﷺ - هو الذي تولى دعوة فرعون ، وهو المتكلم بكل ماتضمنته هذه الدعوة حتى أغرق الله - تعالى - فرعون وجنده ، وما كان لهارون من عمل بارز استقل به من

دون أخيه - عليهما الصلاة والسلام - إلا في قصة خلافته على بني إسرائيل في الفترة التي ذهب فيها موسى إلى ميقات ربه^(١). ولأنه دعا الله - تعالى - أن يحل عقدة لسانه، ولم يرد في القرآن أو السنة أنه لم يجب، بل على العكس من ذلك، قال الله - تعالى - : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾^(٢).
٣ - المسكوت عنه، أي مالم يس موافقاً للقرآن، ولا مخالفاً له، وهذا مما يباح نقله من الإسرائيليات.

والحاصل أن الحديث:

- ١ - موقوف على ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل^(٣).
- ٢ - أن إسناده الحديث ضعيف، فإن فيه أصبغ بن زيد، وهو ممن لا يحتج بخبره إذا انفرد، وقد انفرد برواية هذا الحديث^(٤)، وقد كان يخطيء كثيراً^(٥).
- ٣ - أن في متنه ما هو موافق لصريح القرآن فيقبل، وبعضه مخالف له فيرد، ومعظمه مما أبيع نقله من الإسرائيليات؛ لأنه مما سكوت عنه القرآن، والله أعلم.

فائدة:

قد يُقال: إن الفتن التي ابتلي بها موسى - عليه الصلاة والسلام - كانت فتناً شديدة، وبلايا قاسية، فَلِمَ عُدت في جملة النعم التي ذكرها الله - تعالى -

(١) «سورة طه: تحليل معانيها وبسط أهدافها» رسالة مقدمة من الأستاذ صلاح المهداوي لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (٣٦٦/١) مطبوعة على الآلة الكاتبة.

(٢) طه: (٣٦).

(٣) تفسير ابن كثير (١٥٣/٣).

(٤) انظر «تفسير ابن كثير» (١٥٣/٣).

(٥) «تهذيب التهذيب» لابن حجر (٢٢٩/١).

لنبيّه موسى - عليه الصلاة والسلام - ؟ .
ويجاب عن ذلك بأن الفتنة تشديد المحنة ، يقال : فُتِنَ فلان عن دينه إذا
اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه ، ولما كان التشديد في المحنة مما يوجب
كثرة الثواب لا جَرَمَ عده الله - تعالى - من جملة النعم^(١) .

(١) انظر: «التفسير الكبير» للفخر الرازي (٥٥/٢٢) .

المطلب الثاني ابتلاء داود . عليه الصلاة والسلام .

قال الله - تعالى - : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذا تسوروا المحراب ﴾ * إذ دخلوا على داود ففرع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ * إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ﴾ * قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنها فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأتاب ﴾ * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ ^(١) .

يذكر الله - تعالى - في هذه الآيات الكريمة نبأ الخصمين ^(٢) الذين اختصما عند نبي الله داود - عليه الصلاة والسلام - في قضية جعلها الله - تعالى - فتنة لداود ، وموعظة لخلل ارتكبه ، فتاب الله عليه ، وغفر له ، وقبض له هذه القضية ، فقال - سبحانه - مخبراً نبيه محمداً - ﷺ - : هل أتاك النبأ العجيب عن ذلك الخصم ^(٣) حين تسوروا على داود محل عبادته من غير إذن ولا استئذان ،

(١) ص : (٢١ - ٢٥) .

(٢) اختلف في هذين الخصمين فقيل : كانا ملكين بعثهما الله - تعالى - ضرب مثل لداود - عليه الصلاة والسلام - ، وقيل : كانا أخوين شقيقين من بني إسرائيل .

انظر تفسير الطبري (١٠/٥٦٦) والمحرر الوجيز (١٤/١٩) والتحرير والتنوير (٢٣/٢٣٧) .

(٣) جاء لفظ الخصم في أول الآيات في لفظ الواحد لأنه مصدر لا يثنى ولا يجمع ، ومنه قول

ليبد :

ولم يدخلوا عليه، ففزع منهم، فما يتصور المحراب هكذا مؤمن، ولا أمين، فبادر الخصمان يطمئنانه بأنه بغى بعضهم على بعض بالظلم، فلتحكم بيننا بالعدل، ولا تمل مع أحدنا، واهدنا إلى سواء الصراط.

والمقصود أن داود - عليه الصلاة والسلام - قد عرف من حال الخصمين أنهما يقصدان الحق الواضح البين، وإذا كان كذلك فسيقضيان عليه نأهما بالحق، فلم يشمئز - عليه الصلاة والسلام - من وعظهما له، ولم يؤنبهما.

ثم بدأ أحدهما يعرض خصومته بأن الآخر له تسع وتسعون نعمة^(١)، وذلك خير كثير يوجب عليه القناعة بما آتاه الله، وأنا لي نعمة واحدة، فطمع فيها، وقال: دعها لي، وخلها في كفالي، وغلبني في القول، فلم يزل بي حتى أدركني أو كاد، وعندئذ قال داود - عليه الصلاة والسلام - عندما سمع كلامه بأنه قد ظلمه بسؤاله نعمته الواحدة إلى التسع والتسعين من نعاجه وهذه عادة الخلطاء والقرناء الكثير منهم، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإن معهم من الإيمان والعمل الصالح ما يمنعهم من الظلم.

= وخصم يعدون الدخول كأنهم قروم غيارى كل أزهري مصعب

تفسير الطبري (٥٦٦/١٠).

(١) لقد فسر جملة من المفسرين النعمة بالزوجة. قال الطبري: «والعرب تفعل ذلك، ومنه قول الأعشى:

قد كنت رائدها وشاة محاذر حذراً يقل بعينه إغفالها

يعني بالشاة: امرأة رجل يحذر الناس عليها. تفسير الطبري (٥٦٩/١٠) وانظر «البحر المحيط» (١٤٨/٩).

وقد أنكر بعض أهل العلم أن تفسر النعمة بالمرأة لتعارضها مع قوله - تعالى -: ﴿ولقد كرمتنا بني آدم﴾ الإسراء: (٧٠) ونيس من التكريم أن تكون المرأة نعمة أو كالنعمة.

ولقد علم داود وتيقن عندما حكم بين الخصمين أن الله - تعالى - اختبره، ودبر عليه هذه القضية ليتنبه، وعند ذلك استغفر ربه، فأكرمه الله - تعالى - بأنواع الكرامات: المنزلة العالية، والقرب من الله، ثم حسن المآب والمرجع في الآخرة^(١).

ولقد كان من رعاية الله - تعالى - لعبده داود - عليه الصلاة والسلام - أنه نبهه عند أول فتنة، وردّه عند أول اندفاعه. وحذّره النهاية البعيدة. وهو لم يخطئ إليها خطوة!

وهذا من فضل الله - تعالى - على المختارين من عباده. فهم ببشرتهم قد تعثر أقدامهم أقل عشرة، فيقبلها الله - عز وجل - ويأخذ بأيديهم، ويعلمهم، ويوفقهم للإجابة، ويغفر لهم، ويغدق عليهم بعد الابتلاء^(٢). وهنا أودُّ أن أُبين أن الأفضل والأحوط فيما يتعلق بتفسير فتنة داود - عليه الصلاة والسلام - أن يردّ علمها إلى الله - عز وجل -؛ فإن الله - تعالى - لم يذكر تفسير الفتنة؛ لعدم الحاجة إلى ذكرها، فالتعرض لها فيه شيء من التكلف، خاصة وأنه لم يرد في تفسيرها أيضاً حديث صحيح يعتمد عليه. وإن الفائدة في ذلك ما قصّه الله - تعالى - من لطفه به، وتوبته، وإنابته، وأنه ارتفع محلّه، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها.

هذا وإن هنالك روايات إسرائيلية منكّرة، لم ترد في صحيح النقل، ولا تقبل بصريح العقل؛ ذلك لأن مقام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أجل منزلة من أن تنسب إليهم أمثال هذه الأقاويل المكذوبة، والأساطير المزيفة^(٣).

(١) انظر تفسير السعدي (٤١٦/٦).

(٢) «في ظلال القرآن» للأستاذ سيد قطب (٣٠١٩/٥).

(٣) ومن هذه الأقاويل المكذوبة ما روي أن داود حين دخل محرابه ذلك اليوم، قال: لا يدخلن

محرابي اليوم أحد حتى الليل، ولا يشغلني شيء عما خلوت له حتى أمسي. . . ودخل محرابه، =

ولقد ذأَبَ كثير من المفسرين سلفاً وخلفاً على بيان خطورة التشبث بتلك الإسرائيليات المنكرة، فقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - : «وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصاً وأخباراً أكثرها إسرائيلية، ومنها ما هو مكذوب لا محالة»^(١).

وقال صاحب البحر المحيط : «فما حكى الله - تعالى - في كتابه يُمرُّ على ما أَرَادَهُ الله، وما حكى القصص مما فيه غُضٌّ عن منصب النبوة طرحنه، ونحن كما قال الشاعر:

ونؤثر حكم العقل في كل شبهة
إذا آثر الأخبار جُلاس قصاص^(٢)

= ونشر زبوره يقرؤه، وفي المحراب كوة تطلعه على جنية، فبينما هو جالس يقرأ زبوره، إذ أقبلت حمامة من ذهب حتى وقعت في الكوة فرفع رأسه فرآها، فأعجبته، وجعل يتابعها ببصره حتى وقع نظره على امرأة تغتسل فأعجبته واختطف قلبه، فأمر صاحب جيشه أن يقدم زوجها واسمه أوريا للمهالك حتى أصابه بعض ما أراد به من الهلاك، فلما أصيب زوجها خطبها داود، فنكحها. . تفسير الطبري (٥٧٣/١٠).

وقيل : إن الذي صنعه داود أنه خطب على خطبة أوريا، فأثره أهلها عليه، قال القرطبي : «وقد كانت الخطبة على الخطبة حراماً في شريعتهم كما هي حرام في شريعتنا»(*) راجع تفسير القرطبي (١١٩/١٥).

فهذا كله مما لا يتفق وعصمة الأنبياء، والواجب نبذ هذه الخرافات، وتلك الأباطيل التي هي من صنع بني إسرائيل، وتلقفها القصاص وأمثالهم ممن لا علم عندهم، ولا تمييز بين الغث والسمين.

(*) وقيل إنه خطبها على خطبته، ولم تكن الخطبة على الخطبة حراماً عندهم وإنما لمقام الرسالة والنبوة كان هذا خلاف الأولى.

(١) «البداية والنهاية» (١٢/٢). وانظر تفسيره (٣١/٤).

(٢) «البحر المحيط» لأبي حيان (١٥١/٩).

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي^(١) : «اعلم أن ما يذكره كثير من المفسرين في هذه الآية الكريمة لا يليق بمنصب داود - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - وكله راجع إلى الإسرائيليات، فلا ثقة به، ولا معول عليه، وما جاء منه مرفوعاً إلى النبي - ﷺ - لا يصح منه شيء»^(٢).

وقال صاحب الظلال : «وخاضت بعض التفاسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوضاً كبيراً. تنتزه عنه طبيعة النبوة. ولا يتفق إطلاقاً مع حقيقتها. حتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطاً. وهي لا تصلح للنظر من الأساس. ولا تتفق مع قول الله - تعالى - : ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾^(٣)».

هذا وإنني بعد قراءة واسعة حول هذه الفتنة أرى أنه لا بأس في قبول ثلاثة آراء للعلماء مع عدم الجزم بواحد منها؛ لما ذكرته من قبل من أن الأولى في ذلك تفويض أمر الفتنة إلى الله - تعالى - .
وهذه الآراء هي :

١ - أن يكون المراد بالفتنة أن داود - عليه الصلاة والسلام - حكم لأحد الخصمين قبل أن يسمع من الآخر^(٤).

(١) هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي : مفسر مدرّس من علماء شنقيط (موريتانيا) ولد وتعلّم بها. وحج عام ١٣٦٧ هـ واستقر مدرّساً في المدينة المنورة ثم الرياض وأخيراً في الجامعة الإسلامية بالمدينة. من مصنفاته : «أضواء البيان في تفسير القرآن»، و «منع جواز المجاز» توفي بمكة سنة ١٣٩٣ هـ. «الأعلام» (٤٥/٦).

(٢) «أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن» (٢٤/٧).

(٣) «في ظلال القرآن» (٣٠١٨/٥).

(٤) انظر تفسير الظلال (٣٠١٨/٥). وهو قول الإمام العلامة، فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين كما في كتابه «إلى متى هذا الخلاف؟» ص ٢٥.

وعلى هذا فإن صاحب هذا القول يرى أن هذا التفسير لا يقدر في عصمة نبي الله داود - ﷺ - ، وأن نص الآية يتمشى مع هذا القول.

٢ - أن يكون المراد بالفتنة النظرة الأولى غير المتعمدة من داود - عليه الصلاة والسلام - للمرأة التي كانت تغتسل ، فلما رآته سترت جسدها . وهذا هو رأي الإمام ابن العربي^(١) ، فيما نقله عنه القرطبي بأن تلك النظرة لا حرج فيها بإجماع الأمة لأن النظرة الأولى تكشف المنظور إليه ، ولا يَأْثِمُ الناظر بها^{(٢)(٣)}.

٣ - أن يكون المراد بالفتنة ظن داود - عليه الصلاة والسلام - أن الخصمين جاءا للاغتيال ، ثم تبين له خطؤه في ذلك فاستغفر وأتاب^(٤).

(١) هو الإمام العلامة القاضي ، أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ، الأندلسي الإشبيلي المالكي ، صاحب التصانيف . كان ثاقب الذهن ، عذب المنطق كريم الشرائع ، كامل السؤدد . تفقه بالإمام أبي حامد الغزالي ، والفقيه أبي بكر الشاشي وغيرهما ، من كتبه : «المحصول» في الأصول ، و«الأنصاف» في الفقه ، وفاته سنة ٥٤٣ هـ . «طبقات المفسرين» للداودودي (١٦٧/٢) و«الصلة» لابن بشكوال (٥٩٠/٢ ، ٥٩١).

(٢) تفسير القرطبي (١١٩/٥) . وانظر «أحكام القرآن» لابن العربي (١٦٢٧/٤) .

(٣) قال ابن العربي مستشهداً بهذا القول : «روى أشهب عن مالك قال : بلغني أن حمادة وقف قريبا من داود وهي من ذهب ، فلما رآها أعجبه فقام ليأخذها ، ففرت من يده ، ثم صنع مثل ذلك مرتين ، ثم طارت فأتبعها بصره ، فوقعت عينه على امرأة وهي تغتسل ، ولها شعر طويل ، فبلغني أنه أقام أربعين ليلة ساجداً حتى نبت العشب من دموع عينيه ، فأما النظرة الثانية فلا أصل لها . «الجامع لأحكام القرآن» (١٦٢٧/٤) .

(٤) راجع تفسير المراغي (١٠٨/٢٣ - ١١٠) . وقد أيد هذا القول الشيخ محمد بن محمد أبو شعبة تأييداً قوياً ، بل قال : إنه هو الصحيح في تفسير الفتنة ، انظر كتابه «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» ص ٣٧٦ .

المطلب الثالث ابتلاء سليمان - عليه الصلاة والسلام -

يقول ربنا - تعالى - : ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾ * إذ عُرض عليه بالعشي الصافنات الجياد * فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب * رَدَّوْهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والأعناق * ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ﴿^(١)﴾ .
إنَّ المؤمن عندما يقرأ هذه الآيات الكريمة يجد أنَّ فيها إشارتين فيما يتعلق بابتلاء نبي الله سليمان بن داود - عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم - .

الإشارة الأولى : عن الصافنات الجياد، وهي الخيل الكريمة .
والإشارة الثانية : عن الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان - ﷺ - .
ولقد طالعتُ جُلَّ كتب التفسير لأظفر بالمعنى الصحيح للإشارتين، فلم تطمئن نفسي لما ذكره المفسرون في تفسيرهما، ماعدا قولين أرى أنهما أفضل تفسيرين لتلك الإشارتين، من غير جزم بأنهما التفسيران الصحيحان لهما :
(أ) :

أن يكون المراد بقوله سبحانه عن الصافنات الجياد، وما فعله بهنَّ سليمان - عليه الصلاة والسلام - : ﴿فطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والأعناق﴾ * أن سليمان - ﷺ - لما أجرى السباق، ووردت إليه الخيل جعل يمسح أعناقها وسوقها متحبياً إليها لأنها أهم عدة للجهاد ^(٢) .

(١) ص: (٣٠ - ٣٥) .

(٢) راجع «التفسير الكبير» للرازي (٢٦/٢٥٥ - ٢٠٦) وكتابه: «عصمة الأنبياء» ص ٧٦ .

(ب):

أن يكون المراد بإلقاء الجسد في قوله سبحانه: ﴿وَأَلْقِينَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً﴾ شق الرجل الذي ولدته امرأة سليمان - عليه الصلاة والسلام - لكونه لم يستثن حين قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله...».

وإليك نصّ الحديث كاملاً كما جاء في الصحيحين وغيرهما:

«قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة. كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله. ولم يقل: إن شاء الله. فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل. والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»^(١).

فجائز أن تكون هذه هي الفتنة التي تشير إليها الآيات الكريمة، وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشَّقُّ الذي أشار إليه الحديث الشريف، ويبقى ذلك مجرد احتمال؛ فإن الرسول - ﷺ - لم يشر في الحديث الأنف الذكر إلى أن الجسد الملقى على كرسي سليمان هو ذلك الشَّقُّ الوليد الذي جاءت به المرأة، ولم يرد في اللغة تفسير الجسد بالشق. وهكذا أرى أنه لا يستطيع مثبت أن يقول

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/٢٢٩) والبخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد (٦/٣٤) مع الفتح، برقم (٢٨١٩)، وأخرجه أيضاً في كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ﴾ (٦/٤٥٨) برقم (٣٤٢٤)، وأخرجه مسلم في كتاب الأيمان والنذور، باب الاستثناء (٣/١٢٧٥) برقم (١٦٥٤)، والترمذي في كتاب الأيمان والنذور، باب ما جاء في الاستثناء في اليمين (٤/١٠٨) برقم (١٥٣٢)، كما أخرجه النسائي في سننه الصغيرى، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حَلَفَ فقال له رجل: إن شاء الله، هل له استثناء، كلهم من حديث الصحابي الجليل أبي هريرة - رضي الله عنه -.

شيئاً عن تفصيل هذين الحادثين المشار إليهما في الآيات الكريمة، وكل ما نخرج به هو أنه كان ابتلاء من الله - تعالى - وفتنة لنبيه سليمان - عليه الصلاة والسلام - في شأن يتعلق بتصرفاته في الملك والسلطان، كما يتلى الله - تعالى - أنبياءه ليوجههم ويرشدهم، ويبعد خطاهم عن الزلل، وأن سليمان - عليه السلام - أناب إلى ربه ورجع، وطلب المغفرة، واتجه إليه بالدعاء والرجاء: ﴿قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب* والشياطين كل بناء وغواص* وآخرين مقرنين في الأصفاد* هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب* وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴿١﴾

وأما روايات قصة الخيل التي جاء فيها أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - استعرض خيلاً له بالعشي ففاته صلاة كان يصليها قبل الغروب. فقال: ردوها عليّ فردوها فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه (٢)، فإن تلك الروايات فيها ما فيها من المؤاخذات، وإن التاريخ قد حفظ لنا أحوال الصالحين من هذه الأمة، وشدة حرصهم على امتثال الأوامر الإلهية، وعدم انحرافهم في تيار الخواطر الدنيوية حينما تحين أوقات العبادة، فإذا كان هذا هو شأن الصالحين، فما بالك بالأنبياء الذين هم أعلى درجة من الصالحين. إن ما يذكر عن سليمان - عليه السلام - في هذا الشأن لا يليق أبداً بعصمة الأنبياء، ثم ما ذنب الخيل حتى تعرق أرجلها، وتقطع أيديها (٣)!!

أما ما يروى بشأن الجسد الملقى على كرسي سليمان - عليه السلام - فقد ذكره كثير من المفسرين عند تفسيرهم للآيات، وليس فيه تمييز بين الصحيح والضعيف،

(١) ص: (٣٦ - ٤٠).

(٢) راجع هذه الروايات في تفسير الطبري (٥٧٨/١٠).

(٣) انظر تفسير الرازي (٢٠٨/٢٦، ٢٠٩)، وكتابه: «عصمة الأنبياء» ص ٧٣ - ٧٩.

ومن تلك الروايات الرواية التي تقول:

(أراد سليمان - عليه الصلاة والسلام - أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمه، وكانت جرادة امرأته، وكانت أحب نسائه إليه، فجاء الشيطان في صورة سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي، فأعطته، فلما لبسه دانت له الجن، والإنس، والشياطين، فلما خرج سليمان - ﷺ - من الخلاء، قال لها: هاتي خاتمي، فقالت: قد أعطيته سليمان، قال: أنا سليمان، قالت: كذبت، لست سليمان، فجعل لا يأتي أحداً يقول له: أنا سليمان إلا كذبه، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة، فلما رأى ذلك: عرف أنه من أمر الله - عز وجل - وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله - تعالى - أن يرد على سليمان - عليه الصلاة والسلام - سلطانه ألقى الله في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان، فأرسلوا إلى نساء سليمان - عليه الصلاة والسلام - فقالوا لهن: أيكون من سليمان شيء؟

قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن حُيَّض، وما كان يأتينا قبل ذلك!! فلما رأى الشيطان أنه قد فُطن له: ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كُتُباً فيها سحر، ومكر، فدفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أثاروها^(١)، وقرؤوها على الناس، قالوا بهذا كان يظهر سليمان على الناس، ويغلبهم، فأكفر الناس سليمان، فما زالوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطان بالخاتم، فطرحه في البحر فتلقته سمكة، فأخذته، وكان سليمان - عليه الصلاة والسلام - يعمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التي في بطنها الخاتم، فأخذها سليمان فشق بطنها، فإذا الخاتم في جوفها، فأخذه، فلبسه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن، والشياطين، وعاد إلى حاله، وهرب الشيطان حتى لحق بجزيرة من جزر البحر، فأرسل سليمان في طلبه، وكان شيطاناً مريداً يطلبونه، ولا يقدرُونَ عليه، حتى وجدوه يوماً نائماً، فجاءوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص،

(١) أي أخرجوها.

فاستيقظ، فأخذه، وأوثقه، وجاءوا به إلى سليمان، فأمر به فنقب له في رخام، ثم أدخل في جوفه، ثم سدَّ بالنحاس، ثم أمر به، فطرح في البحر، فذلك قوله: ﴿ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً...﴾ يعني الشيطان الذي كان تسلط عليه^(١).

وأنا أرى أن هذه الرواية وأمثالها من أكاذيب بني إسرائيل وأباطيلهم، وإن كان السيوطي^(٢) - رحمه الله - قد ذكر بأنها مروية عن ابن عباس - رضي الله عنهما - بسند قوي، فإن قوة السند لا تنافي كونها مما أخذه ابن عباس وغيره عن كعب الأحبار^(٣)، وأمثاله من مسلمة أهل الكتاب، فثبوتها في نفسها لا ينافي كونها من إسرائيليات بني إسرائيل، وخرافاتهم، وافتراءاتهم على الأنبياء. ولقد نبّه إلى ذلك القاضي عياض^(٤) - رحمه الله - في كتابه «الشفاء...»

(١) «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي (١٧٩/٧ - ١٨٠).

(٢) هو عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضير السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب، له نحو ٦٠٠ مصنف، منها: «الإتقان في علوم القرآن»، و«تاريخ الخلفاء»، و«الألفية في مصطلح الحديث»، وفاته سنة ٩١١هـ. انظر «شذرات الذهب» لابن العماد (٥١/٨).

(٣) هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحاق: تابعي. كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، والراجح في إسلامه أنه كان في خلافة عمر - رضي الله عنه -، وأخذ عنه عمر وعدد من الصحابة كثيراً من أخبار الأمم الغابرة، وقد خرج إلى الشام، فسكن حمص، وتوفي فيها سنة ٣٢هـ. «الإصابة» (٣١٥/٣ - ٣١٧).

(٤) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن اليحصبي السبيعي، أبو الفضل: عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته. كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، ولي قضاء سبتة ثم غرناطة، من مؤلفاته: «مشارك الأنوار» و«الإعلام بحدود قواعد الإسلام»، توفي بمراكش مسموماً سنة ٥٤٤هـ.

«الأعلام» (٩٩/٥)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤٨٣/١).

فقال: «ولا يصح مانقله الإخباريون من تشبه الشيطان به، وتسلبه على ملكه، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه، لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عُصم الأنبياء من مثله»^(١).

وقال الحافظ ابن كثير عند تفسيره للآيات بعد أن ذكر الحديث الآنف الذكر: «إسناده إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - قوي، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس إن صحَّ عنه من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون بنبوة سليمان - عليه الصلاة والسلام - فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في هذا السياق منكرات، من أشدها ذكر النساء فإن المشهور عن مجاهد^(٢)، وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله - عز وجل - تشريفاً وتكريماً لنبيه - عليه السلام - وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف - رضي الله عنهم - كسعيد بن المسيب^(٣)، وزيد بن أسلم^(٤)، وجماعة آخرين، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب،

(١) «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» (٢/٨٣٦).

(٢) هو مجاهد بن جبر المكي، أبو الحجاج المخزومي المقرئ، مولى السائب بن أبي السائب. روى عن علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنهما - وغيرهما، وروى عنه أيوب السخيتاني وعطاء، وهو إمام في التفسير، مات بمكة سنة اثنتين أو ثلاث ومائة. تهذيب التهذيب (٢/٣٧٥).

(٣) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران، أبو محمد القرشي المخزومي، الإمام، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه، عُرف بعزة النفس والصدع بالحق، وتعبير الرؤيا، توفي سنة ٩٤هـ.

انظر «سير أعلام النبلاء» (٤/٢١٧) و «البداية والنهاية» (٩/١٠٥).

(٤) هو الإمام الحجة القدوة، أبو عبد الله العدوي العمرى المدني الفقيه، حدث عن والده أسلم مولى عمر - رضي الله عنهما - كما حدث عن أنس بن مالك وسلمة بن الأكوع، وروى عنه =

والله - سبحانه وتعالى - أعلم بالصواب»^(١).

وقال صاحب البحر المحيط أثناء تعليقه على الروايات الإسرائيلية الواردة في قصة سليمان - عليه الصلاة والسلام -: «ويستحيل عقلاً وجود بعض مذكروه كتمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره عند الناس، ويعتقدوا أن ذلك المتصور هو النبي، ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي، وإنما هذه مقالة مستترقة من زنادقة السوفسطائية»^(٢)، نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها»^(٣).

= مالك بن أنس، وسفيان الثوري والأوزاعي. وكان - رحمه الله - من العلماء العاملين، وفاته سنة ١٣٦هـ.

«تهذيب التهذيب» (٢/٢٣١) و «تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/١٣٢).

(١) تفسير ابن كثير (٤/٣٦).

(٢) السوفسطائية: نزعة تنكر المحسوس والمعقول. وهي عند المنطقيين القياس المركب من

الوهميات، والغرض منه تغليب الخصم وإسكاته، وقيل: هي قياس مظاهره الحق وباطنه

الباطل، ويقصد به خداع الآخرين أو خداع النفس. انظر «الملل والنحل» للشهرستاني

(٢/٣٠٧) وتعليق محققي كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (٢/٢٧٩)

الهامش رقم (١٢)، وانظر كذلك «التعريفات» للجرجاني ص ١٥٨.

(٣) «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (٩/١٥٦).

المبحث الثاني ابتلاء أقوام الأنبياء

المطلب الأول : ابتلاء قوم موسى - عليه الصلاة والسلام - :

قال الله - تعالى - : ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى﴾ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري﴾ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يجل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي﴾ قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكننا خُلفنا أوزاراً من زينة القوم فقدفناها فكذلك ألقى السامري﴾ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى﴾ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾^(١).

يذكر الله - تعالى - في هذه الآيات الكريمة الفتنة التي حلت ببني إسرائيل قوم موسى - عليه الصلاة والسلام - وذلك بعد فراقه لهم حين واعدده الله - تعالى - بعد هلاك فرعون وقومه ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، وذلك ليتلقى موسى - ﷺ - من ربه التوجيه الذي يقيم عليه حياة بني إسرائيل الجديدة، وقد استخلصهم من الذل والاستعباد، ليصوغ منهم أمة ذات رسالة، وذات تكاليف. وكانت تلك الفتنة، وذلك الابتلاء: تعلّقهم بالعجل الذي صنعه السامري^(٢)، ذلك المنافق الخبيث الذي آمن بموسى - ﷺ - ظاهراً، ودخل في

(١) طه : (٨٤ - ٨٩).

(٢) انظر «البحر المحيط» (٣٦٧/٧)، وتفسير الطبري (٤٤٣/٨).

بني إسرائيل على هذه الحال وفي قلبه عبادة البقر^(١).

وكان موقف قوم موسى - عليه الصلاة والسلام - من هذا الابتلاء أنهم انقسموا فريقين، فالمؤمنون المخلصون ثبتوا على إيمانهم، وأما أصحاب الإيثار الضعيف فإنهم سقطوا في الفتنة فعبدوا العجل من دون الله - تعالى - .
نعم، إن هذه الفتنة قد قسمت الناس إلى صادق وكاذب، ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث، فمن صبر على الحق وثبت على الإيمان الصحيح نجا بصره وبقينه، ومن لم يصبر، واستجاب لداعي الشر وكَلَّه الله - تعالى - إلى ما اختار.

* أسباب الفتنة

إن من المفيد في أخذ العبرة والعظة من جهة، والتعرف على طبيعة بني إسرائيل، وخسة صفاتهم من جهة أخرى أن نتعرف على أهم الأسباب لتلك الفتنة، والتي أدت بهم إلى التردى في مهاوي الشرك والردة عقيب إنجاء الله لهم، وإهلاك عدوهم بطريقة خارقة للعادة، وإنعام الله عليهم بنعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، عقيب عبورهم إلى الشاطئ الآخر حيث أنزل عليهم المن والسلوى، رزقاً طيباً شهياً، وطعاماً لذيذاً، ينزله عليهم يومياً من غير عناء ولا تعب، وماتركهم نبههم موسى - عليه الصلاة والسلام - إلا فترة قصيرة تعجل فيها؛ يبتغي مرضاة ربه، ويتسلم التوراة التي فيها هدى ونور في دينهم وديناهم.

كيف يضل هؤلاء القوم فيستجيبون للسامري، ضارين بنصح هارون - عليه السلام - عرض الحائط، بل هموا أن يقتلوه. فمن هنا كان أمر عبادتهم لذلك

(١) راجع «المحرر الوجيز» لابن عطية (٩٥/١١).

العجل جدّ خطير. . ومن المفيد أن نتعرف على أهم الدواعي والأسباب التي انحطت بهم إلى هذا الدرك، لتتعرف على صفات هؤلاء اليهود الذين لا عهد لهم ولا ذمة.

١ - إن أهم الأسباب في ضلال هؤلاء القوم - فيما يبدو لنا - إنما هو رقة إيمانهم، وضعف عقيدتهم، الأمر الذي يدل على عدم إخلاصهم في اتباع نبيهم موسى - عليه الصلاة والسلام - فلو أن هؤلاء القوم كانوا أصحاب إيمان راسخ، وعقيدة في الله صادقة لأدى ذلك بهم إلى حسن متابعتهم لنبيهم، ولما أثر فيهم إضلال السامري.

لقد بين لنا القرآن موقف سحرة فرعون واستخفافهم بتهديده لهم بالتقطيع والتصليب حين قالوا: ﴿لن نؤثرَكَ على ماجاءنا من اليّنات والذي فطّرنا فاقض ما أنت قاضٍ إنّما تقضي هذه الحياء الدنيا﴾ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى* إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى* ومن يأت مؤمنًا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى* جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكّوا ﴿١﴾.

إننا إذا تدبرنا هذه الآيات علمنا أن العقيدة الصادقة كانت من وراء هذا الموقف الإيماني العجيب.

٢ - ومن هذه الأسباب ما أشار إليه صاحب الظلال من أن الاستعباد الطويل، والذل المرير في ظل الفرعونية الوثنية كان قد أفسد طبيعة القوم، وأضعف استعدادهم لاحتمال التكاليف، والصبر عليها، والوفاء بالعهد والثبات عليه، وترك في كيأنهم النفسي خلخلة واستعداداً للانقياد والتقليد المريح. . فما يكاد موسى - ﷺ - يتركهم في رعاية هارون، ويبعد عنهم

(١) طه: (٧٢-٧٦).

قليلاً حتى تتخلخل عقيدتهم كلها، وتنهار أمام أول اختبار^(١).

٣ - ومن تلك الأسباب أيضاً: مرور القوم بعد أن جاوز الله بهم البحر، وأغرق عدوهم، مزورهم على قوم يعفكون على أصنامهم، قال بعض أهل العلم: إن هؤلاء القوم الذين مرّ بهم بنو إسرائيل كانت أصنامهم على هيئة البقر مما مهد السبيل أمام السامري أن يختار إلهه الذي أضلهم به على مثال البقر، وكأن الخبيث علم تأثر القوم بذلك فصنع لهم ماصنع. روى الحافظ ابن جرير^(٢) - رحمه الله - في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم...﴾^(٣). أن الأصنام كانت تماثيل بقر، فلما كان عجل السامري شبه لهم أنه من تلك البقرة، فذلك كان أول شأن العجل^(٤).

على أن إلف القوم للوثنية في مصر وكان من وراء طلبهم من نبيهم موسى - عليه الصلاة والسلام - أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه. وقد أذكي فيهم هذا الشعور بعبادة الأوثان رؤيتهم للقوم الذين يعكفون على أصنام لهم، الأمر الذي كان له أثر لا ينكر في استجابتهم للسامري.

(١) «في ظلال القرآن» (٤/٢٣٤٦).

(٢) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الأملي الطبري أبو جعفر. الإمام، صاحب التصانيف المشهورة. استوطن بغداد، وأقام بها إلى حين وفاته سنة ٣١٠هـ. رحل في طلب الحديث، وسمع بالعراق والشام ومصر من خلق كثير، وحدث بأكثر مصنفاته، له التفسير الكامل الذي لا يوجد له نظير، وكتاب «التاريخ»، و«تهذيب الآثار» وغيرها.

انظر «البداية والنهاية» (١١/١٥٦) و«طبقات المفسرين» للداوودي (٢/١١٠).

(٣) الأعراف: (١٣٨).

(٤) تفسير الطبري (٦/٤٦)، وانظر التحرير والتنوير (١٦/٢٨٧).

٤ - ومن أسباب عبادتهم العجل : جهلهم المطبق ، وانعدام بصيرتهم واتباعهم الهوى ، فإن هؤلاء القوم لو كان عندهم أثارة من علم ، أو شيء من البصر أو البصيرة ما عبدوا عجلاً يرون ألا يرجع إليهم قولاً . ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً : ﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ﴾^(١) . ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾^(٢) .

إن هذه الآيات لتبكت هؤلاء القوم ، وتوبخهم ؛ إذ تركوا عبادة ربهم الواحد الأحد ، الذي يسمع الدعاء ، ويملك الإجابة ، النافع الضار ، السميع البصير ، القابض ، الباسط ، وعبدوا عجلاً ليس له ألبتة من الصفات ما يدعو القوم إلى عبادته ، وصدق الله : ﴿ فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾^(٣) .

* موقف هارون . عليه الصلاة والسلام . من الفتنة

قال الله - تعالى - : ﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴾^(٤) .

إن الآية الكريمة تبين لنا في وضوح وجلاء موقف نبي الله هارون - ﷺ - من أولئك المفتونين . والله - عز وجل - يقسم أن هارون ما وقف من هذه الفتنة موقفاً سلبياً ، وإنما سارع من غير إبطاء ، فأدى واجب النصح والوعظ . وكعادة

(١) طه (٨٩) .

(٢) الأعراف : (١٤٨) .

(٣) الحج : (٤٦) .

(٤) طه : (٩٠) .

أهل الكتاب في إلصاق التهم بالأنبياء نجدهم هنا يتهمون هارون - عليه الصلاة والسلام - بأنه هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل، ودعاهم إلى عبادته^(١)، وليس مثل هذه التهمة الصادرة عن أهل الكتاب بعجيب أو غريب، فقد تطالوا على الله - تعالى - ونسبوا إليه من الأعمال والصفات ما لا يرضى أن يتصف به البشر.

إن الحق الأبلغ في هذه القضية ما ذكره القرآن من أن السامري هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل، فإن موسى - ﷺ - حين سأل السامري قائلاً: ﴿ما خطبك يا سامري﴾^(٢)، أجاب بقوله: ﴿بصرت بهالم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي﴾^(٣) فإن هذا الجواب من السامري ليسجل عليه اعترافه على نفسه بأنه هو الذي صنع العجل، وأن هذا الضلال النفسي، والإضلال للقوم ما هو إلا بتسويل النفس الأمارة بالسوء: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾^(٤)، وقد دعاه ذلك إلى ما اتصف به من النفاق، حيث أظهر الإيمان بموسى - ﷺ - ولكنه يبطن الكفر والكيد له ولدينه، فلقد عزم هذا الضال على إيقاع الفتنة، وواتته الفرصة عند ذهاب موسى - عليه الصلاة والسلام - إلى حيث واعده ربه، فنفذ ما كان عازماً عليه من قبل من تكفير الموحدين محادة لله ورسوله. هذا وإن في الآية دليلاً قاطعاً، ينفي التهمة الموجهة إلى هارون - عليه الصلاة والسلام - ذلك أنه - ﷺ - قد وعظهم ونبههم إلى أن العجل فتنة، فتنهم بها السامري، وأعلمهم بأن ربهم الرحمن، لا مالا

(١) راجع هذه التهمة مفصلةً في كتاب «التوراة السامرية» الإصحاح الثاني والثلاثون، ص

(٢) طه: (٩٥).

(٣) طه: (٩٦).

(٤) يوسف: (٥٣).

يملك لهم نفعاً، فضلاً عن الرحمة، وأمرهم بأن يتبعوا أمره .
أضف إلى ذلك ما جاء في أول الآية من تأكيد الخبر بحرف التحقيق ولام
القسم . .
إن ذلك كله برهان قاطع ، ودليل واضح يبطل ذلك الإفك الكبير،
والافتراء العظيم .

المطلب الثاني ابتلاء قوم صالح - عليه الصلاة والسلام -

قال الله - تعالى - في شأن ثمود قوم نبي الله صالح - ﷺ -: ﴿إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر﴾ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر﴾ فكيف كان عذابي ونذر ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾^(١).

يذكر الله - تعالى - في هذه الآية الكريمة الفتنة والابتلاء الذي ابتلى به قبيلة ثمود حين أرسل - سبحانه - إليهم نبيه صالحاً - عليه الصلاة والسلام - . وهؤلاء القوم قبيلة مشهورة، عرفوا بثمود نسبة إلى جدهم (ثمود) أخي جديس، وهما ابنا عائر بن إرم بن سام بن نوح، وكانوا عرباً من الغاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك، وقد مرَّ به رسول الله - ﷺ - وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين. وكانوا بعد قوم عاد، يعبدون الأصنام كأولئك^(٢).

ويبحث الله - تعالى - فيهم رجلاً منهم هو عبد الله ورسوله صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عائر بن إرم بن سام بن نوح^(٣).

وقد دعاهم صالح - عليه الصلاة والسلام - إلى عبادة الله وحده لا شريك

(١) القمر: (٢٧ - ٣١).

(٢) البداية والنهاية (١/١٢٣).

(٣) البداية والنهاية (١/١٢٣) و«فتح الباري» لابن حجر (٦/٣٧٩).

له، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد، ولا يشركوا به شيئاً. فأمّنت به طائفة منهم، وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال، وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها الله - تعالى - فتنة لهم واختباراً (كما سيأتي) فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

الناقة :

يذكر عدد من المفسرين أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديمهم، فجاءهم رسول الله صالح - ﷺ - فدعاهم إلى الله - تعالى -، وذكّرهم، وحذرهم، ووعظهم، وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة من صفتها كيت وكيت. . . وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها، وتعنّتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا، فقال لهم صالح - عليه الصلاة والسلام - : أرايتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بما جئكم به وتصدقونني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم. فأخذ عهدهم وموآثيقهم على ذلك.

ثم قام إلى مصلاه، فصلّى لله - عزّ وجل - ما قدر له، ثم دعا ربه - عزّ وجل - أن يجيبهم إلى ما طلبوا. فأمر الله - عزّ وجل - تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا^(١). فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً، وبرهاناً ساطعاً، فأمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم. وكان رئيس الذين آمنوا جندع بن عمرو بن محلاة بن ليبد بن جواس، وكان من رؤسائهم، وهم بقية الأشراف بالإسلام، فصدهم ذؤاب بن عمرو بن ليبد، والحباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صعر

(١) تفسير الطبري (٥/٥٣٤) والبداية والنهاية (١/١٢٦).

بن جلمس . ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة ، وكان من أشرفهم ، فهم بالإسلام ، فنهاه أولئك ، فمال إليهم فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له مهرش بن غنمة بن الدميل - رحمه الله - :

وكانت عصابة من آل عمرو إلى دين النبي دعوا شهابا عزيز ثمود كلهم جميعاً فهم بأن يجيب ولو أجابا لأصبح صالح فينا عزيزاً وما عدلوا بصاحبهم ذواباً ولكن الغواة من آل حجر تولوا بعد رشدهم ذباباً^(١)

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التفسير أن امرأتين من ثمود، اسم إحداهما «صدوف» ابنة المحيا بن زهير بن المختار، وكانت ذات حسب ومال، وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته، فدعت ابن عم لها يقال له «مصرع» بن المحيا، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة. واسم الأخرى «عنيزة» بنت غنيم بن مجلز، وتكنى أم غنمة، وكانت عجوزاً كافرة، لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو، فعرضت نفسها على الرجل الذي يقال له قدار بن سالف، إن هو عقر الناقة، فله أي بناتها شاء، فانتدب هذان الشابان لعقرها، وسعوا في قومهم بذلك، فاستجاب لهم سبعة آخرون، فصاروا تسعة. وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾^(٢)، وسعوا في بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها، فأجابوهم إلى ذلك، وطأعوهم في ذلك.

فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من وردها كمن لها «مصرع» فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها، وجاء النساء يذمرن^(٣) القبيلة في قتلها، وحسرن

(١) المرجعان السابقان.

(٢) النمل: (٤٨).

(٣) من الذمر وهو اللوم والحض معاً. لسان العرب (٤/٣١١) مادة (ذَمَر).

عن وجوههن ترغيباً لهم في ذلك، فأسرعهن قداربن سالف، فشد عليها بالسيف، فكشف عن عرقوبها^(١)، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغبة واحدة عظيمة، تحذر ولدها، ثم طعن في لبّتها^(٢)، فنحرها، وانطلق سقبها - وهو فصيلها - فصعد جبلاً منيعاً، ولاذ به^(٣). ورؤي أن ثمود لما عقروا الناقة تغامزوا، وقالوا: عليكم الفصيل الفارة جبلاً، حتى إذا كان يوماً استقبل القبلة، وقال: ياربّ أمي، ياربّ أمي، ياربّ أمي^(٤)..

وذكر عدد من المفسرين أن القوم لما عقروا الناقة كان أول من سطا قداربن سالف، فعرقبها^(٥)، فسقطت على الأرض، ثم ابتدروها بأسيا فهم يقطعونها، فلما عاين ذلك سقبها - وهو ولدها - شرد عنهم، فعلا أعلى الجبل هناك، ورغا ثلاث مرات، فلهذا قال صالح: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾^(٦)، فلم يصدقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد. بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا - فيما يزعمون - أن يلحقوه بالناقة: ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيته وأهله﴾^(٧) والمراد: لنكسبه في داره مع أهله، فلنقتلنه، ثم نجحدن قتله،

(١) العرقوب: الوتر الذي خلف الكعبين من مفصل القدم. «لسان العرب» (١/٥٩٤) مادة (عَرَقَبَ).

(٢) أي منحرها، «مختار الصحاح» للرازي ص ٥٨٩ مادة (لَبَّ).

(٣) تفسير الطبري (٥/٥٣٤)، والبداية والنهاية (١/١٢٧)، وفتح الباري (٦/٣٧٩).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره عن قتادة، راجع «الدر المنثور» للسيوطي (٣/١٨٤).

(٥) أي احتال عليها، قال ابن منظور: «قال أبو عمرو: إذا أعياك غريمك فَعَرَقَبَ أي احتل، ومنه قول الشاعر:

ولا يعييك عرقوب لوأي. إذا لم يعطك النصف الخصيم

«لسان العرب» (١/٥٩٥) مادة (عَرَقَبَ).

(٦) هود: (٦٥).

(٧) النمل: (٤٩).

ولنتكروا إن طالبنا أولياؤه بدمه، ولهذا قالوا: ﴿ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون﴾^{(١) (٢)}.

عاقبة المكذبين المفتونين بالناقّة

إن ثمود حين صدر منهم ما صدر من العناد والتكذيب أرسل الله - تعالى - عليهم العذاب^(٣)، فأهلكهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، وكانوا كما قال الله - سبحانه - ﴿كهشيم المحتظر﴾^{(٤) (٥)}.

وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوههم مصفرة، كما أنذرهم صالح - عليه الصلاة والسلام - . فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يوم من الأجل، ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام

(١) النمل: (٤٩).

(٢) «البداية والنهاية» (١/١٢٨).

(٣) هذا العذاب هو ما عبر عنه القرآن تارة بالصيحة، وتارة بالصاعقة، وقد قيل في الجمع بينهما: إن لنزول الصاعقة صيحة شديدة القوة والطغيان، ترجف من وقعها الأفئدة، وتضطرب أعصاب الأبدان، وربما اضطربت الأرض، وتصدع ما فيها من بنيان. راجع تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٨/٥٠٦ - ٥٠٧).

(٤) القمر: (٣١).

(٥) في معناها عدة أوجه:

١ - العظام المحترقة، قال الطبري: «وكانهم وجهوا معناه إلى أنه مثل هؤلاء القوم بعد هلاكهم وبلائهم بالشيء الذي أحرقه محرق في حظيرته».

٢ - التراب الذي يتناثر من الحائط. قال ابن كثير: «هذا قول غريب».

٣ - حظيرة الراعي للغنم.

٤ - هشيم الخيمة، وهو ما تكسر من خشبها. راجع تفسير الطبري (١١/٥٦١ - ٥٦٢) وتفسير ابن كثير (٤/٢٦٥).

التأجيل، وهو يوم الجمعة، ووجوههم محمرة، فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يومان من الأجل، ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع، وهو يوم السبت، ووجوههم مسودة، فلما أمسوا نادوا: ألا وقد مضى الأجل.

فلما كانت صبيحة يوم الأحد تحنطوا، وتأهبوا، وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة، لا يدرون كيف يفعل بهم، ولا من أي جهة يأتيهم العذاب. فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة من أسفل منهم ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق، فأصبحوا في دارهم جاثمين، جثاً لا أرواح فيها، ولا حراك بها، قالوا: ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة، واسمها «كلبة» بنت السلق - ويقال لها: الذريعة - وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح - عليه الصلاة والسلام -، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأنت حياً من العرب، فأخبرتهم بما رأت، ومأحل بقومها، واستسقتهم ماءً، فلما شربت ماتت^(١).

وهكذا استحق القوم العذاب، وكان ذلك من ثلاثة أوجه:

الأول: الشرط عليهم في قوله - سبحانه -: ﴿وَلَا تَسْوَاهَا بَسْوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾^(٢)، وفي آية: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(٣) وفي الأخرى: ﴿أَلِيمٍ﴾^(٤) والكل حق.

الثاني: استعجالهم على ذلك: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ

المرسلين﴾^(٥).

(١) البداية والنهاية (١/١٢٩)، وتفسير الطبري (٥/٥٣٤).

(٢) هود: (٦٤).

(٣) الشعراء: (١٥٦).

(٤) الأعراف: (٧٣).

(٥) الأعراف: (٧٧).

الثالث: أنهم كذبوا الرسول الذي قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علماً جازماً، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على عدم الاستجابة، فكان ماكان^(١).

وقد ورد في القرآن العظيم آيات عديدة تبين عقر القوم للناقة، وعصيانهم لنبي الله صالح - عليه الصلاة والسلام -، وتصرّح بالعذاب المهين الذي حل بالقوم، ليكونوا عبرة للعالمين جميعاً.

وأنا الآن أذكر الآيات حسب ترتيبها في المصحف:

١ - ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون* قال الذين استكبروا إنا بالذي آمتم به كافرون* فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اثنتا بما تعدنا إن كنت من المرسلين* فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين* فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾^(٢).

٢ - ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب* فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب* فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز* وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين* كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود﴾^(٣).

٣ - ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين* وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها

(١) البداية والنهاية (١/١٢٨).

(٢) الأعراف: (٧٥ - ٧٩).

(٣) هود: (٦٤ - ٦٨).

معرضين* وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين* فأخذتهم الصيحة مصبحين* فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون﴿^(١)﴾.

٤ - ﴿ومامنعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾^(٢).

٥ - ﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم* ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم* فعقروها فأصبحوا نادمين* فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين* وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾^(٣).

٦ - ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون* فانظر كيف كان عاقبة مكروهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين* فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون* وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾^(٤).

٧ - ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون* ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾^(٥).

٨ - ﴿كذبت ثمود بطغواها* إذ انبعث أشقاها* فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها* فكذبوه فعقروها* فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها* ولا يخاف عقباها﴾^(٦).

(١) الحجر: (٨٠ - ٨٤).

(٢) الإسراء: (٥٩).

(٣) الشعراء: (١٥٥ - ١٥٩).

(٤) النمل: (٥٠ - ٥٣).

(٥) فصلت: (١٧ - ١٨).

(٦) الشمس: (١١ - ١٥).

وقد ورد في السنة أحاديث، ذكر فيها رسول الله - ﷺ - قصة ثمود، وفيها مواعظ وعبر، منها مارواه عبدالله بن زمعة^(١) - رضي الله عنه - قال: خطب رسول الله - ﷺ - فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها فقال: «إذ انبعث أشقاها: انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه^(٢) مثل أبي زمعة»^(٣) (٤). وعن جابر^(٥) - رضي الله عنه - قال: لما مر رسول الله - ﷺ - بالحجر قال:

(١) هو عبدالله بن زمعة بن الأسود بن عبدالمطلب بن أسد بن عبدالعزى القرشي الأسدي، ابن أخت أم سلمة زوج النبي - ﷺ - يقال إنه قتل يوم الدار سنة ٣٥هـ، وقيل يوم الحرة، وكان له في الهجرة خمس سنين. وقُتل أبوه مع أخيه عقيل بن الأسود يوم بدر كافرين. انظر الإصابة (٣١١/٢) ومعه «الاستيعاب في أسماء الأصحاب» لابن عبد البرص ٣٠٨. وفتح الباري (٧٠٦/٨).

(٢) عارم: أي صعب على من يرومه، كثير الشهامة والشر. عزيز: قليل المثل. منيع: أي قوي ذو منعة. فتح الباري (٧٠٥/٨). ورهط الرجل قومه وقبيلته. راجع مختار الصحاح ص ٢٥٩ مادة (رَهْط).

(٣) قوله: مثل أبي زمعة قال ابن حجر: «قال القرطبي في المفهم: يحتمل أن يكون المراد بأبي زمعة الصحابي الذي بايع تحت الشجرة، ووجه تشبيهه به أنه كان في عزة ومنعة في قومه كما كان ذلك الكافر. قال: ويحتمل أن يريد غيره ممن يكنى أبا زمعة من الكفار. قال ابن حجر: وهذا الثاني هو المعتمد، والغير المذكور هو الأسود، وهو جد عبدالله بن زمعة راوي هذا الخبر» ١هـ. فتح الباري (٧٠٦/٨).

(٤) الحديث أخرجه أحمد في المسند (١٧/٤)، والبخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ (٣٧٨/٦) مع الفتح برقم (٣٣٧٧)، كما أخرجه في كتاب التفسير، الباب رقم ٩١، تفسير سورة الشمس وضحاها (٨٠٤/٨) برقم (٤٩٤٢)، وأخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء (٢١٩١/٤) برقم (٢٨٥٥)، وأخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب ومن سورة الشمس وضحاها (٤٤٠/٥) برقم (٣٣٤٣) كلهم من حديث عبدالله بن زمعة - رضي الله عنه -.

(٥) هو جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري السلمي. أخذ الكثيرين من رواية =

«لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفجج^(١)، وتصدر من هذا الفجج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً، ويشربون لبنها يوماً، فعقروها فأخذتهم صيحة، أهدم الله بها من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله» قالوا: من هو يارسول الله؟ قال: «هو أبورغال،^(٢) فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»^(٣). وعن إسماعيل بن أمية^(٤) أن النبي - ﷺ - مر بقبر أبي رغال، فقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «هذا قبر أبي رغال، رجل

= الحديث: غزا مع النبي - ﷺ - تسع عشرة غزوة. قال: ولم أشهد بديراً ولا أحداً من معني أبي فلما قتل - يعني في أحد - لم أتخلف. مات سنة ٧٤هـ وقيل غير ذلك. راجع الإصابة (٢١٣/١).

(١) الفَجَج: بالفتح هو الطريق الواسع بين جبلين، والجمع فجاج. «مختار الصحاح» ص ٤٩١ مادة (فَجَج).

(٢) قال ابن كثير في البداية والنهاية (١٥٩/٢) عند ذكره قصة أبرهة الحبشي الذي أراد هدم الكعبة، قال: إنه خرج معه رجل يقال له: أبو رغال، وأن أبرهة أنزله بمكان يقال له: المغمس، فلما أنزله به مات أبورغال هنالك، فرجعت قبره العرب. قال: «الجمع بينهما ذكره ابن إسحاق أن أبا رغال هذا صاحب أبرهة وافق اسمه اسم جده الأعلى، ورجحه الناس كما رجحوا الأول، وقد قال جرير:

إذ مات الفرزدق فارجموه كرجمكم لقبر أبي رغال» أ. هـ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٩٦/٣)، والحاكم في المستدرک (٣٧١/٢) برقم (٣٣٠٤)، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وحسنه ابن حجر في الفتح (٣٨١/٦).

(٤) هو إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي. روى عن ابن المسيب ونافع مولى ابن عمر، وغيرهما. وروى عنه معمر، والثوري وغيرهما. وثقه ابن معين والنسائي وأبو زرعة وأبو حاتم. كان - رحمه الله - حافظاً للعلم مع ورع وصدق. وفاته سنة ١٤٤هـ، وقيل سنة ١٣٩هـ محبوساً.

انظر تهذيب التهذيب (١٨١/١)، والكاشف للذهبي (٧٠/١).

من ثمود، كان في حرم الله، فمنعه حرم الله عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه، فدفن ههنا، ودفن معه غصن من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيا فهم، فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن»^(١). قال ابن كثير: «هذا مرسل من هذا الوجه. وقد جاء من وجه آخر متصلاً عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبي بجير»^(٢)، قال: سمعت عبدالله بن عمرو^(٣) يقول: سمعت رسول الله - ﷺ - حين خرجنا معه إلى الطائف، فمررنا بقبر، فقال: «إن هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دُفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه» فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن»^(٤).

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤٥٤/١١) برقم (٢٠٩٨٩).

(٢) هو بجير بن أبي بجير الحجازي. روى عن عبدالله بن عمرو بن العاص. وروى عنه إسماعيل بن أمية. كما روى عنه أبوداود هذا الحديث فقط في قصة أبي رغال. ذكره ابن حبان في الثقات، وجهله ابن القطان.

راجع التهذيب (٢٦٤/١) وميزان الاعتدال للذهبي (٢٩٧/١).

(٣) هو عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل القرشي السهمي، كان يكتب في الجاهلية، ويحسن السريانية. أسلم قبل أبيه، فاستأذن رسول الله - ﷺ - في أن يكتب ما يسمع منه فأذن له. وكان كثير العبادة، يشهد الجروب والغزوات ويضرب بسيفين. وحمل راية أبيه يوم اليرموك. توفي بالشام وقيل بمكة سنة ٦٥ هـ وقيل غير ذلك.

انظر الإصابة (٣٥١/٢) والأعلام (١١١/٤).

(٤) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب الخراج والإمارة والفقه، باب نبش القبور العادية يكون فيها المال (١٨١/٣) برقم (٣٠٨٨). قال ابن كثير في البداية والنهاية (١٢٩/١ - ١٣٠): «قال شيخنا أبو الحجاج المزي - رحمه الله - : هذا حديث حسن عزيز. قلت: تفرد به بجير بن أبي بجير هذا، ولا يعرف إلا بهذا الحديث، ولم يرو عنه سوى إسماعيل بن أمية. قال شيخنا: =

* مرور النبي - ﷺ - بوادي الحجر

عن عبدالله بن عمر^(١) - رضي الله عنها - قال : لما نزل رسول الله - ﷺ - بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله - ﷺ - فأهرقوا القدور، وعلفوا العجيين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال : «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم»^(٢). وعنه - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - وهو بالحجر : «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(٣).

= فيحتمل أنه وهم في رفعه، وإنما يكون من كلام عبدالله بن عمرو من زاملتيه [ما يحمل عليه من الإبل وغيرها] والله أعلم. وأضاف ابن كثير قوله : قلت : لكن في المرسل الذي قبله، وفي حديث جابر أيضاً شاهد له، أ. هـ.

(١) هو عبدالله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي. أسلم مع أبيه وعُرض على النبي - ﷺ - يوم بدر وأحد فاستصغره ورده، ويوم الخندق فأجازه وهو ابن خمس عشر سنة. أفتى الناس في الإسلام ستين سنة. له في كتب الحديث ٢٦٣٠ حديثاً. ووفاته سنة ٧٣ هـ وقيل غير ذلك. راجع الإصابة (٣٤٧/٢) والأعلام (١٠٨/٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله - تعالى - : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ (٣٧٨/٦) برقم (٣٣٧٨) ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين (٢٢٨٦/٤) برقم (٢٩٨١) وأحمد (١١٧/٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله - تعالى - : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ (٣٧٨/٦) برقم (٣٣٨١)، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب : لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، (٢٢٨٥/٤) برقم (٢٩٨٠). وأحمد (٥٨، ٩/٢).

إن الناظر في قصة ثمود هذه ليأخذ منها عظاتٍ وعبراً، كيف لا وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، لما كانوا يدبرون ويمكرون، ويحسبون أنهم قادرون على تحقيق مايمكرون!!

إنها المباغطة الحاسمة القاضية . مباغطة القدرة التي لا تغلب للمخدوعين بقوتهم ، ومباغطة التدبير الذي لا يخيب للماكرين المستعزين بمكرهم . نعم لقد مكروا ودبروا ، فكان الله - تعالى - لهم بالمرصاد ، يراهم ولا يرونه ، ويعلم تدبيرهم ، ويطلع على مكرهم وهم لا يشعرون : ﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعلمون﴾ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾^(١) .

(١) النمل : (٥١ - ٥٣) .

المطلب الثالث ابتلاء كفار قريش

أنَّ من أشدِّ الأقوامِ عناداً واستكباراً في مواجهة الأنبياء والمرسلين كفار قريش ، الذين أمر النبي - ﷺ - بتبليغهم ما أرسله الله - تعالى - به من الدين الحق . ولقد ذكر لنا ربُّنا - تعالى - في القرآن أنه قد ابتلاهم بأربعة أمور ، وهي :

١ - ابتلاؤهم بالإسراء .

٢ - ابتلاؤهم بشجرة الزقوم .

٣ - ابتلاؤهم بخزنة جهنم .

٤ - ابتلاؤهم بإمهال العذاب .

وهذه الأمور الأربعة بمثابة الإنذار المبكر لهم ، لعلهم ينيبون ويرجعون . ولكن ذلك - للأسف - لم يزدهم إلا عتواً واستكباراً . وأتناول هذه الأمور الأربعة بالبيان والتفصيل ، وأبدأ بالأول وهو :

١ - ابتلاؤهم بالإسراء :

قال الله - تعالى - : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس . . ﴾^(١) .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في هذه الآية قال : (هي رؤيا عين أريها النبي - ﷺ - ليلة أسري به إلى بيت المقدس)^(٢) .

(١) الإسراء : (٦٠) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾

(٣٩٨/٨) برقم (٤٧١٦) . وأخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، باب ومن سورة بني

إسرائيل (٣٠٢/٥) برقم (٣١٣٤) والحاكم في مستدركه (٣٩٤/٢) برقم (٣٣٨٠) وقال : =

ويوضح الحافظ ابن جرير الطبري - رحمه الله - هذه الرؤيا والفتنة بها من قبل كفار قريش، فيروي أنه حين أسري بالرسول - ﷺ - إلى بيت المقدس افتنن فيها أناس، فقالوا: يذهب إلى بيت المقدس، ويرجع في ليلة! ما كان محمد لينتهي حتى يأتي بكذبة تخرج من أقطارها، فأتوا أبابكر - رضي الله عنه - فقالوا: هذا صاحبك يقول: كذا وكذا، فقال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم، فقال: إن كان قد قال ذلك فقد صدق، فقالوا: تصدقه إن قال: ذهب إلى بيت المقدس ورجع في ليلة؟ فقال أبوبكر: إي نزع الله عقولكم، أصدقه بخبر السماء، والسماء أبعد من بيت المقدس، ولا أصدقه بخبر بيت المقدس؟ قالوا للنبي - ﷺ -: إنا قد جئنا بيت المقدس، فصِفْهُ لنا، فلما قالوا ذلك - رفعه الله - تبارك وتعالى - ومثله بين عينيه، فجعل يقول: هو كذا، وفيه كذا، فقال بعضهم: وأبيكم إن أخطأ منه حرفاً! فقالوا: هذا رجل ساحر^(١).
 إن الله - تعالى - قد بين في الآية الكريمة أنه ما جعل تلك الرؤيا لرسول الله - ﷺ - إلا فتنة وامتحاناً للكفار المعاندين في مكة:

هل يؤمنون أو يكفرون؟!

هل يتوبون أو يعرضون؟!

= هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

والحديث مخرج عند الجميع من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - . وهذا وإن هنالك تفسيرات أخر للرؤيا، لكنها ضعيفة، ومنها القول بأنها كانت رؤيا نوم، ولا شك أن الآية التي معنا تقضي بفساده؛ ذلك لأن رؤيا المنام لا فتنة فيها، وما كان أحد لينكرها. وقول آخر يرى بأنها رؤيا رسول الله - ﷺ - أنه يدخل مكة في سنة الحديبية، فرد، فافتن المسلمون لذلك، فنزلت الآية. . وهذا القول أيضاً غير مستقيم؛ لأن السورة مكية، وتلك الرؤيا كانت بالمدينة.

راجع في الرد على هذين القولين تفسير القرطبي (٢٨٣/١٠).

(١) تفسير الطبري (١٠٢/٨).

هل يستغفرون أو يستكبرون؟!
وهل يبقى المؤمنون على إيمانهم أم يفتن ضعاف الإيمان فيذهبوا، ولا يبقى
إلا من يصلح للذود عن الإسلام من المخلصين المؤمنين حقاً؟
ولكن المصيبة:

إنهم لم يزدادوا بسماحهم ذلك من رسول الله - ﷺ - إلا تمادياً في غيهم،
وكفراً إلى كفرهم!!

نعم لقد أخبرهم - عليه الصلاة والسلام - بوعد الله له، وبما أطلعه عليه
في رؤياه الكاشفة الصادقة. فكذبوا وتمردوا!

فماذا كانت الخوارق صانعة مع القوم لو كانت هي آية رسالته كما كانت
علامة الرسالات قبله، ومعجزة المرسلين؟ ومازادتهم خارقة الإسرائ إلا طغياناً
كبيراً.

إن الله - تعالى - لم يقدر إهلاكهم بعذاب من عنده، ومن ثم لم يرسل
إليهم بخارقة. ومن حكمة الله أن يهلك المكذبين بالخوارق. أما قریش فقد
أمهلت، ولم تؤخذ بالإبادة كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ولقد كان لهذا
الإمهال حكمة ظهرت بعد ذلك، فقد كان من المكذبين من آمن بعد ذلك،
وصار من جند الإسلام الصادقين، وأنجب المؤمنين الصالحين^(١).

ولعل مما يشهد لذلك ما ثبت في الصحيحين عن نبينا - ﷺ - أنه لما واجه
من أهل الطائف ماواجه من الأذى والاستهزاء جاءه جبريل - عليه السلام -
فناداه فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وماردوا عليك، وقد بعث الله
إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال - ﷺ -: «فناداني ملك الجبال

(١) انظر «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٢٣٨).

فسلم عليّ ثم قال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين^(١) .
فقال النبي - ﷺ - بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا
يشرك به شيئاً^(٢) .

٢ - ابتلاؤهم بشجرة الزقوم^(٣) :

قال الله - تعالى - : ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة

(١) الأخشبان : جبلا مكة : أبوقيس ، والذي يقابله ، قال ابن حجر : «وكانه قُعَيْقَعَان ..
وأضاف : وقال الصَّغَانِي : بل هو الجبل الأحمر الذي يشرف على قعيقعان» اهـ . فتح الباري
(٣١٦/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم : آمين والملائكة في السماء
فوافقت إحداهما الأخرى عُفِّر له ماتقدم من ذنبه (٣١١/٦) برقم (٣٢٣١) ، وأخرجه
مسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب مالقي النبي - ﷺ - من أذى المشركين والمنافقين
(١٤١٨/٣) برقم (١٧٩٤) كلاهما من حديث أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - .

(٣) شجرة الزقوم مشتقة من التزقم وهو البلع على جهد لكراتها وثنتها ، تحيا بلب النار كما تحيا
الشجرة ببرد الماء . وهل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا ؟ قولان للمفسرين .
والذين قالوا بالأول اختلفوا ، فقال أبوحنيفة الدينوري في كتاب النبات : الزقوم شجرة
غبراء ، تنبت في السهل ، صغيرة الورق ، مدورته لا شوك فيها . لها زفرة ، مرة ، ولها نور
أبيض ضعيف ، تجرسه النحل ، ورؤوسها قباح جداً . وقال قطرب : إنها شجرة مرة تكون
بتهامة ، من أحبب الشجر . وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل .

والذي يترجح لدي القول الثاني الذي يرى بأنها لا تعرف في شجر الدنيا ، ويدل عليه ما بيّنته
ههنا في المتن من كلام أبي جهل ، ورد القرآن عليه بقوله سبحانه : ﴿إنما تخرج في أصل
الجحيم﴾ فإن الله - تعالى - خلقها من النار ، وعذب بها من شاء من عباده .

راجع في التعريف بشجرة الزقوم تفسير القرطبي (٥٨/١٥) وتفسير زاد المسير لابن الجوزي
(٣٠٨/٦) ، وفتح الباري (٣٩٩/٨) .

المعلونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً^(١).
 وقال: ﴿أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم﴾ إنا جعلناها فتنه للظالمين* إنها
 شجرة تخرج في أصل الجحيم* طلعتها كأنه رؤوس الشياطين^(٢).
 عن التابعي الجليل قتادة بن دعامة السدوسي - رحمه الله - في قوله تعالى:
 ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ قال: خوفاً الله - تعالى - بها عباده - يعني كفار
 قريش - فافتتنوا بذلك حتى قال قائلهم أبوجهل بن هشام: زعم صاحبكم
 هذا أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، وإنا والله مانعلم الزقوم إلا التمر
 والزبد، فتزقموا! فأنزل الله - تعالى -: ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم*
 طلعتها كأنه رؤوس الشياطين﴾ (إني خلقتها من النار، وعذبت بها من شئت من
 عبادي)^(٣).

لقد ضل الكفار المعاندون من قريش ضلالاً بعيداً، حيث كابروا قضية
 عقولهم، وكانوا يرون ما يشبه ذلك. كانوا يرون النعمة تبتلع الحجر، وقطع
 الحديد المحماة فلا تضرها، ويشاهدون المناديل المتخذة من وبر السمندر^(٤)

(١) الإسراء: (٦٠).

(٢) الصافات: (٦٢ - ٦٥).

(٣) تفسير القرطبي (١٠/١٨٤)، وانظر تفسير الطبري (١٠/٤٩٤). قال القرطبي: «قيل هذا
 الاستبعاد الذي وقع للكفار هو الذي وقع الآن للملحدة، حتى حملوا الجنة والنار على
 نعيم، أو عقاب تتخلله الأرواح، وحملوا وزن الأعمال والصراط واللوح والقلم على معانٍ
 زورواها في أنفسهم، دون مافهمه المسلمون من موارد الشرع، وإذا ورد خبر الصادق بشيء
 موهوم في العقل، فالواجب تصديقه، وإن جاز أن يكون له تأويل، ثم التأويل في موضع
 إجماع المسلمين على أنه تأويل باطل لا يجوز، والمسلمون مجمعون على الأخذ بهذه الأشياء
 من غير مصير إلى علم الباطن» ١. هـ. تفسير القرطبي (١٥/٥٨).

(٤) في القاموس المحيط ص ٥٢٦: «السَمْنَدَرُ والسَّمِيدَر: دابة».

تُلقي في النار فلا تؤثر فيها، ويرون أن في كل شجرة ناراً^(١).
نعم لقد كان هذا القول منهم جهلاً، إذ لا يستحيل في العقل أبداً أن
يخلق الله - تعالى - شجراً من جنسها، لا تأكله النار، كما يخلق الله الأغلال،
والقيود، والحيات، والعقارب، وخزنة النار^(٢) وهكذا نجد أن إخبار كفار مكة
المعاندين بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم - وهو من الخوارق - قد أوجب
لهم التكذيب. فكيف بهم لو شاهدوا الآيات العظيمة، والخوارق الجسيمة،
كما قد طالبوا هم أنفسهم بأشياء من ذلك، ومن ذلك ما صرحوا به في قوله
- تعالى -: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً* أو تكون
لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً* أو تسقط السماء كما
زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً* أو يكون لك بيت من
زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل
سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾^(٣).

لقد قَصُر إدراك القوم عن التطلع إلى آفاق الإعجاز القرآنية، فراحوا
يطلبون تلك الخوارق المادية، ويتعنتون في اقتراحاتهم الدالة على الطفولة
العقلية، ويتبجحون في حق الإله الكبير، بلا أدب ولا تحرج..
إن القوم لم يريدوا بمطالبهم تلك الإيثار بالله ورسوله، ولو كانوا يريدون
ذلك حقاً فلماذا يغفلون عن الخارقة الباقية، في القرآن العظيم، وهم يعجزون
عن الإتيان بمثله في نظمه ومعناه ومنهجه، ولكنهم لا يلمسون هذا الإعجاز
بحواسهم، فيطلبون ما تدركه الحواس تعنتاً واستكباراً.

(١) تفسير أبي السعود (٥/١٨٢)، وانظر البحر المحيط (٧/٧٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/٥٨).

(٣) الإسراء: (٩٠-٩٣).

إن القوم فتنوا وامتحنوا بشجرة الزقوم، فأوجب ذلك لهم التكذيب، ولو أنهم شاهدوا مثل هذه الخوارق التي جاءت في آية الإسراء السابقة لازداد بسببه شرهم، وتفاقم طغيانهم، ولهذا فقد رحمهم الله - عز وجل - فصرفها عنهم^(١).

تنبيه :

ذكر في بعض التفاسير أنه روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه فسر الشجرة الملعونة في القرآن بأنها بنو أمية^(٢).

ولاشك أن المتأمل في هذا لا يخفاه سخافة القول، وضعفه، واستحالة أن يقول به حبر الأمة وترجمان القرآن، فضلاً عما هو دونه. وحول هذا القول يتحدث إلينا الإمام القرطبي، فيقول: «وهذا قول ضعيف محدث، والسورة مكية، فيبعد هذا التأويل إلا أن تكون هذه الآية مدنية، ولم يثبت ذلك»^(٣).

وقال صاحب تفسير التحرير والتنوير: «ويوجد في بعض التفاسير أن ابن العباس قال في الشجرة الملعونة: بنو أمية. وهذا من الأخبار المختلفة على ابن عباس، ولا إخالها إلا مما وضعه الوضاعون في زمن الدعوة العباسية لإكثار

(١) انظر تفسير الشيخ السعدي (٢٩٤/٤) وأضاف الشيخ هنا فائدة جلييلة، فقال: «ومن هنا نعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة بذكر الأمور التي حدثت في الأزمنة المتأخرة أولى وأحسن؛ لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيراً، ربما لا تقبلها عقولهم، فيكون ذلك ريباً في قلوب بعض المؤمنين، ومانعاً يمنع من لم يدخل في الإسلام، ومنفراً عنه. بل ذكر الله - تعالى - ألفاظاً عامة تتناول جميع ما يكون، والله أعلم».

(٢) ويذكر بعض المفسرين هنا أن النبي - ﷺ - نفى الحكم بن أبي العاص إلى الطائف لكونه حكاه في مشيته. وهو عم عثمان بن عفان، ووالد مروان بن الحكم، وقد بين عدد من العلماء أن الأحاديث الواردة في سب الحكم هذا لم تصح. راجع في هذا كله تفسير القرطبي (١٨٥/١٠)، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٠٨/٢) وفتح الباري (١١/١٣) والإصابة (٣٤٦/١).

(٣) تفسير القرطبي (١٨٥/١٠).

المنفرات من بني أمية . . ومثل هذا الاختلاق خروج عن وصايا القرآن في قوله :
﴿ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ (١) (٢) ١ هـ .

* وقفات لابد منها

- ١ - قوله تعالى : **﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾** (٣) قال الرازي (٤) : «إن قيل : ليس في القرآن لعن هذه الشجرة . قلنا : فيه وجوه :
 الأول : المراد لعن الكفار الذين يأكلونها .
 الثاني : العرب تقول لكل طعام مكروه ضار : إنه ملعون .
 الثالث : أن اللعن في أصل اللغة هو التبعيد ، فلما كانت هذه الشجرة الملعونة في القرآن مبعدة عن جميع صفات الخير سميت ملعونة» (٥) .
- ٢ - قوله تعالى : **﴿أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم﴾** (٦) قال الرازي : «معلوم

(١) الحجرات : (١١) .

(٢) تفسير التحرير والتنوير (١٤٨/١٥) .

(٣) الإسراء . (٦٠) .

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسين التيمي البكري ، الإمام المفسر ، قرشي النسب ، أصله من طبرستان ، ومولده في الري ، وإليها نسبته . وكان يحسن الفارسية ، له شعر بالعربية والفارسية ، وكان واعظاً بارعاً باللغتين . وفاته في هراة سنة ٦٠٦ هـ .
 ومن آثاره المطبوعة : تفسيره «مفاتيح الغيب» ، و«أساس التقديس» و«نهاية الإيجاز في ذراية الإعجاز» ، و«مناقب الإمام الشافعي» . انظر «طبقات المفسرين» للدواودي (٢١٥/٢) والأعلام (٣١٣/٦) .

(٥) تفسير الرازي (٢٣٨/٢٠) .

(٦) الصافات : (٦٢) . والإشارة في (ذلك) إلى نعيم أهل الجنة المفهوم من قوله سبحانه : **﴿إن هذا هو الفوز العظيم﴾** الصافات : (٦٠) .

أنه لا نسبة لأحدهما على الآخر في الخيرية، إلا أنه جاء هذا الكلام إما على سبيل السخرية بهم، أو لأجل أن المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم إلى الرزق الكريم، والكافرين اختاروا ما أوصلهم إلى العذاب الأليم، فقل لهم ذلك توبيخاً لهم على سوء اختيارهم»^(١) . ا. هـ.

٣ - قوله تعالى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ﴾^(٢)، قال الطبري: «إن قال قائل: وما وجه تشبيهه طلع هذه الشجرة برؤوس الشياطين في القبح، ولا علم عندنا بمبلغ قبح رؤوس الشياطين...؟ قيل له لكل منها وجه مفهوم:

أحدها: أن يكون مُثْل ذلك برؤوس الشياطين على نحو ما قد جرى به استعمال المخاطبين بالآية بينهم، وذلك أن استعمال الناس قد جرى بينهم في مبالغتهم إذا أراد أحدهم المبالغة في تقبيح الشيء، قال: كأنه شيطان، فذلك أحد الأقوال.

والثاني: أن يكون مُثْل برأس حية معروفة عند العرب تسمى شيطاناً، وهي حية لها عُرْف فيما ذكر، قبيح الوجه والمنظر، وإياه عنى الراجز بقوله: عَنجَرْدٌ^(٣) تَحْلِفُ حِينَ أَحْلَفُ كَمِثْلِ شَيْطَانِ الْحِمَاطِ أَعْرَفُ والثالث: أن يكون مثل نبت معروف برؤوس الشياطين، ذكر أنه قبيح الرأس»^(٤).

(١) تفسير الرازي (١٤١/٢٦).

(٢) الصافات: (٦٥).

(٣) العنجد: المرأة السليطة، أو الخبيثة، أو سيئة الخلق. القاموس المحيط ص ٣٨٠.

(٤) تفسير الطبري (٤٩٤/١٠).

٣ - ابتلاؤهم بعدد خزنة جهنم :

قال الله - تعالى - : ﴿وما أدراك ما سقر﴾ لا تبقي ولا تذر ﴿لواحة للبشر﴾ عليها تسعة عشر ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ (١).

لقد جعل الله - عز وجل - خزنة النار من الملائكة فتنة وابتلاء للذين كفروا من أولئك المعاندين في مكة . ويوضح ذلك رواية ابن جرير الطبري - رحمه الله - عند تفسيره للآيات المتقدمة ، تقول تلك الرواية : إنه لما نزل قوله - تعالى - ﴿عليها تسعة عشر﴾ قال أبو جهل : يامعشر قريش ، أما يستطيع كل عشرة منكم أن تغلب منها واحدة (٢) !! .

ويذكر أيضاً عن أحد المشركين أنه قال : أنا أكفيكموه ، لا يبلغون رتوقي (٣) حتى أجھضهم في جهنم (٤) .

نعم لقد كان ذكر العدد فتنة للكفار ، فلقد أخذ يثير في قلوبهم رغبة الجدل ، وصاروا بذلك لا يعرفون مواضع التسليم ، ومواضع الجدل ، فإذا أخبر الله عنه خبراً فهو المصدر الوحيد لهذا الطرف من الحقيقة ، وشأن البشر هو تلقي هذا الخبر بالتسليم ، والاطمئنان إلى أن الخبر في ذكر هذا الطريق وحده ، بالقدر الذي ذكره ، وأن لا مجال للجدل فيه ، فالإنسان إنما يجادل فيما لديه عنه علم سابق ، يناقض الخبر الجديد أو يغاير .

أما لماذا كانوا تسعة عشر - أي كان مدلول هذا العدد - فهو أمر يعلمه الله الذي ينسق الوجود كله ، ويخلق كل شيء بقدر . وهذا العدد كغيره من

(١) المدثر: (٢٧ - ٣١) .

(٢) تفسير الطبري (٣١٢/١٢) .

(٣) الرثوة : الخطوة . راجع لسان العرب (٣٠٨/١٤) مادة (رتا) .

(٤) تفسير الطبري (٣١٣/١٢) . والقائل : أبو الأشد الجمحي .

الأعداد. والذي ينبغي الجدل يمكنه أن يجادل، وأن يعترض على أي عدد آخر بنفس الاعتراض..

لماذا كانت السموات سبعة؟

لماذا كان حمل الجنين تسعة أشهر؟

لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

والجواب: لأن صاحب الخلق والأمر يريد ويفعل ما يريد!

هذا هو فصل الخطاب في مثل هذه الأمور^(١).

وهكذا كان ماصرح به ذلك الكافر العنيد من مغالبة عباد الله الموكلين بالنار فتنة وبلاء له ولن معه من الكفار الذين تلقوا العدد بقلوب خاوية من الإيمان، عارية من التوقير لله، خالية من الجد في تلقي هذا الأمر العظيم، فراحوا يتحكمون عليه، ويسخرون منه، ويتخذونه موضعاً للتندر والمزاح.

وحول قوله سبحانه: ﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ يذكر صاحب تفسير التحرير والتنوير بأنه قد جاء تمييزاً في إبطال توهم المشركين حقارة عدد خزنة جهنم، قال: «وهو كلام جارٍ على تقدير أسلوب الحكيم^(٢)»،

(١) راجع تفسير الظلال (٦/٣٧٥٨).

(٢) أسلوب الحكيم: أن تحدث المخاطب بغير مايتوقع، وهو ضربان:

١ - إما أن تتجاهل سؤال المخاطب، فتجيبه عن سؤال آخر لم يسأله.

٢ - أو أن تحمل كلام المخاطب على غير ماكان يقصده ويريده، وذلك من باب توجيهه إلى ماينبغي عليه أن يسأل عنه، أو يقصده من كلامه وهو قريب من الأول، إلا أن الضرب الأول كان ناشئاً عن سؤال. ومايشير إليه صاحب تفسير التحرير من الضرب الأول كما هو واضح، حيث إن الكلام قد أثار سؤالاً من الكفار تقديره: هلا كان خزنة النار آلاًفاً ليكون مرآهم أشد هولاً، ولكن القرآن يعرض عن ذلك كله، ويجيبهم بأنه قد جعل ذكر العدد فتنة وامتحاناً لهم.

إذ الكلام قد أثار في النفوس تساؤلاً عن فائدة جعل خزنة جهنم تسعة عشر، وهلا كانوا آلافاً ليكون مرآهم أشد هولاً على أهل النار، أو هلاً كانوا ملكاً واحداً، فإن قوى الملائكة تأتي كل عمل يسخرها الله له، فكان جواب هذا السؤال: إن هذا العدد قد أظهر لأصناف الناس مبلغ فهم الكفار للقرآن. وإنما حصلت الفتنة من ذكر عددهم في قوله - سبحانه - : ﴿عليها تسعة عشر﴾ .

وقوله : ﴿وما جعلنا عدتهم﴾ . . . تقديره : وما جعلنا ذكر عدتهم إلا فتنة، ولا ستيقان الذين أوتوا الكتاب، وازدياد الذين آمنوا إيماناً، واضطراب الذين في قلوبهم مرض، فيظهر ضلال الضالين، واهتداء المهتدين . . . (١).

وقد قال سبحانه في نهاية الآية : كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر .

فأفاد أنه بمثل ذلك التمثيل بالعدد المذكور يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله - سبحانه - الحكمة البالغة والحجة الدامغة . وإن قوله سبحانه : ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ تعليم للناس جميعاً - ويدخل فيهم كفار قريش، ومن كان على شاكلتهم - بأن الله جنوداً لا يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو سبحانه، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين، ومن شايعهم من الملتين الذين سمعوا هذه الآية فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة، والنفوس التسعة التي اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها، فأفهموا صدر الآية الجريمة وقد كفروا بآخرها (٢).

= راجع في التعريف بأسلوب الحكيم : «الإيضاح في علوم البلاغة» للخطيب القزويني ص

٤٦، و «البلاغة فنونها وأفانها» تأليف فضل حسن عباس (٢/٢٨٩).

(١) تفسير التحرير والتنوير (٢٩/٣١٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٤٤٤).

وإن مما يدل على كثرة جنود الله - عز وجل - ما ثبت في حديث الإسراء المروي في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله - ﷺ - أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة : « فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم »^(١).

٤ - ابتلاؤهم بإمهال العذاب :

قال الله - تعالى - : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴾* إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون* وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين^(٢).

بعث الله - تعالى - رسوله محمداً - ﷺ - ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. وكان أول لقاء له مع مشركي مكة الذين ترعرع ونشأ بينهم، فعرفوه بالصادق الأمين.

ولكن - للأسف الشديد - لما دعاهم أن يتوجهوا لله الواحد الأحد بالإسلام والإيمان أعرضوا عنه أيما إعراض، وكفروا بما جاء به من عند الله - تعالى - حتى

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٤٨/٣) و (٢٠٩/٤)، والبخاري في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٣/٦) برقم (٢٢٠٧)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله - ﷺ - إلى السموات، وفرض الصلوات (١٤٦/١٩) برقم (١٦٢) كلهم من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه -.

(٢) الأنبياء: (١٠٩ - ١١١).

قال قائلهم أبولهب^(١) لما جمعهم - ﷺ - على الصفا ليدعوهم إلى الإسلام، وقال: ﴿فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ قال أبو لهب: (تباً لك إنما جمعتنا لهذا!)^(٢).

وهكذا تبين المكر الكُبار من الكفار المعاندين، ويأمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يواجه المشركين بقوله: ﴿قل إنما يوحى إليّ أنما ألهمكم إله واحد فهل أنتم مسلمون؟﴾^(٣). هذا هو عنصر التوحيد المطلق الذي ينقذ البشرية من أوهام الجاهلية، ومن أفعال الوثنية، ومن ضغط الوهم والخرافة. والذي يقيم الحياة على قاعدتها الركيّة، فيربطها بالوجود كله، وفق نواميس واضحة، وسنن ثابتة، لا وفق أهواء ونزوات وشهوات، والذي يكفل لكل إنسان أن يقف مرفوع الرأس، فلا تنحني الرؤوس إلا لله الواحد القهار. فإن أنتم استجبتم لداعي الله، وآمنتم به، وإلا فقد كشفت لكم ماعندي، فأنا وأنتم على سواء، قد نفضت يدي منكم، وتركتم عالمين بمصيركم، وأنذرتكم عاقبة أمركم، فلم يعد لكم بعد ذلك عذر، فلتذوقوا وبال أمركم وأنتم عالمون.

(١) هو عبد العزى بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوة للنبي - ﷺ - مات بعد غزوة بدر، ولم يحضرها بل أرسل عنه بديلاً، فلما علم بما جرى لقريش مات غماً انظر فتح الباري (٧٣٧/٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب سورة (تبت يد أبي لهب وتب) (٧٣٧/٨) برقم (٤٩٧١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب قول الله - تعالى -: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ الشعراء: (٢١٤) (١٩٤/١) برقم (٢٠٨) وابن جرير في تفسيره (٧٣٤/١٢) برقم (٣٨٢٥٩)، من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - . كما أخرجه سعيد بن منصور في سننه فيما ذكره صاحب الدر المنثور (٧٠١/٦) ولم أجده في المطبوع. وأخرجه أيضاً ابن المنذر، وابن أبي حاتم في تفسيريهما. انظر الدر المنثور (٧٠١/٦).

(٣) الأنبياء: (١٠٨).

نعم لقد أذنتكم على سواء . ولست أدري متى يحل بكم ماتوعدون . فهو غيب من غيب الله . لا يعلمه إلا الله . وهو وحده يعلم متى يأخذكم بعذابه في الدنيا والآخرة سواء ، وهو يعلم سركم وجهركم ، فما يخفى عليه منكم خافية : ﴿إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون﴾ .

إن أمركم - أيها الكفار - مكشوف ، وحين يعذبكم يعذبكم بما يعلم من أمركم ، ظاهره وخافيه . وإذا أخر عنكم العذاب فحكمة تأخيره عند الله - تعالى - أما أنا فما أدري ما يريد الله بهذا التأخير . فلعله يريد أن يكون فتنه لكم وابتلاء ، ولعلكم تحدثون توبة إلى ربكم ورجوعاً إلى طاعته ، واستقامة على منهجه ، وإلا فلتنتظروا ، ولتتمتعوا بحياتكم حتى يحين الأجل المقدر الذي تقتضيه مشيئة الله - تعالى - المبنية على الحكم البالغة ، والوعود الصادقة ، ليكون ذلك حجة عليكم ، ثم يأخذكم أخذ عزيز مقتدر : ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً﴾^(١) ﴿وما يؤخره إلا لأجل معدود﴾* يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد . . ﴿﴾^(٢) .

وبهذا التجهيل يلمس قلوبهم لمسة قوية ، ويدعهم يتوقعون كل احتمال ، ويتوجسون خيفة من المفاجأة التي تأخذهم بغتة .

وتوقظ قلوبهم من غفلة المتاع ، فلعل وراءه الفتنة والابتلاء . وتوقع العذاب على غير موعد مضروب كفيل بأن يترك النفس متوجسة ، والأعصاب متوفزة ، ترتقب في كل لحظة أن يرفع الستار المسدل ، عن الغيب المخبوء . وإن القلب البشري ليغفل عما ينتظره من غيب الله ، وإن المتاع ليخدع ،

(١) فاطر : (٤٥) .

(٢) هود : (١٠٥) .

فينسى الإنسان أن وراء الستار المسدل ماوراءه مما لا يدره، ولا يكشف عنه إلا الله في مواعده المغيب المجهول.

فهذا الإنذار ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ يرد القلوب إلى اليقظة، ويعذر إليها بين يدي الله قبل فوات الأوان^(١).

مسألة :

ذكر الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسير الآيات المتقدمة من سورة الأنبياء قال: «وروي أن النبي - ﷺ - رأى بني أمية في منامة يلون الناس، فخرج الحكم^(٢) من عنده، فأخبر بني أمية بذلك، فقالوا له: ارجع فسأله متى يكون ذلك. فأنزل الله - تعالى -: ﴿وإن أدري أقرب أم بعيد ماتوعدون﴾ ﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ يقول لنبيه - عليه الصلاة والسلام - قل لهم ذلك»^(٣) ١. هـ.

والمأمل لهذه الرواية يجزم بأنها باطلة، وذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول: ظهور بعض الوضاعين زمن الدعوة العباسية، لإكثار المنفرات من بني أمية، كما هو الشأن فيما بينته من قبل من بطلان تفسير الشجرة الملعونة بأنها بنو أمية.

(١) في ظلال القرآن (٢٤٠٣/٤) بتصرف يسير.

(٢) هو الحكم بن أبي العاص بن أمية الأموي. ابن عم أبي سفيان، وعم عثمان بن عفان، ووالد مروان بن الحكم. من مسلمة الفتح. وله أدنى نصيب من الصحبة. يقال إن النبي - ﷺ - نفاه إلى الطائف؛ لكونه حكاة في مشيته، وفي بعض حركاته، فسبه وطرده وقد تقدم آنفاً أن جمعاً من أهل العلم ذكر أن الأحاديث الواردة فيه لم تصح، وكان له عشرون ابناً، وثمان بنات. مات سنة ٣١ هـ راجع في ترجمته «الإصابة» (٣٤٦/١) وسير أعلام النبلاء (١٠٧/٢).

(٣) تفسير القرطبي (٢٣٢/١١ - ٢٣٣).

الوجه الثاني : أن سياق الآيات لا يتمشى مع هذه الرواية ، فإن الآيات
واردة في شأن كفار مكة ، بدليل قوله - سبحانه - : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى
سواء وَإِنْ أَدرِي أَقْرِبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تَوَعَّدُونَ ﴾ فمن الذي تولى ؟ أوليس كفار
مكة ؟ !

الوجه الثالث : أن عبارة القرطبي جاءت بصيغة التمرىض «رُوي» وهذا
من الحديث المعلق الذي حذف أول إسناده ، وحكمه عند المحدثين ضعيف ،
مالم يرد في أحد الصحيحين ، مما يجعل له أصلاً ، فلا يحكم عليه بالوهن
الشديد . وهذا المروي مما ليس كذلك^(١) ، والله أعلم .

(١) راجع «تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي» للسيوطي (١/١٤٤ - ١٤٥) ، وألفية
السيوطي في علم الحديث ص ٢٨ - ٢٩ بتصحيح وشرح الأستاذ أحمد محمد شاكر - رحمه
الله - .

المطلب الرابع ابتلاء الكافرين بالمؤمنين والعكس

إن من سنن الله - تعالى - في الأمم والشعوب أن يبتلي الكافرين بالمؤمنين ، ويبتلي المؤمنين بالكافرين ؛ لتظهر بذلك حقيقة كل فريق دون أن يشوبها شيء ، بحيث يطمئن المؤمنون الصادقون في إيمانهم بالله - عز وجل - الشاكرون لنعمه وآلائه ، ويندحر الكافرون الذين لا تزيدهم البيئات والخوارق إلا عناداً وتكبراً ، ولا تزيدهم النعم والخيرات إلا بطراً وطغياناً .

يقول ربنا - تعالى - : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴿ (١) .

يذكر في سبب النزول هنا أن جماعة من أشرف العرب أنفوا أن يستجيبوا لدعوة الإسلام ، لأن رسول الله - ﷺ - يؤوي إليه الفقراء الضعاف (٢) ، الذين عليهم جباب تفوح منها رائحة العرق لفقرهم ، ومكانتهم الاجتماعية لا تؤهلهم لأن يجلس معهم سادات قريش في مجلس واحد . فطلب هؤلاء الكبراء إلى رسول الله - ﷺ - أن يطردهم عنه . . . فأبى ، فاقترحوا أن يخصص لهم مجلساً ، ويخصص للأشراف مجلساً آخر لا يكون فيه هؤلاء الفقراء الضعاف ، لكي يظل للسادة امتيازهم ، واختصاصهم ، ومهابتهم في المجتمع الجاهلي . فهم - ﷺ -

(١) الأنعام : (٥٢ - ٥٣) .

(٢) أمثال بلال ، وعمار ، وخباب ، وسلمان ، وابن مسعود - رضي الله عنهم أجمعين - .

رغبةً في إسلامهم أن يستجيب لهم في هذه، فجاءه أمر ربه تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه...﴾^(١).

وإن قوله - تعالى -: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض...﴾ ليقرر السنة الإلهية في ابتلاء الكافرين بالمؤمنين والعكس، فقد جعل الله - تعالى - في غرائز البشر وأخلاقهم ما يكون فتنة لبعضهم البعض، لتظهر به حقيقة الحال غير مشوبة بشيء من الشوائب التي تلتبس بها في العادة، وليترتب على هذا الفتن أن يقول المفتنون من الأقوياء المستكبرين في شأن الضعفاء من المؤمنين: أهؤلاء الصعاليك من العبيد، والموالي، والفقراء، والمساكين، مَنْ الله عليهم فخصهم بهذه النعمة العظيمة من جملتنا ومجموعنا؟!

إنهم يقولون على سبيل الإنكار والتعجب: إن ذلك لا يتأتى أبداً؛ لأنهم يزعمهم هم المفضلون عند الله - تعالى - بها أعطاهم قبله من الجاه والثراء!!^(٢) ولقد جاء بمثل هذا الافتراء والقياس الباطل آياتٌ عديدة من القرآن توضح ذلك، يقول تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾^(٣)، ويقول: ﴿وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾^(٤).

(١) سيأتي نص الرواية قريباً - إن شاء الله تعالى -.

(٢) هنالك معنى آخر للآية هو فتنة المؤمنين بالكافرين، وذلك حين يشاهدون طيب عيش عظماء المشركين في الدنيا مع إشراكهم برهم، فيعجبون كيف مَنْ الله بالرزق الواسع على من يكفرون به، ولم يمن بذلك على أوليائه، وهم أولى بنعمة ربهم.

قال ابن عاشور: «وقد أعرض القرآن عن التصريح بفساد هذا الخاطر الإنساني اكتفاءً بأن ساء فتنة، فعلم بذلك أنه خاطر غير حق» راجع التحرير والتنوير (٧/٢٥٥).

(٣) الأحقاف: (١١).

(٤) الزخرف: (٣١)، قال المفسرون في معنى (عظيم): «عظيم بالمال كالوليد بن المغيرة المخزومي من مكة - وهي إحدى القريتين، أو عروة بن مسعود الثقفي من الطائف، وهي القرية الأخرى، وقيل المراد بعظيم مكة: أبوجهل - «تفسير المنار» (٧/٤٤٤).

ولاشك أن هذا التقول شئنة معروفة من المستكبرين والطغاة، وقد حدث بالمدينة مثل هذا، فقد جاء في الحديث الصحيح أن الأقرع بن حابس^(١) رضي الله عنه - جاء إلى رسول الله - ﷺ - فقال له: إنما بايعك سراق الحبيج من أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة، فقال النبي - ﷺ - «أرأيت إن كان أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة خيراً من بني تميم، وبني عامر، وأسد، وغطفان، خابوا وخسروا؟» قال: نعم. قال: «والذي نفسي بيده إنهم لأخير منهم»^(٢).

إن الله - تعالى - لن يترك أولئك المعاندين والمستهزئين، ولسوف يوزيهم يوم القيامة على احتقارهم المؤمنين في الدنيا، يقول سبحانه: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾^(٣)، وقال: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون* وإذا مروا بهم يتغامزون* وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين* وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون* وما أرسلوا عليهم حافظين* فالיום الذين آمنوا من الكفار

(١) هو الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان التميمي المجاشعي الدارمي. وقد على النبي - ﷺ - وشهد فتح مكة، وحنيناً، والطائف، وهو من المؤلفة قلوبهم. كان حكيماً في الجاهلية. وقد شهد بعد وفاة الرسول - ﷺ - البهامة، ودومة الجندل، وحرب أهل العراق، وفتح الأنبار.

وقد كان - رضي الله عنه - شريفاً في الجاهلية والإسلام، وفاته بالجوزجان سنة ٣١هـ. الإصابة (٥٨/١ - ٥٩) والأعلام (٥/٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب ذكر أسلم وغفار ومزينة، وجهينة وأشجع (٥٤٣/٦) برقم (٣٥١٦)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم وطئ (١٩٥٥/٤) برقم (٢٥٢٢)، كلاهما من حديث أبي بكر - رضي الله عنه -.

(٣) الأعراف: (٤٩).

يضحكون* على الأرائك ينظرون* هل تُوب الكفار ماكانوا يفعلون﴿^(١)﴾ .
ولقد جاء في السنة الصحيحة مايبين تعنت هؤلاء الكفار في إيراد المطالب
التي تنبىء عن غرورهم وطغيانهم ، ومن ذلك ماجاء في الصحيح أن النبي
ﷺ - كان مع ستة نفر من أصحابه^(٢) ، فقال المشركون للنبي - ﷺ :- اطرده
هؤلاء لا يجترؤن علينا . فوقع في نفس رسول الله - ﷺ - ماشاء الله أن يقع .
فحدث نفسه . فأنزل الله - عز وجل :- ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة
والعشي يريدون وجهه﴾^(٣) .

ولقد كان أولئك الفقراء من الأصحاب - رضي الله عنهم - يحظون بعد
ذلك بالمكانة الكبرى عند رسول الله - ﷺ - فقد حدث أن أباسفيان^(٤) أتى على
نفر من فقراء الصحابة فقالوا: والله ماأخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها!
فقال أبوبكر - رضي الله عنه - أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأخبر النبي
ﷺ - بقول أبي بكر، فقال: «ياأبا بكر لعلك أغضبتهم . لئن كنت أغضبتهم
لقد أغضبت ربك» . فأتاهم أبوبكر، فقال: ياإخوتاه، أغضبتكم؟ قالوا: لا .
يغفر الله لك ياأخي^(٥) .

(١) المطففين: (٢٩ - ٣٦) .

(٢) منهم ابن مسعود، وبلال، وسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنهم - .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل سعد بن أبي وقاص (١٨٧٨/٤) برقم

(٢٤١٣) من حديث سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - .

(٤) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . أمه صفية بن حزن الهلالية .

أسلم يوم فتح مكة ، وشهد حنيناً ، والطائف ، واليرموك ، مات بالمدينة سنة إحدى وثلاثين ،
وقيل سنة أربع وثلاثين .

راجع الإصابة (١٧٨/٢) والاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة (١٩٠/٢ - ١٩١) .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل سلمان وصهيب وبلال (١٩٤٧/٤) برقم

برقم (٢٥٠٤) من حديث عائذ بن عمرو - رضي الله عنه - .

إننا حقيقةً في حاجةٍ إلى وقفةٍ طويلةٍ أمام هذه النصوص ، وإن البشرية كلّها في حاجةٍ إلى مثل هذه الوقفة كذلك . إنها ترسم للبشرية - اليوم - ذلك الخط الصاعد بكل نقطه ومراحله ، من سفح الجاهلية ، إلى القمة السامقة حيث الإسلام الذي لا يقيم وزناً لتلك القيم الهزيلة ، والنعرات السخيفة . نعم إنَّ على الأمة كلّها أن تقف أمام هذه النصوص ، ودلالاتها لتحاول أن تستشرف المدى الهائل الذي يرتسم من خلالها تاريخ البشرية ، ولتحاول أيضاً أن تدرك إلى أين يملك الإسلام اليوم أن يقود خطاها مرة أخرى بعد أن فشلت جميع تجاربها ومذاهبها ، وأفكارها التي ابتدعتها بعيداً عن منهج الله - تعالى - وهده (١) .

وهنا - وبعد هذا الاستطراد الهام - نعود مرة أخرى لموضوع سورة الأنعام ، حيث يقرر - سبحانه - أن الحقيق بالمن وزيادة نعمه إنما هم الذين يقدرونها قدرها ، ويعرفون حق المنعم بها ، فيشكرونها له باستعمالها فيما تتم به حكمته ، وتنال مرضاته ، لا من سبق إنعامه عليهم ، فكفروا وبطروا ، وعتوا عن أمره ، واستكبروا ، بل هؤلاء جديرون بأن يسلب منهم ما كان أنعم عليهم : ﴿ أليس الله أعلم بالشاكرين ﴾ .

وبهذا مضت سنته - تعالى - في عبادته ، ولولا ذلك لكانت النعم خالدة تالدة ، لا تنزع ممن أوتيها ، بل تزداد ، وتضاعف له ، وإن كفر بها ، وإذا لما افتقر غني ، ولا ضَعُف قوي ، ولا ذلَّ عزيز ، ولا ثلَّ عرش أمير ، وهل الحق إلا خلاف هذا ؟ وهل فتن أولئك الكبراء إلا بالواقع لهم من الغنى والقوة ، فظنوا لقصر نظرهم ، وغرورهم بحاضرهم ، وجهلهم بسنة الله في أمثالهم أنه تعالى ما أعطاهم ذلك إلا تكريماً لذواتهم ، وتفضيلاً لهم على غيرهم ، حتى إن أحدهم ليحسب أن هذا حق له على ربه في الدنيا والآخرة ، وإن كان لا يؤمن بالآخرة

(١) الظلال (٢/١١٠٤) بتصرف .

كما قال سبحانه : ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾^(١).

وقال بعض المغرورين بهذا السياق :

لقد أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي^(٢)
ولقد كشف الله - تعالى - هذا الغرور في آيات كثيرة، وضرب لأصحابه
الأمثال كمثال صاحب الجنتين في سورة الكهف^(٣)، وزجر أهله وأضدادهم في
سورة الفجر بقوله : ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي
أكرمنى * وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهاننى﴾^(٤).

وفصل لهم الحقيقة في سورة الإسراء بقوله : ﴿كُلًّا نمد هؤلاء
وهؤلاء﴾^(٥).

وإن هذا الرد على المشركين يدل على أنهم لا يدوم لهم من النعم ما اغتروا
به، ولا يتقى المؤمنون على الضعف الذي صبروا عليه، بل لابد أن تنعكس
الحال، فيُسلب أولئك الأقوياء ما أعطوا من القوة والمال، وتداول الدولة لهؤلاء
الضعفاء من المؤمنين، فيكونوا هم الأئمة الوارثين، لأن الله - تعالى - وفقهم
لِلإيمان بما في أنفسهم من الاستعداد للشكر، وهو مما يوجب المزيد : ﴿وإذ تأذن
ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾^(٦).
«وكذلك كان، وصدق وعد الرحمن، وظهر إعجاز القرآن، وما بعد بيان

(١) فصلت : (٥٠).

(٢) تفسير المنار (٧/٤٤٤).

(٣) سيأتي الكلام عنه عند الحديث عن أسباب الفتنة - بإذن الله تعالى -.

(٤) الفجر : (١٥ - ١٦).

(٥) الإسراء : (٢٠).

(٦) إبراهيم : (٧).

الله - تعالى - من بيان ، وإننا نرى الناس عن هدايته غافلين ، وبوجوه إعجازه جاهلين ، حتى إن فيمن يسمون المسلمين منهم ، من يفتتن بشبهة أولئك المشركين الداحضة ، فيجعلها حجة ناهضة ^(١) تارة على تفضيل الأغنياء على الفقراء ، وتارة على تفضيل الأمم القوية على الأمم الضعيفة ، جاهلين أن الفضيلة الصحيحة في شكر النعم باستعمالها فيما يرضي الرب ، لا في أعيان النعم التي ترى في اليد ، فرب غني شاكر ، ورب فقير صابر ، وكم من منعم سلب النعمة بكفرها ، وكم من محروم أوقى النعم بالاستعداد لشكرها ، ثم زيد بقدر شكره لها ، وكم من قوي أضعفه الله ببغيه ، وكم من ذليل أعزه الله بإيمانه وعدله» ^(٢).

وهنا نتقل من موضع سورة الأنعام إلى موضع آخر مشابه في سورة الفرقان ، حيث يقرر سبحانه أنه جعل الناس بعضهم فتنة لبعض ، حيث يقول - عز وجل - : ﴿ وجعلنا بعضهم لبعض فتنة ﴾ ^(٣) ولا شك أنه يدخل في ذلك ابتلاء المؤمنين بالكافرين بدليل قوله سبحانه : ﴿ أنصبرون ﴾ فإنه أعرب عن الوعد للصابرين ، والوعيد للعاصين ، حيث جعل استهزاء الكافرين بالمؤمنين من الفقراء فتنة للكافرين وابتلاء ليصبروا على ما يسمعون منهم ، ويرون من أخلاقهم ، وليتبعوا الهدى بغير أن يعطيهم الله - تعالى - عليه الدنيا .

(١) ومن ذلك ما عرض لابن الرئوندي الملحد المتوفي سنة ٢٩٨ هـ من حيرة الجهل في قوله :

كم عالم عالم أعيت مذهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً
هذا الذي ترك الأوهام خائراً وصير العالم النحرير زنديقاً

التحرير والتنوير (٢٥٥/٧) .

(٢) تفسير المنار (٤٤٥/٧) .

(٣) الفرقان : (٢٠) .

وكما جعل سبحانه الكافرين فتنة للمؤمنين ، فقد جعل أيضاً قائد المؤمنين ،
ورسول رب العالمين محمداً - ﷺ - جعله سبحانه فتنةً للمشركين حيث زعموا
أن حاله مناف للرسالة كما قالوا : ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في
الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ * أو يلقي إليه كنز أو تكون له
جنة يأكل منها ^(١) ، ولما لم يؤمن به هؤلاء الكفار كان ذلك فتنة لهم ^(٢) .

والله أعلم

(١) الفرقان : (٧ - ٨) .

(٢) انظر «التحرير والتنوير» (١٨ / ٣٤٤) .

المطلب الخامس ابتلاء الناس جميعاً

ومن سنة الله - تعالى - في خلقه أن يبتليهم جميعاً بالخير والشر، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، بالغنى والفقر، والحلال والحرام، بالطاعة والمعصية، وبالهدي والضلالة.

لنستمع إلى قول الله - عز وجل - في سورة الأنبياء: ﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾^(١).

إن الآية الكريمة تقرر أنه - تعالى - يبتلي العباد كلهم بأمرين: أحدهما: ماسأه خيراً، وهو نعم الدنيا من الصحة، واللذة، والسرور، والتمكين من المرادات.

والثاني: ماسأه شراً، وهو المضار الدنيوية من الفقر، والآلام، وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين. ويدخل في الخير والشر الحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدي والضلالة، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - في الآية السابقة: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ قال: «نبتليكم بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدي والضلالة»^(٢).

(١) الأنبياء: (٣٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٥/٩) برقم (٢٤٥٨٥)، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٥٧٢/٤)، وأخرجه أيضاً اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥٦٧/٣) برقم (١٠٠٧).

وهكذا يبين الله - تعالى - أن العبد مع التكاليف يتردد بين هاتين الحالتين :
الخير والشر ، وهذا كله من باب الابتلاء والاختبار ، لينظر هل يشكر على المنح ،
ويصبر على المحن ، أو لا ؟

فإذا كان كذلك فقد عَظُم ثوابه ، وقام بما يلزم ، وإن كان على غير ذلك
فليتنظر ماتوعد الله - تعالى - به الناكسين على أعقابهم ، المخالفين لشرع ربهم .
وما ذكره سبحانه في الآية من ابتلائه لعباده بالشر والخير^(١) قد بينه في
مواضع أخرى من القرآن ، ومن ذلك : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم
يرجعون ﴾^(٢) ، ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء
لعلهم يضرعون ﴾* فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم
الشیطان ما كانوا يعملون ﴾* فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء
حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾* فقطع دابر القوم
الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾^(٣) .

ومن ذلك أيضاً قوله - جل وعلا - : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا
أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ﴾* ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى
عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾^(٤) .

(١) ذكر بعض المفسرين أن لتقديم الشر على الخير في الآية عدة فوائد ، قال بعضهم : « لأن
الابتداء به أكثر ، ولأن العرب من عاداتها أن تقدم الأقل والأردى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لا
يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ الكهف : (٤٩) . وقال بعضهم : « لأنه اللائق بالمنكر
عليهم ، أو لأنه ألصق بالموت المذكور قبله » .

راجع المحرر الوجيز (١٣٤/١١) وروح المعاني (٤٧/١٧) .

(٢) الأعراف : (١٦٨) .

(٣) الأنعام : (٤٢ - ٤٥) .

(٤) الأعراف : (٩٤ - ٩٥) . والآيات الثلاث أوردتها الشنقيطي في تفسيره لآية الأنبياء

(٦٢١/٤) .

وهكذا نجد أن آية الأنبياء تصدق على فئات الناس جميعاً. فإذا ماتأملنا القرآن العظيم مرة أخرى فإننا نجده يخبرنا عن ابتلائه لطائفة بخاصة، هم الكفار المحادون لله ورسوله، ولنقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾^(١).

والنهي في الآية موجه إلى رسول الله - ﷺ - ينهاه ربه سبحانه أن يطيل النظر مستحسناً^(٢)، إلى أحوال الدنيا والممتعين بها من المآكل والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء الجميلة. فإن هذه الأمور مما يتمتع بها الكفار وغيرهم ماهي إلا زهرة الحياة الدنيا^(٣)، تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجاباً بأبصار المعرضين، ويتمتع بها بقطع النظر عن الآخرة القوم الظالمون. ثم تذهب تلك اللذائذ، ويتلاشى ذلك المتاع. . . نعم يمضي كل ذلك سريعاً، ويزول جميعاً، وتقتل الدنيا محبيها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا يوم القيامة. لقد جعل الله - تعالى - ذلك كله فتنة لهم واختباراً ﴿لنفتنهم فيه﴾.

(١) طه: (١٣١).

(٢) عُبر عن النظر بالمد في (ولا تمدن عينيك) لأن الذي يمد بصره إنما يحمل على ذلك حرص مقترن، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه. المحرر الوجيز (١١٧/١١) والبحر المحيط (٤٢٨/٧).

(٣) شبه سبحانه نعم هؤلاء الكفار بالزهر لأن الزهر له منظر، ثم يضمحل، فكذلك حال الكفار، فإن ما هم فيه من النعم مضمحل زائل كهذا الزهر. المحرر الوجيز (١١٧/١١). وقد جاء لفظ (زهرة) في الآية منصوباً لعدة أوجه، فيجوز أن يكون منصوباً بفعل محذوف دل عليه (متعنا) أي جعلنا لهم زهرة، أو هو بدل من موضع (به)، أو بدل من (أزواجاً) والتقدير: ذوي زهرة، فحذف المضاف، ويجوز النصب على الذم أي أذم أو أعني. راجع «التيبان في إعراب القرآن» للعكبري (٩٠٩/٢).

ولا تخلو الآية من الموعظة البليغة، والنصح السديد، حيث نجدتها تذكر الرسول - ﷺ - بأن رزق الله - تعالى - خير وأبقى .

ولقد كان - عليه الصلاة والسلام - يمثل أمر ربه، ويقنع بما آتاه الله، ولا يتطلع إلى ما أعطيه الآخرون من المتاع الزائل، ففي الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه لما دخل على رسول الله - ﷺ - في تلك المشربة^(١) التي اعتزل فيها نساءه حين آلى^(٢) منهم، فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير، فقال عمر: يا رسول الله، ادع الله أن يوسع على أمتك، فقد وسّع على فارس والروم، وهم لا يعبدونه، فاستوى رسول الله - ﷺ - جالساً فقال: «أَو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجّل لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»^(٣).

وهكذا كان - عليه الصلاة والسلام - أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا، وهكذا، في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد.

ولقد كان عمر - رضي الله عنه - يوقظ أهل داره لصلاة الليل، ويصلي وهو يتمثل بهذه الآية: ﴿ولا تمدن عينيك إلى مامعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾^(٤).

(١) أي الغرفة العالية. فتح الباري (١١٦/٥).

(٢) أي أقسم أن لا يدخل على نسائه شهراً كما جاء في رواية الترمذي.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة في السطوح وغيرها (١١٤/٥) برقم (٢٤٦٨)، وأخرجه الترمذي في كتاب التفسير، باب: ومن سورة التحريم، (٤٢٠/٥) برقم (٣٣١٨)، كلاهما من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -.

(٤) المحرر الوجيز (١١٧/١١).

وذكر عن عروة بن الزبير^(١) - رحمه الله - أنه كان إذا رأى شيئاً من أخيار السلاطين وأمواهم باذر إلى منزله، فدخله وهو يقرأ ﴿ولا تمدن عينيك إلى مامعنا به أزواجاً منهم﴾^(٢).

ومن هذا الموضع في سورة طه نتقل إلى موضع آخر مشابه في سورة الجن، حيث يبين - عز وجل - أن ما يعطاه الخلق^(٣)، لو استقاموا على طريق الهدى من النعيم إنما هو لفتنهم واختبارهم، يقول سبحانه: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه﴾^(٤).

إن كثيراً من الأمم قد أغدق الله - تعالى - عليهم ليختبرهم، ويبتليهم، ولكن من المحزن أن الرخاء أنساهم، وألهاهم، وأخذ يرخي أعصابهم، ويثيم عناصر المقاومة في أنفسهم، ويهيء الفرصة للغرور بالنعمة، والاستنامة للشيطان!

ولهذا فإن الابتلاء بالنعمة في حاجة ماسة إلى يقظة دائمة تعصم من الفتنة، سواء كان المبتلى بها مؤمناً أو كافراً، وإن نعمة الرزق كثيراً ماتقود إلى فتنة البطر، وقلة الشكر مع الطغيان والغرور. وماتكاد نعمة من النعم في الدنيا تخلو من الفتنة إلا من ذكر الله - تعالى - فعصمه من الفتنة.

(١) هو عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد، أبو عبد الله القرشي الأسدي. عالم المدينة، وأحد الفقهاء السبعة فيها، كان صالحاً، كريماً، ثقة، كثير الحديث. وفاته بالمدينة سنة ٩٣هـ. وهو أخو عبد الله بن الزبير لأبيه وأمه. ويثر عروة بالمدينة منسوبة إليه. راجع في ترجمته سير أعلام النبلاء (٤/٢١٤) وحلية الأولياء لأبي نعيم (١٧٦/٢).

(٢) المحرر الوجيز (١١٧/١١).

(٣) ويدخل فيهم العصاة من مؤمني الإنس والجن، والكفار الذين لم يستقيموا بعد على الإسلام.

(٤) الجن: (١٦، ١٧).

ولأجل التنبه إلى خطورة النعم في حياة الأمم، وأنها قد تؤدي إلى الكفر والجهود قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْزُضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا﴾^(١). وهذا إنذار لجميع الخليقة بأنه تعالى قادر على أن يمسك عنهم الغيث من السماء، فيقعوا في القحط والجوع، فليتوجه العباد كلُّهم إلى العليم الخبير، وليلهجوا بشكره والثناء عليه، وليحذروا من الكفران فإنه يزيل النعم، ويجلب النقم، وكم زالت بذلك أمم، وأبيدت دول، وإن في قصص الكافرين بالنعم المعروضة في القرآن لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(١) الجن: (١٧).

(*) فائدة:

جاء التعبير عن النعم بالماء في قوله تعالى: ﴿وَلَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا لَنَفْتَنَّهُمْ فِيهِ﴾ لأن الخير كله يكون بالمطر، وهو أصل المعاش والسعة، ولذلك أقيم مقامه إذ كان سببه. وأضاف بعضهم: «ولعزة وجوده عند العرب».

زاد المسير (١٣٢/٨) وتفسير أبي السعود (٤٥/٩).

الفصل الثاني بث الفرقة والاختلاف

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول: محاربة الإسلام بادعاء الدعوة إليه .

المبحث الثاني: محاربة الإسلام بالإفك على رسول الله - ﷺ - وزوجه .

المبحث الثالث: تشكيك الناس في صدق النبي - ﷺ - .

المبحث الرابع: إثارة العصبية والتحزب بين المسلمين .

الفصل الثاني بث الفرقة والاختلاف

تمهيد:

إن من ألد أعداء الإسلام المحاربين له أولئك المنافقين الذين يتسترون بالإسلام، ويلبسون ثياب أهل الإيمان، وهم على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران. تجدهم يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن، ويتنهزون الفرص لتحقيق مآربهم الفاسدة، ونياتهم الخبيثة.

«فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه؟!

وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخرّبوه؟!

وكم من علم قد طمسوه؟!

وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه؟!

فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية. ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية. ويزعمون أنهم بذلك مصلحون: ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾^(١)، ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾^{(٢)(٣)}.

إن أولئك الحاقدين المفسدين لما وجدوا أنهم لن يستطيعوا تدمير المسلمين

(١) البقرة: (١٢).

(٢) الصف: (٨).

(٣) من كلام نفيس للإمام ابن القيم - رحمه الله - في كتابه «مدارج السالكين» (١/٣٧٧).

عن طريق الأعمال الظاهرة المكشوفة صاروا يسلكون الطرق الملتوية،
ويستخدمون خبثهم، ومكرهم لبث الفرقة والاختلاف بين المسلمين، وإن
كانوا يصلون معهم في المساجد، ويخرجون معهم في المعارك، مدعين أنهم من
أنصار الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - والحقيقة أن حالهم كحال مَنْ قال الله - جل
وعلا - فيهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ
يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(١).

ومن هنا فقد أوجد المنافقون الوسائل والأساليب التي يظنون أنهم عن
طريقها يستطيعون بث الفرقة والاختلاف بين المؤمنين.

ومن تأمل القرآن العظيم وجد أن هؤلاء المنافقين لا يخرجون في ذلك عن
أربع وسائل - مهما تعددت في ذلك حيلهم وألاعيبهم - والحديث في هذا
الفصل سيكون عن تلك الوسائل، وذلك من خلال المباحث الأربعة القادمة
- بإذن الله -.

وإنني أدعو الله - عز وجل - أن يكون في طرح هذه المباحث، والتفصيل
فيها نفع للإسلام والمسلمين، وتذكير للمؤمنين بالوسائل التي يستخدمها
أعداؤهم هؤلاء لإضعاف شوكتهم، وزعزعة أمنهم، وحرق قاداتهم، وتشويه
سمعة أفذاذهم؛ حتى لا ينخدع بها السذج من المسلمين، فيجروا البلاد
والعباد إلى شقاء دائم وبلاء مستطير.

نسأل الله - تعالى - أن يكفيننا والمسلمين شر أولئك، ومكرهم، إنه أرحم
الراحمين، وأكرم الأكرمين،

ونبدأ الآن بالمبحث الأول من هذا الفصل، ألا وهو:

(١) التوبة: (٤٧).

المبحث الأول محاربة الإسلام بادعاء الدعوة إليه

سلك النبي - ﷺ - مع الذين يتظاهرون بالإسلام طريق الملاينة والإغضاء، يقبل منهم أعدارهم - وهي مختلفة - ويتكرم عن فضحهم وهم يتفلتون من قيود السمع والطاعة. فإذا تلبس أحدهم بخيانة تهدر دمه، رغب في التجاوز عنه حتى لا يقال: إن محمداً - ﷺ - يقتل أصحابه. . وماهم في صحبته من شيء، ولكن هكذا سيقول الناس. ولو أن هؤلاء المنافقين كانوا على قليل من الخير، لأسرهم هذا الحلم، وانخلعوا من خداعهم الصغير، وأقبلوا على الإسلام طيبين خالصين، يَبْدُ أن هذا الأسلوب العالي في معاملتهم لم يزدهم على الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - إلا جرأة، فزاد افتياتهم، وربت شرورهم، ولم يبق بُد من كشف خبيثهم، وإشعار جمهور الأمة بما تنطوي عليه نفوسهم وأعمالهم^(١).

ولقد كان من أعجب ما تفتقت عنه حيل المنافقين أن يبنوا مسجداً يلتقون فيه وحدهم، ويمكرون فيه بالإسلام تحت ستار التجمع على العبادة، وهم في واقع الأمر أبعد من ذلك^(٢).

كان في المدينة النبوية رجل فاسق يقال له أبو عامر الراهب^(٣)، لما رأى هذا

(١) «فقه السيرة» للشيخ محمد الغزالي ص ٤٣٥.

(٢) «رسالة المسجد في الإسلام» تأليف الأستاذ عبدالعزيز اللميلم ص ١٧٨.

(٣) هو أبو عامر، عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان، من بني ضُبَيْعَة. كان قد ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح، فكان يقال له الراهب، فلما كفر بالإسلام سباه رسول الله =

الرجل أن الإسلام في المدينة قد قويت شوكته بعد معركة بدر الكبرى لم يجد له طريقاً بعد ذلك إلا الفرار من المدينة إلى مكة، وقد صحبه أناس من قومه الأوس، يقال: كان عددهم خمسين رجلاً. فلما التقى المسلمون والمشركون في وقعة أحد كان أول من لقيهم أبو عامر، فقال: يامعشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يافاسق، فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر، ثم قاتلهم قتلاً شديداً ثم راضخهم بالحجارة^(١).

واستمر بعد ذلك في التآليب على رسول الله - ﷺ - ولكنه لما رأى عزة الإسلام وانتصاره لجأ إلى ملك الروم، واستنصره على المسلمين.

وكان قد أرسل إلى المنافقين من قومه يطلب منهم أن يبنوا معقلاً للكفر ينفذون فيه مخططاتهم الفاسدة، كان هذا المعقل مسجداً - كما سبق آنفاً - ووقع اختيارهم على المسجد حتى يكون الاجتماع فيه أمراً لا يلفت النظر ولا يثير الشبهة.

وقد نفذوا مخططه ذلك، فبنوا مسجداً في قباء^(٢)، وانتظروا قدومه عليهم من بلاد الروم بالجيش العظيم الذي وعدهم به وأخبرهم بأنه سيُخرج محمداً - ﷺ - وأصحابه من المدينة^(٣).

ولما أكملوا بناءه جاءوا إلى رسول الله - ﷺ - وطلبوا منه أن يصلي في مسجدهم، وكان قصدهم من ذلك إثبات شرعيته، حتى إذا ما أنكر عليهم

= - ﷺ - الفاسق. وهو أبو حنظلة، الصحابي الذي استشهد بأحد، وغسلته الملائكة.

انظر سيرة ابن هشام (٦٧/٢ و ١٢٣) والإصابة (١/٣٦١).

(١) سيرة ابن هشام (٦٧/٢)

(٢) قباء: موضع في آخر المدينة. معجم ما استعجم (٣/١٠٤٥).

(٣) ذكر ابن حجر في الإصابة أن أبا عامر هذا قد هلك في بلاد الروم سنة تسع أو عشر من

الهجرة. راجع الإصابة (١/٣٦١).

أحدٌ بعد ذلك شيئاً مما يختص بالمسجد احتجوا عليه بصلاة النبي - ﷺ - فيه ، وقد أخفوا مقاصدهم من بنائه ، وأظهروا للنبي - ﷺ - أنهم إنما بنوه ليكون مأوىً لذوي الحاجات ، يقيهم من المطر ، وبرد الشتاء ، فاعتذر لهم النبي - ﷺ - بأنه على جناح سفر ، ووعدهم بالصلاة فيه إذا رجع .

ولكن الله - عز وجل - أطلعه على نواياهم السيئة من بناء ذلك المسجد قبل وصوله إلى المدينة ، فأنزل قوله - تعالى - :

﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين * أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم﴾ (١) .

وعند ذلك أمر رسول الله - ﷺ - رجلين من الصحابة - رضي الله عنهم - أن يهدما ذلك المسجد ، ويحرقاه ، ففعلا . وكان أحدهما من أهل قباء ، المكان الذي بُني فيه المسجد (٢) .

وهكذا بين الله - تعالى - في الآية الكريمة الهدف من تشييد ذلك المسجد الذي بناه المنافقون بأنه المكر بالإسلام والمسلمين ، وستر المتأمرين على الجماعة المسلمة ، والكائدين لها في الظلام .

لقد أراد المنافقون بعملهم ذلك تفريق جماعة المؤمنين الذين جمعهم ذلك

(١) التوبة : (١٠٧ - ١١٠) .

(٢) انظر تفسير الطبري (٤٦٩/٦) الحديث رقم (١٧٢٠٠) .

المسجد - مسجد قباء (١)، ثم هدم التعارف والتآلف وجمع الكلمة، تلك الأمور الحسنة، والآثار الطيبة من آثار اجتماعهم مع قائدهم محمد بن عبد الله - ﷺ - في مسجد واحد.

وهذا ما صرح به أولئك المنافقون علانية حين قالوا: «بني مسجداً فنصلي فيه، ولا نصلي خلف محمد، فإن أتانا فيه صلينا معه، وفرقنا بينه وبين الذين يصلون معه في مسجده» (٢).

وإن فضح القرآن لمكيدة أولئك المنافقين في محاولة تفريق المؤمنين ليدلنا كما قال القرطبي: «على أن المقصد الأكبر والغرض الأظهر من وضع الجماعة تأليف القلوب والكلمة على الطاعة، وعقد الذمام والحرمة بفعل الديانة، حتى يقع الأئس بالمخالطة، وتصفو القلوب من وضر الأحقاد» (٣).

وإننا لنستدل من موقف رسول الله - ﷺ - تجاه مسجد الضرار على ضرورة تعطيل أماكن المعصية وهدمها، وإن اختبأت هذه الأماكن عن أنظار الناس وراء مظاهر الخير والبر (٤). وإذا كان هذا هو ما فعله رسول الله - ﷺ - - بمسجد الضرار، فما بالك بأماكن الفسق والرذيلة؟! إن هذه المواخير جديرة بأن يشدد الخناق عليها، وأن يؤدب صانعوها حسب حدود الشريعة؛ لئلا يستفحل خطرهم، ويتفاقم ضررهم، فيجروا

(١) هذا على من يقول: إن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء، وقيل: هو المسجد النبوي بالمدينة، ولكل قول مستند من الحديث الصحيح، وللجمع بينها انظر تفسير التحرير والتنوير (١١/٣٢).

(٢) تفسير الرازي (١٦/١٩٨).

(٣) تفسير القرطبي (٨/١٦٣)، وانظر تفسير المنار (١١/٣٩).

(٤) انظر «فقه السيرة» للأستاذ محمد سعيد البوطي ص ٣٢٦.

المجتمع المسلم بخاصة إلى أبواب عظيمة من الشرور والآلام، تؤذن بهلاك سريع، وعقاب عاجل.

وهكذا نجد أعداء الإسلام في كل زمان إذا لم يستطيعوا أن يبشوا الفرقة والاختلاف بين أبنائه بالوسائل المكشوفة انتسبوا إليه، وقاموا بالدعوة إليه؛ ليستطيعوا أن يغزوه عن كذب، وهم محتمون به من سطوة أتباعه المخلصين له. وإذا كان المنافقون في عصر النبي - ﷺ - قد أنشأوا مسجداً للضرار فإن العصور التي تلت ذلك العصر قد شهدت من أعمال المكر والتفرقة والخداع المتلبس بالتدين ما يربو أثره على ذلك المسجد الذي أقيم على عهد النبي - ﷺ - وخصوصاً في هذا العصر الذي تعقدت فيه الحياة، وتلونت فيه أساليب المكر والخداع، وأصبحت من كثرة الممارسة لها تتخذ شكل الشرعية والأحقية، ولعلي أشير في السطور التالية إلى صور ونماذج من ذلك:

١ - لقد أنشئت على مدى العصور الإسلامية أحزاب تتسم بالتدين والدعوة إلى الإسلام في ظاهرها، وهي في باطنها تحارب الإسلام، حيث تقيم المؤتمرات الإسلامية التي تدعو لحضورها بعض علماء المسلمين، فيتخذون بعد ذلك من حضور هؤلاء العلماء وسيلة لتنفيذ مخططاتهم الأثمة، ويستغلون شهرتهم في العالم الإسلامي لترويج بضاعتهم الزائفة في الهدم والتضليل. ومما يدل على خبثهم ومكرهم أنهم لا يدعون لحضور تلك المؤتمرات من علماء المسلمين غالباً إلا من يتوسمون فيه ضعفاً في الدين، يحملهم على مداهنتهم والسير في ركايبهم، ممن تأخذهم المظاهر البراقة، ويجرفه تيار المجتمع الجاهلي الذي يكبر أولئك المفكرين من أعداء الإسلام، ويكن لهم غاية الاحترام، والتبجيل، فتشغله هذه الاعتبارات الجاهلية عن تذكر واجبه نحو دينه، ومسئوليته أمام ربه - جل وعلا -.

وربما دعوا أقوياء الإيمان الذين هم على يقين من أنهم لن يداهنوهم ، ولن يتأثروا بكلامهم ؛ ليضيفوا على مؤثرهم شيئاً من التقدير والاعتبار لدى جمهور المسلمين المعجبين بأولئك العلماء الذين أثبتت التجارب صمودهم في وجه الطغيان ، وتحديات الجاهلية^(١) .

٢ - ومن ذلك تلك المشروعات والجمعيات والندوات التي تسمى إسلامية ، وهم دعائهم ومروجيها محاربة الإسلام ، وعرقلة سير الدعوة النقية القويمة . لقد تردد في وقتنا الحاضر الحديث حول الدعوة إلى الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين^(٢) ، حيث استهوت الفكرة بعض أصحاب ما يسمى «بالفكر الديني المستنير» فراحوا يرددون الدعوة إلى إجراء حوار إسلامي / علماني موسع ، يشارك فيه عقلاء الفريقين من أجل الاتفاق على مسودة مشروع حضاري جديد ، ينهض بالأمّة ، ويعيد إليها حيويتها الفكرية ، والروحية ، والعلمية .

والحقيقة أن فكرة الحوار ذات جاذبية نفسية كبيرة ، تحلب ألباب ذوي الحس الشعاعي من المفكرين ، وتحمل في طياتها صفة الضرار؛ حيث تمثل تميعاً لقضية الإسلام ، وإفساداً لأصول الدين ، وافتئاتاً على شريعة الله - تعالى - وتدليساً شائناً للحق على الخلق .

(١) «المنافقون في القرآن الكريم» تأليف الأستاذ عبدالعزيز الحميدي ص ٤٠٥ .

(٢) نسبة إلى العلمانية وهي دعوة إلى إقامة الحياة على غير الدين ، وتعني في جانبها السياسي بالذات اللادينية في الحكم ، وهي اصطلاح جاهلي غربي ، يشير إلى انتصار العلم على الكنيسة النصرانية التي حاربت التطور باسم الدين .

انظر «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة» من إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي ص ٣٦٧ ، والموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة لناصر القفاري وناصر الغفل ص ٣٠١ .

هذا وإننا إذا افترضنا أنهم يريدون حقاً الوصول إلى حل وسط، وأرضية مشتركة فإن واقع الحال بالنسبة لهؤلاء لا يتمشى مع مبادئ الإسلام وشريعته كما ولا كيفاً، حيث إن العلمانية تقوم على رفض باتٍ لأصل إسلامي أصيل، وهو شمولية الإسلام للدين والدنيا، العقيدة والشريعة، العبادة والقيم الاجتماعية . . . وبالتالي فإن البحث عن «مشروع حضاري إسلامي» تنهض على أساسه الأمة، هو هم إسلامي بحت، ولا أثر للعلمانية فيه بحال، بل هي الخطر الأكبر على المشروع الحضاري الإسلامي، فكيف تكون حليفة فيه؟!

وإن السؤال هنا ليوّجه إلى هؤلاء الذين طرحوا فكرة الحوار الإسلامي العلماني لم لم يفعلوا ذلك من قبل، يوم كان الإسلاميون محاصرين، تتناوشهم سهام الغدر والطغيان من كل جانب؟ ولماذا تظهر هذه الدعوة اليوم بعد النجاحات الساحقة التي حققتها الدعوة الإسلامية على الصعيد المحلي والدولي، واكتسابها تجزراً عميقاً في ديار الإسلام، في الوقت ذاته الذي انزوت فيه العلمانية ودعاتها، ولاحقتهم لعنات الشعوب، لما جرته عليهم دعواهم الخبيثة من خراب في الدين والدنيا معاً^(١)؟. أعود فأقول تجاه هؤلاء وعملهم المريب: إنهم ما اتخذوا ذلك إلا كما قال الله - تعالى - عن أصحاب مسجد الضرار: ﴿ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله﴾^(٢).

٣ - ومن ذلك أيضاً المقالات، والكتب والبحوث التي يتخذها أصحابها ممن يحملون أسماءً إسلاميةً، ويتحدثون عن قضايا يسمونها إسلامية، وهدفهم من وراء ذلك الإضرار بالمؤمنين، وتفريق صفوفهم، بمحاولة

(١) انظر «ثقافة الضرار» للأستاذ جمال سلطان ص ١٩ - ٢٢.

(٢) التوبة: (١٠٧).

فَتَن ناشئة الأمة بقيم الحضارة الأوروبية، وفلسفاتها، وعقائدها، وحب شرائعها. وتقلب مفكرو هذا الاتجاه بين عدة أمور، فهم إما أن يستخدموا طريقة المصارحة بعرض الفكرة الأوروبية، أو التدسس بها على استحياء، أو يقوموا بتغليفها بأغلفة «عربية إسلامية» جذابة!

ومن ذلك مانعق به أحدهم عندما قال عن الحجاب: «إن الحجاب ليس عائقاً عن التقدم فحسب، بل هو مدعاة للرديلة، وغطاء للفاحشة، في حين أن الاختلاط يهذب النفس، ويميت دوافع الشهوة!»^(١).

ويأتي ضرار هذا الأفاك حين يدعي أن الدافع الوحيد من عرض هذه الفكرة إنما هو الحرص على الأمة والغيرة على الدين والوطن^(٢).

ومن ذلك أيضاً ما صرح به أحدهم من أن الحرب التي قادها أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - ضد المرتدين لم يكن صادراً من جهة الوازع الديني حفظاً للإسلام، ودفاعاً عن شريعته كما أخبرنا التاريخ، بل كانت هذه الحرب من أجل الملك والرئاسة، ولا صلة لها بالدين ألبتة!^(٣).
فأي تزوير للتاريخ أكثر من هذا؟!

وأي تهجم على رجال الإسلام وقادته أعظم من هذا؟!
وهاهو منافق آخر، جاء ليحدث في جدار الإسلام خرقاً واسعاً عندما ينقث ما في جعبته، فيقول بكل وقاحة بعد حديث عن التقنيات والصناعة: «وتسألني وماذا نحن صانعون بآدابنا وفنوننا ومعارفنا

(١) «العلمانية» للشيخ سفر بن عبد الرحمن الحوالي ص ٦٢٩، وانظر بحثاً خاصاً بهذه القضية في كتاب «ثقافة الضرار» للأستاذ جمال سلطان ص ٧١ - ٧٤.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) «المعتزلة وأصول الحكم» لمحمد عمارة ص ٣٤٨ نقلاً عن كتاب «غزو من الداخل» للأستاذ جمال سلطان ص ٨.

التقليدية، والتي كانت تحتكر اسم «الثقافة» فأجيبك بأنها مادة للتسلية في ساعات الفراغ!!»^(١).

إنه هنا يرى بأن شريعة الأسلاف لم تعد تصلح لواقعنا المعاصر، وأن علينا أن نبني حضارتنا على النموذج الغربي المادي الحديث دونما التفات إلى أي أسس أخلاقية، أو قيمة ثقافية، أو عقيدية، وشتى معارفنا القديمة. هذه نماذج من أمثلة كثيرة، قصد أصحابها منها تطبيق ماأراده أصحاب مسجد الضرار، بل وأعظم من ذلك، أرادوا فتنة بعض الأغرار من المسلمين، وتلييسهم زياً إسلامياً زائفاً ليحسبوا على الإسلام، ويضافوا إلى أهله، ومن ثم يقوم هؤلاء بتطبيق مافتنوا به من الأفكار الواردة في مقالات أولئك المنافقين، وندواتهم، وكتبهم، ليحدثوا في الأمة المسلمة فتنة، وباباً من الشر عريضاً، تتصدع به الصفوف، ويغفل المسلمون في مواجهته، والوقوف أمامه عن أعدائهم الذين ينتظرون مثل هذه الفرصة ليغيروا عليهم، غير آسفين ولا نادمين^(٢)، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهكذا يجد المتأمل في خطوات ذلك الكيد المتلصص من المنافقين، وكيفيته، ووسائله منذ عهد النبي - ﷺ - إلى عهدنا هذا يجد أن طبيعة النفاق واحدة في كل عصر وزمن، وأن وسيلة المنافقين لا تتبدل ولا تختلف، وأنهم دائماً في جنبهم الدليل وكيدهم الحقير، وفي ابتعادهم عن النور، وتعلقهم بالظلمات. فهم دائماً الذين يسجدون بجباههم على أقدام المستعمر الأجنبي ليعينهم

(١) «تجديد الفكر العربي» لزكي نجيب محمود ص ٢٤١.

(٢) لمزيد من التفصيل في هذه القضية الخطيرة انظر كتابي الأستاذ جمال سلطان «غزو من الداخل» و«أزمة المثقفين في ديار الإسلام».

وسيلة حرب ضد إسلام المسلمين في بلدهم، حتى إذا انفلتوا إلى بني قومهم من المسلمين المؤمنين، تظاهروا بالإسلام، واصطنعوا مظهر الإعجاب به، والدعوة إليه. فإذا أمكنتهم الفرصة من خنق حقيقة من حقائق هذا الدين المعلومة من الإسلام بالضرورة أعلنوا أنهم يقومون برسالة تطويره، وإنما يقضون على مستغليه من أعداء الأمة^(١).

(١) «فقه السيرة» للبوطي ص ٣٢٦.

المبحث الثاني محاربة الإسلام بالإفك على رسول الله - ﷺ - وزوجه

منذ أن قامت دولة الإسلام في المدينة النبوية، واستغلظت، واستوت على سوقها، وهي تواجه الخطر المحدق بها من تلك الطغمة الفاجرة من المنافقين، تلك الفئة الماكرة التي انتهجت سياسة الدس والتشويه، والكيد الخفي. ولقد شهد الإفك إحدى محاولات عصبة الشر والنفاق لضرب الدولة الفتية، وחדش القيادة المسلمة المتمثلة في شخص الرسول - ﷺ - .

بعد غزوة بني المصطلق سنة خمس من الهجرة قبع عبدالله بن أبي بن سلول^(١) - ذلك المنافق الحذر الماكر - في صفوف المسلمين يلسع الغافلين، وينفث الإشاعات المُرِيبة، وكان يفعل ذلك في جنح الظلام، حيث لم يظهر بشخصه في المعركة، ولم يقل علانيةً مايؤخذ به، فيقاد إلى الحد. إنما كان يهمس به بين ملئه الذين يطمئن إليهم، ولا يشهدون عليه. ولقد تدلى - في غوايته - إلى حضيض بعيد، فلم يبال أن يتهجم على

(١) هو عبدالله بن أبي بن مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم الحُبلي المشهور بابن سلول، وسلول جدته لأبيه من خزاعة. كان سيد أهل المدينة، ولم تجتمع الأوس والخزرج على رجل قبله، وكانوا قد نظموا له الخرز ليتوجوه، ثم انفصوا عنه لما جاءهم رسول الله - ﷺ - فلما رأى عزة الإسلام والمسلمين دخل في الإسلام نفاقاً. وكان عملاقاً إذا ركب الفرس خطت إبهاماه في الأرض. راجع في ترجمته «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم ص ٣٥٤، «والطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/٥٤٠).

الأعراض المصونة، وأن ينسج حولها مفتريات يندى لها جبين الحرائر العفيفات^(١).

وهاهو الشاعر يصف حال مثل هذا المنافق فيقول:

الحقد والكذب الصرا ح وكل مكسر ودهاء
واليأس والجبين المذ ل وكل غش والتواء
تلك الرذائل في شعو ب الأرض أبواب الفناء^(٢)
وملخص تلك الحادثة المؤلة أن أم المؤمنين عائشة^(٣) - رضي الله عنها - كانت قد خرج بها رسول الله - ﷺ - معه في غزوة بني المصطلق، بقرعة أصابتها، وكانت تلك عادته مع نسائه، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ففقدت عقداً لأختها كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتسمه في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها، فجاء نفر الذين كانوا يرحلون هودجها، فظنوها فيه، فحملوا الهودج، ورجعت عائشة إلى منازلهم، وقد أصابت العقد، فإذا ليس به داع ولا مجيب، فقعدت في المنزل، وظنت أنهم سيفقدونها، فيرجعون في طلبها، والله غالب على أمره، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء، فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول الصحابي الجليل

(١) «فقه السيرة» لمحمد الغزالي ص ٣٠٨.

(٢) الأبيات للشاعر الباكستاني محمد إقبال، نسبها إليها المهندس حامد الفلاح في مقال له بمجلة التربية الإسلامية الصادرة بالعراق العدد الرابع ص ٢٣، ولم أجد الأبيات في ديوان الشاعر المطبوع.

(٣) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق، الصديقة، أفقه نساء المسلمين، وأعلمهن بالدين، كانت تكنى بأم عبدالله، أحب نساء النبي - ﷺ - إليه، وأكثرهن رواية للحديث، وفاتها بالمدينة سنة ٥٨هـ. انظر ترجمتها في حلية الأولياء (٢/٤٣) و«السمط الثمين». «للطبري ص ٢٥.

صفوان بن المعطل السلمي^(١) - رضي الله عنه -: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله - ﷺ - ؟ وكان صفوان قد عرس^(٢) في أخريات الجيش، لأنه كان كثير النوم، فلما رآها عرفها، وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع، وأناخ راحلته، فقربها إليها، فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها، حتى قدم بها، وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته، وما يليق به، ووجد ابن سلول متنفساً له، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، وجعل يستحكي الإفك، ويشيعه، فلما قدم المسلمون المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسول الله - ﷺ - ساكت لا يتكلم، ثم استشار - أصحابه - لما استلبث الوحي طويلاً - في فراقها، فأشار البعض عليه بفراقها تلويحاً لا تصريحاً، وأشار آخرون بإمساكها، وأن لا يلتفت إلى كلام الأعداء..

وأما عائشة - رضي الله عنها - فإنها لما رجعت مرضت شهراً، وهي لا تعلم عن حديث الإفك شيئاً، سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله - ﷺ - اللطف الذي كانت تعرفه حين تشتكي، فلما نقهت خرجت مع أم مسطح بن أثاثه^(٣) لقضاء الحاجة ليلاً، فعثرت أم مسطح في مرطها، فدعت

(١) هو صفوان بن المعطل بن رخصة السلمي الذكواني، أبو عمرو، شهد الخندق والمشاهد كلها. وحضر فتح دمشق، واستشهد بأرمينية سنة تسع عشرة للهجرة. انظر الإصابة (١٩١/٢)، وتهذيب تاريخ دمشق (٤٤٠/٦).

(٢) أي نزل في آخر الليل للراحة. لسان العرب (١٣٦/٦) مادة (عرس).

(٣) أم سطح هي بنت أبي رهم، القرشية التميمية، قيل اسمها سلمى، وقيل ربيعة، والأخير أولى، وقد جزم به ابن حزم في جمهرة الأنساب. أسلمت فحسن إسلامها، وكانت من أشد الناس على مسطح حين تكلم مع أهل الإفك. راجع ترجمتها في الإصابة (٤٩٦/٤).
ومسطح هو ابن أثاثه بن عباد بن المطلب. أمه بنت خالة أبي بكر، من الشجعان =

على ابنها، فاستنكرت ذلك عائشة منها، فأخبرتها الخبر، فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله - ﷺ - لتأتي أبيها، وتستيقن الخبر، ثم أتتهما بعد الإذن حتى عرفت جلية الأمر، فجعلت تبكي، ولم تكن تكحلت بنوم، ولا يرقأ لها دمع، حتى ظنت أن البكاء فاتق كبدها، وجاء رسول الله - ﷺ - في ذلك، فتشهد وقال: «أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب تاب الله عليه» وحينئذ قلص دمعها، وقالت لكل من أبيها أن يحببا، فلم يدريا مايقولان، فقالت: والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم إني منه بريئة - لتصدقني، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ (١).

ثم تحولت واضطجعت، ونزل الوحي ساعته، فسري عن رسول الله - ﷺ - وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: «يا عائشة، أما الله فقد برأك»، ونزل قوله - سبحانه وتعالى - بشأن الإفك: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضل

= الأشراف . كان اسمه عوفاً ولقب بمسطح فغلب عليه . شهد بدرأً وأحدأً والمشاهد كلها،

وتوفي سنة ٣٤هـ.

انظر ترجمته في «أسد الغاية» لابن الأثير (١٥٦/٥) ونسب قريش للزبير ص ٩٥.

(١) يوسف: (١٨).

الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم* إذ تلقونه بألستكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم* ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم* يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين* وبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم* إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون* ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم ﴿١﴾ (٢).

إننا من خلال حادثة الإفك نجد أن ابن سلول أراد أن يسلك أسلوباً جديداً في محاربة الإسلام، ذلك هو محاولة تدمير بيت رسول الله - ﷺ - وإسقاط مكانة أقرب الرجال إليه، وفوق ذلك أراد أن يدع جمهور المسلمين يضطرب في عمية من الأسى والحزن.

ولقد عرف الخبيث كيف يصيب مقتلاً بنشر الفتنة في صفوف المسلمين، لولا أن الله - تعالى - كان من ورائه محيطاً، وكان لدينه حافظاً ولرسوله - ﷺ - عاصماً، وللجماعة المسلمة راعياً.

رؤي أن ابن سلول كان في ملأ من قومه لما مرّ يهودج أم المؤمنين عائشة

(١) النور: (١١ - ٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٤/٦ - ١٩٦) والبخاري مطولاً في كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، (٢٦٩/٦)، وفي المغازي، باب حديث الإفك (٤٣١/٧) وفي تفسير سورة النور، باب ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات﴾ (٤٥٢/٨) وأرقامها على الترتيب: (٢٦٦١ - ٤١٤١ - ٤٧٥٠) كما أخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢١٢٩/٤) برقم (٢٧٧٠)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة النور، برقم (٣١٨٠)، وعبدالرزاق في المصنف برقم (٩٧٤٨)، وابن جرير في التفسير (٢٧٨/٩) برقم (٢٥٨٥٤) كلهم من حديث عائشة - رضي الله عنها -.

- رضي الله عنها - يقوده صفوان ، فقال الخبيث : (ما برئت عائشة من صفوان ، ولا برىء منها!!)^(١) .

وهكذا راح هذا المنافق يذيع الإفك عن طريق عصبة النفاق بوسائل ملتوية ، وأساليب دنيئة ، وبلغ من خبث تلك الفرية أن تموج المدينة بها شهراً كاملاً حتى بان الحق ، واتضح السبيل ، ونزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة بنت الصديق ، وبراءة بيت النبوة الرفيع ، وكشف المنافقين الذين حاكوا الإفك ، ورسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم .

نعم لقد نزل القرآن ليفصل في القضية المبتدعة التي أرادت بث الفتنة في صفوف المسلمين ، وليرد تلك المكيدة المدبرة ، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ، ورسول الإسلام - ﷺ - ، وليكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله ، وما يعلمها إلا الله .

وفي الآيات المنزلة بيان بأن الذي جاء بذلك الإفك ، وتلك الفتنة لم يكن فرداً ، ولا أفراداً إنما هم عصبة ذات هدف واحد . ولم يكن عبدالله بن أبي بن سلول وحده هو الذي أطلق ذلك الإفك . إنما هو الذي تولى معظمه . وهو يمثل عصبة اليهود والمنافقين الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة ، فتواروا وراء ستار الإسلام لكيدوا للإسلام خفية^(٢) .

ولقد كاد ابن سلول يشعل من وراء حادث الإفك جذوة من نار فتنة أخرى

(١) كذا في مرسل سعيد بن جبير كما ذكر ابن حجر في الفتح (٨/٤٦٤) . وقال الهيثمي في

«مجمع الزوائد» : «رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة ، وفيه ضعف ، وقد يحسن حديثه ، وبقيـ

رجاله رجال الصحيح» . هـ .

مجمع الزوائد (٧/٨٠) .

(٢) الظلال (٤/٢٤٩٩) .

لا تقل خطورة عن سابقتها، جعلت الحين من الأوس والخزرج يحتكان بينهما شر احتكاك، لو لم يكن الإسلام قد بدّل طبائع أتباعه وخصالهم^(١).
ومن حادثة الإفك نعلم أن المنافقين ومن ورائهم من أعداء الدين لما أفلسوا في الناحية العسكرية، وخابت آمالهم في القضاء على الدعوة الإسلامية، واندحر الشرك، وانهزمت الوثنية، وارتفعت راية الإسلام خفاقة، لما حدث ذلك أخذوا يتجهون اتجاهاً آخر، وساروا مساراً ثانياً خبيثاً وسيئاً، ومما يدل على خستهم ونذالتهم أنهم يريدون أن يهزموا المسلمين في ميدان الأخلاق، فيوقعوا في أخلاقهم، ويخوضوا في أعراضهم، ولهذا تجدهم لا يتورعون عن اتهام الآخرين في أعراضهم وخاصة القياديين من الإسلاميين، وأصحاب الجراءة في قول الحق، ومطاردة الباطل، ودحض حجج المعاندين والجاحدين.
وبقدر ما يبذل المسلم في الدعوة والجهاد ونصرة الحق توجه له المطاعن، والتهم، وتلفق ضده الدعايات المغرضة، والأقاويل الباطلة.

(١) «تفسير سورة النور» للأستاذ أبي الأعلى المودودي ص ٢٢. وهذه الفتنة أشارت إليها الروايات الواردة في شأن الإفك، وذلك حين قال رسول الله - ﷺ -: «من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» فقام سعد بن معاذ الأنصاري، فقال: أنا أعذرک منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک، فقام سعد بن عبادة فقال وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطک ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتله، فإنک منافق تجادل عن المنافقين، فتشاور الحیان الأوس والخزرج حتى هما أن يقتلوا، ورسول الله - ﷺ - على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله - ﷺ -.

وإن المتأمل في حادثة الإفك يجد أن من أهداف المنافقين جرَّ بعض المسلمين للخوض في مثل هذه الحادثة المريية، فيؤلبون المؤمنين بعضهم على بعض، ولقد تحقق لهم بعض ما يريدون، حيث خدع في هذه الفتنة بعض المؤمنين، فخاض منهم من خاض^(١).

ولئن ظن المنافقون أنهم نجحوا في تحقيق بعض مآربهم الدنيئة فإن الله - عز وجل - كان لهم بالمرصاد، فحق الحق، وبطل ما كانوا يعملون. ولكونهم اتجهوا هذا الاتجاه الفاسد نجد القرآن يرسم لنا طريقاً معيناً يتم من خلاله صلاحنا الاجتماعي، فإن أمثال أولئك المنافقين لا ينبغي أن نأخذهم مأخذ الرحمة، وإن شخصاً يقع في أعراض المؤمنين، ويدنس كرامتهم، ويحاول أن يشفي غليله بالإفك، والزور، والبهتان لا ينبغي أن يتساهل معه، وإنه لو ترك منطلق اللسان، يقذف المحصنات الغافلات المؤمنات فإنه لن يقف عند حد، وإنما سيمضي صعباً إلى أشرف المقامات، ولنسوف يتناول إلى أعلى الهامات، وستعدم الجماعة المسلمة كل تخرج، وكل حياء، وكل وقاية^(٢).

وعلى هذا فالموقف هنا أن يعامل هؤلاء وفق نصوص الكتاب والسنة، وهذا من أشد وسائل مكافحة الإفك والبهتان الذي يلصقه المنافقون بالمؤمنين. وهو ما يدلنا على أن كرامة المسلم فوق كل كرامة، وأن المجتمع الذي تطبق فيه حدود الله - تعالى - ستكون أعراض المسلمين فيه مصونة، وكرامتهم موفورة، ولن تصان الأعراض بما يفعله من يحتكمون إلى القوانين الوضعية، والدساتير الأرضية مهما أحدثوا من إقامة المحاضرات والندوات، وإعداد البحوث النفسية والاجتماعية البعيدة عن الشرع المطهر؛ ذلك لأن الحل الإسلامي المتمثل في

(١) منهم حمزة بنت جحش، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثانة كما تفيد الروايات الواردة في ذلك.

(٢) الظلال (٤/٢٥٠٠) «بتصرف».

العمل بالكتاب والسنة هو المنجي ، وهو الشافي والكافي^(١) .
وبعدُ فهذا ما أحدثه المنافقون من الإفك ، اغتتموه فرصة فاختلقوا
وكذبوا وافتروا ، فماذا كان مصيرهم ؟ إنه الفضيحة وخزي الأبد ،
ولعذاب الآخرة أشد .

فما بال منافقي هذه الأيام لا يراعون ؟ !
فيا أيها المنافقون الواقعون في أعراض الدعاة والمصلحين ألا تعتبرون بحال
من مضى من المنافقين السالفين ؟ !

يامن يكيدون للإسلام ، اذكروا نتيجة سلفكم في الأولين .

وما الذي تريدون ؟ !

هدم ما يحفظه العليم الحكيم ؟ !

ماذا تحاولون ؟ !

أن تطفئوا نور الله ؟ !

وماذا تنتظرون ؟ !

أن تغلبوا من بيده مقاليد الأرض والسموات ؟ !

لقد خسرتم الآخرة ، فهل ضمتتم الدنيا ؟ !

لقد تخلى الله عنكم لإعراضكم ، فبمن تعوضتم ؟ ! ومن الذين ينصركم

من الله إن طردكم من رحمته وأحل بكم نقمته وعذابه ؟ ! ﴿فإنها لا تعمى

الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾^(٢) .

(١) انظر «حديث الإفك كما جاء في سورة النور، ودور المنافقين فيه» رسالة ماجستير مقدمة من
عبدالحليم العبد اللطيف كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام

١٤٠٤ هـ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) الحج : (٤٦) .

المبحث الثالث

تشكيك الناس في صدق النبي - ﷺ -

بعد أن تخلف مَنْ تخلف من المنافقين عن غزوة تبوك^(١)، سنة تسع من الهجرة نزل القرآن بدمهم والتشهير بهم حتى شبههم الله - تعالى - بالنساء والمقعدين. وكان بعضهم ذوي شرف وزعامة في قومهم، فاستنكر ذلك المنافقون عندما رأوا أن الذين ورثوا المجد كابراً عن كابر ينزل بهم الإسلام إلى أسفل سافلين؛ لما هم عليه من محاربة الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - .

وكان من عمل هؤلاء أن أحدهم أخذ يوجه إلى رسول الله - ﷺ - أشنع الألفاظ؛ ليشكك المؤمنين في نبينهم محمد بن عبدالله - عليه الصلاة والسلام - وفي دعوته، محاولاً أن ينفض الجمع من حوله، فتختلف بذلك الكلمة، وتتفرق الصفوف.

كان المشكك الجلاس بن سويد بن الصامت^(٢) حيث كان يوماً.. جالساً

(١) تبوك: موضع بين وادي القرى والشام، يبعد عن المدينة عشرين وأربعمئة ميل تقريباً، انظر «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» لصفي الدين البغدادي (٢٥٣/١).

(٢) هو الجلاس بن سويد بن الصامت الأنصاري، كان من المنافقين ثم تاب وحسنت توبته، حتى عُرف منه الإسلام والخير، يقال: إنه الذي قتل المجذرين زياد البلوي، والصحيح أن الذي قتله أخوه الحارث بن سويد قتله بأبيه سويد بن الصامت الذي قُتل في بعض حروب الجاهلية. راجع ترجمته في الإصابة (٢٤١/١) والبداية والنهاية (٣/٢٣٦، ٢٣٧).

مع ابن امراته عمير بن سعد^(١) - رضي الله عنه - وكان يتيماً في حجره، فقال الجلاس: «والله إن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول لنحن شر من الحمير». ولعل الجلاس ظن أن عميراً لن يخبر بما سمع لما يرى من أثر نعمته عليه، لكن هذا الفتى الذي رسخ الإيمان في قلبه في وقت مبكر، والذي أصبح فيما بعد عالماً من أعلام الإسلام، هذا الفتى علم وأيقن أن مراقبة الله - تعالى - أولى من مراقبة المخلوقين، وأن من واجبه أن يرضي ربه - تعالى - ولو سخط عليه أقرب الناس إليه، الذي رباه في حجره، وأضفى عليه من نعمته، ووازن - رضي الله عنه - بين فضيحته بإنكار المنكر، الذي يتضمن كشف ستر من أحسن إليه، وهلاك الآخرة بكتمان الأمر، والسكوت على المنكر، فرجع النجاة من هلاك الآخرة؛ لأنها هي الباقية، وماسواها فإن وزائل. ولم يجد عمير بداً من أن يقول للجلاس: «والله ياعدو الله لأخبرن رسول الله - ﷺ - بما قلت، فإني إن لا أفعل أخاف أن تصيبني قارعة، وأؤخذ بخطيئتك». وانطلق عمير إلى رسول الله - ﷺ - فأخبره الخبر، فدعا النبي - ﷺ - الجلاس فقال: (يا جلاس، أقلت: كذا وكذا؟) فحلف الجلاس أنه ما قال ذلك، كما هي عادة المنافقين عندما يقعون في المأزق، ويريدون الخلاص منها، ولكن القرآن فضحه، وبين كذبه، حيث أنزل قوله - جَلَّ وعلا -: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَانَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يَعَذِّبُهُمْ اللَّهُ

(١) هو عمير بن سعد الأنصاري الأوسي، كان يقال له نسيحٌ وحده، شهد فتح الشام، وولي دمشق وحمص لعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - وكان من الزهاد. انظر سير أعلام النبلاء (١٠٣/٢) وأسد الغابة (٤/٢٩٤).

عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير^(١) (٢).

إن أعداء الدين وبخاصة المنافقين لا يدخرون وسعاً متى ماحانت لهم الفرص أن يطعنوا في الإسلام بمحاولة التشكيك في نبي الله ذاته - عليه الصلاة والسلام - ولكن حملة الإسلام من الشباب المؤمن الصادق لا يمكن أن يسكت أبداً عن مثل تلك الدعاوى المجرمة التي لا تفتأ تكيد للإسلام ودعائه، وإن لهم في ذلك الصحابي الجليل - عمير بن سعد - رضي الله عنه - قدوة حسنة، فقد ضرب بموقفه مع الجلاس مثلاً فريداً في التقوى، لا سيما وأن بعض الروايات هنا ذكرت أن الجلاس هم بقتله حتى لا يفشي سره، ولكن الله - عز وجل - حماه ودافع عنه.

هذا ولا زال أعداء الملة والدين من المنافقين وأذئابهم يفعلون، ماهو أشد من فعل الجلاس بن سويد، إذ هم يكيلون التهم والسباب لرجال الإسلام من العلماء الصادقين، والدعاة المخلصين، كل ذلك ليحدثوا في الأمة شرخاً، تتصدع به أركانها ومقوماتها، وتتفرق به كلمتها، وتنفض الجموع الحاشدة من حول العلماء الربانيين، فلا يجد سائر المسلمين من يدهم على الطريق الذي ينتفعون من ورائه في دينهم، وأخلاقهم، وسائر أحوالهم، وإليك أمثلة على ذلك:

في الفترة التي ظهرت فيها دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية^(٣) - رحمه الله -

(١) التوبة (٧٤).

(٢) أخرجه الإمام ابن جرير في تفسيره (٤٢١/٦) برقم (١٦٩٨٢) وفيه سفيان بن وكيع، وهو ضعيف. راجع تهذيب التهذيب (٣٠٦/٢) والتقريب لابن حجر ص ٢٤٥ برقم (٢٤٥٦). لكن تعضد هذه الرواية رواية أخرى عن ابن جرير وهي برقم (١٦٩٨٣).

(٣) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله بن أبي القاسم التميمي الحارثي الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، كان كثير البحث في فنون الحكمة، آية في التفسير والأصول، فصيح =

وتقبلتها عقول الناس، واستساغتها لما كان لها من دور فعال في إزالة الركام الهائل من المغالطات، والتهويلات، والبدع، الخرافات، في تلك الفترة نجد أنه قد كثر حساده، والناقمون عليه، لما كان يتمتع به - رحمه الله - من صدق اللسان والقلم، الذين لم يجعلوا له من صديق، حيث لم يدار أحداً، ولم يعرف النفاق إلى قلبه سبيلاً.

عندئذٍ حيكت ضده المؤامرات، ورُمي بما ليس فيه. ولم يتأخر أولئك المنافقون من أصحاب الكراسي من استغلال مناصبهم في الوشاية به إلى الحكام، ثم زجهم إياه في السجون والمعتقلات؛ لأنهم كانوا يستطيعون مخالفة الشيخ بأقوالهم وآرائهم في ضوء الكتاب والسنة.

إن العرائين تلقاها محسدة^(١) ولم تجد للثام الناس حساداً^(٢) وعندما ظهرت دعوة الإمام المجدد شيخ الإسلام، محمد بن عبد الوهاب^(٣) - رحمه الله - في الجزيرة العربية ظهر أولئك المغرضون الذين أخذوا يبحثون عن مجالات للطعن في الشيخ ودعوته، ومحاولة تشكيك الناس

= اللسان، قلمه ولسانه متقاربان. من أشهر تصانيفه «السياسة الشرعية» ورفع الأعلام عن الأئمة الأعلام» و«منهاج السنة» وغيرها كثير جداً، توفي معتقلاً بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ. انظر في ترجمته البداية والنهاية (١٤١/١٤) والأعلام (١/١٤٤).

(١) انظر «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة»، تأليف صلاح الدين مقبول أحمد ص ١٨٧ - ١٨٨.

(٢) هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، ولد ونشأ في العيينة بنجد، ودعا إلى التوحيد الخالص، وبند البدع، وتحطيم ماعلق بالإسلام من أوهام، من أشهر كتبه «كتاب التوحيد» و«كشف الشبهات» و«نصيحة المسلمين». توفي ببلدة الدرعية سنة ١٢٠٦هـ. انظر ترجمته في «علماء نجد خلال ستة قرون» لعبد الله البسام (١/٢٥) والأعلام (٢٥٧/٦).

في صدقه، فلما لم يجدوا أخذ بعضهم يقول: «لقد كان الرجل في الحقيقة يريد أن يدعي النبوة إلا أنه تسرَّ»^(١).

وردّد بعضهم الاتهام نفسه بهذه الكلمات:
«والظاهر من حال محمد بن عبد الوهاب أنه يدعي النبوة إلا أنه ما قدر على إظهار التصريح بذلك»^(٢).

بل لقد وصل الأمر ببعضهم أن يقول:
«لعل الشيخ^(٣) غفل عن مواجهة أمه^(٤)، فسبقه الشيطان فكان أبا هذا المارد»^(٥).

هذا وإن المتأمل في واقع الأمة اليوم يأسف كثيراً لتلك الأفعال التي صدرت من أناس يدعون أنهم على منهج السلف الصالح.
نعم يأسف ويتألم كثيراً عندما يرى بعض هؤلاء يترصد لأخطاء العلماء العاملين، والدعاء المخلصين، يتلمس عثراتهم، بل وينصب الشراك لهم، على طريقة: ماذا تقول في كذا؟ أتقصد أن تقول كذا؟ على أمل أن يظفر منه بهفوة أو سقط، فيطير بها، ويشنع عليه فيها!!
والحقيقة أن الأمر في ذلك وصل إلى حد مرّضيٍّ، يصعب تخيله في بعض المتتبعين إلى المنهج السلفي الراشد، وهناك من يحترف التنقيب في كتابات

(١) «محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفتري عليه» تأليف الأستاذ مسعود الندوي ص ١٧١.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) يعني عبد الوهاب والد الشيخ محمد.

(٤) يعني أم محمد بن عبد الوهاب.

(٥) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

غيره، ثم ينتقي منها فقراتٍ يحملها على أسوأ احتمالاتها ومعانيها، ليخلص منها بأن صاحبها قصد كذا وكذا، فهو إذن مبتدع، أو ضال، أو كافر، حسب التصنيف الذي يمن به عليه!

وأحياناً يبدو للمتابع أن بعض الناقدين يسعد كثيراً إذا أثبت البدعة أو الكفر على أحد من المجتهدين أو الدعاة، وكأنه يبتهج بأن يتعزز صف المبتدعين، والكفار بزيادة رمز جديد إليهم، هذا إذا صح ظنه، وسلم طعنه، فكيف وأغلبها الأعم تحكيمات في الأفهام، وتهويل في التأويل، واتباع للهوى، وإساءة ظن بأهل الإسلام.

لقد كان رسول الله - ﷺ - يلمس شبهات البراءة لأهل المعاصي، فيأتيه الرجل يقول له: زني، فطهرني، فيقول له نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - : «لعلك فعلت كذا وكذا»، فيقول: بل زني فطهرني، فيعاود إمام الرحمة: «لعلك فعلت كذا»، مرات عديدة، عساه يجد له مخرجاً، وتهمة معصية^(١).

فما بال كثير من الناس اليوم لا يرفعون عن ذلك السيل العارم من الهجوم على جهابذة الإسلام، ودعائه المصلحين؟ أما كفاهم ما يحل بالمسلمين يوماً بعد يوم من تسلط الكافرين المفسدين، والزنادقة الملحدين؟!

كان الأولى بهم أن يلمسوا للناس المخارج، ولا سيما في التهم الشنيعة، ويقولوا: لعلهم قصدوا كذا، ولعلهم أرادوا كذا، وربما لعلهم سهوا، أو نسوا.. وهذا هو سبيل الراشدين، ونهج السلف الصالحين، الذين كانوا

(١) الإشارة إلى قصة ماعز، وقد أخرجها البخاري في كتاب الحدود، باب هل يقول الإمام للمقر: لعلك لمست أو غمزت (١٢/١٣٥) برقم (٦٨٢٤)، ومسلم في الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى (٣/١٣٢١) برقم (١٦٩٥)، وأبو داود في الحدود، باب رجم ماعز بن مالك (٤/١٤٥) برقم (٤٤١٩)، وابن ماجه في الحدود أيضاً، باب الرجم (٢/٨٥٤) برقم (٢٥٥٤).

يقدرُونَ الأمور بقدرها، ويعرفون الأبواب التي ينفذ منها المنافقون والمرجفون^(١).

إن تلك الظاهرة الطارئة والشاذة من بعض المنتسبين للسلف الصالح - وليسوا كذلك - من شأنها أن تسيء إلى الدعوة برمتها، وأن تؤسس لفتنة عظمى، ورزية كبرى، وتضع منهجاً جديداً للتدمير، والفرقة من داخل الأمة المسلمة نفسها^(٢).

هذه كلمات قصدت منها التنبيه لقضية كبرى، طالما أخطأ فيها كثير من الناس في هذا العصر، وليتهم كانوا من العامة، لكن المؤسف والمؤلم أنهم ممن يحسبون على العلم والدعوة، فجرى هذا الاستطراء، من أجل التحذير مما يشكك المسلمين في صدق علمائهم ودعاتهم، لئلا يحدث ما حذرنا الله - تعالى - منه بقوله: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾^(٣)، وإني بهذه المناسبة أدعو أولئك المشككين، والمجرحين لعلماء الإسلام ودعاته أدعوهم أن يفيقوا مما أغراهم الشيطان به من الوقوعة في أعراض العلماء، فقد خرقوا بذلك حرمة الاعتقاد الواجب في موالة علماء الإسلام، وجروا الأمة الإسلامية بعامة والشباب المسلم بخاصة إلى فتن تدق الأبواب، بل وتفتح باباً من الشر عريضاً للجدل والشقاق، أعظم مما أحدثه الجلاس يوم طعن في رسول الله - ﷺ - وفي

(١) يمكن الرجوع إلى أمثلة كافية في هذا السبيل في كتاب: «الإنصاف سبيل الائتلاف واجتماع الكلمة» تأليف عبيد بن أبي نفعي الشعبي.

(٢) لمزيد من التفصيل في هذه القضية الخطيرة يراجع كتاب «تصنيف الناس بين الظن واليقين» تأليف الشيخ بكر بن عبد الله أبوزيد، ومقال: «مستقبل الدعوة السلفية: رؤية نقدية» للأستاذ جمال سلطان، بمجلة البيان العدد ٧٣ ص ١٠٦ - ١١٩.

(٣) آل عمران: (١٠٣).

دعوته فالتوبة التوبة قبل أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله
وإن كنت لمن الساخرين ، أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين .
والله - تعالى - المسؤول أن يحفظ الأمة من مضلات الفتن ، مظاهر منها ،
وما بطن ، إنه أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين ، لا يخبى من رجاه ، ولا يرد من
دعاه .

المبحث الرابع إثارة العصبية والتحزب بين المسلمين

لقد كان العرب قبل ظهور الإسلام تائهين في بيداء الضلالة، يتخبطون في ظلمات بعضها فوق بعض، أحوالهم مضطربة، وأمورهم ملتوية، تسود أفراد القبيلة فيهم فكرة العصبية، فكل فرد يتعصب لقبيلته، ويسير على منهاجها، أصابت أم أخطأت، يدل على ذلك قول شاعرهم:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غَوَيْتُ وإن ترشد غزية أرشد^(١)
وعلاقة القبائل بعضها ببعض علاقة عدا - غالباً - لذلك كانت الحروب بينهم قائمة على قدم وساق، لا تكاد تتمد جذوتها، كما كان الشقاق سائداً، والنزاع مستمراً، والسلب، والنهب، والتحاسد، والتباغض لا توجد بقعة إلا كانت هذه الرذائل تتغلغل فيها.

لقد كان العرب قبل الإسلام هملاً من غير رابط، وأحياء من غير غرض، فاضت في نفوسهم الحياة، وزخرت في صدورهم القوة، فصرفوا هذا النشاط العجيب إلى نزاع دائم، وصراع لا ينقطع. كانوا يعانون تفكك الخلق، وفساد المثل العليا، وكانت العصبية القبلية من أبرز السمات التي اتصف بها القوم قبل مجيء الإسلام.

(١) ديوان دريد بن الصمة ص ٤٧ جمع وتحقيق وشرح محمد خير البقاعي.
وبعد البيت المذكور قوله:

دعاني أخي والحيل بيني وبينه فلما دعاني لم يجدي بقعدٍ

ولما جاء رسول الله - ﷺ - برسالة الإسلام إلى هذه الأمة المتفرقة أشتاتاً، والتي تعاني من تلك العصبية المقيتة أخذ - عليه الصلاة والسلام - يحدد أخلاق القوم، ويطلع قريحتها على التسامح، ويرفع المجتمع على المحبة، ويؤلف بين القبائل، فعاشوا حينئذٍ على وفاق، وألفة بتوفيق الله - تعالى - .

وبدأ - ﷺ - بوضع نظام ثابت لتلك الجمهورية الصغيرة، ودعا القوم إلى نبذ العصبية، وإيقاف الشحناء، فوضعت القبائل العربية عن كواهلها عتاد الحرب، ونفضوا عن وجوههم غبار الصحراء فسَمَوْا في مراقي الحضارة بسرعة أدهشت العالم أجمع، واستطاعوا أن يقيموا على أنقاض اليونان والرومان والفرس حضارة ثابتة الأصول، بأسقة الفروع، طاولت الدهر، وصاوت المغير، وأخضعت لسلطانها حضاراتٍ لم تخضع لفتح من قبل حتى أنشأوا فيما دون القرنين ملكاً طَبَّقَ الأرض، وحضارة هذبت العالم، وثقافة حررت العقول، وصاروا بذلك هداة الأنام، وقادة الأيام.

ولقد ضج المنافقون وأذئابهم من اليهود في عهد النبي - ﷺ - من ذلك الترابط الذي تم بين المؤمنين، وضاقوا ذرعاً بذلك، فأخذوا يحكيون المؤامرات، ويهتبلون الفرص لطحن المسلمين من داخل صفوفهم، وكان هذا يتمثل في بث العصبية والتحزب بين المؤمنين؛ لما لها من الأثر الكبير في تحطيم المجتمع المسلم، وتمزيق الصف المؤمن، وإثارة الفتنة والفرقة. وسوف أقف في الصفحات التالية - بإذن الله - على مثالين يبينان ذلك المكر والكيد الذين يقودهما المنافقون واليهود ضد المسلمين.

المثال الأول :

جاء في السيرة النبوية أن رسول الله - ﷺ - بلغه أن بني المصطلق^(١) يجمعون له، فلما سمع بهم خرج إليهم في شعبان من السنة الخامسة للهجرة،

(١) بنو المصطلق: جماعة من خزاعة. انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٧٣).

حتى لقيهم على ماء يقال له : المريسيع ، فتزاحف الناس ، واقتتلوا ، فهزم الله بني المصطلق ، وقُتل من قُتل منهم ، ونفل رسول الله - ﷺ - أبناءهم ، ونساءهم ، وأمواهم ، فأفأهم عليه ، فبينما رسول الله - ﷺ - على ذلك الماء وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أجير له من بني غفار ، يقود فرسه ، فازدحم هذا الأجير مع رجل من الأنصار ، فاقتتلا ، فصرخ الأنصاري : يامعشر الأنصار ، وصرخ أجير عمر : يامعشر المهاجرين .

وفي الصحيح : فسمع ذلك رسول الله - ﷺ - فقال : « ما بال دعوى جاهلية ؟ » قالوا : يارسول الله ، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « دعوها فإنها متنة » (١) .

قال في السيرة : فغضب عبدالله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم (٢) ، غلام حدث ، فقال : أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا (٣) ، وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدنا وجلايب قريش (٤) إلا كما قال الأول : سَمَنْ كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، احللتموهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب سورة (المنافقون) (٦٥٢/٨) برقم (٤٩٠٧) ، ومسلم في كتاب البر والصلة ، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً (١٩٩٨/٤) برقم (٢٥٨٤) . ومعنى «كسع» كما في القاموس المحيط ص ٩٨٠ : ضرب الدبر بيده أو بصدر قدمه .

(٢) هو زيد بن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان الخزرجي ، غزا مع النبي - ﷺ - سبع عشرة غزاة ، قيل أولها الخندق ، وقيل المريسيع ، وله حديث كثير ، توفي بالكوفة سنة ٦٦ هـ وقيل سنة ٦٨ هـ . انظر الإصابة (١/٥٦٠) .

(٣) من معاني المناقرة : الفاخرة كما في القاموس ص ٦٢٥ ولعله المراد هنا .

(٤) الجلايب جمع جلباب وهو الثوب الواسع كما في اللسان (٢٧٢/١) مادة (جلب) وقد كنى به هنا عن الفقر .

بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم مابأيديكم لتحولوا إلى غير داركم^(١).

وفي الصحيح عن زيد بن أرقم - رضي الله عنه - قال: كنت مع عمي^(٢)، فسمعت عبدالله بن أبي بن سلول يقول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فذكرت ذلك لعمي، فذكر عمي لرسول الله - ﷺ - ذلك، فأرسل رسول الله - ﷺ - إلى عبدالله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله - ﷺ - وكذبني، فأصابني هم لم يصبني مثله، فجلست في بيتي، فأنزل الله - عز وجل -: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾^(٣).

فأرسل رسول الله - ﷺ - فقرأها عليّ ثم قال: «إن الله قد صدقك»^(٤).

المثال الثاني :

جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾^(٥) أن رجلاً يهودياً اسمه شاس بن قيس، وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية^(٦)، عظيم الكفر، شديد

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة (٢/٢٩١)، وابن جرير في تفسيره (١٢/١٠٨) برقم (٣٤١٧٨).

(٢) قال ابن حجر في الفتح (٨/٦٤٥): «وقع عند الطبراني وابن مردويه أن المراد بعمه سعد بن عبادة، وليس عمه حقيقة، وإنما هو سيد قومه الخزرج، وعم زيد بن أرقم الحقيقي ثابت بن قيس».

(٣) المنافقون (١ - ٨).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (اتخذوا أيمانهم جنة) (٨/٦٤٦) برقم (٤٩٠١).

(٥) آل عمران: (١٠٠).

(٦) عسا: شاخ وكبر (لسان العرب: ١٥/٥٤) مادة (عسا).

الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم، مرَّ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ - من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم، وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة^(١) بهذه البلاد. والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً معه من يهود، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم ذكرهم يوم بعث، وما كان قبله، وأنشداهم بعض ما كانوا يتناولوا فيه من الأشعار. وكان يوم بعث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج. ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواءم رجلان من الحيين على الركب فتناولوا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتُم - والله - ردتناها جذعة. وغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا. السلاح، السلاح... موعذكم الظاهرة^(٢). فخرجوا إليها، وانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ - فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟» فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان. وكيد من عدوهم لهم. فآلقوا السلاح، وبكوا، وعانق الرجال بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ - وأنزل الله - تعالى - في شأن شاس بن قيس، وما صنع: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ

(١) بنو قيلة: هم الأوس والخزرج. وقيلة أم من أمهات الأنصار، نسبوا إليها. راجع تعليق

محققي السيرة النبوية (٢/٦٥) الحاشية رقم (٣).

(٢) الظاهرة: الحرة. سيرة ابن هشام (١/٥٥٦).

الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ماتعملون ﴿ إلى قوله : ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾^(١) وأنزل في الرجلين الذّين تقاتلا ، ومن كان معها من قومها الذين صنعوا ما صنعوا : ﴿ياأيها الذين آمنوا إن تطعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ إلى قوله : ﴿أولئك لهم عذاب عظيم﴾^{(٢) (٣)} .

وهكذا يتبين لنا من المثالين السابقين ما يكتنه المنافقون وأذناهم اليهود للإسلام والمسلمين من الحقد والحرص الأكيد على بث الفتنة في صفوف المسلمين ، بإثارة العصبية والتحزب بينهم .

ألم يقل ابن سلول - ذلك المنافق العنيد - وهو في الرهط من الأنصار ، ألم يقل : (أوقد فعلوها - يعني المهاجرين - قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا!!) ألم يقل لمن حضره من الأنصار : (هذا ما فعلتم بأنفسكم ، احللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم!!) .

نعم لقد تنبّهت الفتنة ، وهاج هائج الشر!! ولم يكن المنافقون واليهود يريدون بإثارة مثل تلك الحادثتين إلا هدم كيان المجتمع المسلم المكون في ذلك الوقت من المهاجرين والأنصار - رضي الله عنهم أجمعين - .

نعم إن المنافقين وأذناهم اليهود أرادوا بذلك أن يعيدوا الأمور أسوأ من

(١) آل عمران : (٩٨ - ٩٩) .

(٢) آل عمران : (١٠٠ - ١٠٥) .

(٣) أخرجه ابن هشام في السيرة (٥٥٥/١) وابن جرير في تفسيره (٣٧١/٣) برقم (٧٥٢٢) وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (١٠٢/٢) والواحي في أسباب النزول ص ٩١ وما بعدها كلهم من حديث زيد بن أسلم - رضي الله عنه - .

ذي قبل ، حين كان اليهود في المدينة قبل الإسلام يتلاعبون بمصير من حولهم من الأوس والخزرج ، حين كانوا يتآمرون مع هؤلاء على أولئك ، ويحرضون أولئك على هؤلاء ، ويتفرجون من بعيد كيف تثور الضغائن والأحقاد ، ويقتل الأقرباء والإخوة .

ولقد كادت تلك الحادثنان أن ترد المسلمين كفاراً ، يضرب بعضهم رقاب بعض ، لو لا أن الله - تعالى - فضح تلك الشرذمة الحاقدة ، وكشف ألعينها ، وأحاييلها .

واليوم تتكرر الفعلة النكراء التي قادها من قَبْلُ المنافقون ، حيث يَشُنُّ منافقو هذا العصر ، ومن سلك طريقهم كأولئك الفجرة من العلمانيين ، يشن هؤلاء وأولئك على المسلمين حرباً ضروساً لا هوادة فيها .

وإنَّ من أخطر الأمور التي يستخدمها هؤلاء تلك الحرب الخفية التي كررها أصحابهم من قَبْلُ من محاولة ضرب المجتمع المسلم بإثارة العصبية والتحزب بينهم ، ومن ذلك أن بعض أولئك القوم ممن يدعي الانتساب للإسلام - وهو في الحقيقة يريد أن يتحرر منه ، لأنه عقبة أمام شهواته ومصالحه وطغيانه ، إن بعض هؤلاء يسلك نفس المسلك الذي سلكه المنافقون واليهود في العصر الأول ، للكيد بالإسلام والمسلمين ، فقد حضر أحدهم اجتماعاً في إحدى الدول العربية ، وحين جاء ذكر للقضية الأفغانية - يوم كان القتال قائماً بين المجاهدين الأفغان والروس - فقال ذلك القومي^(١) متعجباً : أيراد مني أنا العربي أن أذهب لأقاتل بجانب الأفغاني ؟ !

(١) نسبة إلى ما يسمى بالقومية العربية وهي «حركة سياسية فكرية متعصبة ، تدعو إلى تمجيد العرب ، وإقامة دولة موحدة لهم ، على أساس من رابطة الدم والقربى واللغة والتاريخ ، وإحلالها محل رابطة الدين . وهي صدى للفكر القومي الذي سبق أن ظهر في أوروبا» الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٤٠١ .

بل لقد وصل الحال ببعض الزعماء القوميين أنه عندما قابل أحد القادة الكبار من المجاهدين الأفغان قال بكل سخرية وهو يقهقه: « . . . أنتم تهزمون الروس بسر اويلكم أيها الأفغان!! ».

هكذا قال هذا القومي ، دعاه إلى ذلك كبره وغروره .
دعاه إلى ذلك تمجيده لعرويته ، فهل ينفع تعصب هذا وأمثاله للعروبة شيئاً حين يتنازل عن إسلامه ، وأخلاقه؟!
إنها العصبية المقيتة التي حذرنا منها رسول الله - ﷺ - عندما قال : «دعوها فإنها متنتة» .

ومن هنا فإننا لا نتعجب مما كان يفعله النصارى أيام الحروب الصليبية حين أوكل إليهم الأوروبيون مهمة القيام بالدعوة إلى العصبية العرقية بين المسلمين ، لتحل محل العقيدة .

لقد قاموا يدعون إليها ويغالطون . ولما كان المسلمون يعيشون في مرحلة من الجهل طُليت هذه المغالطة ، أو هذه اللعبة على بعضهم ، فحملوها ، وبدأوا يسعون لنشرها ، ومحاولة تعميق جذورها في المجتمع .

لقد بدأ دعاة العصبية وهم من النصارى بادی ذي بدء يطرحون فكرة الرابطة التي تربط الناس بعضهم ببعض ، وتجعل منهم مجموعة متماسكة ، تحرص أن تدافع عن كيانها ، وتحمي ذمارها .

لقد طرح النصارى فكرة رابطة الجوار لتحل محل آصرة العقيدة وبدأوا يبحثون عن العلاقات التي تشد الناس بعضهم إلى بعض ، ورأوا أن علاقة السكن هي أهم رابطة ، وغالباً ما يكون الجوار من أصل واحد ، ويتكلمون لغة واحدة ، وهنا لا بد للنصارى من استخدام أسلوب المكر والمخادعة والمغالطة ؛ ليخدعوا السذج من المسلمين .

ادّعى النصارى أنه لا علاقة تربط المسلم العربي مثلاً مع المسلم في

أندونيسيا، ولكن هناك صلة يومية، وعلاقة دائمة بين المسلم العربي وجاره النصراني أو اليهودي، أو أياً كانت ملته، فهما يعيشان معاً، ويتبادلان شؤون الحياة، سواء أكانت تجارة، أو صناعة، أو زراعة، يدافعان عن المأوى المتجاور، وعن المصلحة المتبادلة، يجنيان الرزق، ويتقاسمان المنفعة! إنهم يغالطون في هذا كله ويخادعون؛ حيث يأخذون جانباً، ويهملون جانبين، يلحون في حق الجوار، ويهملون حق العقيدة، وحق صلة الرحم^(١). وهكذا نرى المكر والخداع من هؤلاء النصارى كما تكرر من المنافقين واليهود؛ كل ذلك بغية جعل المجتمع المسلم مجتمعاً متفككاً، لا تربط المسلم بأخيه المسلم أي رابطة، وتلك لعمر الله الطامة الكبرى، والرزية العظمى، أراد منها أعداء الإسلام هدم أركان المجتمع المسلم، حتى لا يبقى المسلمون حجر عثرة أمامهم، ونحن نسأل الله - عز وجل - أن يرد كيدهم إلى نحورهم، ويجعل بأسهم بينهم، إنه على كل شيء قدير.

(١) انظر «المغالطات وأثرها في الأمة»، تأليف محمود شاكر ص ٨٨ - ٩٠.

الفصل الثالث الصد عن سبيل الله - تعالى -

وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول: الإغراء والإغواء .
- المبحث الثاني: محاولة صرف الناس عن القرآن .
- المبحث الثالث: محاولة خداع المؤمنين وإغراقهم بالشهوات .

الفصل الثالث الصد عن سبيل الله

تمهيد :

إن الصد عن سبيل الله بها تحويه كلمة الصد من شمول وعموم هو مهمة أعداء الله ورسله منذ أن عُرف الإنسان على وجه هذه البسيطة . .
إنها المعركة التي خاضها إبليس مع أبي البشر آدم - عليه الصلاة والسلام - ، وهي لا تزال إلى وقتنا هذا ، ويشارك إبليس فيها شياطين الإنس المنتشرون في كل مكان ، حيث يتفنن هؤلاء جميعاً في الأساليب والمؤامرات التي يصدون بها الناس عن دينهم ، ويفتنونهم عن شرع ربهم القويم وصراطه المستقيم .

ولقد تأملت في تلك الأساليب والطرق فرأيت أنها مهما تشعبت وتنوعت فإنها لا تخرج عن ثلاثة أمور ، وهي المباحث الثلاثة التي سأحدث عنها في هذا الفصل - بإذن الله - وهي الإغراء والإغواء ، ومحاولة صرف الناس عن القرآن ، ومحاولة خداع المؤمنين وإغراقهم بالشهوات . ونبدأ بالمبحث الأول :

المبحث الأول الإغراء والإغواء

الإغراء والإغواء كلمتان تترتب الثانية منها على الأولى، أي إن الإغواء يحصل عن طريق الإغراء.

والإغراء قال في اللسان: «الإيساد. وقد أغرى الكلب بالصيد وهو منه؛ لأنه إصاق، وأغريت الكلب إذا آسده وأرشته، وغريت به غراء أي أولعت»^(١).

وحقيقة الإغراء: «حث أحد على فعل وتحسينه إليه حتى لا يتوانى في تحصيله»^(٢).

وأما الإغواء فهو الإضلال، يقال: أغواه الله إذا أضله، قال الله تعالى -: ﴿قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾^(٣) وقال بعضهم في معنى (أغويتني) أضللتني^(٤). وقال سبحانه: ﴿فأغويناكم إنا كنا غاوين﴾^(٥) فقله سبحانه: ﴿أغويناكم﴾ معناه: أضللناكم^(٦).

(١) لسان العرب (١٢١/١٥) مادة (غرا)، وانظر المفردات في غريب القرآن ص ٣٦٠ ومختار الصحاح ص ٤٧٣.

(٢) التحرير والتنوير (١٤٧/٦).

(٣) الأعراف (١٦).

(٤) لسان العرب (١٤١/١٤) مادة (غوي) وانظر «زاد المسير» (١٣٤/٣).

(٥) الصافات (٣٢).

(٦) لسان العرب (١٤١/١٤) مادة (غوي)، وانظر تفسير الطبري (٤٨٢/١٠).

والأغوية: المهلكة، والمغويات - بفتح الواو مشددة - جمع المَغْوَاة وهي حفرة كالزبية، تحتفر للذئب، ويجعل فيها جدي، إذا نظر الذئب إليه سقط عليه يريده، فيُصاد، ومن هذا قيل لكل مهلكة مَغْوَاة^(١).
والتغاوي: التجمع والتعاون على الشر، وأصله من الغواية أو الغي، يبين ذلك قول القائل:

تغاوت عليه ذئاب الحجاز

بنو بهثة وبنو جعفر^{(٢)(٣)}

هذا ما يتعلق بمعنى الإغراء والإغواء.
وأما ما يتصل بمبحث الإغراء والإغواء وكونه وسيلة من وسائل الصد عن سبيل الله فالحديث فيه ينقسم إلى مطلبين:
المطلب الأول: إغراء الشيطان لبني الإنسان وإغوائهم.
المطلب الثاني: إغراء الزعماء والكبراء لأتباعهم وإغوائهم.
ونبدأ بالمطلب الأول:

(١) انظر «القاموس المحيط» ص ١٧٠١.

(٢) لسان العرب (١٤١/١٤) مادة (غوي).

(٣) القائل: أخت المنذر بن عمرو الأنصاري، قالته في أخيها حين قتله الكفار.

المطلب الأول إغراء الشيطان لبني الانسان وإغواؤهم

بين الله - تعالى - هذا الأمر في القرآن العظيم بقوله سبحانه: ﴿يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾^(١).

لقد حذر الله - تعالى - في هذه الآية الكريمة عباده من أن يفتنهم الشيطان بإغراءاته التي يقودهم بها إلى الغواية والضلالة، كما قد قتن أبويهم من قبل آدم وحواء - عليهما السلام - حين أغرهما بالأكل من تلك الشجرة فأطاعاه، فأغواهما حتى عصياه بالأكل من تلك الشجرة التي نهاهما عنها^(٢)، فكان ذلك سبباً لخروجهما من الجنة التي كانا يتمتعان بنعيمها، ودخلا في طور آخر من الحياة، يكابدان فيها شقاء المعيشة وهمومها.

(١) الأعراف: (٢٧).

(٢) وهذه الشجرة التي نهاهما الله - تعالى - عن الأكل منها لا ندري كنهها، ولكنها شجرة من أشجار الجنة، أراد الله - تعالى - أن يختبر آدم من خلال النهي عن الأكل منها، ولا ندري كيف استطاع إبليس الدخول عليهما في هذا النعيم، ولا كيف وسوس لهما، فإن هذا من الغيب الذي لم يرد فيه نص، وكل ما جاء في ذلك من الروايات ضعيف لا يمكن الاعتماد عليه.

انظر كتاب: «وسائل الشيطان اللعين لتمزيق وتشيت المؤمنين» تأليف الشيخ عبدالحق العطار ص ٦٣.

إن قصة آدم وحواء مع إبليس لتبين بوضوح أن الشيطان يمارس خطته الإغرائية ليتوصل بذلك إلى أمر عظيم ، وخطر كبير، ذلكم هو الإغراء^(١).
إن الله - عز وجل - هنا يذكر بني آدم بنعمته عليهم كما ذكرهم بها من قبل في قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سِوَاءَ أَتْكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾^(٢) يذكرهم بتلك النعمة صيانة لأنفسهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم ، وليستطيع المسلم أن يواجه بقوة الحملة الفاجرة الداعرة الداعية إلى العري النفسي والبدني، والتي تدعو إليه أفلام وأجهزة تعمل لشياطين اليهود في كل مكان^(٣).

وإن قوله - تعالى - : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ . . ﴾ تحذير لبني آدم عامة ، وللمشركين الذين يواجههم الإسلام في الطليعة أن يستسلموا للشيطان فيما يتخذونه لأنفسهم من مناهج ، وشرائع ، وتقاليد ، فيسلمهم إلى الفتنة - كما فعل مع أبويهم من قبل إذ أخرجهما من الجنة ، ونزع عنها لباسهما ليربهما سواتهما - فالعري والتكشف الذي يزاولونه - والذي هو طابع كل جاهلية قديماً وحديثاً - وهو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية ، وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة في إغواء آدم

(١) انظر تفسير المنار (٣٦٢/٨). وقوله سبحانه (لباسهما) جاء فيه عدة معان: فقيل: النور، وقيل: إنه كان كالظفر فلما أكلوا لم يبق عليهما إلا الظفر، وقيل: التقوى، وقيل هو ثوب من ثياب الجنة. زاد المسير (١٤١/٣).

قال الطبري: إن الذي أخبر عن آدم وحواء من لباسهما الذي نزع عنها الشيطان هو بعض ما كانا يواريان به أبدانها وعورتها. وقد يجوز أن يكون ذلك ظفراً، ويجوز أن يكون نوراً، ويجوز أن يكون غير ذلك، ولا خبر عندنا بأي ذلك ثبت به الحجة، فلا قول في ذلك أصوب من أن يقال كما قال جل ثناؤه: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ تفسير الطبري (٤٦٢/٥).

(٢) الأعراف: (٢٦).

(٣) سيأتي تفصيل ذلك في المبحث الثالث من هذا الفصل - باذن الله - .

وبنيه ، وهو طرف من المعركة التي لا تهدأ بين الإنسان وعدوه . فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم ، وأن ينتصر في هذه المعركة ، وأن يملأ منهم جهنم في نهاية المطاف .

وإن الله - تعالى - قد نبأهم من خلال الآية الكريمة أن الشيطان يراهم هو وقييله من حيث لا يرونهم ، فهو أقدر على فتنتهم بوسائله الخفية ، وهم محتاجون إلى شدة الاحتياط ، وإلى مضاعفة اليقظة ، وإلى دوام الحذر كي لا يأخذهم على غرة^(١) .

هذا وإن المتأمل في آيات القرآن يجد أن الشيطان يسلك مع الإنسان طرقاً مختلفة ، وصوراً شتى ، وسأشير هنا إلى مثالين منها ، ويأتي في السبب الثالث من أسباب الفتنة مزيد تفصيل لذلك - بإذنه تعالى - .

المثال الأول :

ما جاء في قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لأن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ﴾ فلما آتاها صالحاً جعل له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون^(٢) .

أخرج الإمام ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : « كانت حواء تلد لآدم فتعبدهم لله ، وتسميهم (عبيد الله) و (عبد الله) ونحو ذلك ، فيصيبهم الموت . فأتاها إبليس وآدم^(٣) ، فقال : لو تسميانه بغير الذي تسميانه لعاش ! . فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث ، ففيه أنزل الله - تبارك وتعالى - : ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ إلى قوله : ﴿ جعلنا له شركاء

(١) انظر «الظلال» (٣/ ١٢٧٩ - ١٢٨٠) .

(٢) الأعراف : (١٨٩ - ١٩٠) .

(٣) آدم : منصوب على المعية والتقدير : فأتاها إبليس مع آدم .

فيما آتاهما ﴿ إلى آخر الآية (١) 》 .

إن ظاهر الحديث على فرض ثبوته وصحته - يدلُّ على أن آدم وحواء وقعا فيما وقعا فيه من الشرك بسبب إغراء الشيطان لحواء أن تسمي ولدها عبدالحارث ليولد صحيحاً ويعيش ، ففعلت ، وأغرى إبليس معها آدم ، فكانت نتيجة الإغراء أن يجعل الله شركاء في الاسم (٢) ، وذلك إغواء .

المثال الثاني :

ما جاء في قوله تعالى : ﴿واتل عليهم نبي ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين * لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلنك إني أخاف

(١) أخرجه الإمام ابن جرير في تفسيره عن ابن عباس (١٤٤/٦) برقم (١٥٥٢٧) وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم في تفسيره عن قتادة كما في الدر (٢٧٧/٣) ، وإسناده صحيح كما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد ص ١٨٦ . وأخرجه كذلك الترمذي في كتاب التفسير ، باب : ومن سورة الأعراف (٢٦٧/٥) برقم (٣٠٧٧) وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة . وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (١٣٨٧/٢) والحاكم في مستدركه (٥٩٤/٢) وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) هذا هو الراجح ، وقيل إنه شرك في العبادة وهو مرجوح ، قال ابن جرير بعد ذكره للقولين : «وأولى القولين بالصواب قول من قال : عني بقوله : ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء﴾ في الاسم لا في العبادة ، وأن المعنى بذلك آدم وحواء ؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك » ا . هـ تفسير ابن جرير (١٤٧/٦) .

قلت : وهناك من يقول : إن الذي أشرك ليس هو آدم وحواء بدليل لفظ الجمع في (يشركون) انظر تفسير ابن كثير (٢٧٥/٢) وتفسير البضاوي (٣٧١/١) . وقد أجاب المفسرون على ذلك بعدة إجابات انظرها في تفسير الطبري (١٤٧/٦) والبحر المحيط (٢٤٧/٥) والمحرم الوجيز (٢٢٥/٧) .

الله رب العالمين* إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين* فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين* (١).

إن هذه الآيات الكريهات تبين أن الشيطان استطاع أن يغوي الإنسان عن طريق الحسد والحقد.

لقد بين لنا سبحانه ههنا عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه على قول الجمهور، وهما هابيل وقابيل، كيف أغرى الشيطان أحدهما، فعدا على الآخر فقتله بغياً وحسداً له فيما وهبه الله له من النعمة، وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله - عز وجل - ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل، ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين (٢).

ولقد وردت عدة روايات تتحدث عن القضية التي حصلت بين ابني آدم، وأنها تنازعا حول أختين لهما كما أخرج ذلك ابن جرير في تفسيره (٣). وأرى كما يرى صاحب الظلال أن نستبقي القصة كما وردت في الآيات، لأن تلك الروايات موضع شك في كونها مأخوذة عن أهل الكتاب، ولم يرد في ذلك حديث صحيح يعتمد عليه، إلا ما سيأتي ذكره لاحقاً إن شاء الله.

وإن إبقاء القصة كما وردت في سياقها القرآني يؤدي الغرض من عرضها، ويؤدي الإحياءات كاملة ولا تضيف التفصيلات شيئاً إلى هذه الأهداف الأساسية، ولذلك فإننا نقف عند النص القرآني من غير تفصيل (٤).

إن الأمر الذي يهمنا هنا أن قصة ابني آدم أثبتت لنا طريقة من طرق

(١) المائدة: (٢٧ - ٣٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٤١/٢).

(٣) (٥٢٩/٤) برقم (١١٧١٨).

(٤) انظر الظلال (٨٧٥/٢).

الشیطان المريد في إضلال العبيد، وذلك هو الإغراء بالحسد والحقد، الذي كان أول ذنب عُصي الله تعالى - به في السماء، وأول ذنب عُصي الله - تعالى - به في الأرض.

وهكذا كان قابيل أول من سَنَّ القتل نتيجة إغواء الشيطان له، فكان عليه وزر فعلته بقول نبينا - عليه الصلاة والسلام - : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابني آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سَنَّ القتل »^(١).

إن قصة ابني آدم هذه واحدة من مئات الأمثلة التي تبين دسائس الشيطان وتدلياته، وتلبيساته للافتراس ببني الإنسان. وكلما أحبطت دسائس الشيطان وأسلحته جدد الخبيث أساليبه وأسلحته في المعركة باصطناع أساليب وأشكال بعناوين براقه، ولافتات جذابة، بما يشيعه ويذيعه على يد جنوده وأعوانه، لكن كلما أوقد الشيطان ناراً للحرب أطفأها الله، ودائماً يسعى الشيطان في الأرض ليفسد على الناس حياتهم بإغرائه وإغوائه، وليخرب العقول والبيوت بمكائده وتدابيراته، وليمزق شمل الأحبة والأقرباء بما يشيعه بينهم من العداوة والشحناء والبغضاء، ثم يأتي في النهاية ليتبرأ ممن أغراهم وأغواهم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب خلق آدم وذريته (٣٦٤/٦) برقم (٣٣٣٥)، وأخرجه أيضاً في كتابين آخرين هما كتاب الديات، وكتاب الاعتصام. وأخرجه مسلم في كتاب القسامة، باب بيان إثم من سَنَّ القتل (١٣٠٣/٣) برقم (١٦٧٧).

والترمذي في كتاب العلم، باب ماجاء في الدال على الخير كفاعله (٤٢/٥) برقم (٢٦٧٣). وأخرجه ابن ماجة في كتاب الديات، باب التغليظ في قتل المسلم ظلماً (٨٧٣/٢) برقم (٢٦١٦).

والبيهقي في السنن الكبرى (١٥/٨)، والطحاوي في مشكل الآثار (٤٨٣/١) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٧٣/١)، وعبدالرزاق في مصنفه برقم (١٩٧١٨)، وأبونعيم في الحلية (٢٨/٩). كلهم من حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - .

وهل ننسى ماقرره القرآن حول قرين الإنسان من الجن، وهو شيطان، حين يتنكر لصاحبه يوم القيامة، ويفرح بما يلقاه، ويتبرأ منه يوم القيامة وهو الذي أغراه وأغواه:

﴿وقال قرينه هذا مالدي عتيد* ألقيا في جهنم كل كفار عنيد* منع للخير معتد مريب الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد﴾^(١).
وهامو القرين يحاول أن يتنصل من جريمة الإغواء، وأن يلقي التهمة على صاحبه، ولكن العدالة الإلهية تقتضي أن يتحمل القرين وصاحبه معاً جزاء الإغواء والاستجابة له، فإن لكل نفس ماكسبت، وعليها ما اكتسبت ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾^(٢).

يقول ربنا - سبحانه - موضحاً تلك الحقيقة:

﴿وقال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد* قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد* ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد﴾^(٣).

(١) ق: (٢٣ - ٢٦).

(٢) المدثر: (٣٨).

(٣) ق: (٢٧ - ٢٩).

المطلب الثاني إغراء الزعماء والكبراء لأتباعهم وإغواؤهم

إن الزعماء والكبراء في الدنيا ممن ضلوا سواء السبيل حين يفلسون من إرهاب الناس وتخويفهم يلجأون إلى الوسائل الفتاكة المغرية التي قد تخدع كثيراً من الناس، بل وحتى بعض المؤمنين الذين قد ظهر منهم من وقف أمام الحملات المسعورة، وأمام التهديد والأذى، فلم يتراجع، ولكنه تهاوى وضعف أمام ما يغريه به أولئك الكبراء والزعماء من الجاه والمال والسلطان، وأطاع أوامرهم، وخضع لمطالبهم، فقادوه بذلك إلى الغواية والضلالة.

هذه مواقف بعض ضعاف الإيمان من المسلمين، ولكن كان لكثير من الدعاة مواقف مشرفة في هذا الصدد قد دوّنها لنا التاريخ، وإن الناظر المتأمل في مكائد الزعماء والكبراء لإغواء المؤمنين وإغوائهم ليظفر بأمثلة كثيرة في ذلك.

هاهو فرعون الذي طغى يغري سحرته بالمال عندما جاؤوا، فقالوا: ﴿إِن لَّنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ فرد عليهم: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾^(١).

نعم لقد أكد لهم فرعون أنهم مأجورون على حرفتهم، ووعدهم مع الأجر القريب زيادة في الإغراء، وتشجيعاً على بذل غاية الجهد. وهُوَ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أن موقفهم من موسى - عليه السلام - ليس موقف الاحتراف والبراعة والتضليل.

(١) الأعراف: (١١٣ - ١١٤).

ولقد اطمأن السحرة على الأجر، واشربأت أعناقهم إلى القربى من فرعون. ولقد كادوا يفتنون بما قدمه فرعون من إغراء لولا ما قسمه الله لهم من الخير الذي لم يكونوا يحتسبون، ومن الأجر العظيم الذي لم يكونوا يتوقعون، ذلك حين آمنوا بالله، وصدقوا بآياته.

وهاهو ملك من ملوك الروم يحاول إغراء الصحابي الجليل عبدالله بن حذافة^(١) بالملك لما كان أسيراً عنده، فيقول له: تنصّر أشركك في ملكي، فأبى - رضي الله عنه -.

وهاهو الشيخ سعيد الحلبي^(٢) - رحمه الله - جلس يوماً في الجامع الأزهر، يتكئ على عمود من أعمدته، وقد مدّ رجله لسترّيح من طول الجلوس، فدخل الجامع حاكم مصر إبراهيم بن محمد علي^(٣)، فهرع الناس لاستقباله، وبقي الشيخ سعيد على جلسته لم يتحرك، وطاف إبراهيم في جنبات المسجد حتى مر بالشيخ سعيد، ووقف على رأسه غاضباً، والشيخ سعيد لا يأبه به، ولا يلتفت إليه، ولا يعيره انتباهاً.

(١) هو عبدالله بن حذافة السهمي، أبو حذافة أو أبو حذيفة، من السابقين الأولين، شهد بدرًا، من أكبر مناقبه موقفه الأنف الذكر مع ملك الروم وثباته على دينه. انظر ذلك مفصلاً في الإصابة (٢/٢٩٧).

(٢) هو سعيد بن حسن بن أحمد. أبو عثمان الحلبي: فقيه الشام في عصره. حنفي، ولد ونشأ في حلب، واستوطن دمشق عام ١٢٢٧هـ. وفاته بدمشق سنة ١٢٥٩هـ. الأعلام (٣/٩٣).

(٣) هو إبراهيم «باشا» بن محمد علي «باشا» قائد، من ولاية مصر. ولد في نصرلي، وقدم مصر سنة ١٢٢٠هـ فتعلم بها. قاد عدة حملات، فاستولى على عكة ودمشق، وحمص، وحلب، وانقادت له بلاد الشام. قال معاصروه: إنه كان يجاهر بإحياء القومية العربية، ويعد نفسه عربياً. وفاته بمصر سنة ١٢٦٤هـ. راجع الأعلام (١/٧٠).

لقد انصرف إبراهيم باشا إلى قصره، وحاول أن يزحلق العالم الجليل، فأرسل إليه صرة من ذهب، يستميل بها الشيخ ويفتنه، ولما قدم سفير الباشا إلى الشيخ، وأبلغه تحيات الباشا، وأنه قد أرسل إليه هذه الصرة من الذهب تكريماً، وصلة للعلماء، فنفر الشيخ من الصرة، وقال للشرطي السفير: قل لإبراهيم إن الذي يمد رجله لا يمد يده^(١).

إن هذه الأمثلة تعطي للدعاة درساً عظيماً في الحذر من الإغراءات الدنيوية التي يقدمها لهم أصحاب الزعامات والرياسات ليتنازلوا تدريجياً عن قيمتهم التي كانوا يدعون الناس إليها، ويتراجعون عن أفكارهم الإسلامية التي كانوا يبشرون بها.

ونقف الآن على أمثلة أخرى توضح نوعاً آخر من الإغراء الذي يقود إلى الإغواء. ذلك هو الإغراء بالاتباع.

هاهو مثال قرآني يوضح لنا محاولة للزعماء من الكافرين، أرادوا بها إغراء المسلمين باتباعهم، وقالوا إنهم سيحملون عنهم خطاياهم يوم القيامة. يقول ربنا - تعالى -: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون﴾* وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليستلن يوم القيامة عما كانوا يفترون^(٢).

إنها محاولة من المشركين لإغراء المسلمين باتباعهم، والحرص على فتنهم بالشك والمغالطة، وهؤلاء المسلمون هم من لم يقدر المشركون على فتنهم بالأذى والعذاب، إما لعزتهم وخشية بأسهم مثل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقد قيل إن هذه المقالة قيلت له، وإما لكثرتهم حين كثُر المسلمون، وأعيت المشككين حيل الصد عن الإسلام.

(١) «الإبتلاء والمحن في الدعوات» تأليف الأستاذ محمد عبد القادر أبو فارس ص ٩٠، ٩١.

(٢) العنكبوت: (١٢ - ١٣).

قال أولئك الكفار وكان منهم أبوجهل للمسلمين ومنهم عمر قالوا: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن عسى كان ذلك فإننا نحمل عنكم آثامكم^(١). ولقد قالوا ذلك جهلاً وغروراً، وحاولوا بذلك أن يحجوا المسلمين في إيمانهم بالبعث توهماً منهم إن كان البعث واقعاً فسيكونون في الحياة الآخرة كما كانوا في الدنيا أهل دمام، وحالة، ونقض، وإبرام، شأن سادة العرب أنهم إذا شفّعوا شفّعوا، وإن تحمّلوا حمّلوا.

ولقد جاء الرد على الكفار حاسماً قوياً: ﴿وليحملن أثقاهم وأثقالاً مع أثقاهم﴾. إنه تكذيب للمشرّكين في مقالتهم السابقة حين حاولوا إغراء المسلمين بحمل خطاياهم، وكشّف لكيدهم بالمسلمين، وفيه الإفادة بأنهم غير ناجين من حمل تبعات لأقوام آخرين، وهم الأقوام الذين أضلّوهم، وسوّّلوا لهم الشرك، والبهتان على وجه التأكيد بحملهم ذلك^(٢).

ولنا بعد ذلك أن نتصور موقف أولئك الزعماء من شياطين الإنس من أتباعهم الذين تأثروا بهم، فساروا معهم أينما كانوا، كيف صار كل منهم يحمل الآخر تبعة الإضلال والإغواء، يقول سبحانه:

﴿ولو ترى إذ الظالمون موقفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لو لا أنتم لكنا مؤمنين* وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كتمنا مجرمين* قال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾^(٣).

(١) التحرير والتنوير (٢٠/٢٢١)، وانظر الدر المنثور (٦/٢٧١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٠/٢٢١). (٣) سبأ (٣١-٣٢).

إن هاتين الآيتين دليل واضح على الانقطاع الكبير بين المتبوعين والتابعين يوم القيامة، هاهم التابعون يقولون: لولا أنتم أيها القادة والسادة تصدوننا لكنا اتبعنا الرسل، وآمنا بما جاؤونا به، فيقول لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا: نحن مافعلنا شيئاً أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم ولهذا قالوا: ﴿بل كنتم مجرمين﴾. ويرد المستضعفون من التابعين يقولون: بل الذي دهانا منكم، ووصل إلينا من إضلالكم، مادبرتموه من المكر في الليل والنهار، إذ تحسنون لنا الكفر، وتدعوننا إليه، وتقولون إنه الحق، وتقذحون في الحق، وتهجنونه، وتزعمون أنه الباطل. فما زال كيدكم إيانا، ومكركم بنا حتى أغويتمونا، وفتنتمونا، فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا براءة بعضهم من بعض، والندامة العظيمة يوم القيامة حين يرون العذاب، فإذا بالسلاسل والأغلال تجمع أيديهم مع أعناقهم، وقد جازى الله - تعالى - كل عامل بحسب عمله، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم^(١).

وهاهو حوار آخر مشابه للحوار السابق كما تقرره سورة الصافات، يقول سبحانه: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين* قالوا بل لم تكونوا مؤمنين* وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين* فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون* فأغويناكم إنا كنا غاوين* فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون^(٢).

إن هذه الآيات تحكي لنا عتاباً ولوماً توجه به الذين اتبعوا على قادتهم

(١) تفسير السعدي (٦/٢٨٥).

(٢) الصافات: (٢٧ - ٣٣).

وزعمائهم حيث قالوا لهم : إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين^(١) فتوسسون لنا ،
فأنتم المسؤولون عما نحن فيه .

وعندئذ ينبري المتهمون لتسفيه هذا الاتهام ، وإلقاء التبعة على موجهيه
﴿قالوا بل لم تكونوا مؤمنين﴾ فلم تكن وسوستنا هي التي أغوتكم بعد إيمان ،
وأضلتكم بعد هدى . ولم يكن لنا سلطان نرغمكم به على قبول مانراه ،
ونضطرركم إليه اضطراراً لا ترغبون فيه ، ولقد كنتم قوماً طاغين ، قوماً
متجاوزين للحق ، ظالمين ، لا تقفون عند حد ، فاستحققنا نحن وأنتم
العذاب ، وحق علينا الوعيد بأن نذوق العذاب ، وقد انزلتكم معنا بسبب
استعدادكم للغواية ، وما فعلنا بكم إلا أنكم اتبعتمونا في غوايتنا ﴿فأغويناكم
إنا كنا غاوين﴾^(٢) .

إن هذا كله ينقلنا إلى قضية مهمة لا يمكن إغفالها ، إنها قضية التبرؤ
والتعادي بين التابعين والمتبوعين ، ولقد قرر القرآن ذلك بوضوح ، ففي سورة
البقرة يقول ربنا - جل وعلا - : ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا
العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم
كما تبرؤنا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من
النار﴾^(٣) .

ففي هاتين الآيتين بيان وتفصيل بحال التابعين والمتبوعين من التبرؤ وتنكر

(١) فُسر اليمين بغدة تفسيرات فقيـل : المراد : كنتم تقهرونا بقدرتكم علينا .

وقيل : كنتم تأتوننا من قبل الدين فتضلوننا عنه .

وقيل : كنتم توثقون ما كنتم تقولون بأيمانكم ، فتأتوننا من قبل الأيمان التي تحلفونها . راجع

تفسير الطبري (١٠/٤٨١) وابن كثير (٤/٥) وزاد المسير (٦/٣٠٣) .

(٢) انظر الظلال (٥/٢٩٨٦) .

(٣) البقرة : (١٦٦ - ١٦٧) .

بعضهم لبعض . ولقد جاء لفظ التبرؤ بصيغة المضي تمثيلاً لحال الفريقين في ذلك اليوم الذي ينكشف فيه الغطاء، ويرى الناس فيه العذاب بأعينهم، ويعرفون أسبابه من تأثير العقائد الباطلة، والأعمال السيئة في أنفسهم، كأن الأمر قد وقع، والبلاء قد نزل، ورأى الرؤساء المضلون الذين اتبعوا أن إغواءهم للناس الذين اتبعوا رأيهم، وقلدوهم دينهم، قد ضاعف عذابهم، وحملهم مثل أوزار الذين أضلوهم فوق أوزارهم، فتبرؤا منهم، وتنصلوا من ضلالتهم^(١).

وهناك في ذلك الموقف الرهيب تنقطع الرياسات، والقيادات والأسباب، وينشغل كل بنفسه تابعاً كان أو متبوعاً. وتسقط الرياسات والقيادات التي كان المخدعون يتبعونها، وتعجز عن وقاية أنفسها فضلاً عن وقاية تابعيها. لقد ظهرت هنالك حقيقة الألوهية الواحدة، والقدرة الواحدة، واتضح كذب القيادات الضالة، وضعفها، وعجزها أمام الله - تعالى - وأمام العذاب. إن هذا المشهد الذي تحكيه آيتا سورة البقرة مشهد مؤثر مؤلم، وكيف لا يكون مؤثراً مؤلماً وقد صوّر لنا انتكاسة كل من صد عن سبيل الله، وكشف لنا حال كل من أطاعه واتبعه دون وعي وبصيرة. إنه التبرؤ الكامل الذي يكشف للناس جميعاً أن المتبوعين لا يملكون للتابعين أي نفع في الآخرة:

﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً

(١) تفسير المنار (٧٨/٢) وقد ذكر الشيخ محمد رشيد رضا أثناء تفسيره للآيتين فائدة نفيسة حيث قال: «شُبّهت المنافع التي حملت الرؤساء على قود المرؤسين، والتابعين على تقليد المتبوعين بالأسباب وهي في أصل اللغة الحبال، كأنه يقول: إن كل واحد منهم كان مربوطاً مع الآخرين بحبال كثيرة، فلم يشعروا إلا وقد تقطعت هذه الحبال كلها، فأصبح كل واحد منبذاً في ناحية لا يصله بالآخر شيء» ١. هـ تفسير المنار (٨٦/٢).

فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار* قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد^(١).

هاهم الضعفاء ممن كانوا ذيولاً، وإمّعات! ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنياً تساق، يجرون وراء الكبراء والطغاة والملأ والحاشية، هاهم أولاء يسألون قادتهم الضالين المضلين: هل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار. كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشاد، وأنهم يحمونهم من الفساد، وأنهم يمنعونهم من الشر والضرر وكيد الأعداء!

فأما الذين استكبروا فيضيقون صدرأ بالذين استضعفوا، ويحيبونهم في ضيق وتبرم وملالة، وفي إقرار بعد الاستكبار:

﴿قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد﴾.

نعم إنا كل فيها وإننا لا نتحمل عنكم شيئاً فكفى بنا ماعندنا، وما حملنا من العذاب والنكال. إنا كل ضعاف لا نجد ناصرأ ولا معينأ. إنا كل في هذا الكرب والضيق والنكال سواء. فما سؤالكم لنا وأنتم ترون الكبراء والضعفاء سواء؟!

ولقد حكم الله - تعالى - بين العباد، فلا مجال لمراجعة في الحكم، ولا مجال لتغيير فيه أو تعديل، وقد قضي الأمر، وما من أحد من العباد يخفف شيئاً من ذلك الحكم^(٢).

(١) غافر: (٤٧ - ٤٨).

(٢) انظر الظلال (٣٠٨٤/٥).

المبحث الثاني محاولة صرف الناس عن القرآن

القرآن العظيم مصدر كل قوة، ومنبع كل خير، وأساس كل فضيلة. ولقد صرح أعداؤنا اليوم أنهم لن يستطيعوا القضاء علينا إلا إذا فتنونا عن القرآن، وأسوق الآن إلى القاريء الكريم شواهد على ذلك:

١ - يقول غلادستون: مادام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان.

٢ - ويقول المبشر وليم جيفور بالكراف:

متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في طريق الحضارة بعيداً عن محمد وكتابه.

٣ - ويقول المبشر تاكلي:

يجب أن نستخدم القرآن، وهو أمضى سلاح في الإسلام ضد الإسلام نفسه حتى نقضي عليه تماماً، يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الحديد فيه ليس صحيحاً.

٤ - ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر بمناسبة مرور عام على احتلالها: يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم. . . ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم، حتى نتنصر عليهم^(١).

وقبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان بين القرآن العظيم لنا محاولة

(١) راجع هذه الأقوال مجمعة في كتاب: «قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله»

للأستاذ جلال العالم ص ٥٩، ٦٠، ٦١.

أعداء الله - تعالى - من الكافرين صرف الرسول - ﷺ - وصده عن كتاب ربه العظيم، ذلك الكتاب الذي أنزله الله عليه ليكون له وللناس جميعاً هادياً، وبشيراً، وسراجاً يهتدى بنوره.

هاهو القرآن يقرر ذلك في سورة الإسراء، يقول جَلَّ في علاه: ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً* ولولا أن ثبتناك لقد كذبت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾ (١).

لقد تعددت أقوال المفسرين في تحديد معنى الفتنة هنا، ولكل قول مثال يوضحه.

وأنا هنا أذكر تلك الأقوال وأمثلتها من المرويات الواردة في ذلك. وبعده أبينّ الراجح - بإذنه تعالى -.

* أقوال المفسرين في هذه الفتنة :

١ - أن المراد بالفتنة الإلمام بالآلهة؛ لأن المشركين دعوا رسول الله - ﷺ - إلى ذلك فهم به، لما ورد أنه كان يستلم الحجر الأسود، فمنعته قريش، وقالوا: لا ندعه حتى يلم بآلهتنا، فحدث نفسه، وقال: ماعليّ أن ألم بها بعد أن يدعوني أستلم الحجر، والله يعلم أني لها كاره، فأبى، فأنزل الله - تعالى -: ﴿وإن كانوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره﴾ (٢).

٢ - أن المراد بالفتنة طلب بعض الكبراء من النبي - ﷺ - أن يجعل لهم مجلساً دون مجلس الفقراء، وأنهم بزعمهم سوف يسمعون منه، فهم رسول الله - ﷺ - أن يفعل ما يستدعي به إسلامهم، حيث روي أن قريشاً أتوا النبي - ﷺ - فقالوا له: إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقّاط

(١) الإسراء: (٧٣ - ٧٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن سعيد بن جبير (١١٨/٨) برقم (٢٢٥٣٦).

الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك فركن إليهم، فأوحى الله إليه: ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾^(١).

٣ - أن المراد بالفتنة ما روي عن قتادة أن قريشاً خلوا برسول الله - ﷺ - ليلة إلى الصباح يكلمونه، ويفخمونه، ويقولون: أنت سيدنا، وابن سيدنا، ومازالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم عصمه الله من ذلك، ونزلت هذه الآية: ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك﴾^(٢).

هذه أقوال المفسرين في بيان معنى الفتنة في الآية الكريمة، والحقيقة أن المتأمل في ذلك يجد أنه ليس هنالك بيان في الكتاب، أو خبر في السنة قاطع، تثبت به معنى الفتنة، ولهذا فإنني أرى كما يرى الإمام الطبري - رحمه الله - أنه لا شيء فيه أصوب من الإيذان بظاھرہ حتى يأتي خبر يجب التسليم له ببيان ما عني بذلك منه^(٣).

أعود بعد هذا البيان لأقول: إذا كانت الآية الكريمة قد بينت أن المشركين كادوا أن يفتنوا رسول الله - ﷺ - عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله - وهو المعنى العام للآية - أقول: إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لرسول الله - ﷺ - وهو قائد المؤمنين، ورسول رب العالمين، فكيف بمن هو دونه من سائر البشر؟ إن الدعاة إلى الله - عز وجل - يواجهون من أعداء الملة والدين في كل مكان حملة مسعورة لصدّهم عن كتاب ربهم، وإبعادهم عن هذا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما في الدر المنثور (٤/٣٥٢)، وانظر تفسير القرطبي (١٩٤/٩).

(٢) أخرجه ابن جرير (٨/١١٩) برقم (٢٢٥٣٨). وهو في زاد المسير (٥/٥٠) وتفسير القرطبي (١٩٤/٥).

(٣) تفسير الطبري (٨/١٢٠).

المنبع الأصيل الذي يستقون منه كل ما يحتاجونه في أمور دينهم ودنياهم .
إن هذه الحملة هي ديدن أولئك الطغاة والمتجبرين من أصحاب
السلطان ، ومن نحا نحوهم من أذنانهم المنتشرين في كل مكان مع الدعاة
المخلصين والعلماء الربانيين .

وإن المتأمل في أعمال أولئك الطغاة يجد أنها محاولات مدروسة مخططة ، إذ
هم لا يحاولون صرفهم عن كتاب ربهم ودعوتهم بالكلية ، إنما يحاولون جلبهم إلى
صفهم - ولو قليلاً - ليرضوا بالحلول الوسط بعد ذلك .

وإن من حملة الدعوة من يُفتن بمثل هؤلاء عن دعوته لأنه يرى الأمر هيناً
يسيراً ، إذ إن أصحاب السلطان - كما قلت - لا يطلبون إليه أن يترك كتاب ربه
ودعوته كليةً ، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفةً ليلتقي الطرفان في منتصف
الطريق . وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة ، فيتصور أن
خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها (١) .
إن على دعاة الإسلام أن يتنبهوا لهذه المكيدة من أعداء الدين ، ويقفوا
أمامها بكل قوة ، فإن هم فعلوا ذلك نجوا ، وإن هم لم يفعلوا فقد فقدوا
هيبتهم ، وحصانتهم ، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة ، وارتفاع السعر
ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها . وتلك لعمر الله المهلكة السريعة ، والهزيمة
التي تدب في أعماق السريرة ، وإن الهزيمة إذا دبّت في الأعماق ، وتغلغلت فلن
تنقلب الهزيمة نصراً أبداً (٢) .

وبعد هذا البيان الهام أعود مرة أخرى إلى آية الإسراء ، فأقول : إن هذه

(١) السلطة والحكم صورة من أعظم صور الفتنة ، يأتي التفصيل فيها عند الحديث عن مظاهر
الفتنة - بإذن الله تعالى - .

(٢) انظر الظلال (٤/٢٢٤٥) .

الآية العظيمة قد اشتملت على فوائد عظيمة ، ومواعظ بليغة ، ولعلي أوجزها في الأمور التالية :

- ١ - الآية دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله - تعالى - إياه ، وأنه لا يزال متملقاً لربه أن يثبتته على الإيثار ، ساعياً في كل سبب موصل إلى ذلك ؛ لأن النبي - ﷺ - وهو أكمل الخلق قال الله - تعالى - له : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ فكيف بغيره ؟!
- ٢ - تذكير الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - مِنَّتَهُ عَلَيْهِ ، وَعَصَمَتَهُ مِنَ الشَّرِّ ، فدلَّ ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإنعامه عليهم عند وجود أسباب الشر بالعصمة منه ، والثبات على الإيمان .
- ٣ - إنه على الرغم من علو مرتبة العبد ، وتواتر النعم عليه من الله فإنَّ إثمهم يعظم ، وجرمهم يتضاعف إذا فعل ما يلام عليه ؛ لأن الله - تعالى - ذكَّرَ رسوله - ﷺ - لَوْ فَعَلَ - وحاشاه من ذلك - بقوله : ﴿ إِذَا لَأَذْنُكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ ^(١) .

(١) انظر هذه الفوائد في تفسير الشيخ السعدى (٤/٣٠٥ - ٣٠٦) .

* تنبيه :

احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بآية الإسراء هذه : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ ﴾ فقالوا : هذه الآية تدل على صدور الذنب العظيم عنهم من وجوه : الأول : أن الآية دلَّت على أنه - عليه الصلاة والسلام - قَرُبَ من أن يفترى على الله ، والفرية على الله من أعظم الذنوب .

الثاني : أنها تدل على أنه لولا أن الله - تعالى - ثَبَّتَهُ وَعَصَمَهُ لقرب من أن يركن إلى دينهم ، ويميل إلى مذهبهم .

الثالث : أنه لولا سَبَقُ جرم وجناية ، وإلا فلا حاجة إلى ذكر هذا الوعيد الشديد .

والإجابة عن هذه الوجوه الثلاثة ذكرها الإمام الرازي في تفسيره للآية بعد أن أورد ذلك الاعتراض ، فقال :

=

* التحذير من الفتنة

إذا كان القرآن الكريم قد أخبرنا بمحاولة المشركين فتنة رسول الله - ﷺ - عن القرآن، فإنه لم يتركه دون تقديم النصائح والتوجيهات التي يتمسك بها لتكون زاداً له، ولأمته من بعده، فلا تؤثر فيه وفيهم مؤامرات الأعداء الحاقدة، ومخططاتهم الفاجرة.

هاهو القرآن يحذّر النبي الكريم - ﷺ - فيقول سبحانه كما في سورة المائدة في معرض الحديث عن كيفية معاملته - ﷺ - لليهود:

﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (١).

إن الله - عز وجل - قد نهى في آية متقدمة على هذه الآية عن ترك شريعة

= «والجواب عن الأول أن (كاد) معناه المقاربة، فكان معنى الآية أنه قرب وقوعه في الفتنة، وهذا القدر لا يدل على الوقوع في تلك الفتنة، فإننا إذا قلنا: كاد الأمير أن يضرب فلاناً، لا يفهم منه أنه ضربه.

والجواب عن الثاني: أن كلمة (لولا) تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره، نقول: لولا علي لهلك عمر، معناه أن وجود علي منَعَ من حصول الهلاك لعمر، فكذلك ههنا قوله: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم﴾ معناه أنه حصل تثبيت الله - تعالى - لمحمد - ﷺ - فكان حصول ذلك التثبيت مانعاً من حصول ذلك الركون.

والجواب عن الثالث: أن ذلك التهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها، والدليل عليه آيات منها قوله: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ لأخذنا منه باليمين* ثم لقطعنا منه الوتين* الحاقة: (٤٤ - ٤٦) ومنها قوله: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ الزمر: (٦٥) وقوله: ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ الأحزاب: (١).

تفسير الرازي (٢١/٢٢، ٢٣).

(١) المائدة: (٤٩).

الله - تعالى - كلُّها إلى أهوائهم : ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾^(١)، وإن التحذير هنا أشد وأدق، وهو تصوير للأمر على حقيقته، إذ هي فتنه يجب أن تحذر، والأمر في هذا المجال لا يعدو أن يكون حكماً بما أنزل الله كاملاً، أو أن يكون اتباعاً للهوى، وفتنة يحذر الله منها، ويبين - جل وعلا - أن أولئك اليهود الذين نزلت فيهم الآية^(٢)، إذا لم يعجبهم هذا الاستمساك الكامل بالصغيرة قبل الكبيرة في هذه الشريعة فلا عليك يا رسول الله منهم، ولا يفتنك هذا عن الاستمساك الكامل بحكم الله وشريعته. ولا تجعل إعراضهم يفت في عضدك، أو يحولك عن موقفك^(٣).

وهاهي آية أخرى تحذر النبي - ﷺ - من أن يصدّه الكفار عن آيات ربّه بعد إذ أنزلت إليه : ﴿ولا يصدُّنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾^(٤).

وإن هذا التحذير لدليل على أن طريق الكفار دائماً أن يصدّوا أصحاب الدعوة عن دعوتهم بشتى الطرق والوسائل. وإن طريق المؤمنين أن يمشوا في طريقهم لا يلومهم عنها المعوقون، ولا يصدّهم عنها أعداؤهم، ويبين أيديهم آيات الله - تعالى - وهم عليها مؤتمنون.

ولقد كان التحذير أبلى وأعمق حين بين القرآن جزاء رسول الله - ﷺ - فيما لو فُتن بالكفار، واتبع آراءهم - وحاشاه من ذلك - يقول سبحانه : ﴿إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾^(٥)، وقال جل

(١) المائدة : (٤٨).

(٢) راجع سبب النزول في تفسير الطبري (٤/٦١٤) برقم (١٢٥٦).

(٣) الظلال (٢/٩٠٤).

(٤) القصص : (٨٧).

(٥) الإسراء : (٧٥)، والآية جواب شرط مقدر، أي لو قاربت أن تترك إلههم أدنى ركنة لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات وهما عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. انظر تفسير أبي السعود (١٨٨/٥).

وعلا: ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾^(١).
أقول: وإذا كان هذا الخطاب ومقابلته مع رسول الله - ﷺ - فإن على حماة الإسلام من العلماء المخلصين، والدعاة المصلحين أن يجعلوا من خطاب الله - تعالى - لرسوله - ﷺ - خطاباً لهم، يوجههم، ويرشدهم إلى التنبيه إلى تلك المخططات الرهيبة، والمؤامرات الحاقدة التي يقود زمامها الكفار من يهود ونصارى، وإن لهم - كما هو الحال في وقتنا الحاضر - طرقاً مختلفة، وأساليب شتى، ولكن المؤسف المخزي أن كثيراً ممن ينتسب إلى الإسلام لا يلقي لتوجيهات القرآن وتحذيراته سمعاً أو انتباهاً ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾^(٢). ولا أدل على فتن اليهود أناساً من مدعي الإسلام عن القرآن وتوجيهاته من تلك المعاهدة الذليلة التي تمت قبل شهرين يسيرة^(٣) بدأ فيها الرضوخ والاستسلام لليهود حين خرجت يركات السلام الذليل تعلن للندنيا، وتملاً الكون هتافاً أن أهلاً (بالعصر الإسرائيلي) وأدواته، وأن عاش الذئب الصهيوني مادام أزالام القضية قد نجحوا في ذلك الاتفاق الذليل، الذي ستم بموجه جز الرقاب، برعاية أعداء الله الكافرين.

يحدث هذا كله في الوقت الذي يسقط فيه كل يوم على الأرض المقدسة عشرات القتلى والجرحى من أبناء فلسطين المسلمة، كل ذلك لأن اليهود قد فتنوا رجالاً ممن يحسبون على المسلمين، وصدوهم عن القرآن الذي يستشهدون به في المحافل الدولية، والمؤتمرات العالمية، موهمين السذج من الناس أنهم يعملون بالقرآن، وكذبوا لعمر الله، فإنهم لو خضعوا صادقين لتحذيرات القرآن لما أقسموا بأن يمضوا إلى نهاية الطريق الموحش، حتى أنبتوا لنا غابة من

(١) يونس: (٩٥).

(٢) الفرقان: (٤٤).

(٣) نحن الآن في شهر صفر، سنة ١٤١٥هـ.

هتافة التهريج ، ومروجي التطبيع الذين خلت لهم الساحة ، فأطلقوا العنان
لألستهم الجبانة وأقلامهم المأجورة ، وضمايرهم التي طالما تقلبت في ولاءاتها في
سوق النخاسة !

إن هذه الحادثة المخزية قد أقضت مضاجع الغيورين من أبناء هذا
الدين ، فصاحوا بأعلى أصواتهم أنه لا يجوز بيع شبر واحد من أرض المسلمين ،
ولكن - للأسف - لم يكن هنالك مستجيبيون ؛ لأنهم غارقون في مستنقع الذل ،
همهم الوحيد : إرواء النزوات ، وإشباع الشهوات ، حتى تحقق بذلك ما حذر
الله - تعالى - منه بقوله : ﴿ واحذروهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله
إليك ﴾ (١) .

أو لم تنزل هذه الآية في اليهود ؟ !
لقد نسيت كثير من الأمة هذا كله ، فكان نتيجة ذلك أن حلّ بالأمة الوبال
والخسران ، ومارس اليهود بذلك على المسلمين جريمة الاستغلال والاستدلال ،
تلك الجريمة التي قادتها مجموعات وقوى معينة تسعى إلى تمكين الاختراق
الصهيوني من عمقنا الجغرافي والشعبي ، وبدأً واضحاً أن هذه القوى التي
تطبعت تريد أن ترى سواد الأمة قد تطّبع ، فإلى الله المشتكى ، وهو حسبنا
ونعم الوكيل .

إنّ هذه اللعبة ليست هي الوحيدة من نوعها ، فهناك مؤامرات أخر لا تقل
أهمية عن آنفة الذكر ، حيث لا زالت الصحوة الإسلامية تواجه أنواعاً من مكائد
أعداء الدين ، للصد عن دين الله القويم ، وكتابه المبين ، وصراطه المستقيم ،
ولهذا كان الواجب على الدعاة والمصلحين من أبناء هذه الصحوة أن يقفوا

(١) المائدة : (٤٩) .

صامدين ضد تلك المؤامرات، ويحذّروا المسلمين منها بإعلامهم أن هؤلاء الأعداء ما أرادوا بمؤامراتهم تلك إلا أن يشغلوا الحركة الإسلامية عن مهمتها في الدعوة، ومهمتها الكبرى في تربية الجيل المؤمن المجاهد الواعي، الذي هو الخطر الحقيقي الذي يخشونه ويحذرونه^(١).

ولابدّ للأمة المسلمة أن تستيقظ من رقدتها، وتنهض من سباتها، فتتخذ من كتاب ربها نبراساً تهتدي بنوره، وتستضيء، وإن لها في رسول الله - ﷺ - قدوة حسنة، ومثلاً أعلى، فقد حاول أعداؤه فتنته عن دينه ودعوته بشتى الوسائل والطرق، ولكنه لما كان معتصماً بكتاب ربه - تعالى - فقد ثبتته ربه، وكان هذا التثبيت مانعاً له - عليه الصلاة والسلام - من الركون إليهم. وأكرمه الله - عز وجل - عندما تولى الدفاع عنه في كتابه الكريم، حيث كانت الآيات تنزل عليه تباعاً، «فما من شبهة أثارها أعداء الله - تعالى - إلا فنّدها، وما من تهمة ألصقوها به إلا دفعها، وما من مؤامرة دبّروها إلا كشفها، وما من أسئلة تعجيزية إلا دحضها، وما من مكيدة حبكوها لقتله إلا أحبطها»^(٢). أولم نسمع قول الله - عز وجل - : ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾^(٣).

(١) انظر «رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر» تأليف الأستاذ الداعية محمد قطب ص ٢٤٥، ٢٤٨.

(٢) «منهج القرآن في تثبيت الرسول - ﷺ -» رسالة ماجستير تقدم بها عبدالرحمن هوساوي لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤١٢هـ ص ١٢٠، وهي مطبوعة على الآلة الكاتبة.

(٣) النساء: (١١٣).

ففي هذه الآية بيان بعصمة النبي - ﷺ - من الانسياق وراء المتأمرين المبيتين، حيث أطلعه - سبحانه - على مؤامراتهم التي يستخفون بها من الناس، ولا يستخفون بها من الله، وهو معهم، إذ يبيتون ما لا يرضى من القول، وكان - سبحانه - يتولاه بفضلته ورحمته في كل مرة، وإن ذلك هو الفضل الكبير الذي يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم^(١).

(١) انظر الظلال (٧٥٦/٢) وتفسير السعدي (١٦١/٢).

المبحث الثالث محاولة خداع المؤمنين وإغراقهم بالشهوات

جاء في سبب نزول قوله تعالى : ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ (١) أن أحبار قرى عربية (٢) اثني عشر حبراً قالوا لبعضهم : ادخلوا في دين محمد أول النهار، وقولوا : نشهد أن محمداً حق صادق ، فإذا كان آخر النهار فاكفروا ، وقولوا : إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم ، فحدثونا أن محمداً كاذب ، وإنكم لستم على شيء ، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب من دينكم لعلهم يشكون فيقولون : هؤلاء كانوا معنا أول النهار فما بالهم ! فأخبر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - بذلك (٣) .

إن هذا النوع الذي تحكيه الآية الكريمة من صد اليهود عن الإسلام مبني على قاعدة طبيعية في البشر وهي أن علامة الحق أن لا يرجع عنه من يعرفه . ولقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا : لولا أن ظهر هؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه ، إذ لا يمكن أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ،

(١) آل عمران : (٧٢) .

(٢) عربية : اسم مكان ، انظر «معجم ما استعجم» لعبدالله البكري ص ٩٢٩ .

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن السدي (٣/٣٠٩) برقم (٧٢٢٩) . وفي إسناده أحمد بن الفضل الحفري ، قال فيه الحافظ ابن حجر : «صدوق شيعي في حفظه شيء» من رجال مسلم . انظر التقریب ص ٨٤ ، و«الفتح السهاوي بتخريج أحاديث تفسير البضاوي» للمناوي (٣٦٤/١) .

ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب^(١).

كما إن هذه الطريقة التي سلكها اليهود طريقة مأكرة لثيمة، ذلك أن إظهار الإسلام ثم الرجوع عنه يوقع بعض ضعاف النفوس والعقول وغير المثبتين من حقيقة دينهم، وطبيعته يوقعهم في بلبلة واضطراب، وبخاصة العرب الأميين الذين كانوا يظنون أن أهل الكتاب أعرف منهم بطبيعة الديانات والكتب، فإذا هم رأوهم يؤمنون ثم يرتدون حسبوا أنهم ارتدوا بسبب اطلاعهم على خبيثة ونقص في هذا الدين، وتأرجحوا بين اتجاهين، فلم يكن لهم ثبات على حال. وما تزال هذه الخدعة تتخذ حتى اليوم. في شتى الصور التي تناسب تطور الملابسات، والناس في كل جيل..

ولقد يئس أعداء المسلمين أن تنطلي اليوم هذه الخدعة، فلجأت القوى المناهضة للإسلام في العالم إلى طرق شتى، كلها تقوم على تلك الخديعة القديمة.

لقد حاول أعداء الله الإجهاز على قاعدة اتصال المسلم بربه ودينه عن طريق إطلاق الشهوات من عقائدها، وسحق القاعدة الخلقية التي تستولي عليها العقيدة النظيفة لتخر في الوحل الذي يشرونه في الأرض نثراً.

إن هذه الخديعة هي ما يسمى الآن بالغزو الفكري، بأساليبه المتشعبة، والتي هي أشد هولاً، وأقوى أثراً من الغزو بالسلاح الذي قد ينال أذاه فئة من الناس، بعكس الغزو الفكري الموجه إلى عموم المسلمين، على مختلف الجهات، وبأنواع مختلفة من الأسلحة المدمرة، وصدق الله: ﴿والفتنة أشد من القتل﴾^(٢)، ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾^(٣).

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٣٣ - ٣٣٤).

(٢) البقرة: (١٩١).

(٣) البقرة: (٢١٧).

نعم إن هذه الفتنة (الغزو الفكري) أصبحت اليوم أشد القضايا خطراً، وإن ظواهرها تبدو في قلوب كثير من المثقفين وعقولهم في هذا العصر واضحة بينة، وكما ذكرت آنفاً إن هذا السلاح الذي يتخذه هذا الغزو مدمر قتال، يؤثر في الأمم والمجتمعات أكثر مما يؤثر المدفع والصاروخ والطائرة^(١).

وقد ينزل هذا إلى الميدان، ويعظم خطره حين تحقق وسائل الحديد والنار، في تحقيق الهدف، والوصول إلى الغاية، والخطر الذي يحمله هذا الغزو أشد بكثير من قتل الأفراد، بل ومن قتل جيل بأسره، إذ يتعدى ذلك إلى قتل أجيال متعاقبة؛ لأن السلاح الذي يستعمله سلاح الحيلة والمكر، سلاح إثارة الشبهات والشهوات.

ومن المؤسف جداً أن أعداء الإسلام استغلوا في ذلك كل شيء حتى المنظمات الخيرية، وجعلوا منها منبراً، يغزون منه عقول المسلمين، وينالون من دينهم.

لقد استغلوا مثلاً منظمة «اليونسكو» التابعة للأمم المتحدة، والتي تضم مائة وعشرين دولة، استغلوها لمحاربة الإسلام حتى افترت على ديننا لما رددت مقولات المستشرقين^(٢) فيه، مع أن الدول العربية والإسلامية تقوم بإمدادها بمساعدات كبيرة كل عام.

(١) راجع كتاب: «احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام» للأستاذ سعد الدين السيد صالح ص ٣٩.

(٢) المستشرقون: من الاستشراق، وهو ذلك «التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي شملت حضارته، وأديانه، وآدابه، ولغاته، وثقافته». راجع الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٣ وانظر كتاب «السنة ومكانتها في الشريعة الإسلامية» للأستاذ مصطفى السباعي ص ١٨٧ - ١٨٨.

* أهداف الغزو الفكري

هذا وإن المسلم إذا تأمل في أهداف هذا الغزو وجد أن هنالك هدفاً عاماً تنبثق منه أهداف خاصة .

ذلك الهدف العام هو مسخ الأمة المسلمة، وقبوع منابع الأصالة، والابتكار، والإبداع فيها، وتحريف مقومات أمتنا الحضارية، وإثارة العجز في نفوس المسلمين ليتوقف بذلك النمو الحضاري، ويشعر المسلم بالتخلف، وعدم القدرة على مسايرة حضارة العالم!

والأعظم من ذلك : نقل المسلم من عقيدته وشريعته وروحانيته وقيمه وفكره إلى عقيدة الغرب وقانونه وفكره وثقافته ونمط عيشه، فينقطع المسلم بذلك عن قوته المعنوية التي تمدّه بأسباب القوة، وتبعث فيه الشجاعة، والبسالة، لتتصير الأمة الإسلامية ضعيفة عاجزة عن المقاومة والدفاع عن كيانها ووجودها .
هذا هو الهدف العام، والآن نشرع في عرض الأهداف الخاصة :

* الأهداف الخاصة

تكمن هذه الأهداف في عدة مجالات ، وهي على النحو التالي :

١ - في التربية والتعليم :

فمن أقوى الوسائل التي تمكن بها الغزو الفكري من الوصول إلى هدفه العام في مسخ شخصية الأمة المسلمة هي التربية والتعليم والثقافة الأجنبية، إذ بواسطة ذلك تم الاتصال بالمسلمين . وقد دخل الغزو الفكري إلى العالم الإسلامي من باب يخيل إلى السطحيين من الناس أنه الباب الطبيعي، إذ حمل اسم العلم والمعرفة والتمدن، ومن يحارب ذلك إلا الجاهل الأحق؟ يقول أحد القساوسة :

«المدارس أحسن مايعول عليه المبشرون»^(١) في التحكك بالمسلمين. لقد أقبل المسلمون على هذه المدارس بكثرة، يزدرون مناهجها، ويلتزمون كل ما أنتجته من عقيدة وفكر، لا يميزون بين صحيحها من فاسدها، ونفعها من ضررها، وقد أوحى إلى قسم من المسلمين أن يعتقدوا أن التعليم في هذه المدارس خير دواء لمعالجة الداء الذي ألم بالعالم الإسلامي، ولم يدر بخلد كثير منهم ماسوف تنتجه هذه المناهج المبنية على أسس تختلف وتباين عن أسس الإسلام الصحيحة في العقيدة. والشريعة والنظر إلى الكون والحياة والإنسان^(٢) لقد فعل المستعمرون في البلاد الإسلامية ما يريدون، فاندمج كثير من المسلمين معهم اندماجاً تاماً كاملاً، فتمكنوا بذلك من التأثير على فكر المسلمين، فجردوهم من عقيدتهم وشريعتهم شيئاً فشيئاً، وذلك بنشر لغة المستعمر، وتنشئة شباب الأمة على الولاء للمستعمرين، فيستسلمون لأفكارهم، وطرائق عيشتهم في الحياة فيما بعد!

ونجد في كل دولة إسلامية تمكن المستعمرون من السيطرة عليها عملاً دائماً مستمراً على نزع الإسلام من نفوس المسلمين، وتنشئتهم تنشئة غير دينية، فيؤدي ذلك إلى أن ينشأ المسلم في مجتمع لا يعرف عن دينه شيئاً.

* التعليم الجامعي

بعد أن سيطر المستعمرون على بلاد المسلمين أولوا جل اهتمامهم الجامعات الإسلامية بمناهجها، ونظامها، وصاغوها صياغة خاصة، تجعل

(١) من التبشير وهو: الدعوة إلى النصرانية، ومحاولة دفع الناس إليها بشتى الوسائل. راجع

الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام ص ٤١.

(٢) مجلة الجندي المسلم ص ٤٢، العدد (٢٥).

المتخرج منها لا صلة له بالإسلام، ويكون في الوقت نفسه أمياً في عقديته، وشريعته.

وإن من المؤسف المبكي أن الجامعات العصرية فُتنت بالبرامج الغربية، حيث استمدت مناهجها وبرامجها من مناهج البرامج الغربية، متجاهلة الدور العظيم الذي أسداه المسلمون إلى الإنسانية في مجال العلوم، والآداب، والقيم. وكانت علوم الطب والهندسة والكيمياء والفيزياء وغيرها تدرس في هذه الجامعات على أنها نتاج غربي ليس إلّا، وأن المسلمين لم يكن لهم أي دور يستحق الذكر في هذه العلوم! وكانت الفلسفات والنظريات الغربية، والمذاهب السياسية والاجتماعية، والتربوية الغربية تدرس في جامعاتنا على أنها حقائق مسلمة لا على أنها نظريات قابلة للصواب والخطأ. ولم يكن للفكر الإسلامي ونظراته في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية أي نصيب يستحق الذكر! لقد هدفت تلك المناهج إلى أن تقف وقفة مضادة لما كانت تقوم به الجامعات الإسلامية كالأزهر وجامعتي الزيتونة والقرويين، والمدارس الإسلامية في العالم الإسلامي، وبذلك يتخلخل، ويهتز فكر الشباب المسلم، الأمر الذي يؤدي - بطبيعة الحال - إلى أن يتخرج الطلاب من هاتين الجامعتين، وخريج كل منهما يختلف في تفكيره عن الآخر، بل صار بينهما تضاد عميق وبون شاسع.

لقد كان من نتائج البعثات الطلابية إلى البلاد الغربية أن الجامعات الغربية أجرت للطلاب المسلمين عملية (غسل الدماغ)، فيعودون إلى بلادهم وقد حملوا أفكار المستعمرين نفسها، تلك الأفكار التي تقلل من سلطان الإسلام، وأهميته، بل توهته، وتضعفه، وإذا علمنا أن إقامة الطلاب في ديار الغرب حين الدراسة تكون فترة ليست بالقصيرة، وأن تلك الديار فيها الميوعة والانحراف والضلال مالا يحظر بالحسبان. وإن المقيم في تلك الديار ليتأثر

بأعراف القوم إن لم تكن له حصانة من دين، تقيه شرور ذلك المجتمع الفاسد^(١).

إن هذا الغرس الخبيث كان من ثمراته مانراه اليوم في العالم الإسلامي من إعراض، وتهجم، وتنكر لشريعة الله رب العالمين.

٢. في وسائل الإعلام وهي قسمان:

أ - الصحافة ودور النشر ووسائل التوجيه بعامه.

ب - السينما بخاصة.

ونبدأ بالقسم الأول:

أ - الصحافة ودور النشر:

إن من أبرز ميزات هذا العصر سرعة المواصلات، وانتشار وسائل الإعلام. ولقد كان لهذه الميزة أعظم الأثر في سهولة التحكم في الفكر والسلوك العالمي، وتوجيهه في اتجاه يكاد يكون واحداً. ولقد فطنت الصهيونية العالمية^(٢) لهذا الأمر فأسهرت للقبض على زمام هذه الوسائل، وأول نشاطها في هذا المجال هو السيطرة على الصحافة.

(١) راجع كتاب «جذور البلاء» للأستاذ عبدالله التل ص ٢٢٠.

(٢) الصهيونية: منظمة يهودية تنفيذية، مهمتها تنفيذ المخططات المرسومة لإعادة مجد بني إسرائيل (اليهود) وبناء هيكل سليمان، ثم إقامة مملكة إسرائيل، ثم السيطرة من خلالها على العالم تحت (ملك يهودا) المنتظر.

وسميت بذلك: نسبة إلى صهيون جبل يقع جنوب بيت المقدس، يقدسه اليهود.

راجع الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٥٨.

وهاهو البروتوكول الثاني عشر من بروتوكولات حكماء صهيون يوضح ذلك فيقول:

«ما الدور الذي تلعبه الصحافة في الوقت الحاضر؟ إنها تقوم بتهييج العواطف الجياشة في الناس، وأحياناً بإثارة المجادلات الحزبية الأنانية التي ربما تكون ضرورية لمقصدنا. . . إننا سنسرجها وسنقودها بلجم حازمة. . . الأدب والصحافة هما أعظم قوتين تعليميتين خطيرتين. ولهذا السبب ستشتري حكومتنا العدد الأكبر من الدوريات»^(١).

* الاتجاهات التي تنتهجها صحف بني صهيون

للصحف التي يستولي عليها بنو صهيون اتجاهات مختلفة، كلها ظهرت لأجل إفساد الناس جميعاً وعلى رأسهم الشعوب المسلمة. ونقف الآن على هذه الاتجاهات:

١ - هناك صحف تتاجر بعواطف المراهقين وتنشط لنشر الأدب الجنسي، والصور الخليعة، والأمثلة في هذا المجال لا نحتاجها، لأن الكل يلمس من هذا النوع ماتنوء به البوارج البحرية. وإنما لحاذقة في المكر والتحايل لعرض هذه المفاسد.

وعلى رأس هذه الصحافة المصورة مجلات كالأسبوع العربي اللبنانية، والمصور المصرية، وآخر ساعة، وسيدتي، ومجلات الفن إلى غير ذلك.

٢ - وهناك اتجاه آخر لتلك الصحف هو إفساد الفكر، وهي في ذلك أنواع:

أ - هناك صحف تخصص في نشر الفلسفات الغربية، والتركيز على الإنتاج

(١) «بروتوكولات حكماء صهيون» ص ٨٨، ٩٢.

الغربي ولا تنسى أن تخلطه الإنتاج العربي، مما يدور في فلك الإنتاج الغربي نفسه، وإذا عرضت التراث الإسلامي عرضته بطريقة لا تسلم من اللمز والنبز والسخرية ويمثل لذلك بمجلة الآداب، والمعرفة.

ب - وهناك مجلات تخصص بالإنتاج الغربي، وتكاد تكون وقفاً عليه، وتبشر بالمكتشفات الغربية، وثأرها الرائعة! ويمثل لذلك بمجلة الهلال والمختار.

ج - وهنا مجلة تجمع الخصائص السابقة مجتمعة، وأهميتها أنها تنتشر في العالم العربي انتشاراً واسعاً تلك هي مجلة «العربي» وهذه المجلة ثلاثة أساليب:

الأسلوب الأول: اختيار صور الغلاف من الفتيات اللاتي يثرن أحاسيس المراهقين والمراهقات باعتباره نماذج راقية من المجتمع العربي، ورائدات من رواد التقدم!

الأسلوب الثاني: عرض الكتاب الغربيين بطريقة تصورهم رواد البشرية وهداتها^(١).

والأسلوب الثالث: عرض تلامذة الغرب من العرب المتغربين، والادعاء أنهم يمثلون الفكر الإسلامي الحديث^(٢).

وهكذا استطاع اليهود بهذا العمل المتواصل إفساد العالم كله بوجه عام والعالم الإسلامي على وجه الخصوص، وإن الأشد ألماً من ذلك أن في أبناء المسلمين من خدع بمخطط بني صهيون، والواقع خير شاهد على ما أقول، فلينظر العاقل في صحف أفضل البلاد الإسلامية وفي مجلاتها يجد السم الزعاف المتمثل في سب الدين، والسخرية من الإسلام ودعائه، يجد الابتهاج

(١) هذا مثل قول المجلة في أحد أعدادها الصادرة عام ١٣٨٥ هـ تقريباً: «فكتور هوجو: شاعر فرنسا الأكبر، مشى في جنازته ألف ألف من الفرنسيين».

(٢) وهؤلاء كثيرون منهم طه حسين، ونزار قباني، وأحمد لطفي السيد.

بالانحلال الغربي المتمثل بإبراز الروايات المكشوفة، والصور العارية، والأغاني البذيئة^(١).

وحقيقة إن الإذاعة لا تقل خطراً عن الصحافة، فإنها في معظم البلاد الإسلامية تقوم بكثير من جوانب الأساليب الصهيونية، ويمكن إبراز ذلك في النقاط التالية :

١ - لقد صنعت للناس مواخير في الهواء، حيث لم تترك مكاناً في المدينة أو القرية أو البادية إلا غزته، وأوصلت إليه خنوثة المغنين والمغنيات، وتأوهاتهم، وجعلت من طابور أولئك المنحليين^(٢) قدوة للشباب، في التهلك والميوعة والانحلال حتى صار في المجتمع المسلم فتیان لا يُصدق أنهم رجال لشدة الوقاحة والاستهتار.

٢ - أن أغلب برامج هذه الإذاعات تقدم باللهجات العامية.

٣ - هي منبر يتبارى عليه الثرثارون والتافهون لتهديم أركان الأمة.

٤ - هي أداة للتبشير بالأراء الصهيونية في السياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر^(٣).

هذا وإنه لمن الخطأ أن نقول: إن الصهيونية توجه الإذاعات في بلادنا، ولكن من الغباء أن نقول: إن استعمالها وإدارتها لا يتفق مع مخطط الصهيونية، فلقد أصبحت هذه النعمة التي أنعم الله - تعالى - بها على البشرية أكبر أداة للفساد والانحلال، وكانت إذاعة بني صهيون تسارع لتقديم السموم، ومن يتأمل هذه الإذاعة يجدها مليئة بأكثر الأغنيات فاحشة وفساداً، وصارت

(١) انظر «العلمانية» للأستاذ سفر الحوالي ص ٦٣٢، ومابعدا.

(٢) أمثال عبدالحليم حافظ، وفريد الأطرش، وأم كلثوم، وصباح.

(٣) الخطر الصهيوني ص ٢٣٧، ٢٣٨.

الإذاعات في أكثر البلاد الإسلامية والعربية تسير على منهاجها، للأسف الشديد.

ب. دور الخيالة «السينما»

إن السينما دسيسة صهيونية خبيثة، لا تزال بلاد الإسلام منها في محنة وبلية، وإن بني صهيون قد نجحوا في إلهاء العالم الإسلامي بهذه الفتنة العظمى أيما نجاح، فإننا إذا تأملنا الشركات التي تدير السينما في العالم كله وجدنا أن هذه الشركات يقودها اليهود^(١)، وإذا كانت دولة كبرى مثل أمريكا قد تأثرت بها فكيف بدول الإسلام التي يكيد لها بنو صهيون أكثر وأكثر. هاهي صحيفة اسمها صحيفة الأخبار المسيحية الحرة تنشر مقالاً يحذر مما تفعله السينما التي يقودها اليهود في أمريكا، ومما جاء في هذا المقال:

«لقد أصبحت هوليوود بسببهم «سدوم العصر الحديث» حيث تنحسر الفضيلة، وتُنشر الرذيلة، وتسترخص الأعراس، وتنهب الأموال دون رادع أو وازع. . . وهم يرغمون كل من يعمل لديهم على تعميم ونشر مخططاتهم الإجرامي تحت ستائر خادعة كاذبة. . .

وبهذه الأساليب القذرة أفسدوا الأخلاق في البلاد، وقضوا على مشاعر الرجولة، والإحساس وعلى المثل للأجيال الأمريكية». واختتمت الصحيفة كلامها بالقول:

(١) تبرز لنا هنا أسماء الذين يملكون هذه الشركات أمثال اليهودي ويليام فوكس صاحب شركة فوكس. واليهودي صاموئيل غولدين صاحب شركة غولدين.

«أوقفوا هذه الصناعة المجرمة لأنها أضحت أعظم سلاح يملكه اليهود لنشر دعاياتهم المضللة الفاسدة»^(١).

نعم إن السينما داء عريض ، وشر مستطير، لا تزال آثارة الوخيمة ، ونتائجه السيئة تنخر في جسم الأمة إلى اليوم .

ويكفي هنا أن نذكر فلماً سينمائياً يبين الوقاحة التي تنطوي عليها أعمال بني صهيون وأتباعهم لإفساد العالم الإسلامي :

إن فيلم الهدية من أقدر الأفلام إساءة للمسلمين ، حيث يروي قصة عدد من العرب المسلمين الذين يصطحبون عشرات من «حريمهم» المحجبات إلى باريس ، حيث ينطلق الأمراء في بعثة ملايينهم لاصطياد العاهرات ، ومنهن بطلة الفيلم اليهودية ، وفي نفس الوقت يغلقون أبواب غرف الجناح الضخم في الفندق على نسائهم «الحريم» ولا يسمحون لهم بالخروج من غرفهن ، وحين يخطيء خادم عجوز في قرع باب جناح «الحريم» يغلقن الباب ، ويهجمن على الخادم العجوز ويجبرنه على تعاطي الفاحشة معهن جميعاً .!! ويجري كل ذلك وسط قهقهة المشاهدين الذين ينجح بينهم الخبث الصهيوني عبر هذا الفيلم وأمثاله الذي تشوه فيه صورة المسلم العربي في فكره وعاطفته^(٢).

(١) «النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية» تأليف فؤاد بن سيد عبدالرحمن الرفاعي ص ٣٨ .

و «السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية» لزياد أبوغنيمة ص ٥٢ .

(٢) راجع كتاب «السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية» ص ٥٩ .

إن اليهود يعلمون أن الغالب في رواد السينما هم من الشباب، أو من طبقة العمال الفقراء، لذا فإنهم يعمدون إلى إثارة غرائزهم، وإفساد أخلاقهم بما يقدمون لهم من أفلام الجنس والجريمة والسرقات والقتل، ولذلك تحدث أحد مفكري الغرب النصراني في احتفال عام أقيم في نيويورك عام ١٣٥٥ هـ قائلاً: «بواسطة وكالات الأنباء العالمية يغسل اليهود أدمغتك، ويفرضون عليكم رؤية العالم وأحداثه كما يريدون هم لا كما هي الحقيقة...».

وبواسطة الأفلام السينمائية يغذي اليهود عقول شباننا وأبنائنا، ويملاؤنها بما يشاؤون، فيشب هؤلاء ليكونوا أزلاماً لهم وعبيداً خلال ساعتين من الزمن، هي مدة عرض فيلم سينمائي، يمحو اليهود من عقول شباننا وأجيالنا الطالعة ماقضى المعلم والمدرسة، والبيت والمربي عدة أشهر في تعليمهم وتثقيفهم وتربيتهم...»^(١).

٣. في الخمر والمخدرات

لم تُغزَ أمة الإسلام بشيء أكثر من غزوها بالخمر والمخدرات، وسائر المفترات، وهذا كله؛ لأن أعداء ديننا من اليهود والصليبيين وسائر الملحدين يعلمون ما تحدثه هذه الأمور من إضعاف شوكة المسلمين، الأمر الذي يفتح الباب لهم لتنفيذ مؤامراتهم الفاجرة، وخططهم الماكرة..

نعم لقد حورت أمة الإسلام منذ إشراق شمس الرسالة بحروب كثيرة، كان من أشرسها هذه الحرب التي وُجِّهت إلى العقول.. إنها حرب المخدرات

(١) «اليهودية العالمية» للأستاذ عبدالله حلاق ص ٧٣.

والخمور التي تذهب العقل، وتشل الحياة وتهدم الأمة.
ألا نعلم أن التار لما دخلوا بلاد الإسلام في القرنين السادس والسابع
الهجريين كان من ضمن ما أدخلوه معهم مخدرٌ اسمه «الحشيش»^(١).
ألا نعلم أن ذلك الانتشار الهائل في البلاد الإسلامية، العربية وغير
العربية كان من وراء ترويجها وانتشارها بنو صهيون؟!
إنها خطة صهيونية محكمة، لا تستهدف بلداً إسلامياً واحداً، بل الأمة
الإسلامية كلها.

إن أعداء الإسلام يجدون في استنباط أنواع جديدة من المخدرات قذائف
عالية المفعول، دقيقة في إصابة الهدف، فأطلقوها لإصابة قلب الأمة.
إن حرب المخدرات التي يجب على المسلمين أن يقفوا منها موقفاً صارماً هي
أبشع بمراحل من تلك التي تسمى حربَ الجراثيم؛ ذلك لأنها رغم تحريمها
وبشاعتها محددة بزمان معين هو زمن الحرب، ومكان معين هو ساحة القتال،
لكن الزمان هنا في حرب الخمور والمخدرات لا ينتهي، والمكان هنا هو الأمة
الإسلامية بأسرها، والهدف هم شباب هذه الأمة الذي يمثل قلبها ومحركها.
ولنا أن نتصور الحال التي سيكون عليها شباب غارق في بحور الخمور
والمخدرات!! فهل يعي المسلمون وقادتهم هذه الفتنة التي هي أشد من القتل،
وأعظم سلاح يضربون به الأمة، ثم يتركونها، ويعودون بعد زمن يسير، فإذا
السيطرة عليها أسهل ما يكون.

وإننا لنسأل الله - تعالى - أن يرزق قادة الإسلام والمسلمين التنبه لهذه الفتنة
العمياء التي عمّت وطمت في معظم ديار الإسلام، ليواجهوها بكل

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢٠٥/٣٤).

مايستطيعون من قوة وقدرة، فيحبطوا هذه المؤامرة الخبيثة من بني صهيون وأعدائهم، إن ربي قريب مجيب.

٤ - في الرياضة والكرة(*)

أثناء عملي في هذا البحث الذي أسأل الله - تعالى - أن يكون نافعا مباركا فوجئت بحدث عجيب، ذلكم هو استعداد كثير من شباب المسلمين لمشاهدة مباريات كأس العالم لكرة القدم، والمقامة في الولايات المتحدة الأمريكية فضلاً عن أولئك الشباب الذين ذهبوا إلى تلك البلاد حيث الفجور والمجون بكل صوره ومعانيه.

وتأملت كثيراً عندما رأيت كم هائلاً من شباب الأمة حتى من المتسبين للدين غارقاً في بحر هذه الفتنة الصهيونية الماكرة التي أرادوا بها إلهاء أمة الإسلام بهذه الأمور التافاهات التي يقود زمامها الغارقون في بحور الشهوات، المتبعون لأهوائهم من أصحاب الأخلاق الفاسدة، والعادات الضالة.

هذا وإننا إذا قررنا أن هذه الفتنة مكيدة مدبرة من أعداء الله من اليهود لا نقول ذلك من فراغ، إنما نطقنا بذلك قراراتهم، ووضحته معاهداتهم، فقد جاء في البرتوكول الثالث عشر مانصه:

«ولكي نبعداها - أي الجماهير - عن أن تكشف بأنفسها أي خط عمل جديد سنلهيها أيضاً بأنواع شتى من الملاهي والألعاب ومزجيات للفراغ والمجامع العامة وهلم جرا.

(*) لاشك أن الإسلام حث على رياضة الأبدان وتقويتها، وهذا أمر لا جدال فيه، ولا يحتاج إلى تفصيل، إذ إن مقصودي هنا الكشف عن هذا الأمر الذي فتن الناس وصددهم عن دين الله - عز وجل - وصار - للأسف الشديد - معبوداً لكثير من الناس في هذا الزمان، والله المستعان !!

وسرعان ما سبدا الإعلان في الصحف داعين الناس إلى الدخول في مباريات شتّى في كل أنواع المشروعات : كالفن والرياضة وما إليها . هذه المتع الجديدة ستلهي ذهن الشعب حتماً عن المسائل التي سنختلف فيها معه ، وحالما يفقد الشعب تدريجياً نعمة التفكير المستقلّ بنفسه سيهتف جميعاً معنا لسبب واحد . هو أننا سنكون أعضاء المجتمع الوحيدين الذين يكونون أهلاً لتقديم خطوط تفكير جديدة . . « (١) .

ولقد نجح بنو صهيون في ذلك أيّما نجاح ، فهاهي الرياضة والكرة تحوز على اهتمام الصحف والمجلات والإعلام بصفة عامة أكثر من اهتمامه بالأمور الدينية ، فيحتل الحديث عن النوادي الرياضية ، ونشاطها ، وأبطال ملاعبها ، والكشف عن مواهبهم مكان الصدارة في غالب دول المسلمين - للأسف الشديد - .

لقد أوجدت الصحافة والإعلام قياً بديلة عن الدين ، ألهمت بها أكثر الناس ، شباباً وكهولاً ، رجالاً ونساءً ، حيث لا شيء في الحياة إلا فنّ الكرة ، فلا جرم أن يرى الإنسان ملاعب الكرة مليئة بالآلاف من الهواة والمشجعين ، وأن من لم يسعه ذلك جلس أمام الشاشة الصغيرة يتابع الأداء في اهتمام ليس له مثيل ، وإن حان موعد الصلاة فلا أحد يتحرك ، وكأنهم خشب مسندة من أثر هذه الفتنة الهوجاء .

ولا عجب أن يرى الإنسان تلك الموجات العارمة من الشباب حين يقومون بمظاهراتهم الصاخبة التي تموج في شوارع المدينة ، وميادينها فرحاً بالنصر ، ولا عجب أن ترى الكآبة والحزن على وجوه من فشل ناديتهم ، وكأنهم قد فقدوا عزيزاً !! أقول : لا غرابة ولا عجب في هذا كله لأن الرياضة عند

(١) بروتوكولات حكماء صهيون ص ٩٩ ، ١٠٠ .

أصحابها والمسؤولين عنها قد تحولت من رياضة متزنة إلى حب وجنون وعقيدة ومذهب!

فماذا بقي من الوقت لدى الشباب ليسأل نفسه: ماهو الدين؟ وماهو الواجب عليه نحو ربه، ودينه؟

ولم يصل الحد إلى هذا الأمر فقط بل وصلت نوادي الكرة في بعض الأحيان لأن تكون وكراً للفساد، وللشذوذ الجنسي لدى الشباب، وكل هذا وذاك نتيجة للفراغ القاتل، وسوء التوجيه من القائمين على هذه النوادي - للأسف الشديد -.

* توصيات

بما أننا ذكرنا هذا الداء العضال الذي غزانا به أعداؤنا، وأرادوا فتننا عن ديننا وأخلاقنا فيحسن بنا أيضاً أن نذكر توصياتٍ مختصرة، تمثل مانراه علاجاً لتلك الظواهر النجسة، والفتن المتلاطمة، سائلين الله - تعالى - أن ينفع بها عباده، إنه على كل شيء قدير.

١ - الاهتمام بالأجيال القادمة من أبناء المنطقة الإسلامية، وتربيتهم تربية إسلامية توفر جيلاً من أبنائها، يتولى قيادتها إلى بر الأمان بعيداً عن المؤثرات والتيارات الوافدة، وذلك بإعادة النظر في أساليب التربية والتعليم.

٢ - ضرورة إبراز مادة علمية دراسية جديدة باسم الغزو الفكري أو ماشاكله من الأسماء، تشرح دور هذا الغزو وتاريخه، ومدى تأثيره في حياة المسلمين المعاصرة، فكرياً وقانونياً وتعليمياً، وتقرر هذه المادة على مراحل التعليم المختلفة.

٣ - كشف سموم التغريب والغزو الفكري، والتصدي لدعوات الغرب

المضللة والداعية إلى تدمير مقومات شخصيتنا، وإعادة روح الوهن والتحلل في شباب أمتنا حتى يطبق قبضته على رقابنا، وذلك عن طريق عملية تربوية تعيد الأمور إلى نصابها.

٤ - وضع استراتيجية خاصة بالإعلام الإسلامي تقدم على أساس تطبيق شرع الله - تعالى - في التعامل مع مختلف التقنيات الإعلامية، والبحث عن الصورة المنظورة التي يمكن من خلالها إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥ - نظراً لكثرة ما يستورد من أفلام ومسلسلات من الدول الغربية، وهي تتنافى مع الآداب الإسلامية، لهذا يجب الإشراف على أجهزة التلفاز، ودور السينما، وإنشاء جهاز للرقابة الإعلامية، ويقوم الجهاز بمنع عرض أي فيلم أو مسلسل لا يتفق ومبادئ الإسلام، وتعاليمه، وقيمه، وآدابه.

٦ - محاولة استلفات النظر إلى مطالعة بحوث ومحاضرات ودراسات تكشف القناع عن الحقيقة الإسلامية، وتثير جوانب أظلمت في نظر «المثقفين» اليوم من تعاليم الإسلام، وما يقدمه الإسلام من حلول لمعضلات الحياة الراهنة ومتطلباتها في ميادين العلم والسياسة والاجتماع، وما يعطيه من إرشادات وتوجيهات حول النفس والأخلاق.

٧ - إقامة الندوات والمحاضرات التي تبين دور أعداء الدين في إضلال المسلمين عن طريق الأجهزة الإعلامية وخاصة البث المباشر، ثم التعريف أيضاً بدور أعدائنا في محاولة هزيمتنا بغزونا عن طريق الخمر والمخدرات التي تفتك بجسم الأمة أكثر من فتك المدافع والرشاشات.

٨ - الحرص على نصح المسؤولين والموجهين أن يتقوا الله - تعالى - في الشباب المسلم، وأن يشجعوهم على الأنشطة الثقافية الإسلامية بدلاً من الزج بهم في متهافتات الرياضة والكرة، ودعوة أولي الأمر إلى تحويل ملاعب الكرة إلى

ميادين للتدريب على القتال، والاستعداد للملاقاة الأعداء.

٩ - ينبغي أن يكون للعب والرياضة وللكرة حجمها الطبيعي فلا تضخم، ولا تتجاوز مساحاتها إلى القضايا والأهداف الكبرى في حياتنا، بحيث تغطي على العواطف والمشاعر والانفعالات.

١٠ - ليعلم المفتونون بالرياضة أن جنون الرياضة عامة وجنون الكرة خاصة لون من الجنون ينشأ اليهود في الأرض من خلال وسائل الإعلام التي يسيطرون عليها ويوجهونها^(١).

فليحذر هؤلاء من أن ينفقوا أوقاتهم إلا فيما يرضي الله - تعالى - ولتكن اهتماماتهم بقضايا دينهم وعقيدتهم وأمتهم بدلاً من هذا الهوس الرياضي الذي يُنسي صاحبه أوامر ربه، وقضايا أمته . .

(١) «رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر» للأستاذ محمد قطب ص ١١٤.

الباب الثاني
مظاهر الفتنة
وأسبابها وأساليب القرآن
في التحذير منها

وفيه ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: مظاهر الفتنة.
- الفصل الثاني: أسباب الفتنة.
- الفصل الثالث: أساليب القرآن في التحذير منها.

الفصل الأول مظاهر الفتنة

وفيه خمسة مباحث :

- المبحث الأول: الكفر والشرك.
- المبحث الثاني: النساء.
- المبحث الثالث: إتيان الذكران.
- المبحث الرابع: الحكم والسلطة.
- المبحث الخامس: السحر.

الفصل الأول: مظاهر الفتنة

المبحث الأول الكفر والشرك

الكفر: نقيض الإيمان، وهو إنكار شيء مما جاء به النبي - ﷺ - ووصل إلينا بطريق يقيني قاطع، ومن كفر بشيء مما يجب الإيمان به سُمي كافراً. ويدخل في الكفر الشرك، وهو أن يجعل العبد مع الله - تعالى - إلهاً آخر، قال الله - تعالى -: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾^(١) (٢). وعلى ضوء هذين المصطلحين جاء لفظ الفتنة في القرآن، قال الله - تعالى -: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾^(٣).

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: «يعني لا يكون شرك»^(٤). وروى ابن جرير في تفسيره عن مجاهد قال: ﴿حتى لا تكون فتنة﴾ قال: يساف ونائلة، صنها كانا يعبدان^(٥).

وقال تعالى: ﴿والفتنة أشد من القتل﴾^(٦) جاء عن ابن عباس - رضي الله

(١) المائدة: (٧٣).

(٢) «الكفر والمكفرات» للأستاذ أحمد البيانوني ص ٥، ١٧.

(٣) الأنفال: (٣٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/٣٠٩).

(٦) البقرة: (١٩٣).

(٥) تفسير الطبري (٦/٢٤٥).

عنها - أنه فسر الفتنة هنا بالكفر^(١)، وقال غيره: المعنى: إن الفتنة التي حملوكم عليها ورموكم بها على الرجوع إلى الكفر والشرك أشد من القتل.

قال مجاهد: أي من أن يقتل المؤمن، فالقتل أخف عليه من الفتنة.

ويحتمل أن يكون المعنى: والفتنة أي الكفر والضلال الذي هم فيه أشد في الحرم وأعظم جرماً من القتل الذي عيروكم به في شأن ابن الحزرمي - ذلك المشرك - الذي لما مرّ بعير لقريش رماه أحد المسلمين بسهم فقتله وكان ذلك في الشهر الحرام. ولقد أكثر الناس من الكلام في هذه الحادثة، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية، فبين أن المسلمين وإن كانوا قد قتلوا من المشركين في الشهر الحرام فإن أولئك قد صدوهم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام. وإن إخراجهم من المسجد أكبر، وزيادة على ذلك إن الفتنة أكبر من القتل^(٢). قال الطبري: قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، وذلك أكبر عند الله من القتل^(٣).

إنه من خلال الاستعراض السابق يتبين لنا أنه جاء تفسير الفتنة في الآية بالكفر كما هو مروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وجاء تفسيرها بالشرك أيضاً، ولا تعارض بين التفسيرين، إذ الشرك داخل في مسمى الكفر، وإن كان حمل الفتنة على الشرك أقوى في آية: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ...﴾؛ لأن سياق التفسير يتمشى مع هذه الآيات، وذلك في قوله - جلّ وعلا -: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ...﴾ فإن المراد منها: قاتلوا الذين يقاتلونكم من المشركين.

هذا ولعل سائلاً أن يقول: لم سُمي الكفر والشرك فتنة؟ والجواب عن هذا

(١) تفسير الرازي (٥/١٤١).

(٢) تفسير ابن عطية (٢/١٠١ - ١٠٢).

(٣) تفسير الطبري (٢/٣٦١).

أن يقال: سُمي الكفر والشرك فتنة لأنها فساد في الأرض، يؤدي إلى الظلم والهرج^(١).

فإن قال قائل: لم كانت هذه الفتنة أعظم من القتل؟ قيل له: لأن الكفر ذنب يستحق صاحبه به العقاب الدائم، والقتل ليس كذلك، والكفر يخرج صاحبه به عن الأمة، والقتل ليس كذلك، فكان الكفر والشرك أعظم من القتل^(٢).

أقول: إن هذه الفتنة الكبرى التي يحرص الكفار على نشرها في صفوف المسلمة قد سلكوا لنشرها وبثها طرقاً، وأساليب متنوعة.

نعرض لها بشيء من التفصيل فيما يلي:

١ - إلحاق الأذى الجسماني:

فقد يعجز الطواغيت عن صرف الناس عن دينهم، وتغيير مواقفهم بالتهديد والسخرية وغيرها من الوسائل، ولكنهم يستمرون في المطاردة رجاء أن يحققوا أهدافهم، ويبتكرون وسائل أخرى في التنديد والمطاردة.

ومن الوسائل المؤثرة إلحاق الأذى الجسماني، فلكي يحققوا أهدافهم في إجبار الناس على الكفر بالله - تعالى - يصبون جام غضبهم، ويتفننون في ابتكار وسائل التعذيب.

والتاريخ يخبرنا في القديم والحديث أن الطواغيت قد سلكوا وسائل متعددة في إلحاق الأذى الجسماني، ومن ذلك:

أ - التعذيب بالنار:

فقد كان خباب بن الأرت^(٣) - رضي الله عنه - من المستضعفين في مكة،

(١) تفسير الرازي (١٤١/٥).

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها.

(٣) هو خباب بن الأرت بن جندلة التميمي، ويقال: الخزاعي، أبو عبدالله. أسلم قديماً، =

لاقي على أيدي المشركين من العذاب ما الله به عليم ، وهاهو يحدث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عما لقيه من تعذيب على أيدي المشركين ، فيقول :

«لقد رأيته يوماً وقد أوقدوا لي ناراً ، ثم سلقوني فيها ، ثم وضع رجله على صدري ، فما أتيت الأرض إلا بظهري ، ثم كشف خباب عن ظهره لعمر بن الخطاب فإذا هو قد برص»^(١) .
ب - التعذيب بالخنق :

فقد ثبت في الصحيح أن عقبة بن أبي معيط - ذلك الكافر العنيد - جاء إلى النبي - ﷺ - وهو في حجر الكعبة ، فوضع ثوبه على عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبوبكر - رضي الله عنه - حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن رسول الله - ﷺ - وقال : «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»^{(٢)(٣)} .

ج - نزع اللحم عن العظم ، والنشر بالمنشار :

ثبت في الصحيح عن خباب بن الارت - رضي الله عنه - قال : (شكونا إلى رسول الله - ﷺ - وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا؟ فقال : «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له حفرة في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط

= وعُذب عذاباً شديداً لإسلامه . شهد المشاهد كلها ، وأخى رسول الله - ﷺ - بينه وبين جبر بن عتيك . وفاته بالكوفة سنة ٣٧ هـ . راجع الإصابة (١/٤١٦) .

(١) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (١/٤٢٩) .

(٢) غافر : (٢٨) .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ، باب قول النبي - ﷺ - : «لو كنت متخذاً خليلاً» (٢٢/٧) برقم (٣٦٧٨) .

الحديد مادون لحمه وعظمه ، فما يصدده ذلك عن دينه ، والله ليرتد هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله ، والدُّبُّ على غنمه ، ولكنكم تستعجلون ﴿١﴾ .

إن هذه الأساليب في التعذيب ماهي إلا مجرد أمثلة لما حدث في العصر الأول ، فماذا نجد في هذا العصر من صور التعذيب ووسائله ؟ ! إن الذي يسمع ما يجري للمؤمنين تحت أيدي الكافرين والفاستقين يدرك أن أولياء الشيطان في هذا العصر قد ابتكروا من وسائل التعذيب ما لا يخطر على بال الشياطين ، ليصرفوا الناس من الإيمان إلى الكفر ، ومن التوحيد إلى الشرك .

إن الصحف والمجلات والكتب تخبرنا عن أنواع من التعذيب ترتكب ضد المسلمين ، بعضها أمسك عن ذكره ؛ لأنني أتأذى ، وأؤذي القارئ بذكره . وبعض هذه الوسائل يحدثنا بها بعض من اكتوى بنارها ، ومن صنوف هذا التعذيب :

شتم الله - عز وجل - وشتم الرسول - ﷺ - وشتم الأمهات والآباء - والنيل من الأعراض - والبصق في الوجه - والكلام الفاحش البذيء - وقلع الأظافر - وسمل العيون - وتكسير عظام الأطراف - وتكسير الجمجمة - ونسف اللحية - وإشعال النار بها في بعض الأحيان - ونفخ الإنسان حتى يصبح كالبالون ، وإجلاس الإنسان على شيء حاد ، وجلده بالسياط ، وضربه في أماكن حساسة من جسمه ، وتقافذه بين أرجل الجلادين ، وتحميله الأثقال ، وملاحقته بالسياط ، وإرغامه على أن يغني للطاغوت الذي يعذبه مع الموسيقى ، وسجنه مع الكلاب البوليسية ، وحبسه أياماً دون تقديم الماء والجو شديد الحرارة ،

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام ، (٦/٦١٩) برقم (٣٦١٢) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - .

والتعذيب بالكهرباء، وبأسياخ الحديد المحماة، وتشريح جلود المساجين
بشفرات حادة^(١) . . الخ .

(١) الابتلاء والمحن في الدعوات تأليف الأستاذ محمد عبد القادر أبوفارس ص ١١٠ .

٢ - فرض الأنظمة والأوضاع الفاسدة التي تحارب المسلمين في ديارهم، بحيث يحمى الإلحاد، ويسمى نشره حرية، ومن ثم تفرض الأنظمة والقوانين التي تبيح الربا والزنا وشرب الخمر... الخ.

لقد رسم أعداء الدين من الكافرين خطة نشر الإلحاد في الأرض بدقة، ونفذوها بإحكام، ولم ييخلوا في سبيل تحقيقها بالمال والرجال. لقد حاول هؤلاء أن يدمروا شخصيتنا، ويفتنونا عن ديننا، لقد حاولوا إلزامنا بالتحاكم إلى القوانين الكافرة، وقسموا ديار الإسلام أقساماً، وأغروا بعضنا ببعض، فتقاتلنا لتحقيق مآرب الكفار، وخلعوا الحجاب عن العفيفات الكريهات بسبل مختلفة، وألزموا رجال الأمة في تركيا بلبس القبعة، وأهانوا علماء الإسلام، وفعلوا الأفاعيل.

ومن ذلك أن القانون الذي حكم مصر منذ عام ١٨٨٣م وهو القانون الفرنسي وضعه الكفار باللغة الفرنسية أولاً، ثم ترجموه إلى العربية، ثم زعموا أن النسخة العربية هي الأصل، وكتبوا على الفرنسية أنها ترجمة طبق الأصل.

ومن ذلك ماحدث بالعراق، حيث وضع القانون الجنائي العراقي المنفذ في سنة ١٣٣٦هـ تقريباً باللغة الإنجليزية، ثم ترجم إلى العربية، وزعموا أن القانون العربي هو الأصل^(١).

لقد كان الهدف من ذلك كله فرض الكفر والإلحاد، وتغيير الشريعة الإسلامية في أسرع وقت قبل أن تنتبه الأمة إلى الجريمة النكراء التي ترتكب في حقها وحق دينها وشريعتها.

(١) الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية تأليف الأستاذ عمر بن سليمان الأشقر ص ١٤.

* المكر الكبار

ولقد جاهد الصليبيون جهاد المستميت كي يسيطروا على المسلمين وديارهم، فردهم المسلمون على أعقابهم خاسرين .
ولقد وجدوا أن الإسلام والإيمان هو الذي يجمع المسلمين، ويهيمن في المجتمعات الإسلامية، فأرادوا اقتلاعه بكل ما يستطيعون، وصرح بذلك مفكروهم ورؤسائهم، فقال واحد منهم: «إن الإسلام هو الجدار الوحيد في وجه الاستعمار البريطاني»^(١).

إن الدول العربية المسلمة التي احتلتها الدول الصليبية عندما تملكت وحاولت أن ترفع رأسها أذاقتها تلك الدول أشكلاً وألواناً من العذاب . لقد نسيت تلك الدول التي تدعي الحضارة والمدنية كل المبادئ والقيم، وأقامت المذابح للمسلمين، وسقط فوق أرضنا المسلمة في النصف الأول من القرن العشرين أكثر من خمسة ملايين مسلم، نصفهم في بلد واحد هو الجزائر المسلمة .

وصدق الله :

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾^(٢) .
﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾^(٣) .

(١) «التبشير والاستعمار» لعمر فروخ والخالدي ص ١٨٧ .

(٢) البقرة: (١٢٠) .

(٣) البقرة: (٢١٧) .

ولقد اتبع أعداء الدين من الصليبيين وغيرهم خطوات يسيرون عليها لفرض الكفر والإلحاد، في بلاد الإسلام، فتدخلوا في شؤونها، وحاولوا إضعاف المحاكم الشرعية فيها تمهيداً لإلغائها، وحاولوا أيضاً إيجاد وإبراز علماء بالقوانين الوضعية، وادعوا أن الشريعة تناقض الحضارة والمدنية وأسندوا المناصب إلى الصليبيين الذين عملوا على تغيير شريعة المسلمين، وفرضت الامتيازات الأجنبية... (١) . الخ .

وإن من المؤسف جداً أن يوجد في بلاد الإسلام من يُطالب بنبد الكتاب والسنة، واستبدال الشريعة الإسلامية بالقوانين الأرضية حتى لقد ظن بعض المسلمين أن تغلب الكفار عليهم إنما حصل بسبب شريعتهم وعقيدتهم، فبدؤوا ينادون بالأخذ بذلك كله، بل جاهدوا جهاد المستميت لتحويل الدول الإسلامية إلى بلاد أوربية، فقال أحد هؤلاء المفتونين: «أريد أن أجعل مصر قطعة من أوربا» (٢) .



وهكذا نرى أن الكفار بهذه الخطوات الرخيصة، والأعمال الخبيثة استطاعوا إقصاء الشريعة، واستبدالها بالقوانين الوضعية التي عانى المسلمون من ويلاتها سنين طويلة، وقرون عديدة .

وإن الناس لو عادوا إلى تطبيق المنهج الرباني، والعمل بالهدي القرآني، والتدبر للتشريع الإلهي، لاستطاعوا شق الطريق، وتعبيد السبيل، وتذليل

(١) راجع هذه الخطوات مفصلة في كتاب «الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية» ص ٩٠ -

(٢) «بحوث في الشريعة الإسلامية والقانون» لمحمد عبد الجواد محمد، المجموعة الثانية ص ٣٤ .

الصعاب، والتغلب على كل المعوقات، وتحقيق الهدف، والمقصد السامي النبيل.

أما إذا غفلوا عن ذلك فسوف يذوقون من الويلات، ويتجرعون مرارة النكبات، والأزمات، مادامت شرائع الإسلام معطلة، ومادام الكثير من الحكام - إلا من رحم ربك - مصرين على عزل الدين عن الحياة، وإبعاد كل من يخدم الإسلام، أو يعمل لنصرة قضاياه. ولسوف نعجز عن تحقيق كل شيء ما لم تكن شريعة الله قائمة في حياة المسلمين - كل المسلمين - قياماً عملياً يواجه سياستهم، ويصرف جميع شئونهم، ويسيطر على حياتهم سيطرة تامة، تجعلهم متقادين لحكم الله، ملتزمين بشرعه، وقافين عند حدوده، وهذا هو أساس فلاحنا، وسر عزنا ونصرنا، ومصدر أمننا واستقرارنا، ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾^(١).

٣ - حماية المزارات والقبور والذبح لها والنذر، ودعاؤها من دون الله حتى أصبح الشرك الأكبر للأسف الشديد هو عين العبادة والتقرب إلى الله - تعالى -.

وإن التساهل في هذا الأمر يؤدي بالأمة إلى خطر كبير، وشر مستطير. ومن ذلك أن يترك لمن ينشرون هذه الترهات والخرافات التي تخرج العبد من الإسلام أن يترك لهم الحبل على الغارب حتى يتجرؤوا على نشر سمومهم وشركياتهم وكفرهم، حتى إنه وصل الحال ببعضهم إلى أن يدعو الرسول - ﷺ - من دون الله، كما قال صاحب البردة:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم^(٢)

(١) المائدة: (٥٦).

(٢) «الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد» تأليف العلامة محمد بن علي الشوكاني ص ٩١. وصاحب البردة هو البوصيري.

فانظر كيف نفى كل ملاذ ماعدا عبد الله ورسوله - ﷺ - وغفل عن ذكر ربه ورب رسول الله - ﷺ - إنا لله وإنا إليه راجعون . وللأسف الشديد، إنه وجد في بلاد التوحيد من يشيد بتلك الشراكيات والكفريات، ويعتز بها، وينشرها للناس، ووصل ببعضهم الحال إلى أن ينسب لرسول الله - ﷺ - صفات هي من خصائص الله، وأن له مقاليد السموات والأرض، وأنه يعلم الغيب، ويعرف الأمور الخمسة التي اختص الله - تعالى - بها . وأفرط في محبة الأولياء والصالحين حتى أدى به ذلك إلى القول بتقبيل قبورهم والتمسح بها^(١).

أقول: إن ترك مثل هؤلاء الذين ينشرون كفرهم وإلحادهم وزندقتهم في بلاد الإسلام كفيل بجلب شر كبير لا يعلم مداه إلا الله - عز وجل - . ومن ذلك أيضاً السكوت على مايفعله أولئك الدجالون الذين يقفون على القبور، ويجلبون الناس بأكاذيب يحكونها عن ذلك الميت ليستجلبوا منهم النذور، ويستدروا منهم الأرزاق، ويقتنصوا النحائر، ويستخرجوا من عوام الناس مايعود عليهم وعلى من يعولونه، ويجعلون ذلك مكسباً ومعاشاً . فضلاً عما يهولونه على الزائر من تهويلات، حيث يحملون القبور بما يعظم في عين الواصلين إليه، ويوقدون في المشهد الشموع والأطياب، ويجعلون لزيارته مواسم مخصوصة، يتجمع فيها الجمع الجم، ويرى الزائر مايملاً عينه وسمعه من ضجيج الخلق وازدحامهم وتكالبهم على القرب من الميت، والتمسح بأحجار قبره وأعواده، والاستغاثة به، والالتجاء إليه، وسؤاله قضاء الحاجات، ونجاح الطلبات مع خضوعهم واستكانتهم وتقريبهم إليه نفائس الأموال، ونحرهم أصناف النحائر.

(١) راجع «حوار مع المالكي في رد منكراته وضلالاته» للشيخ عبدالله بن سليمان بن منيع .

فبمجموع هذه الشراكيات مع تطاول الأزمنة، وسكوت أهل الحق، والسماح لأهلها يظن الإنسان مبادئ عمره، وأوائل أيامه أن ذلك من أعظم القربات، وأفضل الطاعات، ثم لا ينفعه من العلم بعد ذلك، بل يذهل عن كل حجة شرعية تدل على أن هذا هو الشرك بعينه، وإذا سمع من يقول ذلك أنكره، ونبا عنه سمعه، وضايق به ذرعه، لأنه يبعد كل البعد أن ينقل ذهنه دفعة واحدة في وقت واحد عن شيء يعتقده من أعظم القربات، وأفضل الطاعات، إلى كونه أقبح المقبحات، وأكبر المحرمات، مع كونه قد درج عليه الأسلاف، ودب فيه الأخلاف، وتعاودته العصور، وتناوبه الدهور^(١).

وهكذا حدث من جراء تساهل أهل الإسلام بأمور التوحيد وأصوله أن بقي المشرك على شركه، والمبتدع على بدعته، وصار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، فإذا جاء بعد ذلك من يريد أن يحملهم على المسائل الشرعية النقية نفروا منها، ولم تقبله طبائعهم، ونالوا ذلك المرشد بكل مكروه، ومزقوا عرضه بكل لسان.

وهذا نتيجة كل عمل فاسد لا يقاوم لأول وهلة، والله المستعان.

(١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد ص ٩٤.

المبحث الثاني النساء (*)

أخبرنا الله - جل وعلا - في القرآن العظيم أن الناس مفتونون بحب الشهوات، وذكر في مقدمتها فتنة هي من أعظم الفتن، إنها فتنة النساء التي تذهب بالعقول، وتحير الأفئدة:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ...﴾ الآية (١).

لقد جاء تصدير تلك الشهوات الفاتنة بذكر النساء؛ لأنهن حباثل الشيطان، ولأن جبهن لا يعلوه حب لشيء آخر من متاع الحياة الدنيا، فهن مطمح النظر، وموضع الرغبة، وسكن النفس، ومنتهى الأنس، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» (٢).

(*) أولى الإسلام النساء مكانة عظمى، ومنحها حقوقاً وواجبات، وليس هذا المبحث مجالاً للحديث عن مكانة المرأة في الإسلام، وتكريم الإسلام لها، إذ المقصود هنا الحديث عن فتنة قررها القرآن، ونبّهت إليها السنة، وهو لا يتعارض مع الأمر الأول، فذاك شيء وهذا شيء.

(١) آل عمران: (١٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة (١٣٧/٩) برقم (٥٠٩٦) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء (٢٠٩٨/٤) برقم (٢٧٤١)، والترمذي في كتاب الأدب، باب ما جاء في تحذير فتنة النساء (١٠٣/٥) برقم (٢٧٨٠)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب فتنة النساء (١٣٢٥/٢) برقم (٣٩٩٨) وأحمد في المسند (٢٠١، ٢٠٠/٥) كلهم من حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنها -.

والتأمل في واقع النساء يجد أن أكثر مايكسبه الرجال في كدهم وكدهم
ينفق عليهن .

فكم افتقر في جهن غني؟
وكم استغنى بالسعي للحظوة عندهن فقير؟
وكم ذل بعشقهن عزيز؟^(١)

ولا أدل على الأخير من قصة ذلك الرجل الذي حضرته المنية، فقيل له :
قل : لا إله إلا الله . فجعل يقول : أين الطريق إلى حمام منجاب؟
فلقد ألماه عن ذكر الله - تعالى - شرود ذهنه وتفكيره كله إلى جارية كانت
قد مرت بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب ذلك الحمام، فقالت الجارية وكان لها
منظر: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فقال : هذا حمام منجاب . فدخلت
الدار، ودخل وراءها . فلما رأت نفسها في داره وعلمت أنه خدعها أظهرت له
البشر والفرح باجتماعها معه . وقالت - خدعة منها له، لتخلص مما
أوقعها فيه، وخوفاً من فعل الفاحشة - : يصلح أن يكون معنا مايطيب به
عيشنا، وتقربه عيوننا . فقال لها : الساعة آتيك بكل ماتريدين وتشتهين . وخرج
وتركها في الدار، ولم يغلقها . فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت
وذهبت، ولم تحنه في شيء . . فهام الرجل، وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في
الطريق والأزقة، ويقول :

يارب قائلة يوماً وقد تعبت أين الطريق إلى حمام منجاب؟
فازداد هيبانه بها واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك حتى كان هذا البيت
- عياداً بالله - آخر كلامه من الدنيا^(٢) .

(١) تفسير المنار (٣/٢٣٩) .

(٢) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لابن القيم ص ١٤٧ .

* يوسف وامرأة العزيز

إن أقوى دليل وأصدق برهان على أن المرأة أشد فتنة يواجهها الرجال ما ذكره الله - عز وجل - عن نبي الله يوسف - عليه الصلاة والسلام - في قصته مع امرأة العزيز في مصر وتلك النسوة اللاتي حضرن مجلسها ذات يوم، حين طلبت امرأة العزيز منه بعدما كان منها من مراودة، أن يخرج على تلك النسوة اللاتي جمعتن ليشاهدن جمال يوسف - عليه الصلاة والسلام - فلا يلمنها فيما همت به، وماذا كان موقف يوسف - عليه السلام - تجاه فتنة امرأة العزيز لما قالت: ﴿ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن ولكيونا من الصاغرين﴾^(١)؟ كان موقفه أمام هذا التصميم أنه توقع الشر كله من ورائه، وأيقن أنها مادامت مصرة على مطاردته فإنها لن تألّو جهداً في سبيل الوصول إلى ماتريد، وخشي أن تمر به لحظة من لحظات الضعف البشري، فيضعف أمام إغرائها الدائم، فلم يجد أمامه سبيلاً إلا اللجوء إلى حماية ربه، فاتجه إليه صارخاً مستغيثاً: ﴿رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم^(٢).

إن عصمة يوسف - عليه الصلاة والسلام - من تلك الفتنة كلها راجعة إلى فضل الله - تعالى - ورحمته الذي منّ عليه بالإيمان الذي يوقظ الضمير، ويرهف الوجدان، ويشعر المؤمن بقيمة نفسه، فيأبى أن يهبط بها إلى مستوى الحيوان الأعجم.

الإيمان الذي يشعر صاحبه بأن الله - تعالى - معه في خلواته، يرى حركاته وسكناته، ويعلم ماتوسوس به نفسه، فيستحي أن يطلع ربه عليه وهو في موقف

(١) يوسف: (٣٢).

(٢) يوسف: (٣٣ - ٣٤).

شائن، فإن لم يكفه الحياء عن موقفه كفه الخوف من موقفه بين يديه يوم الحساب، حتى إذا أحس بأن نفسه أقوى من أن يقاومها، وأن شيطانه أخبث من أن يحتاط له لجأ إلى حمى ربه يستعيذ به من نفسه، ومن شيطانه، ويسأله الرعاية والحماية.

* سبب الفتنة بالنساء *

إن الناظر في واقع النساء اليوم وفي كل يوم يجد أن خروجهن متبرجات سافرات هو سبب الفتنة بهن، يخلعن بهذا الفعل جلباب الحياء، فيحطمن نخوة الشباب، ويقضين على روح العزة في نفسه، والرجولة في تصرفاته، فيصبح أسير شهوته، وعبد نفسه.

ولقد أخبرنا نبينا - ﷺ - بخروج مثل هذا الصنف من النساء الذي يضل الناس، ويجرفهم عن جادة الصواب، فقال: «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة^(١)، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا»^(٢).

(١) البخت: الإبل الخرسانية، ومعناه: أنهم يعظمون رؤوسهن بالغداثر والعمائم، والشعور المستعارة (الباروكة) وبيالغن في ذلك حتى إن رؤوسهن تميل لما عليها من الثقل إلى جانب من جوانب الرأس كما يميل السنام. انظر رياض الصالحين للنووي ص ٤٨٥، وشرح صحيح مسلم (١٤/١١٠). ومن المؤسف أنه وجد في هذا الزمان من يعتني بتصفيف هذه الأسنمة وصيغها، ففتحت في كثير من بلاد المسلمين الصالونات (الكوافير) حيث يشرف عليها مخنثة الرجال، أو النساء المتفرنجات، وتعقد المسابقات للتبارز في هذا الميدان، وكل هذا يقع أمام أعين المسلمين، فلا يحركون ساكناً، فيالغربة الدين!!

(٢) أخرجه مسلم في كتاب اللباس، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات (٣/١٦٨٠) برقم (٢١٢٨) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .

ولقد أجلت النظر في الأمور التي تكون تمهيداً لهذه الظاهرة المؤلة، وعاملاً رئيساً في انتشارها، فوجدتها تكمن في النقاط التالية:

١ - بيوت الأزياء، تلك المحلات التي وجدت في جسد المرأة تجارة رابحة، فموضة اليوم عند الركبة، وغداً فوقها بخمسة سنتيمترات، وبعد غد تزيد مساحة المعروض من خمسة إلى عشرين، وهكذا دواليك، وما على القطيع إلا أن ينفذ توجيهات وتعليمات بيوت أزياء الشيطان في باريس (بؤرة التعري والرذيلة).

٢ - مصانع التجميل، التي لم تجد أكثر رواجاً من إنتاج الشعور والرموش الصناعية والمساحيق والمعاجين والأصباغ..

فهذا مسحوق للبشرة الشقراء، وهذا للبيضاء، وهذا المعجون يستعمل مساءً، وذاك صباحاً، وذلك عند النوم، وهذه صبغة تصبغ بها الأظافر الطويلة التي تكدس خلفها ملايين الجراثيم حتى تغدو المرأة بعد استعمالها، وكأنها أنشبت أظفارها في فريسة فلوثتها بالدماء.

٣ - ومحال «الكوافير» وما أدراك ماهي؟

مستنقع اللوباء الخلقي، ووكالات أنباء لأسرار البيوت، وساعات من العمر - لا ترجع - تقضيها المرأة رخيصة تحت (الشوار) ولمسات فاجرة على شعرها ووجهها من رجل أجنبي عنها، وربما امتدت الأيدي بحجة التجميل إلى غير ذلك.

٤ - مصانع الأحذية، وهي الأخرى لها «موضات» و«موديلات» فهذا حذاء مكشوف يبيدي الأظافر الملوثة بالأصباغ، وهذا نعل ذهبي يلف قدمي المرأة الرقيقتين بغلالة كأنها الذهب.. وهذا حذاء يلبس من الساق إلى القدم، وتلتف أليافه على الساق حتى تبدو السيقان أكثر جمالاً.. والحذاء أسود، والساق بيضاء، وبضدها تتميز الأشياء.

وحذاء آخر كعبه من الألونيوم . . وهذا له شأن آخر، فكعبه العالي يستعمل كآلة موسيقية في السير وخاصة في صعود، السلم، وفي الهبوط إلى السفح، ولقد حدث أحد الفضلاء فقال: كنت في مصلحة حكومية أنجز فيها بعض مطالبي، فسمعت أحد الموظفين يقول موجهاً الحديث إلى زملائه: إني أعرف فلانه عندما تنزل من السلم، فسأله زملاؤه: وكيف؟ قال: أعرفها بحذائها، فإن له نغمات موسيقية خاصة أميزها به وأميزه بها^(١)!!

فرحم الله نساءً تأدبن بأدب القرآن:

﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾^(٢).

هذه وسائل مهدت لظاهرة التبرج والسفور مما هو متعلق بمطالب الفتنة في جسد المرأة، ولت الأمر وصل إلى هذا الحد في هذا العصر. إن التجارة لم تقتصر على ذلك، بل امتدت إلى جسدها نفسه:

أ - فهذا محل تجاري تعمل فيه فتيات فاتنات لجذب العملاء!!

ب - وهذه مجلة جنسية تعرض جسد المرأة شبه عار على صفحاتها، لترفع رقم التوزيع.

ج - وهذه شركة للسفر والسياحة، تختار مضيفات لهن مقاييس جمالية معينة، وذلك لتدخل المضييفة البهجة والسرور على المسافرين على خطوطها، ولتجعل منها متحفاً للمساحيق والألوان على الراكبين حتى يخفف عنهم قطع الفيافي والقفار!!!

د - وهذا مستشفى يعالج فيه الرجال والنساء . . جلُ عاملات التمريض

(١) «مشكلات الشباب الجنسية والعاطفية تحت أضواء الشريعة الإسلامية» بقلم الأستاذ

عبدالرحمن واصل ص ١١١.

(٢) النور (٣١).

فيه من الفتيات! .. ألا يصلح الرجال لهذه المهنة؟
وهل من الصعب العسير علينا أن نجعل الرجال يمرضون الرجال،
والنساء يمرضن النساء. . . كلا. . . إننا نريدها أنثى لترفه عن المرضى
بابتسامة عذبة تضيء من بين ثناياها، ويد حانية يكون وقعها على المريض
برداً وسلاماً!!

لقد كان من ثمرات هذا التبرج الفاضح ، والاختلاط المزري أن أضيف
إلى الأدب المعاصر موضوع جديد هو الغزل في المضيفات والمرضات وهنا
أكتفي بمثال واحد للأخير منها ، حيث يقوم شاعر مريض نسي مرضه ، وأصيب
بداء جديد هو نظرات ممرضتيه ، فيقول :

خليلي هل تأسو المراض خريدة بقامتها الهيفاء سهم من الختف
لعمري مادائي سوى نظراتها وبلسمي الشافي لديها وما أخفي
وقد عاجلوا نصفي بكف رقيقة وبالسحر من عينيها أهلكوا نصفي
ويرد شاعر آخر على هذا اللون من الوظائف التي تجعل من المرأة معرضاً
لعبث العابثين ، ونظرات المفتونين ، فيقول :

إن الممرضة التي في حسنها وجمالها ودلالها الفتان
ماست بمستشفى لعرض مفاتن بتصنع تفزولكل جنان
لحم على وضم يباع رخيصة للعابثين بأبخس الأثمان
كبضاعة في متجر معروضة للناس من قاص بها أو دان
أترى فتاة لا ترد للامس كفالها كل العيون رواني؟
كلا. . . فما أخلاقها مضمونة ولو أنها جذبت بحلو لسان
إن الحضارة لا تكون حضارة يبدو بناها ثابت الأركان
إلا على الدين الخفيف وعفة نبتت على الأخلاق والعرفان
لا خير في أمم يमित خلالها سعي الجميع لأصفر رنان

وإذا الدخيل تصرفت أفكاره يوماً بشعب فهو في تيهان
بل سوف يصبح لقمة لثعالب وفريسة العادي من الذؤبان^(١)

إنني - هنا بمناسبة ذكر هذا النوع من الإفساد - أوجه النداء إلى المسؤولين
في الوطن الإسلامي كله :

ألا تستحون من الله ؟!

بم تحييون ربكم إذا سألكم غداً - وقد قدمتم عليه حفاة عراة :

لم أفسدتم عبادي بهذه المضيفات والمرضات ؟

ما الذي غركم بي ؟

أغركم طول إمهالي ؟

أم غركم سعة إنعامي ؟

أيها المسؤولون :

إنكم الآن تمكرون . لكن الله - تعالى - أسرع منكم مكرأً ، هو فوقكم ،

يرى مكانكم ، ويسمع كلامكم ، فالتوبة التوبة قبل أن تندموا ، ولات ساعة
مندم .

إن مانراه اليوم من انتشار حوادث الاغتصاب والزنا ماهو إلا نتيجة لهذا
التحلل والتفسخ ، وسنرى المزيد والمزيد مادام الأمر على هذا الحال ، فلا دين
يمنع ، ولا مسؤول يزع ، وكيف يزع وهو الذي أنجد الطريق ، ويسر السبيل ،
وفتح الباب على مصراعيه لكل ساقط وساقطة لينشروا هذا الفجور باسم الفن
والحرية :

ألقاه في الماء مكتوفاً وقال له : إياك إياك أن تبتل بالماء^(٢)

(٢) عن «صيد الخاطر» لابن الجوزي ص ٨٩ .

(١) انظر المرجع السابق .

ولقد فطن أعداؤنا لهذه القضية، واستخدموا المرأة كسلاح لتقويض كل القيم الأخلاقية في بلاد المسلمين، وكانت المرأة رأس الحربة في هذه الهجمة الإباحية الخبيثة.

قال أحد كبار اليهود: «كأس وغانية تفعلان في تحطيم الأمة المحمدية أكثر مما يفعله ألف مدفع، فأغرقوها في حب المادة والشهوات». وقال آخر: «يجب علينا أن نكسب المرأة، فأى يوم مدّت إلينا يدها فُزنا بالحرام، وتبدد جيش المنتصرين للدين»^(١).

لقد سار أعداؤنا في تنفيذ مخططاتهم التخريبية في بلادنا سيراً حثيثاً، واستطاعوا أن يجندوا من أبناء المسلمين من يتولّى تنفيذ هذه المخططات، وينافح عنها، ويناضل من أجلها أشد ماتكون المنافحة والمناضلة، وسخرت وسائل الإعلام على اختلافها من إذاعة وتلفاز وسينما وصحف... الخ لتحقيق أهداف هذه الهجمة الإباحية، ونجحوا في ذلك أيما نجاح، حتى أوصلوا الفساد إلى العذراء في خدرها، ووجدوا لهم آذاناً صاغية مطيعة، فخرجت جمعيات نسائية ماسونية، تبث سمومها في بنات المسلمين، وتزعم أنها تطالب بحقوقهن «المهضومة» وإلى المساواة مع الرجال في كل شيء، وانقلبت الأوضاع رأساً على عقب «وكانت الرياح صباً فصارت دبوراً»^(٢)، فأصبح العهر تقدماً، والعفاف تخلفاً، والغيرة جموداً، والديانة تطوراً فلا حول ولا قوة إلا بالله.

إنه مامن شك ولا ريب أن التربية السيئة هي التي دعت أولئك النسوة إلى السفور والعري، فإهمال التربية الإسلامية الموافقة للشرع سيساعد على تزايد عدد هؤلاء النساء.

(١) راجع هذين النقلين في كتاب «تربية الأولاد في الإسلام» للأستاذ عبدالله علوان (٢٨٧/١).

(٢) الصبا: النسيم، والدُّبور: الريح العاتية، راجع مختار الصحاح ص ١٩٧ و ٣٥٦.

ولقد ثبت في الصحيح عن نبينا - ﷺ - أنه قال: «إن الدنيا حُلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واطقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(١).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء . . . وبيان الفتنة بالنساء (٢٠٩٨/٤) برقم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - .

المبحث الثالث إتيان الذكران «اللواط»

إن إتيان الذكران - وهو ما يعرف بجريمة اللواط - من أعظم الفتن وأكثرها ضرراً على الدين، والمروءة والأخلاق.

إنه داء عضال، وسُم قتال، مُتناهٍ في القبح والبشاعة، غاية في الخسة والشناعة، وهو شذوذ منحرف، وارتكاس في الطباع، يمجّه الذوق السليم، وتأباه الفطرة السوية، وترفضه وتمقته الشرائع السماوية، لما له من عظيم الأضرار، وما يترتب عليه من جسيم الأخطار، فآثاره السيئة يقصر دونها العد، وأضراره المدمرة لا تقف عند حدّ، فشأنه خطير، وشره مستطير، يفتك بالأفراد، وينهك المجتمعات، ويمحق الخيرات والبركات، ويسبب حلول النقم والبليات والحقيقة أن هذه الفتنة العظمى لا تتسع للحديث عنها والتفصيل فيها الصفحة، ولا الصفحتان، ولا العشر ولا العشرات، ولا أكون مبالغاً إذا قلت إنها تحتاج إلى مجلد كبير. ولكون هذا الموضوع مبحثاً واحداً في هذا الفصل فسوف أوجز الحديث عنه في النقاط التالية:

- ١ - أول من ابتدع هذه الفتنة الكبرى.
- ٢ - الآيات والآثار الواردة في ذم هذا العمل المشين.
- ٣ - تحريمه، وعقوبة مرتكبه.
- ٤ - أضراره المدمرة.
- ٥ - سبل الوقاية والعلاج.

ونبدأ الآن بشرح هذه النقاط واحدة تلو الأخرى:

١. أول من ابتدع هذه الفتنة الكبرى

أول من ابتدع هذا العمل القبيح ، وهذه الفتنة الكبرى هم قوم لوط - عليه الصلاة والسلام - قال تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) . قال صاحب قرع السياط في قمع أهل اللواط : «وأما أول من ابتدعه فقوم لوط - قبحهم الله - يروى أن أهل المؤتفكات كانوا من أجهل الناس ، وكانوا أهل كرم وعطاء ، فأصابهم القحط ، فجاءهم إبليس اللعين ، وقال : إنما أصابكم ذلك لكرمكم أو نحو ذلك ، فقالوا له : كيف السبيل إلى المنع ؟ قال : اجعلوا السُّنَّة - أي العادة - بينكم أنه إذا دخل رجلٌ إلى بلدكم غريبٌ سلبتموه ، وتكحتموه في دبره ، فإذا فعلتم ذلك لم تقحطوا ، فعزموا على ذلك ، وخرجوا إلى ظاهر البلد يطلبون من يفجرون به ، فتمثل لهم إبليس في صورة غلام أمرد حسن ، فقجروا كما علمهم ، فطاب لهم ذلك حتى صار عادة لهم في كل غريب ، ثم فشا فنفذ إلى أهل البلد أيضاً ، فظهر ذلك فيهم من غير إنكار ، ولا انتقام . فأرسل الله - سبحانه - إليهم لوطاً - عليه الصلاة والسلام - وكان أكبر المدن سدوم ^(٢) ، وأسماء بقيتها : صاصورا ، وصابورا ، ودوسة ، وعامورا . فعلمنا أن من فعل الفاحشة فسلفه فيها إبليس وقوم لوط ^(٣) .

٢. الآيات والآثار الواردة في ذم هذا العمل المشين

أ - قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ طَأَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ *

(١) الأعراف : (٨٠) .

(٢) قال في معجم البلدان : سدوم : مدينة من مدن قوم لوط - عليه الصلاة والسلام - وتقع في الأردن بجوار البحر الميت الآن . والذي لم يكن موجوداً قبل أن يمطر الله - عز وجل - قوم لوط بحجارة من سجيل ، ويقلب ديارهم . انظر «معجم البلدان» لياقوت (٣/٢٠٠) .

(٣) «قرع السياط في قمع اللواط للسفاريني» ص ٢٩ - ٢١ . وانظر تفسير ابن كثير (٣/٣٤٤) .

وما كان جواب قومه إلا أنا قالوا أخرجوه من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون*
فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين* وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف
كان عاقبة المجرمين*^(١).

وقال تعالى: ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات
قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تحزون في ضيفي أليس منكم
رجل رشيد* قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد*
قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد* قالوا يالوط إنا رسل ربك لن
يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه
مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب* فلما جاء أمرنا
جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود* مسومة عند
ربك وما هي من الظالمين ببعيد*^(٢).

وفي سورة الشعراء يذكر الله - عز وجل - هذه الجريمة، ويبين قبحها
فيقول: ﴿كذبت قوم لوط المرسلين* إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون* إني لكم
رسول أمين* فاتقوا الله وأطيعون* وما أسئلكم عليه من أجر إن أجري إلا
على رب العالمين* أتأتون الذكران من العالمين* وتذرون ما خلق لكم ربكم
من أزواجكم بل أنتم قوم عادون*^(٣).

ب - وثبت في الحديث الصحيح عن نبينا - ﷺ - أنه قال: «لعن الله من عمل
عمل قوم لوط»^(٤).

(١) الأعراف: (٨٠ - ٨٤).

(٢) هود: (٧٧ - ٨٣).

(٣) الشعراء: (١٦٠ - ١٦٦).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٣٠٩/١)، والحاكم في مستدركه (٣٩٦/٤) وقال: صحيح

الإسناد، ووافقه الذهبي. كلاهما من حديث عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما -.

وصح عنه - ﷺ - أنه قال: «إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط»^(١).

ومما ورد عن سلفنا الكرام في ذم هذا العمل اللثيم قول الفضيل بن عياض^(٢) - رحمه الله تعالى - : «لو أن لوطياً اغتسل بكل قطرة من السماء لقي الله غير طاهر»^(٣).

وقال الإمام ابن حجر^(٤) رحمه الله في كتابه الزواجر: «وأجمعت الأمة على أن من فعل بمملوكه فعل قوم لوط من اللوطية المجرمين الفاسقين الملعونين فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وقد فشا ذلك في التجار والمترفين، فاتخذوا حسان الممالك سوداً، وبيضاً لذلك، فعليهم أشد اللعنة الدائمة الظاهرة، وأعظم الخزي والبوار والعذاب في الدنيا والآخرة ماداموا على هذه

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٨٢)، والترمذي في كتاب الحدود، باب ماجاء في حد اللوطي (٤/٥٨) برقم (١٤٥٧) وابن ماجه في كتاب الحدود، باب مَنْ عمل عمل قوم لوط (٢/٨٥٦) برقم (٢٥٦٣)، والحاكم في المستدرک (٤/٣٩٧)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضاً الدوري في ذم اللواط برقم (١٥)، والآجري في تحريم اللواط برقم (١٢) كلهم من حديث جابر - رضي الله عنه -.

وصح الحديث الألباني في صحيح الجامع برقم (١٥٥٢).

(٢) هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، من أكابر العباد الصالحاء، كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق كثير منهم الإمام الشافعي - رحمه الله - وفاته بالكوفة سنة ١٨٧ هـ راجع في ترجمته تذكرة الحفاظ ١/٢٤٥. والتهذيب ٤/٥٠٣.

(٣) «ذم الهوى» لابن الجوزي ص ٢٠٨.

(٤) هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، من أئمة العلم والتاريخ. أصله من عسقلان بفلسطين، كان مولعاً بالأدب والشعر، ثم أقبل على الحديث، فبرع فيه، وأصبح حافظ الإسلام في عصره، من كتبه: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، وتهذيب التهذيب، وبلوغ المرام من أدلة الأحكام. وفاته بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ. راجع ترجمته في «الضوء اللامع» للسخاوي (٢/٣٦)، «طبقات الحفاظ» للسيوطي ص ٥٥٢.

القبائح الشنيعة، البشعة الفظيعة، الموجبة للفقر، وهلاك الأموال، وانمحاق البركات، والخيانة في المعاملات والأمانات، ولذلك تجد أكثرهم قد افتقر من سوء ما جناه، وقبيح معاملته لمن أنعم عليه وأعطاه، ولم يرجع إلى بارئه وخالفه، وموجده ورازقه، بل بارزه بهذه المبارزة المبنية على خلع جلباب الحياء والمرءوة، والتحلي عن سائر صفات أهل الشهامة والفتوة، والتحلي بصفات البهائم، بل بأقبح صفة وحلة، إذ لا نجد حيواناً ذكراً ينكح مثله، فناهيك برذيلة تعفف عنها الحمير، فكيف يليق فعلها بمن هو في صورة رئيس أو كبير، كلاً بل هو أسفل من قدره، وأشأم من خبره، وأنتن من الجيف، وأحق بالشرور والسرف، وأخو الخزي والمهانة، ونجائن عهد الله وماله عنده من الأمانة، فبعداً له، وسحقاً، وهلاكاً في جهنم، وحرماً^(١).

وزيادة على ذم السلف لهذه الجريمة البشعة، فقد كانوا أيضاً يجذرون منها، ويخشون الوقوع فيها، فقد ذكر عن سفيان الثوري^(٢) - رحمه الله - أنه دخل الحمام، فدخل معه غلام صبيح، فقال أخرجوه، فإني أرى مع كل امرأة شيطاناً، ومع كل غلام بضعة عشر شيطاناً^(٣).

(١) «الزواج عن اقتراف الكبائر» تأليف الحافظ ابن حجر (٢/١٤٣).

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، أمير المؤمنين في الحديث. كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. وفاته بالبصرة سنة ١٦١ هـ. من تأليفه: الجامع الصغير، والجامع الكبير، والفرائض. راجع في ترجمته الطبقات الكبرى لابن سعد (٦/٢٥٧) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٩/١٧٤).

(٣) «تلبس إبليس» لابن الجوزي ص ٢٣٨.

٣ - تحريمه، وعقوبة مرتكبه

إن تحريم اللواط معلوم بالكتاب والسنة والإجماع، قال ربنا - تعالى -: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ، مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، وحث - ﷺ - على قتل الفاعل والمفعول به^(٢).

وأجمع الصحابة - رضي الله عنهم - على قتل مرتكب هذه الكبيرة، ونقل الإجماع غير واحد من أهل العلم^(٣).

ولم يختلف الصحابة - رضي الله عنهم - في القتل، وإنما اختلفوا في كيفيته، فقال بعضهم: يقتل بالسيف، وقال بعضهم: يرمى بالحجارة، وقال بعضهم: يحرقون بالنار، وقال بعضهم: يرفع على أعلى بناء في القرية، فيرمى منه منكساً، ثم يتبع بالحجارة^(٤).

وقال صاحب كتاب «الحدود والتعزيرات»: «وأما صفة القتل فإن الذي يظهر لي - والله أعلم - هو أن هذا عائد إلى رأي الإمام من القتل بالسيف، أو الرجم بالحجارة، ونحو ذلك حسب مصلحة الردع والزجر، والله أعلم»^(٥). وهذا الحكم شامل للفاعل والمفعول به، سواء أكانا بكرين أم ثيبين عند

(١) الأعراف: (٨٠).

(٢) سيأتي قريباً تحريمه.

(٣) انظر «المغني» لابن قدامة (١٠/١٦٠) والجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص (١٥٠).

(٤) الجواب الكافي ص ١٥١، وحاشية الروض المربع لعبد الرحمن بن محمد بن قاسم (٣١٨/٧).

(٥) «الحدود والتعزيرات» عند ابن القيم للشيخ بكر بن عبد الله أبوزيد ص ١٨٩.

الجمهور^(١)، وقد دلَّ على ذلك قوله - عليه الصلاة والسلام - : «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(٢).

٤ - أضرار هذا العمل المشين

يمكن لي أن أوجز الأضرار الناجمة عن هذا العمل القبيح في الأمور التالية:

١ - أنه جناية على الفطرة البشرية؛ لأن الله - تعالى - برأ الذكر والأنثى، وفطر كلاً منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيتته في امتداد الحياة عن طريق النسل الذي يتم باجتماع الذكر والأنثى، وأما اللواط فلا يرمي إلى هدف، ولا يحقق غاية، ولا يتمشى أبداً مع فطرة هذا الكون، وقانونه^(٣).

٢ - أنه مفسدة للشبان بالإسراف في الشهوة؛ لأنها تنال بسهولة.

٣ - أنه مذلة للرجال بما يحدثه فيهم من داء الابنة.

٤ - أنه مفسدة للنساء اللواتي ينصرف أزواجهن عنهن حتى يقصروا فيما يجب عليهم من إحصانهن.

(١) راجع «الاستقامة» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٨٧/٢)، وأضواء البيان للشنقيطي (٣٥/٣).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط (١٥٨/٤) برقم (٤٤٦٢)، والترمذي في كتاب الحدود، باب ماجاء في حد اللوطي (٥٧/٤) برقم (١٤٥٦)، وابن ماجه في كتاب الحدود أيضاً، باب من عمل عمل قوم لوط (٨٥٦/٢) برقم (٢٥٦١)، والحاكم في مستدركه (٢٩٦/٤) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) الظلال (٢٦١٣/٥).

٥ - قلة النسل بفشوه ، فإن من لوازمه الرغبة في عدم الزواج ، والرغبة في إثيان الأزواج في غير مأتى الحرث .

٦ - أنه ذريعة للاستمناء ، وإثيان البهائم ، وهما معصيتان قبيحتان شديدتا الضرر في الأبدان ، والآداب ، ومحرمتان كاللواط والزنا في جميع الأديان .

٧ - أنه يسبب الحزن الدائم ، والعذاب المستمر ، والقلق ، والاضطراب ، ذلك لأن من أحب غير الله أو تعلق بغيره كان ذلك سبباً في عذابه ، وحزنه ، وألمه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : «واعلم أن كل من أحب شيئاً لغير الله فلا بد أن يضره محبوبه ، ويكون ذلك سبباً لعذابه»^(١) .

٨ - أنه يسبب اختلالاً كبيراً في توازن عقل المرء ، وارتباكاً عاماً في تفكيره ، وركوداً في تصوراته ، وبلاهة واضحة في عقله ، وضعفاً شديداً في إرادته^(٢) .

٩ - أنه سبب في وجود كثير من الأمراض الخطيرة كالسيلان ، والهريس ، والإيدز ، وفيروس الحب^(٣) .

١٠ - أنه سبب في نزول النقمات ، وزوال الخيرات والبركات .
انظر وتأمل في العذاب الذي حلّ بقوم لوط - عليه الصلاة والسلام - من جراء إعلانهم بتلك الفاحشة النكراء :

﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٨/١) .

(٢) «الفاحشة : عمل قوم لوط» لمحمد الحمد ص ٤٠ .

(٣) راجع كتابي : «الأمراض الجنسية : أسبابها وعلاجها» للأستاذ محمد علي البار ، «الأمراض الجنسية عقوبة إلهية» لعبد الحميد القضاة .

منضود* مسومة عند ربك وماهي من الظالمين ببعيد^(١).
﴿ثم دمرنا الآخرين* وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾^(٢).

٥. سبل الوقاية والعلاج

هذه نصائح وتوجيهات، يتم من خلالها عرض السبل المعينة على التخلص من هذه الفاحشة النكراء، والفتنة الشنعاء، لعلها أن تكون تبصيراً وتوعية، تزيل الغشاء، وتصف الدواء.

١. التوبة النصوح :

فإنه على الرغم من شناعة هذه الجريمة إلا أن الله - تعالى - يغفرها إذا تاب العبد منها، وصدق في توبته، كيف لا وقد قال ربنا - جل وعلا - : ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون﴾^(٣).

٢. مجاهدة النفس، ومخالفة الهوى :

فإن هذين الأمرين سببان عظيمان، وعلاجان ناجعان في ترك الفواحش والآثام، وقد أثنى - تعالى - على من جاهد نفسه في ذاته فقال : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾^(٤)، ورحم الله القائل :
رب مستور سبته شهوة فتعري سُتْرَهُ فانتَهكاً
صاحب الشهوة عبد فإذا غلب الشهوة أضحى ملكاً^(٥)

(١) هود : (٨٢ - ٨٣).

(٢) الشعراء : (١٧٢ - ١٧٣).

(٣) النور : (٣١).

(٤) العنكبوت : (٦٩).

(٥) «روضة المحبين» لابن القيم ص ٤٨٤.

٣ - مراقبة الله - تعالى - :

ذلك أن الذي يرتكب هذه الجريمة يتوارى عن الأنظار، ويحذر من أن ترقبه الأبصار، فإذا ما استشعر اطلاع الله - تعالى - عليه ومراقبته له دعاه ذلك إلى الإقلاع عنها، بل وإلى بغضها والتقزز من فعلها.

٤ - الزواج :

ذلك لأن الزواج يطفىء نار الشهوة التي أثارها النظر إلى المردان، والتعلق بهم، فهو سبب في غرض البصر، وتحصين الفرج، وصدق نبينا - ﷺ - عندما قال: ﴿يامعشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج﴾^(١).

٥ - غرض البصر :

فإن غرض البصر طاعة لله، وراحة للقلب، وحفظ للدين، فهو يورث الأنس بالله، والقوة في القلب، وأما إطلاقه في المحرمات فإنه يضعف القلب، ويحزنه، ويصيره للهوى أسيراً، ويجعله عليه حاكماً وأميراً. .
نعم إن إطلاق البصر في المحرمات قد أوسع القلوب محنة، وملاها فتنة، وحال بينها وبين رشدها، وصرفها عن طريق قصدها، فمن أراد النجاة من هذه الفتنة الشنعاء فليغض بصره، ولا يطلقه إلا فيما أحله الله - تعالى - فإن فعل نجا، وإلا فهو والهلاك قاب قوسين أو أدنى.

٦ - البعد عن المعشوق المحبوب :

ذلك لأن الابتعاد عنه أهون بكثير من الاسترسال معه، والزلفى منه، فإن البعد جفاء، والقرب بلاء وشقاء.

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب من لم يستطع الباءة فليصم (١١٢/٩) برقم (٥٠٦٦)، ومسلم في كتاب النكاح أيضاً، باب استحباب النكاح لمن تأقت نفسه إليه ووجد مؤنة، (١٠١٨/٢) برقم (١٤٠١).

٧ - علو الهمة :

فعلو الهمة يستلزم الجِد، والإِباء، ونشدان المعالي، وتطلاب الكمال، والترفع عن الصغائر والدنايا. ومحقرات الأمور.

وعلو الهمة لا تزال بصاحبها تضربه بساط اللوم، والتأنيب، وتزجره عن مواقف الذل، واكتساب الرذائل، وحرمان الفضائل حتى ترفعه من أدنى الحضيض إلى أعلى مقامات المجد والسؤدد.

٨ - الحياء :

فإن من أكبر الأدوية على التخلص من هذا الداء الدعاء بصدق وإخلاص، لا سيما في الأوقات التي هي مظنة إجابة الدعاء، كثلث الليل الآخر، وبين الأذان والإقامة، وفي السجود.

المبحث الرابع الحكم والسلطة

إن شهوة الحكم والسلطة كانت ولا تزال من أعظم الفتن بين الناس ، فقد جُبل الإنسان على حب التملك والتسلط ، وتركزت في أعماق نفسه نزعة حب الشهرة والسمعة ، وهذا جعل شهوة الحكم والتسلط في نفس الإنسان من أقوى الشهوات ، وقد واجه النبي - ﷺ - أصحابه بهذه الحقيقة ، فقال : «إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة» (١) .

وإن قارئ التاريخ ، والمتأمل لأحداث الصراعات البشرية قديماً وحديثاً ليجد أن أكثرها حدث بسبب تلك النزعة الدفينة في أعماق النفس البشرية ، نزعة التسلط والحكم ، فما أكثر الحروب التي نشبت بسبب هذه النزعة ، وما أعظم البلايا والرزايا التي أصابت البشرية في مدى تاريخها الطويل بسبب شهوات الحكام المستبدين ، عبيد الشهرة والسمعة ، وطلاب السلطة والحكم . إن فتنة الحكم والتسلط كبيرة وخطيرة ؛ لأنها تستند إلى جذور عميقة وراسخة في أعماق النفس البشرية ، والحكام الذين ابتلوا بها ، وخرجوا منها سالمين قليلون ، فأكثرهم قد صرعتهم الفتنة ، وغلبت عليه شهوة التسلط والشهرة ، وبهرته الأضواء المسلطة عليه ، فشغل بنفسه عن مسؤوليته ، وأمته . ألا ترى أن الخلافة الراشدة بعد رسول الله - ﷺ - ثلاثون سنة فقط في

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٤٨/٢ ، ٤٧٦) ، والبخاري في كتاب الأحكام ، باب ما يكره من الحرص على الإمارة (١٣/١٢٥) برقم (٧١٤٨) ، والنسائي في كتاب البيعة ، باب ما يكره من الحرص على الإمارة (٧/١٤٤) . كلهم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .

عمر الإسلام الطويل الممتد من زمن رسول الله - ﷺ - إلى قيام الساعة، قال - عليه الصلاة والسلام - : «الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون، ثم مُلْكٌ بعد ذلك»^(١).

ولقد ضرب الله - تعالى - في القرآن أمثله لأولئك الحكام والسلاطين الذين غرهم ملكهم وسلطانهم، فضاعوا وضلوا ضلالاً مبيناً. هاهو فرعون الذي فتنه ملكه، وأغوته سلطته، يبرز في جاهه وسلطانه، وفي زخرفته وزينته، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان، المخدوعة بالأبهة والبريق: ﴿ونادى فرعون في قومه أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون﴾^(٢).

لقد عرف فرعون كيف يلعب بأوتار قلوب قومه، ويستغلها بالبريق القريب عندما يقول: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾^(٣). إنه يعني بالمهانة أن موسى - عليه الصلاة والسلام - ليس ملكاً ولا أميراً، ولا صاحب سطوة ومال مشهود، ولعله أيضاً يشير بهذا الكلام إلى أن موسى من ذلك الشعب المستعبد المهين شعب إسرائيل. وعند الجماهير الساذجة الغافلة لا بد أن يكون فرعون الذي له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته خيراً من موسى - ﷺ - ومعه كلمة الحق ومقام النبوة، ودعوة النجاة من العذاب الأليم..

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٧٣/٤) و (٤٤/٥)، والترمذي في كتاب الفتن، باب ماجاء في الخلافة (٥٠٣/٤) برقم (٢٢٢٦) قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) الزخرف: (٥٠).

(٣) الزخرف (٥١).

لقد وصل به التخطر أن يقول :
﴿فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب﴾^(١).
هكذا من ذلك العرض التافه الرخيص !
أسورة من ذهب تصدق رسالة رسول !
أسورة من ذهب تساوي أكثر من الآيات المعجزة التي أيد بها الله - تعالى -
رسوله الكريم - عليه الصلاة والسلام - .
أم لعله كان يقصد من إلقاء أسورة الذهب تنويجه بالملك ، إذ كانت هذه
عادتهم ، فيكون الرسول ذا ملك وسلطان^(٢).
ثم جاء فرعون بالاعتراض الآخر حين قال : ﴿أو جاء معه الملائكة
مقترنين﴾^(٣).
وهذا اعتراض آخر له بريق خادع كذلك من جانب آخر ، تؤخذ به
الجهاهير ، وترى أنه اعتراض وجيه ! وهو اعتراض مكرور ، ووجه به أكثر من
رسول !
وهاهو القرآن العظيم يبين لنا حال الحكام والسلطين مع شعوبهم حين
يطغون ويفسقون ، يقول سبحانه عن فرعون : ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم
كانوا قوماً فاسقين﴾^(٤).
إن استخفاف الطغاة بالجهاهير أمر لا غرابة فيه ، فهم يعزلون الجهاهير أولاً
من سبل المعرفة كلهم ، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ، ولا يعودوا
يبحثون عنها ، ويلقون في روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم

(١) الزخرف : (٥٢) .

(٢) الظلال (٥/٣١٩٣) .

(٣) الزخرف : (٥٢) .

(٤) الزخرف : (٥٣) .

بهذه المؤثرات المصطنعة . ومن ثمَّ يسهل استخفافهم بعد ذلك ، ويلين قيادهم ، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين .

إن هذه الفعلة ينهجها الحاكم الطاغية إذا كانت الرعية فاسقة لا تستقيم على طريق ، ولا تمسك بحبل الله ، ولا تزن بميزان الإيمان . أما المؤمنون الصادقون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح ، ولهذا علَّل الحق - سبحانه - استجابة رعية فرعون له بقوله : ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ .

وهاهو فرعون أيضاً يبلغ به غروره بملكه وسلطته أن يقول مواجهاً مؤمناً آل فرعون : ﴿ياهامان ابن لي صرحاً لعلِّي أبْلغ الأسباب* أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً﴾^(١) .

نعم . . يقول : ياهامان ابن لي صرحاً - بناءً عالياً - لعلِّي أبْلغ به أسباب السموات لأنظر وأبحث عن إله موسى هناك (وإني لأظنه كاذباً) وهكذا يموه فرعون الطاغية ويحاور ويداور كي لا يواجه الحق جهرة ، ولا يعترف بدعوة الواحدانية التي تهز عرشه . وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه . .

ولا شك أنه أراد بهذه المقولة الاستهتار والسخرية من جهة ، والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخرى ، وربما كانت أيضاً خطة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن في حديث المؤمن ! وكل هذه الفروض تدل على إصراره على ضلاله ، وتبجحهِ في جحوده : ﴿وكذلك زُين لفرعون سوء عمله وصدُّ عن السبيل﴾^(٢) وهو مستحق لأن يُصد عن السبيل ، بهذا المراء الذي يميل عن الاستقامة ، وينحرف عن السبيل^(٣) .

(١) غافر: (٣٦ - ٣٧) .

(٢) غافر: (٣٧) .

(٣) الظلال (٣٠٨٢/٥) «بتصرف» .

ويُعقب السياق القرآني على مكر الحكام وكيدهم بأنه صائر إلى الخيبة والدمار: ﴿وما كيد فرعون إلا في تباب﴾^(١).

الحاشية الفاسدة سبب رئيس في طغيان الحكام

حقيقة إن المتأمل في طغيان الحكام وفسادهم عبر التاريخ يجد أن الحاشية السيئة هي السبب في طغيان الحكام وفسادهم، هي التي جعلت الدولة الإسلامية حوازا ملوك، توزعتها الأقاليم، حتى كان كل ملك يحارب ملكاً مسلماً بجنود مسلمين ليكون ملكه أربى وأكبر من ملك أخيه.

نعم إنه لولا الوزراء المنافقون، والحاشية المنافقة والشعراء الكاذبون وغيرهم وغيرهم ما طاعت نفس مسلم صاحبها في أن يقتل أخاه المسلم باسم الوطنية أو الإقليمية أو العصبية أو غيرها من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان...

لولا النفاق والأعيب المنافقين وذراية ألسنتهم ماتركت الدولة العثمانية أهل الأندلس يأكلهم التعصب المسيحي، ولا يبقى منهم إلا من يلجأ إلى الديار الإسلامية مستغيثين بالشعوب الإسلامية لا بالملوك.

ومن الذي جرأ الخليفة العباسي المأمون^(٢) على تعذيب الإمام أحمد^(٣) وإجباره

(١) غافر: (٣٧).

(٢) هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور، سابع الخلفاء من بني العباس وأحد أعظم الملوك، كان فصيحا مفوهاً، واسع العلم، محباً للعفو، وفاته سنة ٢١٨ هـ.

راجع في ترجمته تاريخ بغداد (١٠/١٨٣).

(٣) هو شيخ الإسلام أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، المروزي ثم البغدادي، أحد

الأئمة الأعلام، وفقيه كبير، ومحدث بارع، من شيوخه سفيان بن عيينة، وابن الماجشون =

على القول بخلق القرآن إلا تلك الحاشية الفاجرة^(١).

أقول: إن الحاشية الفاسدة الفاجرة هي التي تسببت في ضياع الحكم وفسادهم، فخلف عندئذ بعد الحكم الصالحين المصلحين خلف من بعدهم خلف، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فكان ماكان ومايزال:

بغاث الطير كيف غدوا أسوداً وأبناء الأسود أبوا صموداً
هي الأهواء لا تبقي لقوم ثباتاً في الشدائد أو حدوداً
وتسلمهم لذل بعد ذل يعانون السلاسل والقيوداً
فإن رجعوا وجدوا واستقاموا أعادوا المجد واجتاحوا اليهوداً^(٢)

إن وقوع الحكم ويطانتهم في الزلات والأخطاء ليدعو الأمة المسلمة وبخاصة علماءها وأهل الرأي فيها إلى محاولة بذل النصيح والتوجيه بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن قبلوا منهم فذاك الخير، وإن لم يقبلوا فقد أدى الناصحون ماعليهم، ولايجوز لهم التشهير بحكامهم، وتحريض العامة عليهم.

أما أن تسكت الشعوب المغلوب على أمرها، وتصفق بكلتا يديها للطغاة من الحكماء، ثم تغشى مجالسهم، فتتافق فهو - والله - فتنة على فتنة^(٣)، ولهذا حذر نبينا - عليه الصلاة والسلام - من إتيان السلاطين وملازمتهم في حال

= وغيرهما، وكان مشهوراً بالزهد والورع، وشيئله كثيرة، أبرزها موقفه يوم المحنة بالقول بخلق القرآن، وفاته سنة ٢٤١هـ، ببغداد. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (١١/١٧٧) و«تهذيب التهذيب» (١/٤٩).

(١) أمثال أحمد بن أبي داود، ذلك الوزير الضال الذي كان سبباً في تمسك المأمون بآراء المعتزلة، وإجبار الإمام أحمد على القول بخلق القرآن.

(٢) «شريعة الله وشريعة المتألهين» تأليف جابر الحاج ص ١١٨.

(٣) انظر «مختصر منهاج القاصدين» للإمام ابن قدامة ص ٩٣ - ٩٤.

فسادهم، قال - ﷺ -: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن»^(١).

وإذا قلتُ: إن للحاشية السيئة أثراً في فساد السلاطين والحكام فلا يعني أنه لا يوجد أمور أخرى تُسبب فسادهم وفتنتهم، لكن الناظر في التاريخ يجد أن ماقرنناه آنفاً هو الغالب في فساد الحكام؛ ولهذا وضع علماء الإسلام على الحكام والسلاطين حقوقاً وواجبات، كان اتباعها وتطبيقها سبباً - بإذن الله - في النجاة من فتنة الحكم والسلطة، وما أنذا أسوقها على سبيل الإيجاز والاختصار:

- ١ - العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية، وذلك بحفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة.
- ٢ - بذل الأسباب المؤدية إلى وحدة الأمة وترابطها، وعدم التحيز إلى طائفة منها.
- ٣ - أن يعمل الحاكم على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين إن ظهر لهم وجود.

(١) أخرجه أبوداود في كتاب الصيد، باب في اتباع الصيد، (١١١/٣) برقم (٢٨٥٩) والترمذي في كتاب الفتن، الباب (٦٩) (٥٢٣/٤) برقم (٢٢٥٦)، ورواه النسائي في كتاب الصيد، باب اتباع الصيد (١٧٢/٧) وأحمد في المسند (٣٥٧/١)، والبخاري في التاريخ الكبير، باب الكنى ص ٧٠ برقم (٦٤٩)، والطبراني في معجمه الكبير (٥٦/١١) برقم (١١٠٣٠) وأبو نعيم في الحلية (٧٢/٤) كلهم من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - وإسناد الحديث ضعيف لأن فيه راوياً مجهولاً هو أبو موسى انظر الحلية (٧٢/٤) لكن له شاهداً من حديث أبي داود وأحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - وفيه: (ومن لزم السلطان افتتن، وما ازداد عبد من السلطان دنواً إلا ازداد من الله بعداً).

٤ - أن يعمل الحاكم على حماية الأمة من أعداء الخارج المتربصين بالأمة الدوائر.

٥ - حفظ ما وضعت الشريعة لأجله من الضروريات كالديانة والدماء والأموال والأنساب والعقول، وذلك بإقامة الحدود على كل من يستحقه كائناً من كان، وعدم المداهنة مع أحد في ذلك، لتحصان محارم الله عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من الإتلاف والاستهلاك^(١).

٦ - إعداد الأمة إعداداً جهادياً لتكون متأهبة لقتال من عاند الدعوة أو صدّ الناس عنها، وذلك إبقاء لظهور الإسلام على الأديان، فالجهاد شعيرة الإسلام الماضية، وذروة سنامه، ومعقد عزته، وهو موكول إلى الإمام مادام موجوداً كما في حديث: «الإمام جُنة، يقاتل من ورائه، ويُتقى به»^(٢).

٧ - تحصيل الصدقات، وأموال الزكاة والخراج والفيء وجبايتها وصرفها في مصارفها الشرعية، على ما أوجبه الشريعة من غير حيف ولا عسف^(٣).

٨ - تحري الأمانة في اختيار أرباب المناصب، وأصحاب الوظائف العامة الذين ينشدون الرحمة بالأمة، ويخلصون في خدمتها، وينطلقون من النصيح لها^(٤). وهذا الواجب أهم الواجبات.

٩ - حرص الولاة والحكام على سد حاجة الرعية، وضمان كفايتهم، حتى

(١) «الأحكام السلطانية» للهاوردي ص ١٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب يقاتل من وراء الإمام (١١٦/٥) برقم

(٢٩٥٧)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب الإمام جنة (١٤٧١/٣) برقم (١٨٤١) من

حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .

(٣) «السياسة الشرعية» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٧.

(٤) انظر «مآثر الخلافة» للقلقشندي (٦٠/١).

ينصرفوا إلى ما هم عليه مقبلون من عبادة وعلم ، وتعلم ، ودعوة ، وحسبة .

١٠ - الإشراف المباشر على سير الأمور بين الرعية في كل النواحي الإدارية التي

تتعلق بما يصلح أحوالهم ، لينهض بسياسة الأمة ، وحراسة الملة^(١) .

والتأمل هنا يجد أن هنالك فرقاً بين دولتين ، دولة التزمت بهذه الحقوق

والواجبات ، وهي التي شعارها الهداية ، ودولة ضربت بتلك الحقوق والواجبات

عرض الحائط ، وهي التي شعارها الجباية .

تنظر إلى الأولى - دولة الهداية - فتجد مهمتها الدعوة إلى الله - تعالى -

والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . معيارها تحسين أخلاق الجمهور ، وسمو

روحهم ، وتحليهم بالفضائل ، وإقبالهم على الآخرة ، وزهدهم في الدنيا ،

والقناعة في المعيشة ، ولو كان هذا على حساب ميزانيتها ، وخسارة مالياتها .

تنظر إلى من يحيط بالحاكم فلا تجد إلا الوزراء الصالحين ، والعلماء

الريانيين ، أولئك الذين عرفوا حق الله - تعالى - وحق عباده ، فلم تصدر منهم

إلا الكلمة الصادقة ، والنصيحة الخالصة^(٢) .

(١) راجع كتاب «المال والحكم في الإسلام» للأستاذ عبدالقادر عودة - رحمه الله - ص ٢٠ .

(٢) الأمثلة على أولئك العلماء الريانيين كثيرة ، ولعلي هنا أشير إلى إحدى المواقف التي كانت لنا

نحن المسلمين شرفاً وفخراً . ذلك الموقف هو موقف الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك

- رحمه الله - عندما مرّ ذات يوم بالمدينة النبوية ، فاجتمع بعلمائها ، وقال لمن اجتمع بهم في

المدينة : هل بقي أحد من أهل المدينة رأى أصحاب النبي - ﷺ - ولم يأت للسلام عليّ؟

قالوا : نعم ، أبو حازم سلمة بن دينار ، وقد رأى العشرة المبشرين بالجنة ، فأرسل إليه ، فلما

أتاه قال : يا أبا حازم ، ما هذا الجفاء؟ قال : وأي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين؟ قال : وجوه

الناس أتوني ولم تأتني . قال : والله ما عرفتنني قبل هذا ولا أنا رأيتك ، فأبي جفاء رأيت مني؟

فالتفت سليمان إلى الزهري - رحمه الله - فقال : أصاب الشيخ ، وأخطأت أنا . فقال : يا أبا

حازم ، مالنا نكره الموت؟ فقال : عمرتم الدنيا ، وخربتم الآخرة ، فتكرهون الخروج من

العمران إلى الخراب ، قال : صدقت . فقال : يا أبا حازم ، ليت شعري مالنا عند الله =

وتجد هذه الدولة تنصب الوعاظ، وترسل الدعاة، وتشجع الحسبة، وتمنع الخمر وتكرر على الفجور، وتحرم الملاهي والمعازف، وتطارد المستهترين والخلعاء، وتمنع كل ما يفسد على الناس عقيدتهم، وأخلاقهم.

تغص في حكمها المساجد، وتقفر الحانات، ويقوم أهل الدين والصلاح، وينشطون، ويتحمسون، ويتوارى الفجار، والملحدون، وينكمشون، ويكون ما وصفه الله - تعالى - بقوله: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور﴾^(١).

وتنظر إلى الثانية - دولة الجباية - فتجدها تتصف بتضخيم الميزانية، ورفاهية رجال الحكومة، وإن كان ذلك بامتصاص دم الفقراء، وشقاء الفلاحين، والضرائب المجحفة، والمكوس المرهقة، ويتسلط في مثل هذه الدولة الوزراء الفاسقون، والأمراء الشهوانيون.

وتغفل هذه الدولة تربية الجمهور الدينية، والخلقية، وتعطل الحسبة، والرقابة على الأخلاق، وتتغافل عن كل مالم يسبيلها، ومالا يجر عليها فائدة مالية، أو قوة سياسية^(٢).

= - تعالى - غداً؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله - عز وجل - قال: وأين أجده من كتاب الله - تعالى -؟ قال: قال الله - تعالى -: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ وإن الفجار لفي جحيم﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤].

قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال أبو حازم: قريب من المحسنين، قال سليمان: ليت شعري كيف العرض على الله غداً؟ قال أبو حازم: أما المحسن كالعائب يقدم على أهله، وأما المسيء كالآبق يقدم على مولاة. فبكى سليمان حتى علا نحيبه واشتد بكاءه. راجع «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٣/ ١٣٤) و«الذهب المسبوك» في وعظ الملوك» لمحمد بن أبي نصر الحميدي ص ١٦٥.

(١) الحج: (٤١).

(٢) انظر «إلى الإسلام من جديد» تأليف الأستاذ أبي الأعلى المودودي ص ٥٧، ٥٨.

نعم إن التزام الحكام بحقوق الرعية هو الذي يجعل الحاكم المسلم يضع خده على الأرض لأهل العفاف، والكفاف، كما أعلن ذلك أمير المؤمنين، الخليفة الشهيد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وليس ذلك الذي يجعل من نفسه ظلاً في الأرض، لا يستمع لنقد، ولا ينتمي لحق، ولا يكفكف طغيانه صوتُ مظلوم^(١).

وإنني في ختام هذا المبحث أوجه الخطاب إلى الحكام في الوطن الإسلامي كله، فأقول:

يأيها الحكام في البلاد الإسلامية اعلموا أنكم ما استقمتم على أمر الله - تعالى - فأنتم عند وعد الله لكم في تمكين وعزة، يأتيكم رزقكم رغداً من كل مكان، فإذا ما كفرتم بأنعم الله، وكذبتم بآياته، وخرجتم على ما أرسل الله به رسله، وظلمتم وبغيتم وافتتتم بقوتكم وسلطانكم فإن الله - تعالى - سيأخذكم بغتة وأنتم لا تشعرون، فيسلبكم نعمتكم، ويستخلف غيركم، ولن تغني عنكم عقولكم، ولا علومكم، ولا أموالكم من شيء لما جاء أمر الله الغالب المنتقم: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾^(٢).

﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾^(٣).

(١) «حول القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي» تأليف الأستاذ عماد الدين خليل ص ٧٥.

(٢) الأنعام: (٦).

(٣) الأحقاف: (٢٦).

المبحث الخامس السحر

قال الله - تعالى - : ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾ (١).

هذه الآية العظيمة بيان لحال أولئك الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم مجاهدة للنبي - ﷺ - وحسداً له ، قد تبدلوا الكفر بالإيمان ، واشتروا الضلالة بالهدى حين اتبعوا ماتتلو الشياطين من الإنس في قصصها وأساطيرها على ملك سليمان ، وكانوا قد زعموا أن ملك سليمان قد قام على أساس السحر ، والطلسمات ، وأنه ارتد في آخر عمره ، وعبد الأصنام مرضاة لنسائه الوثنيات ! ورد القرآن عليه بأن سليمان - عليه الصلاة والسلام - ماسحراً ، ولكن الشياطين الذين يسندون إليه ما انتحلوه من السحر ، وما تلبسوا به من الكفر هم الذين كفروا ، وأخذوا يعلمون الناس السحر ليفتنوا به العامة ، ويضلّوهم عن طلب الأشياء من أسبابها الظاهرة ، ومناهجها المشروعة .

ومن هنا يتبين لنا أن السحر فتنة عظيمة تصد صاحبها عن الحق ، وتعمي المشبث بها عن النور ، وإذا ما ابتلي بها الإنسان فإنه يتعلق بالشياطين ، ويخالف رب العالمين ، فيقع في الضلال الممين ، والخسران العظيم .

(١) البقرة : (١٠٢) .

هذا وسيكون الحديث عن فتنة السحر مقسماً إلى عدة أمور:

- ١ - تعريف السحر.
- ٢ - لمحة موجزة عن تاريخ السحر.
- ٣ - سبب إقدام الإنسان على تعلم السحر.
- ٤ - الأضرار الناتجة عن هذه الفتنة.
- ٥ - سبل الوقاية منها.

ونبدأ بالأمر الأول وهو:

١ - تعريف السحر :

أ - السحر في اللغة :

أصل السحر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، فكأن الساحر عندما يري الباطل في صورة الحق، ويخيل الشيء على غير حقيقته قد سحر الشيء عن وجهه أي صرفه^(١).

قال بعضهم: العرب إنما سمت السحر سحراً لأنه يزيل الصحة إلى المرض^(٢).

وفي معجم مقاييس اللغة: السحر: إخراج الباطل في صورة الحق^(٣). وقال في محيط المحيط:

«السحر إخراج الشيء في أحسن معارضه حتى يفتن»^(٤).

(١) لسان العرب (٤/٣٤٨) مادة (سَحَر).

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس (٣/١٣٨) مادة (سَحَر).

(٤) محيط المحيط لبطرس البستاني ص ٣٩٩.

ب - السحر في الاصطلاح :

عرفه في المغني فقال :

«هو عقد ورقي وكلام يتكلم به أو يكتبه، أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور، أو قلبه، أو عقله، من غير مباشرة له، وله حقيقة^(١)، فمنه ما يقتل، وما يمرض، وما يأخذ الرجل عن امرأته، فيمنعه وطأها، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه، وما ييغض أحدهما إلى الآخر، أو يُحبب بين اثنين» اهـ^(٢).

٢ - لمحة موجزة عن تاريخ السحر :

لا يكاد المتبع لتاريخ ظهور السحر يجد بداية محددة لمعرفة الإنسان به أو استخدامه له، ولكن الكتب تذكر أنه كان معروفاً عند أهل بابل من السريانيين والكلدانيين^(٣)، وفي أهل مصر من الفراعنة والقبط وغيرهم، وكان لهم فيه تأليف وآثار، ولم يترجم لنا من كتبهم فيه إلا القليل، فأخذ الناس هذا العلم، وتفننوا فيه، ووضعت بعد ذلك الأوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة، وكتاب (طمطم الهندي).

ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان^(٤)، كبير السحرة في هذه الملة، فتصفح

(١) هذا هو مذهب أهل السنة، وذهب المعتزلة وأبو إسحاق الإسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تمويه وتخيل وإيهام. انظر قولهم هذا وأدلتهم والرد عليهم في تفسير القرطبي (٢/٣٢ - ٣٣).

(٢) المغني لابن قدامة (١٠/١٠٤).

(٣) بدليل قوله سبحانه: ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾ [البقرة: ١٠٢]. وبابل بلدة قديمة كانت في سواد الكوفة قبل الكوفة في أشهر أقوال المفسرين، وفي بعض كتب التاريخ أنها كانت في الجانب الشرقي من نهر الفرات، بعيدة عنه. تفسير المنار (١/٤٠٨).

(٤) هو جابر بن حيان بن عبدالله الكوفي، أبو موسى، فيلسوف كيميائي. كان يعرف بالصوفي، من أهل الكوفة، وأصله من خراسان. من أشهر كتبه «أسرار الكيمياء» و«علم الهيئة» توفي =

كتب القوم، واستخرج الصناعة، وغاص على زبدتها، ووضع فيها غيرها من التأليف، ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطي^(١) - إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات - فلخص تلك الكتب جميعها وهذبها، وجمع طرفها في أحد كتبه^(٢). ولم يكتب أحد في هذا العلم بعده^(٣).

ولا يخفى أن لنفوس الكهنة ونشاطهم باعاً طويلاً في استخدام القوى الشيطانية، ولا سيما إذا علمنا أن خاصية السحر في الساحر تكون بالقوة، شأن القوى البشرية كلها، ولكنها لا تفتقر على هذا، بل تخرج إلى الفعل بالرياضات المعروفة لدى السحرة، وذلك باستخدام أعمال الكفر وغيرها. وكثير منها ما يكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب، والعوالم العلوية، والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة، والخضوع، والتذلل، فهي لذلك وجهة إلى غير الله - تعالى - وسجود له. وذلك كفر صريح، ولهذا كان الحكم على السحر في جملته بأنه كفر هو الصحيح^(٤).

لقد كان للسحر في بلاد بابل ومصر زمن بعثة موسى - عليه السلام - أسواق نافقة، وبقي من آثار ذلك شيء في البراري بصعيد مصر، وله شواهد

= بطوس سنة ٢١٠هـ. راجع ترجمته في «الفهرست» لابن النديم ص ٤٩٨، والأعلام (١٠٣/٢).

(١) هو مسلمة بن أحمد بن قاسم المجريطي، أبو القاسم، فيلسوف رياضي فلكي. كان إمام الرياضيين بالأندلس، وأوسعهم إحاطة بعلم الأفلاك، وحركات النجوم، وفاته بمنجريط سنة ٣٩٥هـ وقيل ٣٥٣هـ راجع في ترجمته في «الصلة» لابن شكوال ص ٥٦٤، والأعلام (٢٢٤/٧) وقيل ٣٥٣هـ.

(٢) هو كتابه «غاية الحكيم».

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٩٢٤، ٩٢٥.

(٤) انظر فتح الباري (١٠/٢٢٤).

دالة على ذلك، كما كان بأرض الهند من يشير إلى إنسان، فيحتت قلبه، ويقع ميتاً، وينقب في قلبه فلا يوجد في حشاه، كما كان بأرض السودان، وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الأرض المخصوصة، كما يوجد في بلاد المغرب صنف من هؤلاء المتحلين لهذه الأعمال السحرية، يعرفون هناك باسم (البعاجين) حيث كانوا يشيرون إلى الكساء أو الجلد فينخرق، ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج، فتنبعج، ويُسمى أحدهم باسم (البعاج) لأن أكثر ما ينتحله هو بعج الأنعام بغية إرهاب أصحابها ليعطوه من فضلها، وكان هؤلاء دائماً متسترين، يعملون في الخفاء خوفاً من الحكام الذين كانوا يتعقبونهم ليقعوا بهم العقوبات^(١).

وهكذا ظلت علوم السحر ومعارفه تنتقل من بلد إلى آخر، ومن جيل إلى جيل، وكانت عقوبتها الإعدام، وظل الحال كذلك حتى جاء القرن الثالث عشر الهجري، فألغيت عقوبة الإعدام بالنسبة للسحرة، واستبدلت بعقوبة الحبس اليسير، أو الغرامة المالية، الأمر الذي ترك فرصة كبيرة لعودة السحر، وانتشاره، وأصبح تعلمه واستخدامه علناً حتى عُقدت المؤتمرات في الأنديا، والجمعيات التي روجت له، وشجعت عليه، وهو مادعا عدداً من الجنسين من مختلف البيئات لتعليم السحر، واستخدامه حسب أهوائهم، ووقع بذلك الشر المستطير^(٢).

٣ - سبب إقدام الإنسان على تعلم السحر :

إن السبب الرئيس في إقدام الإنسان على تعلم السحر هو مايزينه الشيطان لبني الإنسان من التطلع والتشوف للحصول على المال، والسيطرة على الجاه، والسلطان.

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٩٢٧، ٩٢٨.

(٢) راجع كتاب «السحر» لإبراهيم الجمل ص ٢٣ وما بعدها.

نعم إن السحرة أناس اتصفت نفوسهم بالخبث والدناءة والدهاء، إذ هم يعتقدون في سيدهم الشيطان، وهم أيضاً أعداء الدين، وعلى استعداد أن يرتكبوا أبشع الجرائم الخلقية في أي وقت ارضاء لسيدهم. وإن المتأمل في أحوال السحرة يجد مايدل على خبثهم ودناءتهم وطمعهم، وأنهم ماأرادوا من وراء تعلم السحر إلا عرضاً من الدنيا، ومن أراد أن يتأكد من ذلك فليسأل تلك الجماعات التي أغواها الشيطان بالذهاب إلى السحرة المشعوذين، كم ينهبون منهم من أموال لا تعد ولا تحصى من جراء غشهم وتلاعبهم، ولهذا لما كانت نفوسهم بالدنيا متعلقة، وإليها متلهفة أخبر سبحانه عنهم أنه ليس لهم في الآخرة أي حظ أو نصيب: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾ (١).

وماحصل لهم هذا الطمع، وذلك الجشع إلا عندما شردوا عن صراطه المستقيم، ونبدوا وحيه، واطرحوا دينه، فباؤوا بالخسران المبين. كما أن الناظر في أحوالهم يجد أن منهم من يرتدي المصحف في قدميه، يدخل به الخلاء، ومنهم من يكتب آيات من القرآن بالقذارة، ومنهم من يكتبها بدم الحيض، ومنهم من يكتبها على أسفل قدميه، ومنهم من يصلي بدون وضوء، ومنهم من يكتب الفاتحة معكوسة، ومنهم من يظل جنباً، ومنهم من يذبح للشيطان فلا يذكر اسم الله عند الذبح، ويرمي الذبيحة في مكان يحدده له الشيطان، ومنهم من يخاطب الكواكب، ويسجد لها من دون الله، ومنهم من يأتي ابنته أو أمه (٢)، عياذاً بالله.

هذا وإنك لو نظرت إلى وجه الساحر لتبين لك صحة ماذكرت حيث تجد ظلمة الكفر مسدولة على وجهه كأنها غمامة سوداء.

(١) البقرة: (١٠٢).

(٢) راجع كتاب «الصارم البتار في التصدي للسحرة الأشرار» تأليف وحيد بالي ص ١٨، ١٩.

٤. الأضرار الناتجة عن هذه الفتنة

إن السحر قرين خبائة نفس، وفساد دين، وشر عمل، وإرعاب وتهويل على الناس، من أجل ذلك مافتت الأديان السماوية تحذر الناس منه، وتعد الاشتغال به مروقاً عن طاعة الله - تعالى - لأنه مبني على اعتقاد تأثير الآلهة والجن المنسوبين إلى الآلهة في عقائد الأقدمين، وقد حذر موسى - عليه الصلاة والسلام - قومه من السحر وأهله، فقد جاء في سفر التثنية، الإصحاح الثامن عشر أن مما خاطب به موسى قومه: «متى دخلت الأرض التي يعطيك الرب إلهك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته في النار، ولا من يعرف عرافة، ولا عائف، ولا متفائل، ولا ساحر، ولا من يرقى رقية، ولا من يسأل جاناً أو تابعة، ولا من يستشير الموتى»^(١). وجعلت التوراة جزاء السحرة القتل، ففي سفر اللاويين الإصحاحين العشرين، والسابع والعشرين: «وإذا كان في رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يُقتل»^(٢).

أقول: وهذا كله لأن في السحر ضرراً عظيماً، وخطراً جسيماً، وقد أخبرنا الحق - سبحانه وتعالى - عن ذلك بقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يَصْرِفُونَ﴾ به بين المرء وزوجه^(٣) فهذا فيه إشارة إلى ضرر من أعظم أضرار السحر، إذ فيه التفرقة بين طرفي آصرة متينة، وهي آصرة مودة ورحمة، قال الله - تعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَخْلُقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(٤) فإن

(١) التحرير والتنوير (١/٦٣٦).

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) البقرة: (١٠٢).

(٤) الروم: (٢١).

المودة وحدها آصرة عظيمة، وهي آصرة الصداقة والأخوة وتفاريعهما، والرحمة وحدها آصرة منها الأبوة والبنوة، فما الظن بآصرة جمعت الأمرين، وكانت بفضل الله - تعالى - في أعلى درجات الإتيان.

وهنا أود التنبيه إلى أن التفريق بين المرء وزوجه يكون بأحد أمرين:

١ - إما باستعمال مفسدات لعقل أحد الزوجين حتى يبغض زوجه.

٢ - أو بالقاء الحيل والتمويهات والنميمة حتى يفرق بينهما.

والغالب في كيفية التفريق بين الزوجين أن يذهب الرجل إلى الساحر، ويطلب منه أن يفرق بين فلان وزوجه، فيطلب منه الساحر أن يعطيه اسم الرجل المراد سحره، واسم أمه، ثم يطلب منه أثراً من آثاره (شعره أو ثوبه أو قلونسوته...) فإن لم يستطع عمل له سحراً على ماء مثلاً وأمره أن يسكبه في طريق المراد سحره، فإذا تحطاه أصيب بالسحر. (١).

وهنا لابد من التنبيه على أن السحر لا يؤثر إلا بإذن الله - تعالى - ولهذا قال ربنا - سبحانه -: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ (٢)، وإن العبد إذا تحصن بذكر الله - تعالى - ودعائه لم يضره السحر أبداً (٣).

فيالله كم في مجتمعاتنا من جراء أعمال السحرة ما يندى له الجبين، ويتألم له العدو قبل الصديق، وكم جرّ السحر على الأمة المسلمة من الكوارث والمصائب، وكم من جزائه تحولت الصداقات إلى عداوات، والمحبة إلى بغضاء، والصلوات إلى قطيعة وهجران، وكفى بذلك ضرراً!!

(١) الصارم البتار ص ١٠٧، والتفريق بين الزوجين أعظم أنواع التفريق، إذ يوجد أيضاً نتيجة السحر تفريق بين الرجل وأمه، بين الرجل وأبيه، بين الأخ وأخيه، بين الرجل وصديقه... وهكذا.

(٢) البقرة: (١٠٢).

(٣) انظر زاد المعاد لابن القيم (٤/١٢٧).

* أضرار أخرى للسحر

أسوق الآن عدداً من الأضرار الناتجة عن السحر مما هو منتشر في هذا العصر على الخصوص، إذ العلم بها أهم من غيرها:

١ - الإصابة بالجنون، حيث يقوم الجني الموكل بالسحر بالدخول في الشخص المسحور، والتمركز في مخه - كما كلفه الساحر -، ثم يقوم بالضغط على خلايا المخ الخاصة بالتفكير والتذكر، أو بالتصرف فيها بأمر يعلمها الله - عز وجل -^(١).

٢ - ما يسببه الساحر في المسحور من الخمول، حيث يرسل الساحر الجني إلى الشخص المراد سحره، ويأمره بأن يتمركز في المخ، ويسبب للشخص الانطواء والعزلة، فيقوم الجني بالمطلوب قدر استطاعته، وتظهر الأعراض على المسحور حسب قوة الجني الموكل بالسحر، وضعفه^(٢).

٣ - أن الساحر يرسل جنياً، ويكلفه بأن يشغل المسحور في المنام واليقظة، فيتمثل له الجني في المنام بالحيوانات المفترسة التي تنقض عليه، ويناديه في اليقظة ربما بأصوات أناس يعرفهم المريض، أو بأصوات غريبة، ثم يشككه في القريب والبعيد، وتختلف الأعراض حسب قوة الساحر، وضعفه، فربما زادت الأعراض حتى وصلت به إلى الجنون، وربما ضعفت حتى لا تعدو الوسوسة^(٣).

٤ - حصول المرض، حيث يرسل الساحر جنياً، فيتمركز في المخ في المركز المكلف به من قبل الساحر، فيستقر في مركز السمع أو البصر، أو إحساس

(١) انظر تفسير الرازي (٢٢٧/٣).

(٢) الصارم البتار ص ١٥٩.

(٣) المرجع السابق ص ١٦٣.

اليَد أو الرجل ، وعند ذلك يكون العضو بين حالات ثلاث :
أ - إما أن يمنع الجني - بقدره الله - الإشارات تماماً من الوصول إلى العضو ، فيتعطل العضو عن العمل ، فيصاب المريض بالعمى ، أو البكم ، أو الصمم ، أو الشلل العضوي .

ب - وإما أن يمنع الجني - بقدره الله - الإشارات أحياناً ، ويتركها أحياناً ، فيتعطل العضو مرات . ويعمل مرات .

ج - وإما أن يجعل الجني المخ يعطي إشارات متتابعة متتالية سريعة بلا أسباب ، فيتصلب العضو ، ولا يستطيع الحركة ، وإن لم يكن مشلولاً^(١) .

٥ - مايسببه السحر من حصول النزيف عند المرأة ، حيث يقوم الساحر بتسليط الجني على المرأة المراد سحرها ، وتكليفه بإنزال النزيف عليها ، فيدخل الجني في جسد المرأة ، ويجري في عروقها مع الدم ، فإذا وصل إلى عرق معروف في الرحم ركضه ركضة ، فسال هذا العرق دمًا ، ولما سُئل النبي - ﷺ - عن الاستحاضة قال : «إنها هي ركضة من ركضات الشيطان»^(٢) .

٦ - ما يحدثه السحر من الربط عند الرجل أو المرأة ، حيث يتمركز شيطان السحر في مخ الرجل وبالتحديد في مركز الإثارة الجنسية الذي يرسل الإشارات إلى الأعضاء التناسلية ، ثم يترك الأعضاء التناسلية تعمل

(١) الصارم البتار ص ١٦٦ ، وانظر «فتح الحق المبين في علاج الصرع والسحر والعين» تأليف الأستاذين عبدالله الطيار ، وسامي المبارك ص ١٧٦ .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الغسل ، باب ماجاء في المستحاضة (٢٢٣/١) برقم (١٢٨) وأبوداود في كتاب الطهارة ، باب من قال : إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة ، (٧٤/١) ، برقم (٢٨٤) ، وابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها ، باب ماجاء في البكر إذا ابتدئت مستحاضة أو كان لها أيام حيض فنسيتها ، (٢٠٥/١) برقم (٦٢٧) ، كلهم من حديث جنة بنت جحش - رضي الله عنها - وهو حديث حسن كما قال الألباني في «إرواء الغليل» (٢٠٢/١) .

طبيعية، فإذا اقترب الإنسان من زوجته، وأراد منها المباشرة عطل الشيطان مركز الإثارة الجنسية في المخ، فتتوقف الإشارات المرسلة إلى الأجهزة التي تضخ الدم في القضيب كي ينتصب، عند ذلك يتراجع الدم سريعاً عن القضيب، فيرتخي، وينكمش.

وكما يحدث للرجل ربط من زوجه، فكذلك الحال بالنسبة للمرأة، إما بأن تحاول منعه بكل ماتستطيع، أو يستمر معها نزيف في أوقات الجماع، أو بانسداد اللحم، أو العكس^(١).

فهذه مجموعة من الأضرار العظيمة التي يحدثها السحر، مما هو منتشر في هذا الزمان، وهي غيض من فيض، نسأل الله - تعالى - أن يكفينا والمسلمين شر هذه الفتنة السوداء، إنه أعظم مسؤول، وأكرم مأمول.

٥ - سبل الوقاية والعلاج من فتنة السحر

لكي يقي المسلم نفسه من شرور هذه الفتنة - فتنة السحر - عليه أن يحصن نفسه بالأمور التالية:

١ - أن يأكل سبع تمرات عجوة على الريق لحديث: «من اصطبغ سبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر»^(٢).

٢ - الاستعاذة عند دخول الخلاء، وقد ذكر أن أحد الشياطين دخل في شخص، فلما سُئل، قال: لأنه لم يستعذ عند دخوله الخلاء، فتسلط عليه، وصدق نبينا - ﷺ - فقد كان إذا دخل الخلاء يقول: «بسم الله،

(١) انظر الصارم البتار ص ١٩٠ وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب الدواء بالعجوة للسحر (٢٣٨/١٠) برقم (٥٧٦٩) من حديث سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -.

اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث»^(١).

٣ - تحصين المرأة عند العقد بها، وذلك بأن يضع يده اليمنى على جبهتها ويقول: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها، وشر ما جبلتها عليه»^(٢) وله أن يزيد هذا الدعاء: «اللهم بارك لي فيها، وقها شر حاسد إذا حسد، وساحر إذا سحر، وماكر إذا مكر»^(٣).

٤ - أن يقول الرجل إذا أراد أن يأتي أهله: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا لحديث: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، ففضي بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً»^(٤).

٥ - أن يقرأ إذا أراد أن ينام آية الكرسي، لما جاء في قصة الشيطان مع أبي هريرة^(٥) - رضي الله عنه - أنه قال له: «دعني أعلمك كلمات، ينفعك الله بها. قلت: ما هن؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرا آية الكرسي (الله لا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب ما يقول عند الخلاء (٢٤٢/١) برقم (١٤٢) ومسلم في كتاب الحيض، باب ما يقول إذا أراد دخول الخلاء (٢٨٣/١)، برقم (٣٧٥) من حديث أنس - رضي الله عنه -.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح، باب ما يقول الرجل إذا دخلت عليه أهله (٦١٧/٢) برقم (١٩١٨). والحاكم في المستدرک (٢٠٢/٢)، وأبوداود في سننه، كتاب النكاح، باب في جامع النكاح (٢٤٨/٢) برقم (٢١٦٠) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. هذه الزيادة ذكرها صاحب كتاب «الصارم البتار» ص ٢١٧ ولم أقف عليها.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال، وعند الوقاع (٢٤٢/١) برقم (١٤١)، ومسلم في كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (١٠٥٨/٢) برقم (١٣٣٤)، من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -.

(٥) هو عبدالرحمن بن صخر الدوسي، أكبر حفاظ الحديث، وأشهر من سكن الصفة - واستوطنها طول عمر النبي - ﷺ - ولم ينتقل عنها، وعاش بعد النبي - ﷺ - خمسين سنة، =

إله إلا هو الحي القيوم»^(١) حتى تختم الآية فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح، قال النبي - ﷺ -: «أما إنه صدقك وهو كذوب»^(٢).

٦ - أن يرقى المسحور بالمعوذتين لما جاء في قصة سحر النبي - ﷺ - حيث جاء في بعض روايات الحديث: «فأتاه جبريل بالمعوذتين، فقال: يا محمد: (قل أعوذ برب الفلق) وحلّ عقدة. (من شر ما خلق) وحلّ عقدة. حتى فرغ منها، ثم قال: (قل أعوذ برب الناس) وحلّ عقدة. حتى فرغ منها، وحلّ العقد كلها»^(٣).

٧ - أن يقول في الصباح والمساء: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم» ثلاث مرات^(٤).

٨ - إذا وقع سحر الربط يقوم الرجل، فيأخذ سبع ورقات من السدر الأخضر، فيدقها بحجر أو نحوه، ويجعلها في إناء، ويصب عليه من الماء ما يكفي للغسل، ويقرأ فيها آية الكرسي، و﴿قل يا أيها الكافرون﴾^(٥) و

= فكان العلم شغله الشاغل حتى توفي قريباً من سنة ٥٥٥هـ. راجع ترجمته في سير أعلام النبلاء (٦٢٥/٢) والطبقات الكبرى لابن سعد (٣٣٩/٤).

(١) البقرة: (٢٥٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز وإن أقرضه إلى أجل (٤٨٧/٤) برقم (٢٣١١).

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٤٨/٦).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى (٤٦٥/٥) برقم (٣٣٨٨) من حديث عثمان - رضي الله عنه - وهو حديث حسن كما قال

الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٤١/٣).

(٥) سورة الكافرون.

﴿قل هو الله أحد﴾^(١) و ﴿المعوذتين﴾^(٢) وآيات السحر التي في سورة الأعراف، وهي قوله سبحانه: ﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴿فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾^(٣).

والآيات التي في سورة يونس وهي قوله سبحانه: ﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم﴾ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴿فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيضلله إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴿^(٤)﴾.

والآيات التي في سورة طه: ﴿قالوا ياموسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى﴾ قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليهم من سحرهم أنها تسعى ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴿وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾^(٥).

وبعد قراءة ما ذكر في الماء يشرب منه ثلاث مرات، ويغتسل بالباقي، وبذلك يزول الداء - إن شاء الله - وإن دعت الحاجة إلى استعماله مرتين أو أكثر فلا بأس حتى يزول الداء^(٦).

(١) سورة الإخلاص.

(٢) هما سورة الفلق والناس.

(٣) سورة الأعراف (١١٧ - ١١٨).

(٤) يونس (٧٩ - ٨٢).

(٥) طه: ٦٥ - ٦٩.

(٦) مجموع فتاوى ساحة الشيخ عبدالعزيز بن باز - حفظه الله - (٣/ ٢٧٩ - ٢٨٠). وكتاب «السحر» للأستاذ مسفر الدميني ص ٦٣.

الفصل الثاني أسباب الفتنة

وفيه خمسة مباحث :

- المبحث الأول: الأموال والأولاد.
- المبحث الثاني: المعصية.
- المبحث الثالث: اتباع الشيطان.
- المبحث الرابع: موالاة الكافرين.
- المبحث الخامس: اتباع المشابه.

الفصل الثاني أسباب الفتنة

المبحث الأول الأموال والأولاد

إن الأموال والأولاد فتنة عظيمة لا تحفى على ذوي الألباب، إلا أن الأفهام تتفاوت في وجوها وطرقها، فأموال الإنسان عليها مدار معيشتة، وتحصيل رغائبه وشهوته، ودفع كثير من المكاره عنه، فهو يتكلف في كسبها المشاق، ويركب الصعاب، ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال، واجتناب الحرام، ويرغبه في القصد والاعتدال، ثم إنه يتكلف العناء في حفظها، وتنازعه الأهواء المتناوذة في إنفاقها، فالشرع يفرض عليه فيها حقوقاً مقدرة، وغير مقدرة، ومعينة، وغير معينة، ومحصورة، وغير محصورة، كالزكاة ونفقات الأزواج والأولاد وغيرهم، وكفارات بعض الذنوب المعينة من عتق وصدقة ونُسك وغير ذلك. ويندب له نفقات أخرى للمصالح العامة والخاصة تكفر الذنوب المعينة وغير المعينة، ويترتب شيء عظيم من الأجر والثواب.

وأما الأولاد فهم - كما يقول الأدباء -: ثمرة الفؤاد، وأفلاذ الأكباد، وحبهم نوع من الفطرة، يلقيه الفاطر الحكيم في قلوب الأمهات والأباء، يحملهم على بذل كل ما يستطيع بذله في سبيلهم، من مال وصحة وراحة وغير ذلك. وهما القرآن الكريم يخاطب الكينونة البشرية بما يعلم خالقها من تركيبها الخفي، وبما يطلع منها على الظاهر والباطن، على المنحنيات والدروب والمسالك:

﴿واعلموا أنها أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾^(١).

﴿إنها أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾^(٢).

نعم... إن الله - تعالى - يعلم مواطن الضعف في هذه الكينونة، ويعلم أن الحرص على الأموال والأولاد من أعمق مواطن الضعف فيها، ومن هنا ينبها إلى حقيقة هبة الأموال والأولاد.

لقد وهبها الله - تعالى - للناس ليلوهم بها، ويفتنهم فيها، فهي من زينة الحياة الدنيا التي تكون موضع امتحان وفتنة، ليرى الله - تعالى - صنيع العبد وتصرفه، أي شكر عليها ويؤدي حق النعمة فيها، أم يشتغل بها حتى يغفل عن أداء حق الله - تعالى - فيها فيقع في الفتنة، ذلك لأنها لا تكون بالشدة والحرمان وحدهما. إنها تكون أيضاً بالرخاء والعطاء، ومن الرخاء والعطاء هذه الأموال والأولاد^(٣).

يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود^(٤) - رضي الله عنه - تحت قوله تعالى: ﴿إنها أموالكم وأولادكم فتنة﴾: «مامنكم من أحد إلا هو مُشتمل على فتنة، فمن استعاذ منكم فليستعذ بالله من مضلات الفتن»^(٥). وإذا تبين لنا مما سبق أن الأموال والأولاد فتنة تصد الإنسان عن طاعة ربه ومولاه، فإن المقصود بذلك أحوال معينة، إذا وُجدت وقعت الفتنة، وحل البلاء.

(١) الأنفال: (٢٨). (٢) التغابن: (١٥). (٣) انظر الظلال (٤٩٨/٣).

(٤) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، من أكابر الصحابة فضلاً وعقلاً وقرباً من رسول الله - ﷺ -، ومن السابقين إلى الإسلام، كان خادماً رسول الله - ﷺ - الأمين، وصاحب سره، ورفيقه في حله وترحاله وغزواته، وفاته بالمدينة سنة ٣٢ هـ. راجع ترجمته في الإصابة (٣٦٨/٢)، والطبقات الكبرى (١٥٠/٣).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١١٨/١٢).

أ - فمن ذلك بالنسبة للأموال :

١ - أن يشتغل الإنسان بأمواله عن ذكر ربه ، ويغفل عن مثل قوله - جل شأنه : يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴿١﴾ وقوله : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو هواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾ (٢) .

فإذا ما اشتغل الإنسان بأمواله وسياراته وقصوره فقد ينسى بذلك خالقه ورازقه ، ويغفل عن تذكر الموت والدار الآخرة ، ويصبح همّه وشغله أمواله وتيجانه ، يصدق فيه وفيمن يسير مسيره قول القائل :

أظهروا لله نُسْكاً
وله صَلَوا وصاموا
وعلى الدينار داروا
وله حُجَّوا وزاروا
لو يُرى فوق الثريا
ولهم ريش لطاروا (٣)
٢ - أن يمنع المرء حق الله - تعالى - في ماله وثروته ، وذلك بكنزه وحبسه ، بخلاً به وطمعاً .

قال الله - تعالى - : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون ﴾ (٤) ، وقال سبحانه : ﴿ وأما من بخل واستغنى ﴾ * وكذب بالحسنى ﴾ * فسيسره للعسرى ﴾ * وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴾ (٥) .

(١) المنافقون : (٩) .

(٢) الجمعة : (١١) .

(٣) «مكائد الشيطان» تأليف طه عبد الله عفيف ص ٥٨ ، «وكناشة النوادر» للأستاذ عبد السلام هارون - رحمه الله - ص ١٧٤ . وقوله : الثريا أي النجم .

(٤) التوبة : (٣٤ - ٣٥) .

(٥) الليل : (٨ - ١١) .

٣ - أن يحدد الإنسان نعمة المال التي رزقه الله - تعالى - إياها، ومنَّ بها عليه من بين سائر الخلق.

فالإنسان قد يبلغ به الطغيان والفجور، بل الكُفر، مبلغاً عظيماً إذا توفّر لديه المال الكثير، والخير العميم، بل إنه لينسبه إلى قوته وعلمه بسبب الفتنة به! ولقد ضرب الله - تعالى - على ذلك مثلين في القرآن، واضحين لكل من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

المثال الأول : قصة قارون :

فقد ضرب لنا القرآن العظيم مثلاً بقصة قارون، ذلك الطاغية المتكبر، الذي أوتي غنى فاحشاً، ففرح به فرحاً أخرجه عن دائرة الاعتدال إلى البغي والطغيان؛ ذلك أن صوتاً مؤمناً من قومه انطلق يعلن النهج القويم الذي يرضاه الله - تعالى - :

لقد قاموا يدعونهم إلى تذكر نعمة الله - تعالى - عليه بما أعطاه من المال، وأحسن إليه، وأن لا يدعوه ذلك إلى الفساد في الأرض، ولكن للأسف لم يُسمع له ردٌّ إلا بالكلمة الفاجرة الظالمة؛ حين نسب ذلك الغنى الرهيب إلى علمٍ عنده!! ﴿قال إنما أوتيته على علم عندي﴾^(١).

نعم إنه يقول: لقد أوتيت هذا المال بكدي وجهدي وعلمي، فأنا حرٌّ في التصرف فيه!

وليت الأمر وقَفَ عند هذا الحدّ، بل لقد خرج في زينته على قومه فرحاً، بطراً، مستكبراً، لابساً الملابس التي تفتن، ظاناً أن حياة البذخ والترف والإسراف مستمرة، لا انقطاع فيها!!

فماذا كانت نتيجة هذا الإنكار، وذلك الطغيان؟!

(١) القصص: (٧٨).

لقد خسف الله - تعالى - به وبداره الأرض، فذهبت زينته، وتحطم غروره، وكبرياؤه، واستعلاؤه:
﴿فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وماكان من المنتصرين﴾^(١).

المثال الثاني : قصة صاحب الجنتين :

كما ضرب لنا تعالى مثلاً آخر على أن المال يفتن صاحبه إذا جحد نعمته، وصرفها في غير طاعة الله بقصة صاحب الجنتين، ذلك الرجل الذي أذهلته الثروة، وأبطرته النعمة، ففسي القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، وحسب أن هذه النعمة خالدة لا تفنى، ورأى صاحباً له بطره وطغيانه - وهو الفقير الذي لا مال له ولا نفر، ولا جنة ولا ثمر - فأخذ ينكر عليه بطره وكبره، وأخذ يذكره بمنشئه المهين من ماء وطن، ويوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم، وينذره عاقبة البطر والكبر، ولكنه للأسف فتن بباله وجاهه، وتمادى في طغيانه وكفره، فكانت النتيجة المؤلمة:

﴿وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحداً﴾ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وماكان منتصراً* هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً^(٢).

ب - فهذا مايتعلق بالأموال. وأما مايتعلق بالأولاد، فإنهم يكونون فتنة في أحوال خاصة، وذلك يكون بفرط المحبة لهم، والشغل بهم عن كثير من الخيرات، ولهذا حذر الله - تعالى - منهم ومن الأزواج بقوله: ﴿ياأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾^(٣).

(١) القصص: (٨١) وانظر «الإنسان في القرآن الكريم» تأليف الأستاذ محمد بن لطفی الصباغ

ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٣) التغابن: (١٤).

(٢) الكهف: (٤٢ - ٤٤).

وثبت عن نبينا - عليه الصلاة والسلام - أنه كان يخطب، فجاء الحسن^(١) والحسين^(٢) - رضي الله عنهما - عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله - ﷺ - من المنبر، فحملهما، فوضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله ورسوله: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾^(٣)، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما^(٤).

كما أن الفتنة بالأولاد قد تحمل الوالدين على اقتراف الآثام في سبيل تربيتهما، والإنفاق عليهما، وتأثيل الثروة لهم.

ولربما قُتِنَ الولد والديه بسبب فسقه وطغيانه كما قال سبحانه في قصة الغلام الذي قتله العبد الصالح^(٥):

﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً﴾^(٦) قال صاحب الظلال:

(١) هو الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي. أمه فاطمة الزهراء، وهو من أكبر أولادها، وأولهم، كان عاقلاً حليماً فصيحاً، حج عشرين حجة ماشياً، ووفاته بالمدينة سنة ٥٠هـ. راجع ترجمته في الإصابة (٣٢٨/١) وتهذيب التهذيب (٤٩٩/١).

(٢) هو الحسين بن علي بن أبي طالب، ولد في المدينة، ونشأ في بيت النبوة، قُتِلَ بالعراق في العاشر من محرم سنة ٦١هـ انظر ترجمته في الإصابة (٣٣٢/١).
(٣) التغابن: (١٥).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين. (٦٥٨/٥) برقم (٣٧٧٤) والنسائي في كتاب الجمعة، باب نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة (٨٨/٣)، وابن ماجه في كتاب اللباس، باب لبس الأحمر للرجال (١١٩٠/٢) برقم (٣٦٠٠)، وانظر صحيح سنن الترمذي للألباني (٢٢٤/٣) برقم (٢٩٦٨).

(٥) هو صاحب موسى الذي تحدثت عنه آيات من سورة الكهف، وكان لموسى معه عدة مواقف، وقد اختلف فيه هل هو نبي أو رجل صالح؟ والأول هو الراجح.

(٦) الكهف: (٨٠).

هذا دليل واضح على أن الوالدين الصالحين قد يُفتنان بالولد الفاسق الكافر، حيث كان الغلام الذي لا يبدو في حاضره ومظهره أنه يستحق القتل قد كُشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح، فإذا هو في طبيعته كافر طاغٍ، تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان، وتزيد على الزمن بروزاً وتحققاً، فلو عاش لأرهبك والديه المؤمنين بكفره وطغيانه، ولقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه في طريقه، فأراد الله، ووجه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام الذي يحمل طبيعة كافرة طاغية، وأن يبدلها الله خلفاً منه، وأرحم بوالديه^(١).
قال في زاد المسير: «قال الزجاج^(٢): فرح به حين وُلِدَ، وحزنا عليه حين قُتِلَ، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض المرء بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب»^(٣).

ولقد جاء في القرآن العظيم آيات عظيمة، وجاء في السنة الشريفة أحاديث كثيرة، كلُّها دلائل واضحة، وبراهين ساطعة، تكشف لنا تلك الفتنة العظيمة، وتبين خطرهما، ذلك إذا اقترنت بالأحوال التي سبق بيانها، والتفصيل فيها. ففي القرآن ذمُّ الله - تعالى - أموال المنافقين وأولادهم لأنهم استغلوها في غير طاعة الله، قال الله - تعالى -: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد

(١) الظلال (٤/٢٢٨١).

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي، نحوي زمانه، لزم المبرد، فكان يعطيه من عمل الزجاج كل يوم درهماً، فنصحته وعلمه، أخذ عنه العربية أبو علي الفارسي وجماعة، من أشهر كتبه «معاني القرآن» و«الإنسان وأعضاؤه» و«العروض» و«النوادر» انظر ترجمته في بغية الرعاة (١/٤١١) و«إنباه الرواة» للقفطي (١/١٩٤).

(٣) زاد المسير (٥/١٣٣).

الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون»^(١)، وقال في الآية الأخرى: «ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون»^(٢)، فهذا شأنهم في الدنيا، وأما في الآخرة فالأمر أشد وأعظم: «لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»^(٣).

ومما جاء من ذلك في السنة الشريفة قوله - عليه الصلاة والسلام - : «اللهم من آمن بي وصدقني وعلم أن ماجئت به هو الحق، فأقلل ماله وولده، وعجل قبضته، اللهم ومن لم يؤمن بي ولم يصدقني ولم يعلم أن ماجئت به هو الحق فأكثر ماله وولده، وأطل عمره»^(٤).

وصح عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «إن الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم، وإنيهما مهلكاكم، فانظروا كيف تعملون»^(٥).
وثبت عنه أيضاً أنه قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في حظيرة غنم بأفسد لها من حُب المال والشرف»^(٦).

(١) التوبة: (٥٥).

(٢) التوبة: (٨٥).

(٣) المجادلة: (١٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب في الكثيرين، (١٣٨٥/٢) برقم (٤١٣٣)، والطبراني في معجمه الكبير (٣١٣/١٨) برقم (٨٠٨) كلاهما من حديث عمرو بن غيلان الثقفي. قال الهيثمي في المجمع (٢٨٦/١٠): «رجال ثقات». وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٣٢٥/٣) الحديث رقم (١٣٣٨).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٧٨/١٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢٦١/١) وعزاه إلى أبي داود، كلاهما من حديث أبي موسى - رضي الله عنه -.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (٤٥٦/٣)، والترمذي في كتاب الزهد الباب (٤٣) (٥٨٨/٤) برقم (٢٣٧٦) وقال: حسن صحيح، والدارمي (٣٠٤/٢)، وابن أبي شيبة (٢٤١/١٣) من حديث كعب بن مالك - رضي الله عنه -.

وفي حديث آخر: «الولد محزنة مجبنة مجهلة مبخله»^(١).
فهذه فتنة الأموال والأولاد، قد كشفت عن أسبابها، وبيّنت الدلائل
والإيحاءات التي أشارت إليها الآيتان الكريمتان:
﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾^(٢) و ﴿إنما أموالكم وأولادكم
فتنة﴾^(٣).

ولابد من التنبيه هنا إلى أن ما قدمناه من بيان فتنة الأموال والأولاد لا يعني
أنهما فتنة وشر من جميع الوجوه في كل حين! لا، بل إنهما قد يكونان في أحوالٍ
خاصة سبب خير وفلاح للإنسان في حياته، وبعد مماته، ذلك عندما يصرف
المؤمن أمواله في أماكنها المشروعة، ومصارفها المحمودة. والأولاد كذلك لا
يكونون فتنة عندما يربون التربية الإسلامية الصحيحة، ويُعدّون إعداداً حقيقياً
لحمل راية هذا الدين من جديد، داعياً ولي أمرهم الله - تعالى - بقوله: ﴿ربنا هب لنا من
أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾^(٤)، ولهذا جاء في السنة

(١) رواه الطبراني في معجمه الكبير (٢٤١/٢٤) وهو في صحيح الجامع للألباني برقم (١٩٨٦)
وقوله: مبخله أي إذا أراد الإنسان أن ينفق في سبيل الله ذكره الشيطان بأولاده فيقول:
أولادي أحق بالمال أبقية لهم يحتاجونه من بعدي، فيبخل عن الإنفاق في سبيل الله. وقوله:
مجبنة أي إذا أراد الرجل أن يجاهد في سبيل الله يأتيه الشيطان، فيقول: تقتل وتموت،
فيصبح الأولاد ضياعاً يتامى، فيقعد عن الخروج للجهاد. وقوله: مجهلة أي يشغل الأب
عن طلب العلم والسعي في تحصيله، وقوله: محزنة أي إذا مرض حزن عليه، وإذا طلب
الولد شيئاً لا يقدر عليه الأب حزن الأب، وإذا كبر وعق أباه، فذلك الحزن الدائم والهـم
اللازم. راجع رسالة الأستاذ محمد صالح المنجد «ظاهرة ضعف الإيمان» ص ٢٩.

(٢) الأنفال: (٢٨).

(٣) التغابن: (١٥).

(٤) الفرقان: (٧٤).

الشريفة مدح وجود المال والولد، لهذه الأسباب التي نوّهت بذكرها،
وأفصحت عنها، فمن ذلك:

ما ثبت في الصحيح عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «نعم المال
الصالح للمرء الصالح»^(١).

ومن ذلك دعاؤه للصحابي الجليل أنس بن مالك^(٢) - رضي الله عنه -
بقوله: «اللهم ارزقه مالاً وولداً، وبارك له فيه»^(٣).

وعن الأشعث بن قيس^(٤) - رضي الله عنه - قال: قدمت على رسول الله
ﷺ - في وفد كندة، فقال لي: «هل لك من ولد؟» قلت: غلام، ولد لي في
مخرجي إليه.. ولوددت أن بمكانه سبع القوم، فقال: «لا تقولن ذلك، فإن

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٠٢/٤)، والبخاري في الأدب المفرد برقم (٣٠٠) من حديث
عمر بن العاص - رضي الله عنه - وإسناده صحيح، انظر مجمع الزوائد
(٦٤/٤).

(٢) هو أنس بن مالك بن النضر الخزرجي الأنصاري، صاحب رسول الله ﷺ - وخادمه،
بلغت روايته للحديث ٢٢٨٦ حديثاً.

أسلم صغيراً، وخدم النبي - ﷺ - إلى أن قبض. توفي بالبصرة سنة ٩٣هـ. راجع ترجمته
في الإصابة (٧١/١) والأعلام (٢٤/٢).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٠٨/٣) والبخاري في كتاب الدعوات، باب قول الله - تعالى -:
(وصلّ عليهم) (١٣٦/١١) برقم (٦٣٣٤)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من
فضائل أنس بن مالك - رضي الله عنه - (١٩٢٨/٤) برقم (٢٤٨٠) واللفظ لأحمد.

(٤) هو الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، أبو محمد، أمير كندة في الجاهلية والإسلام،
وقد على النبي - ﷺ - بعد ظهور الإسلام، في جمع من قومه، فأسلم، وشهد اليرموك وعدداً
من معارك الإسلام، وكان من ذوي الرأي والإقدام، موصوفاً بالهبة. وفاته بالكوفة سنة
٤٠هـ. راجع ترجمته في البداية والنهاية (٦٥/٥) والسير (٣٧/٢).

فيهم قرّة عين وأجرّاً إذا قُبضوا»^(١).

وفي هذا الحديث الأخير إشارة واضحة، وفائدة عظيمة، ببيان الأجر العظيم لمن رزقه الله - تعالى - أولاداً، ثم مات بعضهم فصبر واحتسب، فإن له بذلك أجرّاً عظيماً، ومكانة رفيعة، كما ثبت ذلك في سنن الإمام النسائي في قوله - عليه الصلاة والسلام - : «من احتسب ثلاثة من صلبه دخل الجنة»^(٢).

-
- (١) أخرجه أحمد في المسند (٢١١/٥). والحديث في إسناده مجالد بن سعيد وهو ضعيف انظر تهذيب التهذيب (٣٧١/٥) والتقريب ص ٥٢٠. وقوله: سَبَعَ القوم أي سابعهم راجع لسان العرب (١٤٧/٨) مادة (سَبَعَ).
- (٢) أخرجه النسائي في كتاب الجنائز، باب ثواب من احتسب ثلاثة من صلبه (٢٠/٤) من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه -.

المبحث الثاني المعصية

لقد نصت كثير من الآيات القرآنية الكريمة على أنَّ المعاصي والذنوب سبب كبير، ومؤثر خطير لحصول الفتن والاضطرابات والشُرور في الأمم والشعوب.

إن فساد أحوال الأفراد والمجتمعات من النواحي المختلفة، وقيام الأزمات الاقتصادية، وفشو الجهل بالدين، ووجود الاختلاف والتفرق في الأمة، واضطراب الأمن، وفشو الجرائم، وانتشار الأمراض الجسمية والنفسية، وانحطاط المكانة السياسية، وحصول الذل والهوان... الخ كل ذلك بسبب ماكسبته أيدي الناس، وصدق الله إذ يقول: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾^(١). وإن هذه الأزمات، وذلك الضنك لوسيلة تنبيه وإنذار؛ رجاء أن يراجعوا أنفسهم، ويعودوا إلى الحق.

وحقيقةً إنني لا أستطيع في هذا المبحث أن أُحيط بجميع أنواع المعاصي والسيئات التي تنزل بسببها الفتن، وتحل البلايا والمحن، ولكنني أكتفي بإشارة

(١) الروم: (٤١). وانظر آثار المعاصي مفصلةً في «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لابن القيم ص ٥٧، ٦٥، ٧٢، ٨٤، ٩٢، ٩٤، والفوائد لابن القيم أيضاً ص ٤٧، وكتاب: المعاصي وأثرها على الفرد والمجتمع للشيخ حامد المصلح ص ١٠٦ - ١١٤ و ١٤٢ - ١٥٠، وكتاب: حتى لا تغرق السفينة للشيخ سلمان العودة ص ٢٦ - ٤٢.

القرآن الكريم إلى شيء من ذلك، وهو ولا شك ينطبق على سائر المخالفات للشرائع الربانية، والهدى السماوية.

* فمن أعظم المعاصي وأجل الخطوب التي تجر وراءها كثيراً من المخالفات والمناهي مخالفة أوامر الرسول - ﷺ - .

هاهو القرآن العظيم يخاطب المنافقين في زمن الرسول - ﷺ - محذراً، فيقول: ﴿لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لَإِذَا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

ففي هذه الآية الكريمة تحذير مرهوب، وتهديد مرعب لأولئك المنافقين الذين يخالفون عن أمره - ﷺ - ويعصونه، ويتبعون نهجاً غير نهجه، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة، أو اتقاء مضرة^(٢)، ليحذروا أن تصيبهم من جراء مخالفتهم فتنة^(٣)، يؤدي حدوثها إلى اضطراب المقاييس، واختلال الموازين، وانتكاث النظام، ثم بعد ذلك اختلاط الحق بالباطل، والطيب بالخبيث، وفساد أمور الجماعة وحياتها^(٣).

وإن المتأمل في واقعنا اليوم يجد من نماذج مخالفة سنة النبي - ﷺ - أموراً لا تعد ولا تحصى، وإن تسليط الحكام الظالمين هو - والله أعلم - أثر من آثار مخالفة الناس لسنة نبيهم - عليه الصلاة والسلام - ولكن أكثرهم لا يعلمون!

(١) النور: (٦٣).

(٢) راجع سبب النزول مفصلاً في تفسير الطبري (٣٦١/٩)، وتفسير ابن كثير (٣٠٧/٧).

(٣) فسرت الفتنة هنا بعدة تفسيرات، فقليل: الكفر، وقيل الضلال، وقيل: بلاء في الدنيا، ولا

تعارض بين هذه المعاني، وماذكرته هنا من أمور، إنما هي بمثابة النتائج لهذه الفتنة. راجع

زاد المسير (٤٠١/٥)، والظلال (٢٥٣٥/٤).

ولست مبالغاً في هذا التفسير، فقد جاء عن أحد السلف أنه فسّر الفتنة في الآية السابقة بتسليط السلطان الجائر^(١). وإن المسلمين عندما استقاموا على شرع رب العالمين، والتزموا بسنة سيد المرسلين - ﷺ - ولّى الله - تعالى - عليهم ولايةً مستقيمين، وعندما حصل الانحراف عن شرع الله - تعالى - كما هو حال كثير من المسلمين اليوم ولّى الله - سبحانه - عليهم ولايةً منحرفين، والجزاء من جنس العمل، ولا يظلم ربك أحداً.

أقول:

ولقد جاء أيضاً عن سلفنا الكرام كلام حول هذا الأمر، من تسلط الظلمة من الحكام، وأنه بسبب مخالفتهم لنبيهم - ﷺ - فقد قال الإمام ابن القيم^(٢) - رحمه الله - في كتاب القيم: «مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية العلم والإرادة: «وتأمل حكمته - تعالى - في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولايتهم من جنس أعمالهم، بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولايتهم وملوكهم، فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن أخذوا ممن يستضعفونه مالا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك مالا يستحقونه، وضربت عليهم المكوس والوظائف، وكل ما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة، فعُملهم ظهرت في صور أعمالهم، وليس في

(١) جاء ذلك عن جعفر الصادق - رحمه الله - كما في تفسير الآلوسي (٢٢٧/١٨).

(٢) هو شمس الدين، أبو عبدالله، محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، تتلمذ على كثير من علماء عصره، واستفاد منهم، وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وأثنى عليه العلماء بما يشهد له بعظيم الفضل، وعلو المرتبة، واتساع الدائرة، من أشهر مصنفاته: «زاد المعاد في هدي خير العباد» و«إعلام الموقعين عن رب العالمين» و«الروح» و«مدارج السالكين» وغيرها كثير، وفاته بدمشق سنة ٧٥١هـ.

راجع ترجمته في البداية والنهاية (٢٤٦/١٤)، و«البدر الطالع» للشوكاني (١٤٣/٢).

الحكمة الإلهية أن يُولي على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم . . . »^(١) .

ولا يستصغرن أحد المعصية مهما كانت في النظر هينة يسيرة . ولقد أخبرنا الله - تعالى - عن المنافقين أنهم فتنوا أنفسهم وأهلكوها بإيقاعها في الشهوات واللذات والمعاصي ، يقول سبحانه : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرَب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأماني حتى جاء أمر الله وغرركم بالله الغرور^(٢) .

إنه لاشك ولا مرية في أن النفاق من أعظم المعاصي المهلكة للفرد والأمة ، ولذلك بين سبحانه أن أولئك المنافقين لما دخلوا النار كشف عن حقيقة نياتهم في الدنيا ، ففضحوا أي فضيحة - عياداً بالله تعالى من حالهم - : ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأماني حتى جاء أمر الله ﴾ .

نعم لقد كانت ضمايرهم غير مقررة على الإسلام ، إذ هم في ربهم يترددون ، وكأن الاضطراب وعدم الاستقرار خلق لهم ، فإذا خطرت في أنفسهم خواطر من إيمان ومحبة للمؤمنين نقضوها بخواطر الكفر والبغضاء ، وهذا من صنيع أنفسهم ، وماجنته أيديهم^(٣) .

* وهناك أنواع عديدة من المعاصي ، نبه إليها علماؤنا الكرام عند قوله تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾^(٤) ، ويمكن بيان ذلك في النقاط التالية :

(١) «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/١٥٣) .

(٢) الحديد : (١٣ - ١٤) .

(٤) الأنفال : (٢٥) .

(٣) انظر «التحرير والتنوير» (٢٧/٣٨٥) .

١ - السكوت على المنكرات والمفاسد التي استشرت في المجتمعات وعمت وطمت في كثير من بلاد الإسلام!

وإن من تلك المنكرات فشو التعامل بالربا، وانتشار الفواحش، ودور الخنا والرديلة، وترك الحكم بما أنزل الله، وإقامة الحدود على أناس دون أناس، وأكل أموال الناس بالباطل، وترك نصرة المظلومين والمقهورين، وغيرها كثير كثير، نسأل الله - تعالى - أن يعاملنا بلطفه ورحمته.

وقبل فترة ليست بالطويلة^(١). زرت شيخاً جليلاً في بلد إسلامي، وقدر الله - تعالى - أن ألتقي ببعض الشباب المسلم هناك، ولما فوجئت بانتشار بعض الفواحش والمنكرات في تلك البلاد، قلت لأولئك الإخوة: لم لا تكرسون جهودكم للقضاء على تلك الفواحش الشنيعة، والفعال القبيحة؟! ومن المؤسف المؤلم أنني لم أجد جواباً جاداً، وتعليلاً قوياً، إذ كانوا يريدون التهرب من الإجابة بإثارة حوادث أخرى في البلاد التي قدمت منها، ظانين أن تهريبهم هذا سيعفيهم من تحمل المسؤولية تجاه ذلك العمل المشين، والخطب العظيم!! فيالله. ما أشد السكوت على المنكر، وأفظعه!! ألم يعلم هؤلاء والناس جميعاً عاقبة السكوت على المنكرات؟!!

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - تحت الآية السابقة في قوله تعالى: «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة»^(٢): «أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكرين أظهرهم، فيعمهم الله بالعذاب»^(٣).

ولهذا الأثر شاهد من حديث نبينا - ﷺ - كما في المسند من حديث

(١) نحن الآن في جمادى الأولى سنة ١٤١٥ هـ.

(٢) الأنفال: (٢٥).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢١٧/٦)، وذكره الحافظ في الفتح (٤/١٣).

عدي بن عميرة^(١) - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ يقول: «إن الله - عز وجل - لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه، فإن فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة»^(٢). وثبت في الحديث الصحيح عن نبينا - ﷺ - أنه قال: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»^(٣).

وفي الحديث الآخر عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهاهم علماءهم فلم ينتهوا، فجالسوهم وواكلوهم، وشاربوهم، فضرب الله - تعالى - قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»^(٤).

(١) هو عدي بن عميرة بن فروة بن زرارة بن الأرقم،. صحابي معروف، يكنى أبا زرارة، له أحاديث في صحيح مسلم وغيره، نزل الكوفة، وخرج إلى الجزيرة فمات بها بعد مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه -. راجع في ترجمته الإصابة (٢/٤٧٠)، وتهذيب التهذيب (٤/١٠٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/١٩٢)، وإسناده حسن كما قال الحافظ في الفتح (١٣/٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب العقوبات (٢/١٣٣٢) برقم (٤٠١٩)، والحاكم في مستدركه (٤/٥٨٣)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وقد روه كلهم من حديث عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما -.

(٤) أخرجه أبوداود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤/١٢١) برقم (٤٣٣٦)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة (٥/٢٥٢) برقم (٣٠٤٧)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢/١٣٢٧) برقم (٤٠٠٦)، وفي سنده انقطاع، لكن له شاهداً عند الطبراني، قال فيه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٢٧٢): «رجاله رجال الصحيح».

٢ - أن يكثر إقبال الناس على الدنيا، ويضعف إقبالهم على الآخرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في مجموع الفتاوى : « كانوا - أي الصحابة - على الخنيفية السمحة على عهد رسول الله - ﷺ - وكانوا فيها على عهد أبي بكر خيراً مما كانوا فيه على عهد عمر، فلما كانوا في زمن عمر حدث من بعضهم ذنوب أوجبت اجتهاد الإمام في نوع من التشديد عليهم كمنعهم من متعة الحج، وكإيقاع الثلاث إذا قالوها بكلمة... وخفي عليهم بعض مسائل الفرائض وغيرها، حتى تنازعوا فيها، وهم مؤتلفون متحابون، كل منهم يقر الآخر على اجتهاده.

فلما كان في آخر خلافة عثمان زاد التغيير والتوسع في الدنيا، وحدثت أنواع من الأعمال لم تكن على عهد عمر، فحصل بين بعض القلوب تنافر حتى قتل عثمان، فصاروا في فتنة عظيمة، وقد قال تعالى : ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ (١).

وصار ذلك سبباً لمنعهم كثيراً من الطيبات، وصاروا يختصمون في متعة الحج ونحوها مما لم تكن فيه خصومة على عهد عمر، فطائفة تمنع المتعة مطلقاً، وطائفة تمنع الفسخ، وصاروا يعاقبون من تمتع، وطائفة أخرى توجب المتعة... وكل ذلك سببه ما حدث من الذنوب» (٢).

وشيخ الإسلام يقول هذا الكلام عن مجتمع كان يسوده أفضل الخلق بعد الأنبياء، فكيف لو رأى زماننا هذا، الله المستعان!!
ومما لا شك فيه أن اشتغال الناس بشهوات الدنيا والمحرمات، وترك جهاد الكافرين من أعظم المعاصي على الإطلاق.

(١) الأنفال : (٢٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/١٥٧ - ١٥٩).

وإن هذه الأمة يوم حُمِلَت الأمانة بصدق، وبلغت الدعوة بعزم وإخلاص وجاهدت في الله حق جهاده أكرمها الله - تعالى - وأعزّها، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، وفتح لها مغلق القلوب. كما فتح أمامها المعادل والحصون، فدخلتها مُعَمَّرَةً لَا مُدْمِرَةَ، وبَانِيَّةً لَا هَادِمَةَ، ومتآخية متعاونةً لَا مَآكِرَةَ وَلَا مُسْتَعْمِرَةَ، وكانت لها السيادة في المعمورة لأمد يزيد عن ثلاثة عشر قرناً من الزمن، ثم دالت دولُّها حين زالت خلافتها، وتداعت عليها دول الكفر كما تداعى الأكله إلى قصعتها، فمزقتها شر ممزق، وجعلت منها أمماً بعد أن كانت أمة واحدة، وتفرقت الأمة أيدي سبأ، وجعلت ديارها ممالك بعد أن كانت مملكةً واحدة!!

يقول شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى أيضاً: «فإذا ترك الناس الجهاد في سبيل الله فقد يتلهم بأن يوقع بينهم العداوة حتى تقع بينهم الفتنة، فإن الناس إذا اشتغلوا بالجهاد في سبيل الله جمع الله قلوبهم، وألّف بينهم، وجعل بأسهم على عدو الله، وعدوهم، وإذا لم ينفروا في سبيل الله عذّبهم الله بأن يلبسهم شيعاً، ويذيق بعضهم بأس بعض»^(١).

ولقد ثبت عن نبينا - ﷺ - ما يقرر هذا الأمر ويؤكدّه، فقد صحّ عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «إذا تبايعتم بالعينة»^(٢)، وأخذتم أذناب البقر،

(١) مجموع الفتاوى (٤٤/١٥).

(٢) العينة: أن يبيع شيئاً من غيره بضمن مؤجل، ويسلمه إلى المشتري، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بضمن أقل من ذلك القدر، يدفعه نقداً. انظر «سبل السلام شرح بلوغ المرام» للصنعاني (٨٠/٣)، وفقه الإسلام شرح بلوغ المرام للشيخ عبدالقادر شيبه الحمد (١٢٣/٥).

ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»^(١).

نعم إنه لا بد أن يفهم الناس جميعاً أن كل شر يصيبهم، وينزل بهم إنما هو بسبب ما كسبته أيديهم، وجنته أفعالهم، وإن ما يحصل في هذا الزمان من الفتن والاضطرابات والمصادمات بين المؤمنين ماهي إلا علامة على وجود معاصٍ وذنوب، والجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان، ولا يظلم ربك أحداً، وصدق الله: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾^(٢) ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾^(٣).

فنسأل الله - تعالى - أن يحفظ علينا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، ونسأله - سبحانه - إذا أراد بعباده فتنة أن يقبضنا إليه غير مفتونين، إنه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين.

(١) أخرجه أبوداود في كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة (٢٧٤/٣) برقم (٣٤٦٢)، وأخرجه الدولابي في الكنى (٦٥/٢) وابن عدى في الكامل (٣٦١/٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣١٦/٥)، كلهم من حديث ابن عمر - رضي الله عنها -، قال الألباني: وهو حديث صحيح لمجموع طرقه - راجع السلسلة الصحيحة (١٥/١).

(٢) الشورى: (٣٠).

(٣) آل عمران: (١٦٥).

المبحث الثالث اتباع الشيطان

بين الله - جل وعلا - في القرآن الكريم أن اتباع الشيطان يقود إلى الفتنة والضلالة، يقول سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءُ أَتَمَّهَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

فقد حذّر الله - تعالى - بني آدم من إبليس وأتباعه، مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم - عليه الصلاة والسلام - في سعيه لإخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة كما قال عز وجل: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٢) (٣).

فالشيطان الرجيم يريد أن يفتن الإنسان بأي طريق وجدها، وبأي أسلوب كان، ولهذا جاء تسميته في الحديث الشريف بالفتان كما في قوله - عليه الصلاة والسلام -: «المؤمن أخو المؤمن، يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان» (٤).

(١) الأعراف: (٢٧).

(٢) الكهف: (٥٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/٢٠٨).

(٤) سبق تحريره في المبحث الأول من التمهيد ص ١٧.

ولقد جاء التحذير من اتباع الشيطان وسلوك طريقه في آيات كثيرة من التنزيل، كل ذلك لأن اتباعه يوقع الإنسان في شر عظيم، وضلال كبير. يقول ربنا - جل شأنه -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(١)، ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٢).

ويقول تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنْكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٣). وهما هو إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يحذر أباه من طاعة الشيطان حتى لا يقع في الفتنة، فيقول: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾^(٤).

ولقد ثبت في الحديث ما يدلُّ على حرص الشيطان أن يفتن العبد ويضله، وأنه يفرح بذلك، مما ينبه المسلمين جميعاً أن يحذروا من مكره وألاعيبه. يقول نبينا - عليه الصلاة والسلام -: «إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم، فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، أو قال: فيلتزمه ويقول: نعم، أنت»^(٥).

(١) البقرة: (٢٠٨).

(٢) النور: (٢١).

(٣) الزخرف: (٦١).

(٤) مريم: (٤٤).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس (٢١٦٧/٤) برقم (٢٨١٣) من حديث جابر - رضي الله عنه -.

* عاقبة اتباع الشيطان

بين الله - جل وعلا - عاقبة اتباع الشيطان وأنها الهلاك والخسران والبوار. ففي سورة النساء يذكر ربنا - تعالى - حال مَنْ يتولى الشيطان ويتبعه بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خَسْرَانًا مُبِينًا﴾^(١). وهاهي آية في سورة الأنفال تصور لنا الشيطان عندما يورد الإنسان الموارد التي يُخيل إليه أن فيها منفعة، ثم يصدره المصادر التي فيها عطفه، ويتخلّى عنه، ويسلمه، ويقف يشمت به ويسخر ويضحك كما حصل للمشرّكين في بدر^(٢) يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتُ نَكْصَ عَلَى عَقِيْبِهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٣). والله درّ القائل:

دَلَّاهُمْ بِغُرُورٍ ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ إِنَّ الْخَبِيثَ لَمِنْ أَلَاءِ غُرَّارٍ
وَقَالَ إِنِّي لَكُمْ جَارٌ فَأُورِدُهُمْ شَرَّ الْمَوَارِدِ فِيهِ الْخَزْيُ وَالْعَارُ^(٤)
وفي سورة الحج يقرر - جل شأنه وتقدس اسمه - الحال التي سيصير إليها من يتبع كل شيطان متمرد فيقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

(١) النساء: (١١٩).

(٢) بَدْرٌ: بالفتح ثم السكون: ماء مشهور بين مكة والمدينة، أسفل وادي الصفراء، بينه وبين الجار، وهو ساحل البحر ليلة، به كانت الوقعة المشهورة بين النبي - ﷺ - وأهل مكة. «مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» لصفي الدين البغدادى (١٧٠/١ - ١٧١).

(٣) الأنفال (٤٨).

(٤) ديوان حسان بن ثابت - رضي الله عنه - (٤٧٦/١).

ويتبع كل شيطان مريد* كتب عليه أنه من تولاه فإنه يُضله ويهديه إلى عذاب السعير*^(١).

وفي سورة المجادلة يبين ربنا - سبحانه - الحال التي وصل إليها المنافقون بسبب طاعتهم للشيطان وانقيادهم له حتى صاروا حزبه وأتباعه: ﴿استخوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾^(٢).

وفي سورة الحشر يؤكد - تعالى - النهاية المؤلمة التي يصير إليها من اتبع الشيطان وأطاعه: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾^(٣).

* طرق الشيطان المريد في إضلال العبيد

إن المتتبع للطرق والأساليب التي سلكها الشيطان الرجيم مع بني الإنسان ليفتنهم ويضلهم لا يستطيع أن يحصرها لكثرتها وتشعبها، ولكن علماءنا الكرام تحدّثوا عمّا يمثل العقبات والأسس التي تقوم عليها دعوة الشيطان لإضلال الإنسان. وسأذكر الأسس والعقبات كما تحدّث عنها الإمام ابن القيم في كتابه القيم «مدارج السالكين» ثم أتبعها بذكر أمور أخرى، بما لعله يُغطي هذا الموضوع الجليل الخطير.

فأبدأ بأول العقبات، ألا وهي:

١ - الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه. فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح. فإن اقتحم هذه العقبة

(١) الحج: (٣-٤).

(٢) المجادلة: (١٩).

(٣) الحشر: (١٦).

ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على العقبة الثانية وهي :

٢ - عقبة البدعة. إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله - تعالى - به رسوله - ﷺ - وأنزل به كتابه. وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرسوم المحدثه في الدين التي لا يقبل الله منها شيئاً. والبدعتان في الغالب متلازمتان، قل أن تنفك إحداهما عن الأخرى كما قال بعضهم: تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال. فاشتغل الزوجان بالعرس. فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون في بلاد الإسلام. تضح منهم العباد والبلاد إلى الله - تعالى -. فإن قطع هذه العقبة، وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، ومامضى عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان. وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب! فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحباطل، وبغوه الغوائل^(١)، وقالوا: مبتدع محدث. فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على العقبة الثالثة وهي :

٣ - عقبة الكبائر، فإن ظفر به فيها زينها له، وحسناها في عينه، وسوف به وفتح له باب الإرجاء. وقال له: الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه المعاصي والأعمال السيئة. ويستدرجه الشيطان حتى يسلخه من الدين، فينسل منه كما تنسل الشعرة من العجين.

فإذا قطع هذه العقبة بأن سلمه الله منها، أو تاب توبة نصوحاً تنجيه منها طلبه على العقبة الرابعة، وهي :

٤ - عقبة الصغائر، فكان له منها بالقُفْزان، وقال: ماعليك إذا اجتنبت الكبائر ماغشيت من اللّم^(٢)، أو ما علمت بأنها تكفر باجتئاب الكبائر وبالحسنات ولا

(١) الغوائل: الدواهي. لسان العرب (٥٠٧/١١) مادة (غَوَل).

(٢) اللّم: صغار الذنوب. انظر «المحرر الوجيز» لابن عطية (٢٧٤/١٥).

والقاموس المحيط ص ١٤٩٦ مادة لَوَمَ.

يزال يهون عليه أمرها حتى يُصر عليها.

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار، وأتبع السيئة الحسنة طلبه على العقبة الخامسة وهي :

٥ - عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده. ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات، فإذا انتبه العبد من هذه الغفلة، فبخل بأوقاته، وضمن بأنفاسه أن تذهب في غير ربح طلبه الشيطان على العقبة السادسة وهي :

٦ - عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها، وحسنها في عينه، وزينها له، وأراه مافيهها من الفضل والربح ليشغله عما هو أفضل منها، وأعظم كسباً وربحاً. لأنه لما عجز عن تحصيله أصل الثواب طمع في تحصيله كماله وفضله، فشغله بالمفضول عن الفاضل، والمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضي له^(١).

ولقد تأملت أيضاً في أمور أخرى فوجدت أن للشيطان فيها مدخلاً كبيراً إذا لم يحرص المؤمن على الحذر منها، والتنبه لها، وهي :

١ - التحريش وإيقاع العداوة بين المؤمنين.

قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ﴾^(٢).

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (١/٢٤٥ - ٢٤٨)، وانظر «الفوائد» لابن القيم أيضاً ص

٢٤٦.

(٢) المائدة: (٩١).

وفي الحديث الصحيح : «إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون ولكن في التحريش بينهم»^(١).

وأهم الأمور التي يأتي الشيطان عن طريقها، فينشر البغضاء بين المؤمنين ويسعى للتحريش فيما بينهم، هذه الأمور تكمن في النقاط التالية:

أ - الحسد :

فإن الشيطان قد يلقي العداوة في قلب المسلم على أخيه المسلم بسبب حسده له على نعمة أنعم الله بها عليه من وفرة مال أو علم أو صلاح ولد، أو قبول عند الناس وتأثير فيهم، فإذا مارأى صاحبه قد علا عليه في مثل هذه الأمور ونحوها تأثر، وودّ لو لم ينل صديقه ماينال، أو أن ينال هو مانال ذاك، لئلا يرتفع عليه^(٢)، فهذا كله من تلبيس الشيطان، وطريق من الطرق التي يسلكها لزرع الحقد والبغضاء في نفوس المؤمنين تجاه إخوانهم الآخرين.

والحاسد بعمله الشرير، ونيته الفاسدة إنما يضر نفسه، ويحني على قلبه وفؤاده، ولا يضر غيره إلا بإذن الله^(٣)، ورصيده من الحسنات والأعمال الصالحة

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس (٢١٦٦/٤) برقم (٢٨١٢)، والترمذي في كتاب البر والصلة، باب ماجاء في التباعد (٣٣٠/٤) برقم (١٩٣٧) وأحمد في المسند (٣١٣/٣) كلهم من حديث جابر رضي الله عنه -.

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي ص ٥٣٥.

(٣) فإذا ما اتصل العبد بالله - عز وجل - وتعوذ بالله من شر الحاسد سلمه الله، وأنجاه منه، وقد ذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله - في كتابه بدائع الفوائد عشرة أسباب يندفع بها - بإذن الله - شر الحاسد عن المحسود، فلتراجع هذه الأسباب مفصلة في الكتاب المذكور (٣٣٨/٢) فقد أجاد فيها المؤلف وأفاد.

يأكله حسده وهو لا يشعر كما ثبت في الحديث: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»^(١).

فيالله ماأشد هذا الجرم وأفظعه؟!

فكم من قتيل وسليب بسبب الحسد؟

وكم من معافي عاد مضني على فراشه، فيقول لطيبه: لا أعلم داءه ما هو! فصدق، إذ هو من عين الحاسد، وشره المبعض ومن هنا فإن الحاسد إنما يدخل عليه الشيطان من باب تمني استصحاب عدم النعمة، عندما يحب أن يبقى المحسود على حاله من جهله أو فقره أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله - تعالى - أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب!

فهذا - عياداً بالله تعالى - عدو نعمة الله، وعدو عباده، ممقوت عند الله - تعالى - وعند الناس^(٢).

ب - سوء الظن :

فإن سوء الظن من أعظم الأمور التي يجد فيها الشيطان مدخلاً لإفساد الأخوة بين المؤمنين، وإيقاع العداوة والبغضاء بينهم، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾^(٣)، وفي الحديث الصحيح: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»^(٤).

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في الحسد (٢٧٦/٤) برقم (٣٩٠٣)، من حديث أبي هريرة، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الحسد (١٤٠٨/٢) برقم (٤٢١٠) من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - . والحديث حسنٌ بمجموع طرقه. انظر «مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه» لشهاب أحمد التوحيدي (٢/٣٤٠).

(٢) انظر «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/٢٣٧).

(٣) الحجرات: (١٢).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ =

فهذا التوجيه من الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - للمؤمنين فيه حثٌ لهم أن لا يتركوا نفوسهم نهياً لكل ما يهيجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك، يلقيها الشيطان في قلوب الناس.

إن هذا التوجيه يطهر الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيء الذي ينشئ العداوة، ويثير الحقد والبغض في نفوس المؤمنين، فيقع المرء من جرائه في الإثم.

وهذا التوجيه أيضاً يدع الضمير نقياً من الهواجس، والشكوك، أبيض، يكن لإخوانه المودة التي لا يחדشها ظن السوء، والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع! فإذا لأبد على العبد من الاحتراز عن سوء الظن، فهي من صفة الأشرار، ومن مهمة النفوس الخبيثة التي لا تظن بالناس كلهم إلا الشر. فمهما رأيت إنساناً يسيء الظن بالناس، طالباً للعيوب، فاعلم أنه خبيث الباطن، موغر الصدر، وإنما رأى غيره من حيث هو، فإن المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق^(١).

ج - تصيد الأخطاء والعيوب :

فمن أعظم تلبيس الشيطان على بعض العباد أنه زرع في قلوبهم تتبع السقطات والأخطاء في زلات الكلم، وسبق القلم، وفلتات اللسان، وعثرات الأفكار، دون قصد النصيحة أو التألم لحصول ذلك في الأمة، وضلال أخيه عن الصواب، بل إن بعض الناس - ممن ضحك الشيطان عليه - قد يفرح بوقوفه على خطأ أخيه وقرينه، ليتخذ من ذلك ذريعة للحط من قدره، والتشهير

= (١٠/٤٨٤) برقم (٦٠٦٦) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس (٤/١٩٨٥) برقم (٢٥٦٣)، كلاهما من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - .
(١) انظر «الوحي الرحامي والوحي الشيطاني» للأستاذ عبدالحق العطار (١/٩١).

بعثرته ، وفي المقابل يحصل له رفعة وشهرة في ظنه !
وقد لا يُفكر في الاعتذار لأخيه أو تلمس المعاذير له ، أو التلطف في نصحه
وبيان عيبه والستر عليه ؛ لأن الدافع له أصلاً ليس الرغبة في الخير ، وهداية
الضال ، بل لفرصة في نفسه من اتباع الهوى والشيطان^(١) .

نعم لقد ألقى الشيطان على هذا وأمثاله جلباب الحياء ، فشغلوا بهذا
العمل الخبيث أغراً التبس عليهم الأمر ، فضلوا ، وأضلوا ، فلبس الجميع
أثواب الجرح والتعديل ، وتدثروا بشهوة التجريح ، ونسج الأحاديث ، والتعلق
بخيوط الأوهام ، ثم انطلقوا على إثر ذلك يغمسون ألسنتهم في ركام من الأوهام
والآثام ، ثم بسطوها بإصدار الأحكام عليهم ، والتشكيك فيهم ، وخذشهم ،
وإصاق التهم بهم ، وطمس محسانهم ، والتشهير بهم ، وتوزيعهم أشتاتاً
وعززين ، في عقائدهم ، وسلوكهم ، ودواخل أعمالهم ، وخلجات قلوبهم ،
وتفسير مقاصدهم ونياتهم^(٢) .

فهذا التلبس الشيطاني على هؤلاء إنما قصد منه زرع العداوة والشحناء
بينهم ، وتفريق كلمتهم ، ولو اشتغل الإنسان بعيوب نفسه لفوت على الشيطان
أن يدخل عليه من هذا الباب الخطير ، ورحم الله أحد السلف عندما قال : « إن
من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه ، وتعب بدنه ، وتعذر عليه
ترك عيوب نفسه ، وهذا من تلبس إبليس »^(٣) .

٢ - الغضب :

ذلك أن الغضب هو غول العقل ، وإذا ضعف جند العقل هجم جند
الشيطان . ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة .

(١) « اتباع الهوى » للشيخ سليمان الغصن ص ٣٣ .

(٢) انظر « تصنيف الناس بين الظن واليقين » للشيخ بكر أبو زيد .

(٣) « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً » تأليف يحيى غزاوي ص ٢٥ .

فالغضب من أعظم مداخل الشيطان على العبد، ولهذا لما قال رجلٌ للنبي - ﷺ -: «أوصني قال: «لا تغضب» فردّد مراراً قال: «لا تغضب»^(١). وثبت في الصحيح أن رجلين استبا عند النبي - ﷺ - وكان أحدهما مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي - ﷺ -: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»^(٢). فقد بين النبي - ﷺ - كيف يعالج المرء غضبه إذا اشتد بالاستعاذة من الشيطان، مما يدل على أن الذي أثار الغضب وأشعله هو الشيطان المرید - أعاذنا الله تعالى منه -.

وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس: أرني كيف تغلب ابن آدم؟ فقال: آخذه عند الغضب وعند الهوى^(٣).

وحكي أن إبليس ظهر لراهب فقال له الراهب: أي أخلاق بني آدم أعون لك؟ قال الحدة، فإن العبد إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة. وقيل إن الشيطان يقول: كيف يغلبني ابن آدم؟ وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه، وإذا غضب طرْتُ حتى أكون في رأسه^(٤)؟.

٣ - التعصب المذهبي والأهواء، والحق على الخصوم، والنظر إليهم بعين الإزدراء والاستحقار :

وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعاً، فإن الحق على الخصوم واستحقارهم من الصفات المردولة، والأخلاق الساقطة، فإذا خيل إليه

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (٥١٩/١٠) برقم (٦١١٦) من حديث أبي هرير - رضي الله عنه -.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (٥١٨/١٠) برقم (٦١١٥) من حديث سليمان بن صرد - رضي الله عنه -.

(٣) «الوحي الرحمانى والوحي الشيطانى» (٨٥/١)، وانظر «تلبس إبليس» لابن الجوزي ص ٣٢.

(٤) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

الشیطان أن ذلك هو الحق، وكان موافقاً لطبعه غلبت حلاوته على قلبه، فاشتغل به بكل همته، وهو فرحان مسرور، يظن أنه يسعى في الدين، وهو ساع في اتباع الشياطين، فترى الواحد منهم يتعصب لمذهبه أو شيخه أو حكومته، أو حتى في الأمور التي يظهر فيها أن الصواب مع غيره بالدليل الشرعي والبرهان العقلي.

وتجد أنه لا يمكن أن تلين له قناة إلا إذا أقذع في سب خصمه، وكشف مزالقه، وحاول أن يشوه صورته بجميع ماعنده من وسائل إعلامية، ولربما يزيد الطين بلّة عندما يفتح باباً من الشر عريضاً لأعداء الملة والدين، من المنافقين والعلمانيين وسائر المفسدين، فحانت بذلك فرصتهم، فأخذوا يصبون جام غضبهم وحقدهم الأسود على أولئك الخصوم، وربما افتروا عليهم، ولفقوا حولهم الأكاذيب والتهم الباطلة، وصار الحال كما قال الشاعر:

خلا لك الجو فيضي واصفري ونقري ماشئت أن تنقري^(١)
ولو أدرك هؤلاء ألا غيب الشيطان وأحاييله ماوقعوا في هذا الظلم الجائر، والعمل الفاجر، والله المستعان.

(١) القائل: طرفة بن العبد، أحد شعراء الجاهلية الكبار، والبيت في لسان العرب (٥/٢٢٩) مادة (نَقَر)؛ وانظر ديوان طرفة بن العبد ص ٧١.

المبحث الرابع موالاة الكافرين

إن موالاة الكافرين من أعظم أسباب الفتنة التي تحدّث عنها القرآن الكريم . فلقد بين الله - عزّ وجل - ولاء الكفار بعضهم لبعض بقوله : ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾^(١) فأخبر سبحانه أن الكفار حيث جمعهم الكفر، فبعضهم أولياء بعض، فلا يواليههم إلا كافر مثلهم . فإذا لم يواجه الكفار بمجتمع ولاؤه بعضهم لبعض فستقع الفتنة : ﴿إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾^(٢) .

نعم يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار كالجهاد والهجرة ونحو ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تفوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء، بعضهم لبعض^(٣) .

ويظهر بموالاة الكفار أيضاً الفساد، وهو ضد صلاح اجتماع الكلمة، فإن المسلمين إذا لم يظهروا يداً واحدةً على أهل الكفر لم تظهر شوكتهم، ولأنه قد يحدث بينهم من جراء اختلافهم في مقدار مواصلتهم للكافرين فساد كبير، ولأن المقصود إيجاد الجامعة الإسلامية، وإنما يظهر كمالها بالتفاف أهلها التفافاً

(١)(٢) الأنفال : (٧٣) .

(٣) تفسير السعدي (٣/١٩٤) .

واحدًا، وتجنب ما يضادها، فإذا لم يقع ذلك ضَعُفَ شأنُ جامعتهم في المرأى، وفي القوة وذلك فساد كبير^(١).

وَتَمَّتْ أَمْرُ مَهم نَبهنا إلیه ربنا - جل وعلا - ذلك هو استحالة وجود المودة من الكفار للمسلمين، إذ إن الكفار لا يودّون للمؤمنين غير الشر والضرر، ولا يحبون أحدًا منهم: ﴿هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾^(٢) ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾^(٣).

فقد بيّنت هاتان الآيتان الكريمتان الحقد والحسد والبغضاء، مما تضمنه قلوبُ الكفار، وتكنه نفوسُهم تُجاه عباد الله المؤمنين. وإنَّ من كانت هذه حالهم، وتلك نياتهم ونظراتهم، هؤلاء لا يؤمنون، ولا يتخذون أولياء وأحباء، ولهذا جاء هذا التحذير الربانيُّ ممن يعلم السر وأخفى، وقد بينَّ مع النبي علّته، ومع كل تحذير سببُه حرصاً منه - تعالى - علينا.

ومما لا شك فيه أن عداوة الكفار للمؤمنين صادرة عن ذلك الحسد الذي يغلي في قلوبهم، وإذا كانت صادرة عن حسد فإنه لا إفاقة منها، ولا أمل في التخلص من شرها، ولا حيلة في تصفيتها، وإحلال الود محلّها: كل العداوة قد تُرجى إفاقتها إلا عداوة من عاداك من حسد والبغضاء التي تضمنها قلوبهم أبقي من أن تبقى مستورة بل إنها تبدو في أعينهم ومن أفواههم كما في الآية السابقة: ﴿قد بدت البغضاء من

(١) التحرير والتنوير (١٠/٨٨). وأرى أن كلمة الفتنة هنا عامة، تحمل معاني عدة، منها ما ذكرته آنفاً ويدخل فيه الفساد، وعليه فإن عطف فساد على فتنة من عطف الخاص على العام، والله أعلم.

(٢) آل عمران: (١١٩).

(٣) آل عمران: (١١٨).

أفواههم ﴿١﴾. وهم لا يبادلون المؤمنين الوفاء والمصافاة، ويقدر ما يؤدّ المؤمنون الخير لهم فهم يودون الكفر والعنت لهم كما قال تعالى: ﴿إن تمسّسكم حسنة تسوّهم وإن تصيبكم سيئة يفرحوا بها﴾ ﴿٢﴾.

وتمت آيات آخر من القرآن الكريم دالة على غش أهل الكتاب للمسلمين وعداوتهم وخيانتهم، وتمنيهم السوء لهم، ومعاداة الله - تعالى - لمن والاهم وأغراهم، أو ولاّهم أمور المسلمين:

﴿ما يؤدّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ ﴿٣﴾. ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ ﴿٤﴾.

وقال سبحانه لرسوله - ﷺ -: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» ﴿٥﴾، وقال تعالى محذراً: ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلّا ولا ذمّة وأولئك هم المعتدون﴾ ﴿٦﴾.

والقرآن لم يتساهل حتى مع الآباء والإخوان، بل نص على النهي عن موالاتهم ماداموا على الكفر، إذ لا رابطة أقوى من الإسلام: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون﴾ ﴿٧﴾.

(١) آل عمران: (١١٨).

(٢) آل عمران: (١٢٠).

(٣) البقرة: (١٠٥).

(٤) البقرة: (١٠٩).

(٥) البقرة: (١٢٠).

(٦) التوبة: (٨).

(٧) التوبة: (٢٣).

وقد أخبر سبحانه عن بعض أهل الكتاب أنهم يعتقدون أنه ليس عليهم إثم ولا خطيئة في خيانة المسلمين، وأخذ أموالهم وديارهم، قال جل شأنه: ﴿ومنها من إن تأمنه بدینار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾^(١).

قال ابن القيم - رحمه الله -: «لا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم، والولاية تنافي البراءة، فلا تجتمع الولاية والبراءة أبداً، والولاية إعزاز فلا تجتمع هي وإذلال الكفر أبداً. والولاية صلة، فلا تجتمع ولاية الكافر أبداً»^(٢).

ومن المؤسف جداً أن موالاة الكافرين صارت من أعظم النواقض التي وقع فيها كثير من الناس في هذا العصر، وهم بعد ذلك يحسبون على الإسلام، ويتسمون بأسماء إسلامية. فلقد صرنا في عصر يُستحى أن يقال فيه للكافر: أنت كافر لا أتعامل معك!! بل زاد الأمر عتواً بنظرة الإعجاب والإكبار والتعظيم والمهابة لأعداء الله، وأصبحوا موضع القدوة والأسوة لضعاف الإيمان، ينظرون إلى أعداء الله نظرة انبهار، ملؤها التمني أن يكونوا مثلهم، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه!

* صور موالاة الكافرين *

المتأمل في الصور والمظاهر التي تأتي عليها موالاة الكافرين يجدها كثيرة جداً لا يستطيع حصرها في نقاط معينة، نظراً لتجدد الأحداث، وتغير الأزمنة، لكن يمكن الإشارة إلى أمور رئيسة في هذا المجال الخطير من حياة المسلمين،

(١) آل عمران: (٧٥). والأميون هم: العرب. راجع تفسير الطبري (٣/٣١٦) وتفسير ابن كثير (١/٣٧٤).

(٢) «أحكام أهل الذمة» للإمام ابن القيم (١/٢٤٢).

وما يتجدد من الحوادث والوقائع تقاس عليها، فإلى بيان هذه الصور:

١ - الرضى بكفر الكافرين، وعدم تكفيرهم، أو الشك في كفرهم، أو تصحيح أي مذهب من مذاهبهم الكافرة^(١).

فهذا الفعل صورة من صور موالة الكافرين؛ لأنه يسرهم ويسعدهم أن يروا من يوافقهم على كفرهم، ويجاريهم على مذاهبهم الإلحادية، ولذلك كان من يحب الكافر لأجل كفره كافراً بإجماع الأمة، ولم يخالف في ذلك أحد من علماء الإسلام^(٢).

٢ - اتخاذ الكفار أعواناً وأنصاراً وأولياء، أو الدخول في دينهم، وقد نهى الله - تعالى - عن ذلك بقوله: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(٣). وقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾^(٤).

٣ - الإيثار بهم عليه من الكفر، أو التحاكم إليهم دون كتاب الله - تعالى - كما قال - جل وعلا - : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾^(٥).

٤ - مودتهم، ومحبتهم، حيث نهى الله - تعالى - عنها بقوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ

(١) «مجموعة التوحيد» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - ص ٢٧١.

(٢) «الولاء والبراء في الإسلام» تأليف الشيخ محمد بن سعيد القحطاني ص ٢٣١.

(٣) آل عمران: (٢٨).

(٤) هود: (١١٨).

(٥) النساء: (٥١). وانظر تفسير ابن كثير (٥٠٧/١)، ومجموع الفتاوى (١٩٩/٢٨).

- أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم»^(١).
- ٥ - طاعتهم فيما يأمرون ويشيرون^(٢) : قال تعالى : ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾^(٣).
- وقال سبحانه : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾^(٤).
- ٦ - مجالستهم والدخول عليهم وقت استهزائهم بآيات الله ، قال تعالى : ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾^(٥).
- قال ابن جرير - رحمه الله - عند هذه الآية : «وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم»^(٦).
- ٧ - توليتهم أمراً من أمور المسلمين كالإمامة والكتابة وغيرها . والتولية شقيقة الولاية ، فتوليتهم نوع من توليتهم . وقد حكم الله أن من تولاهم فإنه منهم كما سبق ، والولاية تنافي البراءة ، فلا تجتمع البراءة والولاية أبداً^(٧).

(١) المجادلة (٢٢) . وانظر تفسير الطبري (٢٦/١٢) وكتاب «الإيمان» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٣٩ .

(٢) الولاء والبراء في الإسلام ص ٢٤١ .

(٣) الكهف : (٢٨) .

(٤) آل عمران : (١٤٩) .

(٥) النساء : (١٤٠) .

(٦) تفسير الطبري (٣٢٨/٤) .

(٧) الولاء والبراء في الإسلام ص ٢٤٢ .

- ٨ - الرضى بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزيي بزئيم^(١) .
- ٩ - معاونتهم على ظلمهم ونصرتهم^(٢) .
- ١٠ - تعظيمهم وإطلاق الألقاب عليهم مثل السادة والحكماء^(٣) .
- ١١ - السكنى معهم في ديارهم من غير ضرورة ، وتكثير سوادهم^(٤) .
- ١٢ - التآمر معهم ، وتنفيذ مخططاتهم ، والدخول في أحلافهم وتنظيماتهم ، والتجسس من أجلهم ، ونقل عورات المسلمين وأسرارهم إليهم ، والقتال في صفهم^(٥) .
- ١٣ - من هرب من دار الإسلام إلى دار الحرب بغضاً للمسلمين ، وحباً للكافرين^(٦) .
- ١٤ - من انضم إلى الأحزاب العلمانية أو الإلحادية كالشيوعية^(٧) والماسونية^(٨) ، وبذل الولاء والحب والنصرة لها^(٩) .

-
- (١) المرجع السابق ص ٢٤٤ .
 - (٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
 - (٣) انظر المرجع السابق ص ٢٤٥ .
 - (٤) «الرسائل المفيدة» للشيخ عبداللطيف آل الشيخ ص ٦٤ .
 - (٥) الولاء والبراء في الإسلام ص ٢٤٦ .
 - (٦) المرجع السابق ص ٢٤٧ .
 - (٧) الشيوعية : مذهب فكري يقوم على الإلحاد ، وأن المادة هي أساس كل شيء ، ويفسر التاريخ بصراع الطبقات ، وبالعامل الاقتصادي . وقد ظهرت في ألمانيا على يد رجلين هما ماركس وإنجلز .
 - (٨) انظر «الشيوعية والشيوعيون في ميزان الإسلام» للأستاذ عبدالجليل شلبي .
 - (٩) الماسونية : منظمة يهودية سرية ، تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم ، وتدعو إلى الإلحاد والإباحية ، والفساد .
 - انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٤٤٩ ، و «الماسونية وموقف الإسلام منها» بقلم الدكتور حمود الرحيلي . ص ١١ .
 - (٩) الولاء والبراء في الإسلام ص ٢٤٧ .

* عملاء الكافرين

وهذه قضية مهمة أخيرة أود التنبيه إليها في هذا المبحث المتعلق بموالاتة الكافرين^(١)، ذلك أنه وُجد في بلاد المسلمين أناس من المنتسبين إليه، يتخذهم الكفار عملاء لهم، وذُمتهم يحركونها ضد الإسلام والمسلمين، ونجح هؤلاء في تكوين عملائهم داخل كثير من البلاد الإسلامية، كل ذلك لأجل أن يعملوا لحساب التحالف اليهودي الصليبي في أوروبا وأمريكا وغيرها، ولذلك تجدهم يختلفون في كل لقاء قمة بينهم تبعاً لاختلاف الولاء والانتماء للدول الكبرى، فهم يعلنون استقلالهم في الظاهر وهم عبيد أرقاء، وعملاء أجراء في حقيقة الأمر والواقع، حيث باعوا أنفسهم لأعداء دينهم وأمتهم بثمن بخس زهيد، مقابل دراهم معدودة، ومنافع محدودة، ومناصب موعودة، وشهوات مبذولة، ومتع مرذولة، وشهرة ثمنها الخيانة والردة عن الإسلام.

وهؤلاء العملاء تختلف تخصصاتهم ومراكزهم في الأمة :

- ١ - فمنهم حكام ظالمون، يحاربون الفضيلة وينشرون الرذيلة.
- ٢ - ومنهم سياسيون، ينفذون سياسة أعداء الإسلام في عزل المسلمين، والقضاء عليهم.
- ٣ - ومنهم خبراء ماليون، ينفذون خطط أعداء الإسلام عن طريق المصالح المالية، إما بتطبيق النظام الرأسمالي الغربي بها فيه من ربا واحتكار واستغلال، أو بالتلويح بالاشتراكية وتأميم الأموال الخاصة والعامة.
- ٤ - ومنهم عسكريون ينفذون خطط أعداء الإسلام في تعويد الجنود على الطاعة العمياء، وعبادة أشخاص الحكام، والانهاك في لذة الكأس والجنس، والحيلولة بين أهل الإيثار والوصول إلى قطاعات القوات

(١) وهي تفصيل للصورة الثانية عشرة من صور الموالاتة، أفردتها بالذكر لأهميتها.

- المسلحة حتى لا يكون بيد أهل الحق سلاح يدافعون به عن حقهم^(١).
- ٥ - ومنهم إعلاميون ينفذون خطط أعداء الدين من خلال الكلمة المكتوبة، ومن خلال المقالة المسموعة، ومن خلال الصورة المرئية. وهذه العمالة من أولئك الإعلاميين أشد من غيرها بكثير؛ لأن للإعلام تأثيراً على كل إنسان، وكل بيت، ولذلك تجد العملاء للكافرين يحرصون على نشر الفاحشة في المؤمنين من خلال الكلمات البذيئة، والصور العارية، ويستعملون لهذه الغاية الدنيئة كل الحيل والمبررات ليجعلوا عملهم هذا مستساغاً مقبولاً عند عامة الناس حتى يتدرجوا بالناس بعد ذلك خطوة خطوة إلى عقر الرذيلة حتى نهايتها^(٢).
- ٦ - ومنهم جواسيس يتجسسون على أهل الإسلام والإيمان، يتظاهرون بالصلاح والزهد، وهم في حقيقتهم وواقع أمرهم يعملون جواسيس لأعداء الإسلام وإن هؤلاء الذين يتجسسون على المسلمين، فيهم شبه باليهود المنافقين الذين كانوا يتجسسون على المسلمين في المدينة، لينالوا من الإسلام وأهله^(٣).
- نعم إن الذي يرتكب مهنة التجسس على المؤمنين لصالح الكافرين وأعدائهم إنما يرتكب جريمة كبيرة وخيانة عظيمة، وزيادة على ذلك يضع نفسه في مصاف اليهود والمنافقين؛ لأنهم هم الذين كانوا يتعاملون مع المسلمين بهذا الأسلوب الماكر الخبيث!

(١) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية تأليف محماس بن عبدالله الجلعود (١/٤٤٤).

وانظر «أجنحة المكر الثلاثة» للأستاذ عبدالرحمن الميداني ص ١٩ - ٢٢.

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها.

(٣) انظر «اليهودية» للأستاذ أحمد شلبي ص ٣١٤، ٣١٥.

* كلمة أخيرة

وفي ختام هذا المبحث أقول : إن الواجب على المسلمين اليوم أن يقتدوا بكتاب ربهم ، وسنة نبيهم - ﷺ - ومنهج السلف الصالح في كل شيء بعامة ، وفي قضية الموالاتة والمعاداة بخاصة . لا بُدَّ أن يفهم المسلمون جميعاً أن معاداة الكافرين مطلب رئيس ، وركن ركين في ديننا وشريعتنا ، وليس عليهم بعد ذلك أن تقوم أصوات أرباب الولاء للغرب الكافر ، والشرق الملحد ومن نحاً نحوهم ، لتنادي بما قاله وردده من قبلهم إن هذا الفعل رجعية وتقهقرا ! وإن العزم الصادق على تحقيق مقتضيات هذه العقيدة ، والإصرار على تحكيم الشريعة الربانية كفيل بأن يجعلهم أعزاء في الدنيا ، سعداء في الآخرة ، وإن مخالفة السنة الربانية موجب للذلة والصغار في الدنيا ، والهلاك والخسارة في الآخرة ، وصدق الله :

﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ * ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾ ^(١) .

(١) طه : (١٢٣-١٢٦) .

المبحث الخامس اتباع المتشابه

معنى المتشابه في اللغة :

المتشابه في اللغة يطلق على ماله أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضاً، وعلى ما يشبهه من الأمر أي يلتبس. يقال: تشابه الشيطان، واشتبها، وشبهته به، وشبهته إياه، واشتبهت الأمور، وتشابهت: أي التبتت لإشباه بعضها بعضاً^(١).

ويقال: شبه عليه الأمر أي خلطه وليسه عليه حتى اشتبه بغيره^(٢).
ويقال: إياك والمشبّهات أي الأمور المشكلات^(٣).

* ما المتشابه الذي يوقع اتباعه في الفتنة؟

المراد بالمتشابه الذي يوقع اتباعه في الفتنة هو ما كان معناه ملتبساً على الأفهام، مما تشابهت ألفاظه، واحتمل صرف صارفه في وجوه التأويلات باحتماله المعاني المختلفة، ويتبعه مَنْ ذكرهم الله - تعالى - بقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾^(٤)، - ممن سيأتي بيان المراد

(١) انظر «القاموس المحيط» ص ١٦١٠، فصل الشين، مادة «شَبَّهَ».

(٢) انظر «لسان العرب» (٥٠٤/١٣) مادة «شَبَّهَ».

(٣) «أساس البلاغة» للزمخشري ص ٣٢٠، مادة «شَبَّهَ».

(٤) آل عمران: (٧).

بهم - فيطلبون تأويله، ولا يبلغون كنهه، فيرتابون فيه، فيَقْتَنُونَ^(١).

* مَنْ هُم الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ؟

اختلفت أقوال المفسرين في المراد بالذين يتبعون المتشابه، المذكورين في الآية السابقة على عدة أقوال:

فقال بعضهم: هم المنافقون^(٢).

وقال بعضهم: هم الخوارج^(٣).

وقيل: نصارى نجران^(٤).

وقيل: اليهود^(٥).

(١) انظر تفسير الطبري (١/١٨١)، وابن كثير (١/٣٤٥) وفتح القدير (١/٣١٤) وفتح الباري (٨/٢١١)، والموافقات في أصول الشريعة للشاطبي (٣/٦٨) ولقد جاء في تفسير المتشابه أقوال كثيرة، فقليل إنه المنسوخ، وقيل هو ماسوى الحلال والحرام، وقيل الأمثال، وقيل الأقسام، وقيل آيات الصفات. انظر تفسير المنار (٣/١٦٤) وابن عطية (٣/١٦) وهذه التفاسير ماعدا الأخير منها يضعفها أن أهل الزيغ لا تعلق لهم بنوع منها، وأما الأخير فسيأتي الرد عليه في نهاية البحث بإذن الله لأهميته.

(٢) روح المعاني (٣/٨٢)، والبحر المحيط (٣/٢٦).

(٣) زاد المسير (١/٢٨٨)، والبحر المحيط (٣/٢٦). والخوارج: جمع خارجة، وهم الذين نزعوا أيديهم عن طاعة ذي السلطان من أئمة المسلمين بدعوى ضلاله وعدم انتصاره للحق كالذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهم في ذلك مذاهب ابتدعوها، وآراء فاسدة اتبعوها، وهم فرق كثيرة تصل إلى العشرين. انظر «الملل والنحل» للشهرستاني (١/١٣١)، و «مقالات الإسلاميين» للأشعري (١/٨٦) وفتح الباري (١٢/٢٨٣).

(٤) التحرير والتنوير (٣/١٦٣) والبحر المحيط (٣/٢٦) وتفسير المنار (٣/١٦٦).

(٥) روح المعاني (٣/٨٢) وزاد المسير (١/٢٨٨) والبحر المحيط (٣/٢٦) وتفسير الطبري (٣/١٧٨).

وقيل : منكرو البعث^(١).

فهذه أقوال المفسرين في المراد بـ ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ ، والراجح في نظري - وقد قال به كثير من المفسرين - أن المراد بهم : كل طائفة من مشرك ، وزنديق^(٢) ، وجاهل صاحب بدعة ، سبئياً^(٣) ، كان أو حرورياً^(٤) أو جهمياً^(٥) ، فإن اللفظ يشملهم وغيرهم من طوائف الضلال ، وإن كان نزل على سبب خاص^(٦) ، فإن العبرة بعموم اللفظ^(٧).

(١) روح المعاني (٨٢/٣).

(٢) الزنديق هو من لا يتمسك بشريعة ، ويقول بدوام الدهر . وقيل هو الذي يظهر الإسلام ويخفي الكفر ، وكان في عصر النبوة يسمى منافقاً ، فصار في العرف الشرعي زنديقاً . وقيل هو الذي لا ينتحل ديناً . انظر القاموس الفقهي لسعدي أبوحبيب ص ١٦٠ والتعليق رقم (٣) لمحقق كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٢٨.

(٣) السبئية : هم أصحاب عبد الله بن سبأ الذي غلا في علي - رضي الله عنه - وزعم أنه إله ، وقيل إنه كان يهودياً فأسلم ، وهو أول من أظهر القول بالنص بإمامة عليّ ، ومنه انشعبت أصناف الغلاة ، انظر «الفرق بين الفرق» للبغدادى ص ٢٣٣ ، و «التبصير بالدين» للإسفرائيني ص ١٢٣.

(٤) الحرورية : إحدى فرق الخوارج وقد تقدم التعريف بهم .

(٥) الجهمية هم : أصحاب جهنم بن صفوان ، الذي أظهر بدعته بترمد ، ووافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية ، وزاد عليهم بأشياء كقوله بعدم جواز وصف الله - تعالى - بصفة يتصف بها خلقه ؛ لأن ذلك عنده يقتضي التشبيه ، وكقوله بفناء النار والجنة بعد دخول أهلها . وقد قُتل هذا الرجل في آخر ملك بني أمية سنة ١٢٨ هـ تقريباً . انظر الملل والنحل (٩٧/١) وميزان الاعتدال (٤٢٦/١) والأعلام (١٤١/٢).

(٦) وهي قصة وفد نصارى نجران كما سيأتي في الأمثلة .

(٧) انظر تفسير الطبري (١٨١/٣) وابن عطية (١٩/٣) والقرطبي (١٠/٤) والبحر المحيط (٢٦/٣) وفتح القدير للشوكاني (٣١٥/١) ومجموع الفتاوى (٤١٥/١٧).

أقول : ويمكن بعد هذا البيان أن يمثل هؤلاء الذين يتبعون المشابه ابتغاء الفتنة بالأمثلة التالية :

١ - المشركون :

ومن هؤلاء المشركين العاصي بن وائل^(١) ، لما جاءه الصحابي الجليل - خباب بن الأرت - رضي الله عنه - يتقاضاه أجراً ، فقال العاصي : متهمكأ به : «وإني لمبعوث بعد الموت - أي حسب اعتقادكم - فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد» فالعاصي توهم ، أو أراد الإيهام أن البعث بعد الموت رجوع إلى الدنيا ، أو أراد أن يوهم دهماء المشركين ذلك ليكون أدعى إلى تكذيب الخبر بالبعث ، بمشاهدة رجوع أحد من الأموات ، ولذلك كانوا يقولون : ﴿فاتوا بأبائنا إن كنتم صادقين﴾^{(٢) (٣)} .

٢ - وقد نصارى نجران :

فقد روى الطبري في سبب نزول هذه الآية : ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة﴾^(٤) أن وفدأ من نصارى نجران حاصموا النبي - ﷺ - في - عيسى عليه السلام - قالوا : ألسنت تزعم أنه كلمة الله ، وروح منه؟ قال : «بلى!» قالوا : فحسبنا! فأنزل الله : ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة﴾^(٥) فهؤلاء النصارى اتبعوا المشابه

(١) هو العاصي أو العاص بن وائل بن هاشم السهمي ، من قريش ، أحد الحكام في الجاهلية . أدرك الإسلام لكنه ظل على الشرك حتى مات سنة ثلاث قبل الهجرة تقريباً انظر «نسب قريش» للزبيري ص ٤٠٤ والأعلام (٣/٢٤٧) .

(٢) الدخان : (٣٦) .

(٣) التحرير والتنوير (٣/١٦٢) .

(٤) آل عمران (٧) .

(٥) تفسير الطبري (٣/١٧٨) .

لإرادة التلبس، حيث تمسكوا بما ذكر في القرآن من أن عيسى - عليه السلام - روح الله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم، وتركوا الاحتجاج بمثل قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾^(١)، وقوله سبحانه: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢)، وغير ذلك من الآيات المصريحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد، ورسول من رسل الله^(٣).

٣ - الزنادقة، ويمثل لفعلهم بمثالين :

أ - ماحكاه محمد بن علي بن رزام الطائي الكوفي^(٤) قال: كنت بمكة حين كان الجنابي زعيم القرامطة^(٥) بمكة، وهم يقتلون الحجاج، ويقولون: أليس قد قال لكم محمد المكي^(٦) ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾^(٧) فأئى أمن هنا؟! قال: فقلت له: هذا خرج في صورة الخبر، والمراد به الأمر، أي ومن دخله فأمناه

(١) الزخرف: (٥٩).

(٢) آل عمران: (٥٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٣٤٥/١).

(٤) لم أقف على ترجمته.

(٥) هو سليمان بن حسن القرمطي الزنديق الذي سار إلى مكة في سبعمائة فارس من أتباعه المعروفين بالقرامطة. فاستباح الحجيج كلهم في الحرم، واقتلع الحجر الأسود، ودم زمزم بالقتل، وصعد على عتبة الكعبة يصيح:

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

فقتل في سكك مكة وماحولها زهاء ثلاثين ألفاً، وسبى الذرية، وأقام بالحرم ستة أيام. حدث هذا في ذي الحجة سنة ٣١٧هـ. ومات بالجُدري - لا رحمه الله - سنة ٣٣٢هـ بهجر (الأحساء) كهلاً.

انظر سير أعلام النبلاء (٣٢٠/١٥) والبداية والنهاية (١٧١/١١) ومقالات الإسلاميين ص ٢٦ والأعلام (١٢٣/٣).

(٦) يقصد الرسول - ﷺ -

(٧) آل عمران: (٩٧).

كقوله ﴿والمطلقات يتربصن﴾^(١) (٢).

ب - ماجاء عن الزنادقة في قوله تعالى: ﴿ماسلككم في سقر﴾ قالوا لم نك من المصلين^(٣)، وقوله: ﴿فويل للمصلين﴾^(٤)، حيث قالوا: إن الله قد ذمّ قوماً كانوا يصلون، فقال: ﴿ويل للمصلين﴾، وقد قال في قوم إنهم دخلوا النار؛ لأنهم لم يكونوا يصلون، فشكوا في القرآن من أجل ذلك، فزعموا أنه متناقض، وجهل هؤلاء أن قوله سبحانه: ﴿فويل للمصلين﴾ عني بها المنافقين، الذين هم عن صلاتهم ساهون، حتى يذهب الوقت، وإذا رأوا المؤمنين صلّوا، وإذا لم يروهم لم يصلوا.

وأما قوله: ﴿ماسلككم في سقر﴾ قالوا لم نك من المصلين^(٥) فيعني الموحدين المؤمنين، وهذا ما شكت فيه الزنادقة، ليلبسوا على الناس دينهم^(٦).

٤ - الجهمية :

ومن ذلك قصة زعيم الجهمية الجهم بن صفوان مع جماعة يقال لهم السمنية^(٧) لما قالوا له: تكلمك، فإن ظهرت حججتنا عليك دخلت في ديننا. وإن ظهرت حجبتك علينا دخلنا في دينك، فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له: ألسنت تزعم أن لك إلهاً؟ قال الجهم: نعم. فقالوا له: فهل رأيت إلهك؟

(١) البقرة: (٢٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣/١٦٢)، وانظر سير أعلام النبلاء (١٥/٣٢٢).

(٣) المدثر: (٤٢).

(٤) الماعون: (٤).

(٥) «الرد على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد بن حنبل ص ١٠٠ وانظر «التحفة المهدية شرح

الرسالة التدمرية» تأليف الشيخ مهدي آل مهدي ص ٢٦١.

(٦) السمنية: طائفة من المشركين. انظر الرد على الزنادقة والجهمية ص ٢٣، وبمجموع الفتاوى

(٣١٨/٤).

قال : لا . قالوا : فهل سمعت كلامه ؟ قال : لا . قالوا : فشمنت له رائحة ؟ قال : لا . قالوا : فوجدت له حساً ؟ قال : لا . قالوا : فوجدت له مجساً ؟ قال : لا . قالوا : فما يدريك أنه إله ؟ فتحير الجهم ، فلم يدر من يعبد أربعين يوماً . ثم إنه استدرك حجة مثل حجة زنادقة النصارى . وذلك أن زنادقة النصارى يزعمون أن الروح الذي في عيسى - عليه السلام - هو روح الله من ذات الله ، فإذا أراد أن يحدث أمراً دخل في بعض خلقه ، فتلكم على لسان خلقه ، فيأمر بما يشاء ، وينهى عما يشاء ، وهو روح غائبة عن الأبصار .

فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة ، فقال للسمني : ألسنت تزعم أن فيك روحاً ؟ قال : نعم . فقال : هل رأيت روحك ؟ قال : لا . قال : فسمعت كلامه ؟ قال : لا . قال : فوجدت له حساً أو مجساً ؟ قال : لا . قال : فكذلك الله ، لا يُرى له وجه ، ولا يُسمع له صوت ، ولا يشم له رائحة ، وهو غائب عن الأبصار ، ولا يكون في مكان دون مكان ، ووجد ثلاث آيات من التشابه : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾^(١) ، ﴿ وهو الله في السموات والأرض ﴾^(٢) ، ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾^(٣) .

فبنى أصل كلامه على هذه الآيات ، وتأول القرآن على غير تأويله ، وكذب بأحاديث الرسول - ﷺ - ، وزعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه ، أو حدث عنه رسوله - ﷺ - كان كافراً ، وكان من المشبهة ، فأضل بكلامه بشراً كثيراً ، وتبعه على قوله الملبس عدد من الناس ، إذ كان الجاهل إذا سمع قوله ذلك ظنه أنه من أشد الناس تعظيماً لله ، ولا يعلم أنه إنما يعود قوله

(١) الشورى : (١١) .

(٢) الأنعام : (٣) .

(٣) الأنعام : (١٠٣) .

إلى ضلالة وكفر. ولا يشعر أنه لا يقول قوله إلا فرية في الله^(١).

٥ - المعتزلة :

ومن ذلك ماجاء عن رأس المعتزلة واصل بن عطاء^(٢) أنه كان يصلي في الليل ولوح ودواة موضوعان، فإذا مرت به آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد إلى صلاته^(٣).

فهذه الطوائف ومن كان على شاكلتها من أهل الضلال والزيف ممن يتبع المتشابه من الآيات لقصد التلبس على الناس، هذه الطوائف هي التي يصدق عليها الحديث الصحيح، أن النبي - ﷺ - تلا هذه الآية: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾^(٤) ثم قال: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذرهم»^(٥).

(١) «الرد على الزنادقة والجهمية» ص ٢٣ و«مجموع الفتاوى» (٤/٢١٨).

(٢) هو البليغ الأفوه، أبو حذيفة المخزومي، رأس الاعتزال الذي طرده الحسن البصري رحمه الله عن مجلسه لما قال: الفاسق لا مؤمن ولا كافر، فانضم إليه رجل يقال له عمرو بن عبيد، واعتزلا حلقة الحسن فسموا المعتزلة، وقيل سموا معتزلة لقوله باعتزال الفاسق عن منزلي المؤمنين والكافرين، قيل: كان واصل صموتاً طويلاً الرقبة جداً وله مؤلف في التوحيد، وكتاب «المنزلة بين المنزلتين» وكان يلثغ بالراء غيناً، فلاقتداره على اللغة وتوسعه يتجنب الوقوع في لفظة فيها راء. انظر «الملل والنحل» (١/٦٢) والفرق بين الفرق ص ٢٤ وسير أعلام النبلاء (٥/٤٦٤).

(٣) «اتباع الهوى» للشيخ سليمان الغصن ص ٤٦.

(٤) آل عمران: (٧).

(٥) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب (منه آيات محكمات) (٨/٢٠٩).

برقم (٤٥٤٧). ومسلم في كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتخدير =

وقد روى ابن بطة^(١) بسنده عن أيوب^(٢) قال: «لا أعلم أحداً من أهل الأهواء يخاصم إلا بالمتشابه»^(٣)، وكأنه هنا يحذّر المسلمين من أصحاب الأهواء من الطوائف التي نهت على نماذج منها ممن يتبع المتشابه من الآيات ليلبس على المسلمين دينهم، ويفسد عليهم عقيدتهم، ولذلك لسا بلغ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن رجلاً من بني تميم يقال له صبيغ بن عسل، قد قدم المدينة، وجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبعث إليه، وقد أعد له عراجين النخل، فلما دخل عليه جلس، فقال له عمر - رضي الله عنه - من أنت؟ فقال: أنا عبد الله صبيغ. فقال عمر - رضي الله عنه - وأنا عبد الله عمر، ثم أهوى إليه، فجعل يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجّه، فجعل الدم

= من متبعيه (٢٠٥٣/٤) برقم (٢٦٦٥)، والآجري في كتاب الشريعة ص ٧٢ كلهم من حديث عائشة - رضي الله عنها -.

(١) هو الإمام الفقيه المحدث، شيخ العراق، أبو عبد الله، عبيد الله بن محمد بن محمد العكبري الحنبلي، أثنى عليه رجال عصره ثناء عاطراً فقال عبد الواحد العكبري: لم أر في شيوخ الحديث ولا في غيرهم أحسن هيئة من ابن بطة. وقال أبو حامد الدلوي: لما رجع ابن بطة من الرحلة - أي رحلته في طلب الحديث بالعراق - لازم بيته أربعين سنة، لم يُر في سوق، ولا رؤي مفطراً إلا في عيد، وكان أماراً بالمعروف، لم يبلغه خبر منكر إلا غيّر. وله - رحمه الله - مع فضله أوهام وغلط. وفاته في المحرم سنة ٣٨٧هـ. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (٥٢٩/١٦)، والبداية والنهاية (٣٤٣/١١).

(٢) هو أيوب بن أبي تميمة كيسان السخيتاني. رأى أنس بن مالك. وشهد له علماء عصره بالعلم والفضل. قال عنه حماد بن زيد: كان أيوب عندي أفضل من جالسته، وأشدّه اتباعاً للسنة. وقال ابن عيينة: مالفيت مثل أيوب. وقال عنه النسائي: ثقة ثبت. وقال الدارقطني: أيوب من الحفاظ الأثبات. وفاته بالبصرة سنة ١٣١هـ. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٥/٦)، وتهذيب التهذيب: (٢٥١/١).

(٣) «الإبانة» لابن بطة (٥٠١/٢). برقم (٥٦١).

يسيل على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي كنتُ أجد في رأسي^(١).

لقد أدرك عمر - رضي الله عنه - أن هذا الرجل مفتون، قد شغل نفسه بما لا يعود عليه نفعه، وعلم أن اشتغاله بطلب علم الواجبات من علم الحلال والحرام أولى به. وتطلب علم سنن رسول الله - ﷺ - أولى به، فلما علم أنه مقبل على ما لا ينفعه سأل عمر - رضي الله عنه - ربه أن يمكنه منه، حتى ينكل به، وحتى يحذر غيره، لأنه راع يجب عليه تفقد رعيته في هذا وفي غيره، فأمكنه الله - عز وجل - منه. وقد قال - رضي الله عنه -:

«سيكون أقوام يجادلونكم بمتشابه القرآن، فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله - عز وجل -»^(٢).

* المراد بالفتنة

اختلف المفسرون - رحمهم الله تعالى - في المراد بالفتنة في الآية الكريمة: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾^(٣) على عدة أقوال:

فقال بعضهم: الكفر^(٤).

وقال آخرون: إفساد ذات البين^(٥).

(١) «الشرية» للأجري ص ٧٣.

(٢) المرجع السابق ص ٧٤.

(٣) آل عمران: (٧).

(٤) زاد المسير (١/٢٨٨)، والبحر المحيط (٣/٢٧).

(٥) زاد المسير (١/٢٨٨)، والبحر المحيط (٣/٢٦).

وقيل : المراد بالفتنة الإضلال^(١) .

وقريب من هذا القول - وهو الراجح في نظري ، وقد قال به كثير من أهل التفسير - أن المراد من الفتنة : الشبهات واللبس^(٢) . أي إن تلك الطوائف الضالة ، والفرق المنحرفة يتبعون المتشابه من القرآن ليلبسوا على الناس دينهم ، ويشككهم فيه عن طريق التأويلات المزلزلة للعقيدة ، مما ليسوا أهلاً لها^(٣) ، كل ذلك ليحتجوا به على باطلهم الذي مالوا إليه دون الحق الذي أبانه الله - عز وجل - بالمحكمات من أي كتابه .

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣٤٥/١) والرازي (١٨٩/٧) والسعدي (٣٥٧/١) .

(٢) انظر تفسير الطبري (١٨١/٣) والقرطبي (١١/٤) ، والرازي (١٨٨/٧) .

وأبي السعود (٨/٢) ، والألوسي (٨٢/٣) ، والشوكاني (٣١٥/١) وسيد قطب (٣٦٣/١) .

(٣) أما من يؤول المتشابه أي يصرفه عن ظاهره بالحجة القاطعة لا طلباً للفتنة ، ولكن منعاً لها ، وتثبيتاً للناس على المعروف من دينهم ، ورداً لهم إلى محكمات الكتاب القائمة ، وأعلامه الواضحة فأولئك هم المهادون المهديون حقاً . وعلى ذلك درج سلف الأمة وخلفها وأئمتها وعلمائها . روى الإمام البخاري عن سعيد بن جبير أن رجلاً قال لابن عباس : إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ . قال : ماهو؟ قال : ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ المؤمنين : (١٠١) ، وقال : ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ الطور : (٢٥) ، وقال : ﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ النساء : (٤٢) ، وقال : ﴿قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ الأنعام : (٢٣) ، قال ابن عباس : «فلا أنساب بينهم في النفخة الأولى ، ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الثانية : أقبل بعضهم على بعض يتساءلون . فأما قوله : (والله ربنا ما كنا مشركين) فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، فيقول المشركون : تعالوا نقول : ما كنا مشركين ، فيختم الله على أفواههم ، فتتطق جوارحهم بأعمالهم ، فعند ذلك لا يكتُمون الله حديثاً . وهذا الحديث ذكره الزرقاني في مناهل العرفان (١٩٨/٢) وعزاه إلى البخاري ، ولم أقف عليه .

* تنبيهان هامان

التنبيه الأول : الحكمة من إنزال المتشابه :

ذكر علماؤنا الكرام - رحمهم الله تعالى - لوجود المتشابه في القرآن حكماً كثيرة، أجمالها في الأمور التالية :

١ - حث العلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه، والبحث عن دقائق معانيه، فإن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب، وحذراً مما قال المشركون: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾^(١) وليمتحنهم وبشيتهم كما قال: ﴿ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات﴾^(٢) فنبههم على أن أعلى المنازل هو الثواب، فلو كان القرآن كله محكماً لا يحتاج إلى تأويل لسقطت المحنة، وبطلت التفاضل، واستوت منازل الخلق، ولم يفعل الله ذلك، بل جعل بعضه محكماً ليكون أصلاً للرجوع إليه، وبعضه متشابهاً يحتاج إلى الاستنباط والاستخراج، وردّه إلى المحكم، ليستحق بذلك الثواب الذي هو الفرض، وقد قال تعالى: ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾^{(٣) (٤)}.

٢ - إظهار فضل العالم على الجاهل، ويستدعيه علمه إلى المزيد في الطلب في تحصيله، ليحصل به درجة الفضل، والأنفس الشريفة تتشوف لطلب العلم وتحصيله^(٥).

(١) الزخرف: (٢٢).

(٢) نساء: (٤).

(٣) آل عمران: (١٤٢).

(٤) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (٢/٨٦)، و «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي (٢/٢٣).

(٥) «البرهان في علوم القرآن» (٢/٨٦) والإتقان (٢/٢٣).

٣ - باهتمام القرآن على المتشابه يضطر الناظر فيه إلى تحصيل علوم كثيرة مثل اللغة والنحو وأصول الفقه، مما يعينه على النظر والاستدلال. فكان وجود المتشابه سبباً في تحصيل علوم كثيرة^(١).

٤ - أيضاً، باهتمام القرآن على المتشابه يضطر الناظر فيه إلى الاستعانة بالأدلة العقلية، فيتخلص من ظلمة التقليد. وفي ذلك تنويه بشأن العقل، إذ لو كان القرآن كله محكماً لما احتاج إلى الدلائل العقلية، ولظل العقل مهملاً^(٢).

٥ - تحقيق إعجاز القرآن؛ لأن كل ما استتبع فيه شيئاً من الخفاء المؤدي إلى التشابه له مدخل عظيم في بلاغته، وبلوغه الطرف الأعلى في البيان^(٣).

التنبيه الثاني : إثبات الصفات ليس من اتباع المتشابه :

ذكر الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني^(٤) في كتابه: «مناهل العرفان» أن المتشابه في القرآن أنواع، وذكر أن من هذه الأنواع: «مالا يستطيع البشر جميعاً أن يصلوا إليه»^(٥) وعد صفات الله - تعالى - من هذا النوع. وهذا منه خطأ واضح؛ فإن باب الأسماء والصفات باب محكم واضح، يفهم أصل المعنى كل إنسان لم تتغير فطرته، وكيف يكون مشتبهاً أفضل شيء حصلته النفوس،

(١) تفسير الرازي (١٨٥/٧)، و «مناهل العرفان في علوم القرآن» للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني (١٨١/٢).

(٢) تفسير الرازي (١٨٥/٧)، ومناهل العرفان (١٨١/٢).

(٣) مناهل العرفان (١٨٠/٢).

(٤) عالم مصري كبير تخرج بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف، وعمل بها مدرساً لعلوم القرآن والحديث. وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٦٧هـ. الأعلام (٢١٠/٦).

(٥) مناهل العرفان (١٧٧/٢). وانظر تفسير الرازي (١٨٦/٧)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٣٥/٢).

واكتسبته القلوب، ولم يتوفَّ الله - تعالى - نبيّه - ﷺ - حتى أكمل به الدين،
وأساس الدين معرفة الله - تعالى - بأسمائه وصفاته، وقد بلغه النبي - ﷺ -
بلاغاً عاماً، فعلمه الخاص والعام، وفي الصحابة القروي والبدوي، والعربي
والعجمي، ولم يشته توحيد الأسماء والصفات على واحد منهم، بل آمنوا به
وعرفوا المراد منه أعظم معرفة.

وقال الزرقاني - غفر الله لنا وله - تحت عنوان: «إرشاد وتحذير» مانصه:
«لقد أسرف بعض الناس في هذا العصر، فخاضوا في متشابه الصفات
بغير حق، وأتوا في حديثهم عنها، وتعليقهم عليها بما لم يأذن به الله، ولهم فيها
كلمات غامضة، تحتل التشبيه والتنزيه، وتحتل الكفر والإيمان حتى باتت
هذه الكلمات نفسها من المتشابهات...»^(١).

وهكذا جنى الكاتب على نفسه لماً خاض فيما لا يحسنه، وأخطأ خطأً
عظيماً بقوله: «ولهم فيها كلمات غامضة، تحتل التشبيه...» فليس في إثبات
نصوص الصفات ما يحتمل التشبيه أو الكفر، ومن ظن أن إثبات صفات الكمال
لله - عز وجل - يقتضي تشبيهاً فهو مخطيء في ظنه، ضال في عقيدته، وإنه لا
يوجد في الكتاب والسنة مظاهره يقتضي كفراً أو تشبيهاً، وتعالى الله أن يكون
كلامه كذلك، وأهل الباطل يتوهمون في صفات الله أو أكثرها أنها تماثل صفات
المخلوق، فلا يفهمون من إثبات الصفات إلا هذا الفهم الباطل الناشئ من
تعطيل ما يستحقه الرب - سبحانه - والواجب على المسلم أن يثبت أسماء الله
- تعالى - وصفاته كما أثبتها الكتاب والسنة من غير تمثيل ولا تكيف، ومن غير

(١) مناهل العرفان (٢/ ١٨٧).

تحريف، ولا تعطيل^(١). ولا يهولنه أقوال المعطلين لأسماء الله وصفاته من أن من أثبت له صفات الكمال فقد شبه^(٢).

والواجب على كل مسلم يريد نجاة نفسه أن يتدبر القرآن والسنة الصحيحة في هذا الباب العظيم، وأن يسأل ربه - تعالى - الهداية إلى الصراط المستقيم، ويستعيذ به من صراط أهل الجحيم.

(١) التمثيل هو: التشبيه بأن يقال مثلاً: صفات الله مثل صفات المخلوقين. والتكييف: تعيين كيفية الصفة والهيئة التي تكون عليها. والتحريف: نفي المعنى الصحيح الذي دلت عليه النصوص، واستبداله بمعنى آخر غير صحيح، كقول أهل الضلال في معنى (استوى): استولى. والتعطيل: نفي المعنى الصحيح من غير استبداله بمعنى آخر. راجع «شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية» تأليف الشيخ صالح الفوزان ص ١٣، ١٤، والتحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية ص ٣٢.

(٢) «القول الرشيد في حقيقة التوحيد» تأليف الشيخ سليمان بن ناصر العلوان ص ٤٩ - ٥١. وانظر منهج السلف في الصفات في المجلد الخامس من مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، والتدمرية لشيخ الإسلام أيضاً ص ٧ ومابعداها، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفى ص ٩٨ ومابعداها، والتحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية ص ٣١، و«أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة» للشيخ حافظ الحكمي ص ٥٧، و«مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٢/٦٢) و (٣/١٨)، و«البيان لأخطاء بعض الكتاب» للشيخ صالح الفوزان ص ١٠٢، والقواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للأستاذ إبراهيم البريكان.

الفصل الثالث

أساليب القرآن في التحذير من الفتنة^(١)

وفيه أحد عشر مبحثاً :

- المبحث الأول: الأُمــــر .
- المبحث الثاني: النهــــي .
- المبحث الثالث: التهديد .
- المبحث الرابع: التبكيت والتقريع .
- المبحث الخامس: النفــــي .
- المبحث السادس: الاستفهام .
- المبحث السابع: التعجب .
- المبحث الثامن: الخبــــر .
- المبحث التاسع: الدعاء .
- المبحث العاشر: الشرط .
- المبحث الحادي عشر: الاستثناء .

(١) وضع هذا العنوان نظراً لأن الغالب في الأساليب التي عرض فيها لفظ الفتنة هو التحذير، ولا يلزم من ذلك أن يكون التحذير مفهوماً مباشرة من اللفظ نفسه، بل قد يكون مفهوماً من المدلول، فتنبه!

وأما الفتنة التي يحذر منها فسوف يتضح معناها عند الحديث عن كل أسلوب على حدة - بإذن الله تعالى - .

تمهيد:

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، على أفصح العرب لساناً، وأقومهم بياناً.

وكان هو المعجزة الكبرى للرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام - حيث تحداهم الله - تعالى - أن يأتوا بمثله، بل أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا واستسلموا لإعجازه وبيانه . . واستمر القرآن العظيم على مرّ العصور وكرّ الدهور المعجزة البيانية، الشاهدة على صدق رسول الله - ﷺ - وعظمة رسالته.

نعم إن هذا الكتاب الخالد يقف المسلم أمامه خاشعاً منبهرًا، لما يرى من سلاسة أسلوبه، وسهولة عبارته، وقوة نفاذها إلى أعماق القلوب، لا تعقيد، ولا تكلف، ولا تركيب.

ولا غَرَوْ، ولا عجب من ذلك، فهو كلام الله: ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾^(١).

وإن الآيات التي ورد فيها لفظ الفتنة جزء من هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ولأن هذا الكتاب سبب في الهداية والدلالة والإرشاد فقد عرضت الآيات بأساليب متعددة؛ حتى لا تمل القلوب أو تكل الأفهام.

نعم . . ولتزداد نبضات القلب في التنقل بين آياته ومعانيه، فلا تمجه الأذان، ولا تتعب في فهمه الأذهان.

وإن المتأمل في كلمة الفتنة في القرآن الكريم يجد أنها قد عُرضت بأساليب

(١) النساء: (١٢٢).

متنوعة؛ استمالة للقلوب، وإيقاظاً للنفوس. ذكرى للمؤمنين، وتنبهاً
للمغافلين، وحجة على الكافرين والمعاندين.
وأبدأ الآن بالحديث في الأساليب التي عرضت بها كلمة «الفتنة» في القرآن
الكريم، في المباحث التالية.

الفصل الثالث أساليب القرآن في التحذير من الفتنة

المبحث الأول الأمـر

فمن الأساليب التي جاء بها التحذير من الفتنة أسلوب الأمر، وهو أسلوب يتسابق المؤمنون لتحقيقه والوفاء بالمراد منه، فلا تأخر ولا تلكؤ، ولا تراجع، وهو مقتضى الإيمان، ومن تأخر أو تلكأ أو تراجع عن الالتزام بذلك فقد أوقع نفسه في الفتنة التي يُحذر منها، وأعرض عن نصح القرآن وتوجيهه، فكان من الهالكين.

ففي سورة المائدة يوجّه الله - تعالى - خطابه إلى نبينا - ﷺ - منبهاً ومحذراً، فيقول: ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾^(١).

فالله - جل وعلا - هنا يحذّر النبي - ﷺ - من أولئك اليهود الذين جاءوا إليه في مسألة لهم محتكمين إليه^(٢)، يحذره الله - عز وجل - من أن يفتنه هؤلاء اليهود عن بعض القرآن، ولو كان أقل قليل، وذلك بمحاولة التلبيس عليه

(١) المائدة: (٤٩).

(٢) انظر تفسير الطبري (٤/٦١٣).

بتصوير الباطل بصورة الحق، فيما ينهونه إليه من الأمور، إذ هم كذبة كفرية خونة^{(١)(٢)(٣)}.

وهذا التحذير الرباني فيه شدة وقوة، يدل على ذلك أمران:

الأول: إعادة لفظ (ما أنزل الله)، قال أبو السعود^(٤): «وإعادة ما أنزل الله» لتأكيد التحذير بتحويل الخطاب^(٥).

الثاني: إعادة لفظ ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾^{(٦)(٧)} وقد تقدم على الآية التي معنا.

وفي سورة النور يوجّه الله - تعالى - خطاباً للمؤمنين، مبيناً لهم أن النبي ﷺ - إذا احتاج إلى اجتماعهم عنده لأمر فدعاهم، فيجب عليهم أن لا

(١) انظر تفسير ابن كثير (٦٧/٢) والمنازل (٤٢٠/٦)، وأبي السعود (٤٦/٢) والآلوسي (١٥٥/٦).

(٢) قال صاحب التحرير والتنوير في: (٢٦٦/٦): «قوله: (واحذرهم أن يفتنوك) المقصود منه إفضاح مكرهم - أي اليهود - وتأييسهم مما أملوه؛ لأن حذر النبي - ﷺ - من ذلك لا يحتاج فيه إلى الأمر، لعصمته - ﷺ - من أن يخالف حكم الله - ا. هـ.

(٣) جملة (أن يفتنوك) بدل اشتغال من الضمير «هم» في (واحذرهم) أي احذر فتنتهم، أو مفعول له أي احذرهم مخافة أن يفتنوك. تفسير أبي السعود (٤٦/٢) والآلوسي (١٥٥/٦)، «والتيبان في إعراب القرآن» للعكبري (٤٤٢/١).

(٤) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، مفسر شاعر، من علماء الترك المستعربين، ولد بقرب القسطنطينية، ودرس ودرس في بلاد متعددة، وكان حاضر الذهن، سريع البديهة، له شعر جيد، خلص كثير منه من ركافة العجة، أخذ عليه الميل الزائد إلى أرباب الرئاسة، ومذاهبتهم. توفي سنة ٩٨٢ هـ. انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (٣٩٨/٨) والأعلام (٥٩/٧).

(٥) تفسير أبي السعود (٤٦/٢).

(٦) المائدة: (٤٨).

(٧) تفسير الطبري (٦١٣/٤). وانظر تفسير المنار (٤٢٠/٦).

يتفرقوا عنه إلا بإذنه، وأن لا يقيسوا دعاءه إياهم على دعاء بعضهم بعضاً، ورجوعهم إلى المجمع بغير إذن الداعي^(١)، وذلك بقوله سبحانه: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً...﴾^(٢) والمقصود من هذا التوجيه الرباني التعريض بأولئك المنافقين الذين تماثلوا بينهم على التخلف عن رسول الله - ﷺ - إذا دعاهم كلّموا وجدوا لذلك سبيلاً كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾^(٣)، فكأنه قال: لا تجعلوا أيها المؤمنون دعاء الرسول بينكم كما جعل المنافقون بينهم، وتواطأوا على ذلك^(٤).

ولذلك فقد جاء التحذير الرباني لهؤلاء المنافقين بقوله - عز وجل -: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾^(٥).

نعم ليحذر أولئك المنافقون من أن تصيبهم من جراء مخالفتهم فتنة من الله بالطبع على قلوبهم، فلا يأمن الواحد منهم أن يظهر الكفر بلسانه، فتضرب عنقه^(٦)، أو بحدوث الشر العريض من اختلاط الحق بالباطل، والطيب بالخبث، وفساد أمور الجماعة وحياتها، واضطراب أحوال الناس، ونحو ذلك

(١) المحرر الوجيز (١١/ ٣٣٠) والكشاف (٣/ ٢٦١).

(٢) النور: (٦٣).

(٣) التوبة: (١٢٠).

(٤) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٠٩).

النور: (٦٣). وأسلوب الأمر مأخوذ من لام الأمر في قوله سبحانه: (فليحذر). وقد عُدّي

(يخالفون) بـ (عن) لما في المخالفة من معنى التباعد والحيد، كأنه قيل: الذين يجيدون عن

أمره بالمخالفة، وهو أبلغ من أن يقال: يخالفون أمره. روح المعاني (١٨/ ٢٢٦).

(٦) تفسير الطبري (٩/ ٣٦١).

من الرزايا والمحن^(١). نسأل الله - تعالى - السلامة والعافية.
ومما يدل على الاعتناء بالتحذير من الفتنة إعادة الفعل صريحاً وهو قوله
(يصيبهم)^(٢).

هذا وإن مما يجدر التنبيه إليه هنا أن هذا التحذير من وقوع الفتنة بالمخالفة
للأمر ليس خاصاً بأولئك المنافقين الموجودين في زمن النبي - ﷺ - بل هو تحذير
لكل منافق وفاسق أن يخالف الكتاب والسنة، مثل أولئك الذين يطالبون
بخروج المرأة المسلمة عن بيتها ومقر شرفها وكرامتها، لتخالط الرجال في كل
مكان، ليتمكنوا بذلك من نشر سمومهم وفحشهم، ورذائلهم عن طريق هذه
الدعاية الخبيثة المغرضة!!

فإلى هؤلاء ومن وافقهم ونشر أفكارهم يقال أيضاً:
لتحذروا من جراء أفعالكم هذه أن تصيبكم فتنة أو يصيبكم عذاب اليم.

وفي سورة الأنفال يأتي التحذير الرباني من الفتنة بصيغة الأمر الصريح،
يقول سبحانه: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾^{(٣) (٤)}.

(١) انظر التحرير والتنوير (١٣١/١٨) والمحزر الوجيز (٣٣١/١١)، وروح المعاني
(٢٢٧/٨).

(٢) تفسير أبي السعود (١٩٨/٦، ١٩٩).

(٣) الأنفال: (٢٥).

(٤) قال في الكشف عند قوله سبحانه: (لا تصيبن): «لا يخلو أن يكون جواباً للأمر، أو نهياً
بعد أمر، أو صفة لفتنة» ثم وجه هذه الأمور الثلاثة فقال: «فإن كان جواباً فالمعنى: إن
أصابتمكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة، ولكنها تعمكم.. وإذا كان نهياً بعد أمر فكأنه
قيل: واحذروا ذنباً أو عقاباً، ثم قيل: لا تتعرضوا للظلم، فيصيب العقاب أو أثر الذنب
وباله من ظلم منكم خاصة، وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول، كأنه قيل: واتقوا
فتنة مقولاً فيها لا تصيبن..» الكشف (٢١١/٢) وانظر تفسير أبي السعود (١٦/٤)
والألوسي (١٩٣/٩).

فالله - تعالى - هنا يحذر من وقوع الفتنة باضطراب الآراء، واختلال السير، وحلول الخوف والحذر في نفوس الناس، ويقول لهم: إنه قد يلحقهم أذى من جراء فعل غيرهم إذا هم لم يقوموا عوج قومهم كيلا يحسبوا أن امثالهم كافٍ إذا عصى دهماؤهم^(١)، فحذرهم من فتنة تلحقهم، فتعم الظالم وغيره، فإن المسلمين إذا لم يكونوا كلمة واحدة في الاستجابة لله - تعالى - ولرسوله - ﷺ - ربما حصلت بينهم الاختلافات، واضطربت أحوالهم، واختل نظام اجتماعهم باختلاف آرائهم.

«ولهذا كان لابد على عقلاء الأقوام وأصحاب الأحلام منهم إذا رأوا دبيب الفساد في عامتهم أن يبادروا للسعي إلى بيان ماحل بالناس من الضلال في نفوسهم، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه، وأن يمنعوهم منه بما أوتوه من الموعظة والسلطان، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك، وتوانوا فيه لم يلبث الفساد أن يسري في النفوس، وينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره حتى يعم أو يكاد، فيعسر اقتلاعه من النفوس، وذلك الاختلال يفسد على الصالحين صلاحهم، وينكد عيشهم على الرغم من صلاحهم واستقامتهم، فظهر أن الفتنة إذا حلت بقوم لا تصيب الظالم خاصة، بل تعمه والصالح، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكل؛ لأن أضرار حلولها تصيب جميعهم»^(٢).

وما حديث السفينة عنا بخافٍ، وفيه والله موعظة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فقد ثبت في الحديث الصحيح عن نبينا - ﷺ - أنه

(١) أي الجماعة والكثرة منهم، انظر لسان العرب (٢١٢/١٢) مادة (دَهَمَ).

(٢) التحرير والتنوير (٣١٧/٩).

قال : «مَثَلُ الْقَائِمِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا ، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا ، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقُوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ ، فَقَالُوا : لَوْ أَنَا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا ، وَلَمْ نَأْذِ مَنْ فَوْقَنَا ، فَإِن تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِن أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»^(١) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشركة ، باب هل يقرع في القسمة والإسهام فيه ، (١٣٢/٥) برقم (٢٤٩٣) من حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه - .

المبحث الثاني النهي

وكما جاء التحذير من الفتنة بأسلوب الأمر فقد جاء أيضاً بأسلوب النهي ، وذلك في قوله سبحانه : ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما﴾^(١) ، ففي أسلوب النهي هذا تحذير رباني صريح لبني آدم عامة أن يخدعهم الشيطان فيما يتخذونه لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد ، فيسلمهم إلى الفتنة كما فعل مع أبويهم من قبل ، إذ أخرجهما من الجنة ، ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، فالعُري والتكشف الذي يزاولونه ، والذي هو طابع كل جاهلية قديماً وحديثاً هو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية ، وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة في إغواء بني آدم وبنيه ، وهو طرف من المعركة التي لا تهدأ بين الإنسان وعدوه الشيطان ، فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم ، وأن ينتصر في هذه المعركة ، فيكون في الغد سبباً في دخولهم جهنم ، وبئس المصير!

نعم . . . إن عليكم بني آدم أن لا تمكنوا الشيطان من أن يفتنكم بإغرائه ووسوسته ، فإن عصيتم واستسلمتم له قادكم إلى أبواب عظيمة من الشر ، فساءت خواتيمكم ، وانتكست أحوالكم .

وقد شبه الفتون الصادر من الشيطان للناس بفتنة آدم وزوجه إذ أقدمهما على الأكل من الشجرة المنهي عنه ، فأخرجهما من نعيم كانا فيه تذكيراً للبشر

(١) الأعراف: (٢٧).

بأعظم فتنةٍ فتنَ الشيطانُ بها نوعَهم ، وشملت كل أحد من هذا النوع ، إذ حُرِمَ من النعيم الذي كان يتحقق له لو بقي أبواه في الجنة ، وتناسلا فيها . وفي ذلك أيضاً تذكير واضح بأن عداوة البشر للشيطان موروثة ، فيكون أبعث لهم على الحذر من كيده^(١) .

(١) التحرير والتنوير (٧٦/٩ ، ٧٧) ، وانظر تفسير أبي السعود (٢٢٢/٣) والمحزر الوجيز (٤٠/٧) .

المبحث الثالث التهديد

لقد كان الضالون من كل أمة يؤذون أهل الحق والدعاة إليه، حرصاً على مألُفوا من الباطل، وتشجيعاً لما وجدوا عليه أنفسهم وآباءهم الأقربين على غير بصيرة ولا استشارة للعقل السليم، ولا يزال هذا شأنهم إلى يوم الدين.

وفي سورة البروج وبأسلوب التهديد يأتي التحذير الرباني لأولئك الظلمة والمتجبرين الذين تسلطوا على المؤمنين، وأذاقوهم سوء العذاب، وفتنهم في دينهم، يأتي التحذير لهم أنهم إن لم يتوبوا عن مثل هذا الظلم والطغيان، فسيحل بهم في الآخرة شر أكبر، وفتنة أشد وأعظم، مما مارسوه ظلماً وعدواناً مع المؤمنين^(١):

(١) يدخل في وصف المؤمنين هنا دخولاً أولاً - كما ذكر الآلوسي في تفسيره (٣/٩٠) قصة المؤمنين الذين شق لهم الأخدود العظيم لما آمنوا بالله - تعالى - فألقوا فيه، كما في قصة ذلك الملك الجبار مع الغلام المؤمن، كما ثبت في صحيح مسلم، في كتاب الزهد والرقائق باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٤/٢٢٩٩) برقم (٣٠٠٥) عن صُهب - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم - وكان له ساحر - فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت. فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب. ففقد إليه وسمع كلامه، فأعجبه. فكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه. فإذا أتى الساحر ضربه. فشكا ذلك للراهب. فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي. وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس. فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من الساحر =

= فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس. فرماها. فقتلها، ومضى الناس. فأثنى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني! أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى. وإنك ستبتلى. فإن ابتليت فلا تدلّ علي. وكان الغلام يرى الأكمة والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك كان قد عمي. فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ماههنا لك أجمع، إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله. فإن أنت أمنت بالله، دعوت الله فشفاك. فأمن بالله، فشفاه الله. فأثنى الملك فجلس إليه، كما كان يجلس فقال له الملك: مَنْ رَدَّ عليك بصرك؟ قال: ربي. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام. فجاء بالغلام، فقال له الملك: أي بني! قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمة والأبرص، وتفعّل وتفعّل، فقال: إني لا أشفي أحداً. إنما يشفي الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب، فجاء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدعا بالمشيار^(١)، فوضع المشيار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه. ثم جاء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المشيار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جاء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغت ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرُقُور^(٢) فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقذفوه فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، ففرقوا. وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني في جذع ثم خذ سهماً من =

(١) قال المعلق: المشيار مهموز في رواية الأكثرين، ويجوز تخفيف الهمزة بقلبها ياءً. وروي: المشيار بالنون، وهما لغتان صحيحتان.

(٢) قال في اللسان: القُرُقُور: السفينة العظيمة أو الطويلة، جمعها: قراقر، ومنه قول النابغة: قراقر النيط على التلال (لسان العرب مادة «قرر») (٩٠/٥).

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾^(١).

نعم . . . إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فِي أَيِّ زَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ، ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا سَيَلْقَوْنَ الْعَذَابَ الْإِلَهِيَّ بِنَارِ الْجَحِيمِ جَزَاءً وَفَاقًا لِمَا عَمَلُوهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ .
وإن من العجيب للعقل البشري أن يعبر عن جزائهم بنفس اللفظ الذي يدل على الحدث، إذ لفظ (فتنوا) يعني الإحراق، وهو مفهوم من عذاب جهنم، ولكن القرآن ينطق به ليكون مقابلاً للحريق في الأخدود، ولكن أين

= كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله، رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتي. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه فوق السهم في صدغه^(١) في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام. آمنا برب الغلام. فأني الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرنا. قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخذت وأضرم النيران. وقال: من لم يرجع عن دينه، فأحوه فيها، أو قيل له: اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق.

أقول: وبعضهم نفى أن يكون المراد من الآية أصحاب الأخدود كما في التحرير والتنوير (٢٤٥/٣٠)؛ وعلل لذلك بعدم مناسبه لقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾، والذي أراه، وتطمشن إليه نفسي - كما بيته في الأول - أن أصحاب الأخدود يدخلون في ذلك دخولاً أولاً ثم يدخل ضمناً كفار قريش؛ لأن سياق الآيات يتمشى مع هذا، حيث ذكر تعذيبهم للمؤمنين في الأول ثم ذكر سبب التعذيب، ثم أراد هنا أن يبين جزاء من يعذب المؤمنين، بأن لهم عذاباً بالإحراق الأخرى كما عذبوا المؤمنين بالحريق الدنيوي. والله أعلم.

(١) البروج: (١٠).

(١) قال في القاموس المحيط: الصَّدْعُ بالضم ما بين العين والأذن والشعر المتدلي على هذا الموضع. القاموس المحيط ص ١٠١٤ مادة «صَدَع».

حريق من حريق؟ في شدته أو في مدته! وحريق الدنيا نار يوقدها الخلق،
وحريق الآخرة نار يوقدها الخالق. . . وحريق الدنيا لحظات وتنتهي، وحريق
الآخرة أبداً لا يعلمها إلا الله! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين،
وانتصار لذلك المعنى الإنساني الكريم، ومع حريق الآخرة غضب الله - تعالى -
والارتكاس الهابط الذميم في دركات الجحيم، نسأل الله العافية والتسليم.

المبحث الرابع التبكيك والتقريع (*)

ففي سورة التوبة يقول ربنا الكريم حكاية عن المنافقين المتخلفين عن الجهاد: ﴿ومنها من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ (١).

جاء في سبب نزول هذه الآية أن رسول الله - ﷺ - لما أراد أن يخرج إلى غزوة تبوك، قال لرجل اسمه الجند بن قيس (٢): ماتقول في مجاهدة بني الأصفر (٣) قال: إني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن أفتنن، فائذن لي ولا تفتني، فنزلت الآية (٤).

(*) التبكيك والتقريع: التعنيف والتوبيخ وأصل البكت والقرع: الضرب بالسيف والعصى ونحوهما. انظر لسان العرب (١١/٢) مادة (بكت) و (٢٦٦/٨) مادة (قرع).
(١) التوبة: (٤٩).

(٢) هو الجند بن قيس بن صخر بن خنساء الأنصاري، أبو عبد الله. قيل إنه كان من المنافقين، لكنه بعدُ تاب وأتاب وحسنت توبته، وتوفي في آخر خلافة عثمان - رضي الله عنه - راجع الإصابة (٢٢٩/١).

(٣) بنو الأصفر هم الروم، قال الشاعر:
وبنو الأصفر الكرام ملوك الر وم لم يبق منهم مذكور

تفسير ابن عطية (١٩٨/٨).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٨٧/٦) والطبراني في معجمه الكبير (١٢٢/١٢) والواحي في أسباب النزول ص ٢٠٢. وإسناده ضعيف. انظر الإصابة (٢٢٨/١) و «تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن» لسيد قطب تأليف علوي السقاف ص ١٧٥.

ومن هنا جاء تبكيت المنافقين وتقريعهم ، وفهم هذا من التعبير عن افتتاحهم بالسقوط في الفتنة ، وهذا تحذير شديد ووعيد قوي . فليعلم أولئك المنافقون ومن نحا نحوهم أنهم سقطوا وترددوا في الفتنة بأوسع معناها^(١) ، لا في شيء آخر من شبهاتها أو متشابهاتها حيث يزعمون اتقاء التعرض لشبهة نوع من أنواعها ، وهو الإثم بالنظر إلى جمال نساء بني الأصفر ، واشتغال القلب بجمالهن ، فتردوا في شر مما اعتذروا به بدليل : ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ . . . وهذا زيادة تحذير ووعيد لهم على الفتنة التي تردوا فيها ، وُضع فيه المظهر (الكافرين) موضع ضميرهم للنص على أن عقابهم بإحاطة جهنم بهم عقاب على الكفر الذي حملهم على ذلك الاعتذار بالتخلف عن الجهاد ، الذي هو ذنب في نفسه ، كأن أقصى عقابه مسُّ النار دون إحاطتها^(٢) .

وفي سورة الذاريات يأتي التقريع والتبكيت لأولئك المكذبين والجاحدين من الكافرين :

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُتِمَ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾^(٣) .

- (١) قال ابن عاشور في قوله سبحانه : ﴿ ألا في الفتنة ﴾ : « التعريف في الفتنة ليس تعريف العهد ، إذ لا معهود هنا ولكنه تعريف الجنس المؤذن بكمال المعرف في جنسه ، أي في الفتنة العظيمة سقطوا ، فأى وجه في المراد حين قال قائلهم (ولا تفتني) كان ماوقع فيه أشد مما اعتذر به ، فإن أراد فتنة الدين فهو واقع في أعظم الفتنة بالشرك والنفاق ، وأن أراد فتنة سوء السمعة بالتخلف فقد وقع في أعظم بافتضاج أمر نفاقهم ، وإن أراد فتنة النكد بفراق الأهل والمال فقد وقع في أعظم نكد ؛ بكونه ملعوناً مبغوضاً للناس » . ا . هـ التحرير والتنوير (١٠/ ٢٢١) ، وانظر « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ص ٦٤ .
- (٢) تفسير المنار (١٠/ ٤٧٧) ، وانظر البحر المحيط (٥/ ٤٣٢) ومحاسن التأويل للقاسمي (٨/ ٣١٧١) .

(٣) الذاريات (١٠ - ١٤) .

نعم . . قاتل الله الذين كذبوا بآيات الله، وجحدوها، وخاضوا بالباطل ليدحضوا به الحق . والذين هم في لجة من الكفر والجهل والضلال . المغمورون بالأضاليل والأوهام، الذين لا يفيقون، ولا يستيقظون!!

لقد كان أولئك الكافرون المعاندون لا يتبنون الأمر الواضح الذي يراه ويوقن به كل واع غير مذهبول، فهم يسألون: أيان يوم الدين؟ يسألون هكذا لا طلباً للمعرفة، ولكن استنكاراً وتكذيباً واستبعاداً لمجيئه .

فهؤلاء المكذبون المعاندون لا تسأل عن حالهم، وسوء مآلهم: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾! .

نعم . . يفتنون ويعذبون بسبب ما انطوا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال لهم على سبيل التبكيت والتقريع: ﴿ذوقوا فنتنكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ .

ذوقوا فنتنكم بالعذاب والنار جزاء إغراضكم وصدودكم عن الحق، وإن هذا العذاب الذي وصلتم إليه، هذا الذي كنتم به تستعجلون، فالآن تمتعوا بأنواع العقاب، والنكال والسلاسل والأغلال والسخط والوبال^(١) .

وإن هذا الجواب هو اللائق بذلك التساؤل المستهتر، وهو المقابل للذهول والسهوة التي يعيش فيها الخراصون، وكفى بذلك تبكيتاً وتقريعاً! .

(١) انظر تفسير السعدي (١٦٣/٧) وابن كثير (٢٣٢/٤ - ٢٣٣) وأبي السعود (١٣٧/٨) .

المبحث الخامس النفي

ومن الأساليب التي جاء فيها التحذير من الفتنة أسلوب النفي، كما في سورة الصافات، حكاية عن المشركين الضالين: ﴿فإنكم وماتعبدون* ما أنتم عليه بفاتنين* إلا من هو صال الجحيم﴾^(١).

فأنتم أيها المشركون الضالون، وماتعبدون من الجن^(٢)، لا تفتنون ولا تضلون من الناس إلا من كتب الله - تعالى - عليه أنه من أهل الجحيم - عياداً بالله تعالى منها - فهو لا محالة يككب فيها، قال ليبد بن ربيعة^(٣)، فأحسن: **أحمد الله فلان دله** **بيديه الخير ماشاء فعيل**
من هداه سبل الخير اهتدى **ناعم البال ومن شاء أضل**^(٤)

(١) الصافات: (١٦١ - ١٦٣).

(٢) الواو في (وماتعبدون) هي واو المعية، ومابعد ما مفعول معه، ووجه ذكره أنهم أي المشركين كانوا يموهون للناس أن الجن تنفع وتضر، وأن الأصنام كذلك كانوا يخوفون الناس من بأسها وانتقامها كما قالت امرأة الطفيل بن عمرو الدوسي لما أسلم ودعاها إلى الإسلام «ألا تخشى على الصبية من ذي الشرى؟ قال: لا فأسلمت وكانوا يزعمون أن من يسب الأصنام يضيئه البرص أو الجذام» التحرير والتنوير (١٨٩/٢٣).

(٣) هو ليبد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية من أهل عالية نجد، أدرك الإسلام، ووفد على النبي - ﷺ - وهو من المؤلفات قلبهم، وقد ترك الشعر بعد إسلامه، وسكن الكوفة، وعاش عمراً طويلاً، وكان كريماً، توفي سنة ٤١ هـ انظر في ترجمته «خزانة الأدب» (١٧٦/١) والأعلام (٢٤٠/٥).

(٤) «ديوان ليبد بن ربيعة» شرح الطوسي ص ١٢١.

نعم . . إنهم لن يستطيعوا أن يفتنوا إلا مَنْ كتب الله - تعالى - عليه أنه من أهل الجحيم، حيث يصلونها معه على السواء، جزاءً لمخالفتهم أمر الله، ونبذهم شريعته ودينه!

أما المؤمن التقي المحسوب من الطائعين المخلصين فما أنتم بقادرين على فتنته مهما استعملتم من وسائل الإغراء والكيد.

وهذا فيه تأسيس المشركين من إدخال الفتنة على المؤمنين في إيمانهم بما يحاولونه منهم من الرجوع إلى الشرك والفسق، وفيه التحذير لهؤلاء المشركين الساعين بالفتنة أن يبقوا في فتنتهم وضلالهم وصدهم عن دين الله - عز وجل - وهي أيضاً دعوة لهم أن يراجعوا حساباتهم مع ربهم وخالفهم بالتوبة والندم على كفرهم وضلالهم.

أمّا إن استمروا في الفتنة والسعي بها في الناس لصدهم عن الإسلام بطرقهم الماكرة، وأساليبهم الخبيثة كما يفعله الكافرون وأذنابهم في هذا الزمان فإنهم سيتحملون عاقبة ذلك، وسينالهم الخزي والبوار والهلاك في الدنيا والآخرة، وصدق الله: ﴿وليحملن أثقالهن وأثقالاً مع أثقالهن وليسئلن يوم القيامة عما كنوا يفترون﴾^(١).

وفي الحديث الصحيح: « . . ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »^(٢).

(١) العنكبوت: (١٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمر (٧٠٥/٢) برقم (١٠١٧) من حديث المنذر بن جريز، عن أبيه.

المبحث السادس الاستفهام (*)

ومن الأساليب التي جاء فيها التحذير من الفتنة أسلوب الاستفهام، ففي سورة التوبة يوبخ الله - عز وجل - أولئك المنافقين الذين يخبرون ويبتلون بالبلاء الشديد في كل عام مرة أو مرتين بما يكون زاجراً لهم فما ينزجرون، ولا يتعظون، فيقول سبحانه: ﴿أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ (١).

إن هذا الاستفهام الموجة للمنافقين الموجودين في زمن النبي - ﷺ - وهو يصدق على كل منافق في كل مكان وزمان، هذا الخطاب توبيخ لهم بالإعراض عن الاعتبار بما يحدث في حقهم من الأمور الموجبة للتذكر والاعتبار.

(*) الاستفهام في أصل اللغة طلب الفهم لشيء مجهول لدى المستفهم. انظر لسان العرب (٤٥٩/١٢) مادة (فهم) وهذا كائن في كلام البشر بعضهم لبعض، أما صيغة الاستفهام الصادرة من الله - عز وجل - فلا يجري عليها هذا المعنى للاستفهام مطلقاً، بل يكون الغرض من الإتيان به في كتابه سبحانه أغراضاً عدة، منها التقرير كقوله تعالى: (أأنت بربكم) الأعراف: (١٧٢) ومنها التوبيخ كالمثاليين المذكورين في هذا المبحث، وهما: (أولا) يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين التوبة (١٢٦) وقوله تعالى: (بأيكم المفتون) القلم: (٦). ومنها النهي كقوله سبحانه: (أتخشونهم فالله أحق أن تحشوه) التوبة: (١٣) ومنها التخويف كقوله: ﴿ألم تملك الأولين﴾ [الرسلات: ١٦] والتهويل كقوله: ﴿القارعة ما القارعة﴾ القارعة: (١ - ٢) والتنبيه على ضلال المخاطب مثل: ﴿فأين تذهبون﴾ التكوثر: (٢٦) انظر «البلاغة فنونها وأفنانها» للأستاذ فضل حسن عباس (١/ ١٩٠ - ٢٠١).

(١) التوبة: (١٢٦).

ولا أستطيع هنا أن أحدد بالضبط الأمر الذي يمتحن به المنافقون، لأنه لم يثبت عندنا من المنقول الصحيح ما يثبت أنه ابتلاء بشيء معين محدد، إذ جاز أن يكون المراد به ابتلاءهم بالقحط أو المرض أو ترك الجهاد^(١)، وجاز أن يكون المراد به كشف أسرارهم وإفشاء عقائدهم^(٢). وعلى أية حال، فإن المقصود من إيراد الفتنة هنا التحذير لأولئك المنافقين من التماذي في نفاقهم وكفرهم، وكفى به إثماً وفتنة!

وفي سورة القلم يوجّه الله - تعالى - خطابه للمشرّكين المعاندين عن طريق الاستفهام التوبيخي أيضاً، فيقول: ﴿فستبصر ويبصرون﴾ **بأيكم المفتون** * إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين^(٣). إن هذا الخطاب الرباني بأسلوب الاستفهام التوبيخي: **﴿بأيكم المفتون﴾** تعريض بكفار قريش المعاندين - ومن سار على طريقهم بالكفر والطغيان والتكذيب - تعريض لهم بأنهم كالمجانين بسبب ضلالهم، وتدبيرهم السوء على دهماء قريش بتلك الأقوال السخيفة، والأفعال القبيحة الشبيهة بأقوال المجانين وأفعالهم؛ ذلك أنهم وضعوا رجلاً معروفاً بين العقلاء، مذكوراً برجاحة العقل والأمانة في الجاهلية، وصفوه بأنه مجنون، فكانوا كمن زعم أن النهار ليل، ومن وَصَفَ اليوم الشديد البرد بالحرارة.

(١) انظر تفسير الرازي (٢٣٨/١٦) وزاد المسير (٣٩٢/٣)، وأبي السعود (١١٣/٤).

(٢) انظر المحرر الوجيز (٣٠٤/٨) والبحر المحيط (٥٣٠/٥).

(٣) القلم: (٥ - ٧) والباء في قوله: (بأيكم المفتون) لها عدة احتمالات:

١ - مزيدة لتأكيد تعلق الفعل بمفعوله.

٢ - ظرفية أي في أي الفريقين يوجد منكم المجنون؟

٣ - أن تكون للملايسة في محل خبر مقدم على المفتون، والمفتون مبتدأ مؤخر. التحرير

والتنوير (٢٩/٦٦، ٦٧) وانظر تفسير القرطبي (١٨/١٥٠).

فالمفتون إذاً هو مَنْ وسم النبي - ﷺ - بأنه مجنون، المردود عليه بقوله - جل شأنه - : ﴿ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٌ ﴾^(١) إذ هم الضالون عن سبيل الله، المعرضون عن هدي رسول الله - ﷺ -^(٢). وفي هذا تحذير لهم من الفتنة بالصد عن دين الله القويم، وضراطه المستقيم، وهذا التحذير رأيناه والتمستناه من هذا الاستفهام التوبيخي الواضح : ﴿ بَأْيَكُمْ الْمَفْتُونُ ﴾؟ وهذا كما قال ربنا - تعالى - وتقدس - : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرَءُ ﴾^(٣) حيث إنه في يوم القيامة يتبين ويظهر أن رسول الله - ﷺ - أهدى الناس وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس وشر الناس للناس، وأنهم فتنوا عباد الله، وأضلّوهم عن سبيله، وهذا تحذير كبير، وتنبية خطير، يعيه وينتفع به كل عاقل لبيب، أما الغافلون المعرضون فقد قال الله - تعالى - فيهم : ﴿ صَمٌّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾^(٤).

(١) القلم : (٢).

(٢) انظر التحرير والتنوير (٢٩/٦٦، ٦٧) وتفسير ابن كثير (٤/٤٠٣).

(٣) القمر : (٢٦) وانظر تفسير أبي السعود (٩/١٢) والمراغي (٢٩/٢٩).

(٤) البقرة : (١٨).

المبحث السابع التعجب(*)

ففي سورة المائدة يقول الله - تعالى - حكاية عن بني إسرائيل :
﴿وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا
وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون﴾^(١).

فهنا يخبر الله - تعالى - متعجباً من حال بني إسرائيل ، المكذبين للرسول ،
المطاردين لهم بالاستهزاء والتقتيل : أو يظنون أنهم لا تحصل لهم فتنة بنزول
العذاب الشديد عليهم ؛ بسبب ما أتوا من الداهية الدهياء ، والخطئة الشنعاء ،
حتى إنهم آمنوا بأَس الله - تعالى - ومكره ، فتبادوا في فنون البغي والفساد ،
وعموا عن الدين بعدما هداهم الرسل - عليهم الصلاة والسلام - إلى معالنه
الظاهرة ، وبينوا لهم مناهجه الواضحة !

نعم . . . واعجباً من حال هؤلاء القوم الذين ساء اعتقادهم في جزاء
الآخرة ، الذين ظنوا استقامة العاجلة ، فأغمضوا أعينهم عن الآخرة ، وتطلبوا
السلامة من غير أسبابها ، فأضاعوا الفوز الأبدي ، وتعلقوا بالفوز العاجل ،
فأساءوا العمل ، فأصابهم العذابان ، العاجل بالفتنة ، والأجل .

(*) التعجب هو استكبار الأمر ، واستعظامه ، يقال : عَجِبَ يَعْجُبُ عَجْباً ، وأمر عجيب ، وذلك

إذا استكبر واستعظم . والاستعجاب : شدة التعجب ، قال أوس بن حجر :

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنة الحرب لم يترمم

انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢٤٤/٤) مادة (عَجِبَ) .

(١) المائدة : (٧٠ - ٧١) .

ورغم ذلك الإعراض والجحود والكفران فقد تاب الله - تعالى - عليهم ، فرجعوا عن ضلالهم ، لكنهم للأسف الشديد عادوا إلى كفرهم القديم ، وعملهم الذميم ، لأنهم مصرون على حسابان أن لا تكون فتنة ، فأصابتهم فتنة أخرى ، لم يتب الله - تعالى - عليهم بعدها^(١) .

(١) انظر التحرير والتنوير (٢٦٧/٦) . وقال ابن عاشور: «ويتعين أن ذلك - يعني العذابين - إشارة إلى حادثين عظيمين من حوادث عصور بني إسرائيل بعد موسى - عليه السلام - ، والأظهر أنها حادث الأمر البابلي ، إذ سَلَطَ الله - عليهم (يختصر) ملك آشور ، فدخل بيت المقدس مرات سنة ٦٠٦ وسنة ٥٩٨ - ، وسنة ٥٨٨ قبل المسيح . وأتى في ثالثها على مدينة أورشليم ، فأحرقها وأحرق المسجد ، وحمل جميع بني إسرائيل إلى بابل أسارى ، وأن توبة الله عليهم كان مظهرها حين غلب (كُورش) ملك فارس على الآشوريين ، واستولى على بابل سنة ٥٣٠ قبل المسيح ، فأذن لليهود أن يرجعوا إلى بلادهم ، ويعمروها ، فرجعوا ، وبنوا مسجدهم» ثم يقول إشارة إلى الحادث الآخر:

«وحادث الخراب الواقع في زمن (تيطس) القائد الروماني وهو ابن الأنباطور الروماني (وسبسيانوس) فإنه حاصر (أورشليم) حتى اضطر اليهود إلى أكل الجلود ، وأن يأكل بعضهم بعضاً من الجوع ، وقتل منهم ألف ألف رجل ، وسبى سبعة وتسعين ألفاً ، على ما في ذلك من مبالغة ، وذلك سنة ٦٩ للمسيح . ثم قفاه الأنباطور (أدريان) الروماني من سنة ١١٧هـ إلى سنة ١٣٨ للمسيح ، فهدم المدينة ، وجعلها أرضاً ، وخلط ترابها بالملح . فكان ذلك انقراض دولة اليهود ، ومدينتهم ، وتفرقهم في الأرض ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذين الحديشين بقول الله - تعالى - : ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً﴾ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً﴾ ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ إن أحستهم أحستهم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتيهوا﴾
الأسراء : (٤ - ٧) التحرير والتنوير (٢٧٧/٦ - ٢٧٨) وانظر البداية والنهاية (٣١/٢) ومابعداها .

المبحث الثامن الخبر

ومن الأساليب التي جاء فيها التحذير من الفتنة أسلوب الخبر، كما توضح ذلك آيتا البقرة: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(١)، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(٢).

فبعد أن حثَّ الله - تبارك وتعالى - على قتال الكفار الذين يبدأون بقتال المؤمنين، وكان عدم مقاتلتهم، وتركهم يعيشون في بلاد الإسلام والمسلمين فساداً وضللاً تمهيداً لحصول الفتنة، ونزول المحنة، بإفساد عقائد الناس، واستحلال أعراضهم وخيراتهم وممتلكاتهم، ثم إخراجهم وسلخهم من دينهم عن طريق الحرب الفكرية التي يشنونها على المسلمين، لما كان ذلك كذلك بين جل وعلا أن حصول هذه الفتنة أشد من القتل بالقوة العسكرية؛ كل ذلك لأن القيمة الحقيقية إنما هي للعقيدة، والقتال من أجلها، والموالات والمعاداة في سبيلها، فالجناية على العقيدة أشد من الجناية على النفس والمال والوطن.

نعم.. إن هذا الأسلوب الخبري في التحذير من الفتنة ليهز النفس البشرية، والوجدان البشري بقوة، ليقول للمسلمين جميعاً بكل وضوح: لا تجوز مسالة الجاني على العقيدة بمختلف المطاعن في أي وسيلة من وسائل الشر الظاهر^(٣)، أو الدس الخفي في وسائل التعليم^(٤)، وإن أبدى المسالة والمصادقة

(١) البقرة: (١٩١).

(٢) البقرة: (٢١٧).

(٣) تقدم في المبحث الثالث من الفصل الثالث في الباب الأول الحديث عن هذه الوسائل مفصلاً.

(٤) تقدم أيضاً التفصيل في هذا الموضوع في الموضع السابق نفسه.

في الأمور السياسية رعاية لمصالحه، إذ لا يجوز للقيادة المسلحة تركه يستجمر وينمو على حساب العقيدة أبداً.

ومن كانت غضبته لمصالحه أو كرامته الشخصية أشد من غضبته للدين فليس من الله في شيء، حيث لا يغضب إلا لنفسه، ويسالم الجاني إذا تملقه^(١) (٢).

نعم . . إنه لا بد للمسلم من التمعن في هذا التحذير الرباني بالأسلوب الخبري ليقف على كل المؤامرات، والمكائد، والأساليب الماكرة التي يدبرها أعداء الإسلام في كل مكان، ليدمروا القوة الحقيقية لدى المسلمين، والمتمثلة في توحيدهم واتصالهم بالله - عز وجل - ولكن: ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ (٣).

(١) التملُّق: التودُّد والتلطُّف، وأن يُعطَى باللسان ما ليس في القلب. انظر القاموس المحيط ص

١١٩٣ مادة مَلَقَ. وهذا الفعل يصنعه كثير من حكام الغرب الكافرين مع كثير من حكام

المسلمين في هذا الزمان، فالله المستعان!

(٢) انظر «صفوة الآثار والمفاهيم» للشيخ عبدالرحمن الدوسري - رحمه الله - (٣/٢٢٦ - ٢٢٧).

(٣) الأنفال: (٣٠).

المبحث التاسع الدعاء

في سورتين عظيمتين من القرآن، هما سورة يونس وسورة الممتحنة، يخبر ربنا الديان عن قوم موسى المؤمنين، الذين قال الله - تعالى - عنهم: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم﴾^(١)، وعن نبي الله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - والمؤمنين معه، أخبرنا سبحانه عن هؤلاء وأولئك أنهم توجهوا إلى الله العليم الخبير بالدعاء إليه، والتضرع إليه أن يقيهم الفتنة، فقال: ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين^(٢)، وقال جل شأنه: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم^(٣). نعم . . لقد توجه هؤلاء جميعاً إلى الله العزيز الحكيم أن يحفظهم من الفتنة والعذاب، وقيهم شرها، ويثبتهم إن وقعوا فيها:

(١) يونس: (٨٣).

(٢) يونس: (٨٤).

(٣) الممتحنة (٤ - ٥).

﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ .

﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ .

نعم إنهم يستغيثون بالله، ويتضرعون إليه أن يكفيهم شر الأشرار، وكيد
الفجار. يدعون ربهم الذي يقول: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ (١) أن لا يسلط
عدوهم عليهم، فيعذبهم، أو يفتنهم عن دينهم بوسائله المشبوهة، وإغراءاته
الخادعة المزرکشة، وإن في تعليم الله - جل وعلا - للمؤمنين التمثيل بهذا الدعاء
تحذيراً لهم من سلوك كل طريق تؤدي إلى الفتنة بالإعراض عن دينه وشرعه؛
ذلك أن هذه الفتنة إذا حصلت تغيرت الأحوال، وتبدلت الأوضاع، ولا مفر
منها إلا باللجوء إلى الله، فكان لابد من دعاء الله - تعالى - بخشوع وخضوع
أن يحفظ البلاد والعباد من حلول الفتن، ونزول النقم، ليتفرغ الناس لعبادة
الله، ومجدوا في المحافظة على ماتبقى من أعمارهم في طاعة الله، موقنين،
مصدقين أن من لجأ إلى الله نجا، ومن اعتصم به عزّ وانتصر، وكان من
السعداء، المفلحين في الدنيا والآخرة.

(١) غافر: (٦٠) ..

المبحث العاشر الشرط (*)

قرّر ربنا - عز وجل - في سورة المائدة هذا الأسلوب فقال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾^(١)، فبعد ما بين - جل وعلا - حال أولئك المنافقين ممن يظهر الإسلام، ويبطن الكفر، وحال أولئك اليهود الذين يأتون إلى رسول الله - ﷺ - فإن حكم لهم بما يوافق أهواءهم أخذوا به، وإلا ردوه^(٢)، بعدما بين ذلك أوضح سبحانه هنا بأن هؤلاء قد وقعوا في فتنة عظيمة، ومحنة كبيرة باتباعهم لأهوائهم، وصدهم عن دين ربهم وخالفهم. نعم. . من يريد الله فتنته وضلالته كائناً من كان فلن يستطيع أحد من الخلق أن يدفع عنه شيئاً؛

(*) المقصود بالأسلوب الشرطي: ماتوفرت فيه أداة من أدوات الشرط المعروفة عند النحاة، سواء كانت جازمة مثل إن ومن، أو غير جازمة مثل إذا ولولا.

(١) المائدة: (٤١).

(٢) لعل مما تصدق عليه هذه الآية القصة الثابتة في صحيح البخاري ومسلم أن اليهود جاءوا إلى رسول الله - ﷺ - فذكروا له أن رجلاً منهم وامراًة زنيا، فقال لهم رسول الله - ﷺ -: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم»؟ فقالوا: نفضحهم ومجلدون، قال عبدالله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة، فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صدق يا أحمد، فيها آية الرجم، فأمر بها رسول الله - ﷺ - فرجما. . الحديث.

أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب أحكام أهل الذمة وإحصائهم إذا زنوا ورُفِعُوا إلى الإمام، (١٦٦/١٢) برقم (٦٨٤١)، ومسلم في كتاب الحدود أيضاً، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، (١٣٢٦/٣) برقم (١٦٩٩).

ذلك لأن قلوبهم ممتلئة برجس الكفر، وخبث الضلالة، أراد الله أن لا يطهرها من ذلك؛ لأن أصحابها منهمكون فيها، مصرون عليها. ومما يدل على تحذير اليهود والمنافقين من التماادي والإصرار على الفتنة والضلالة ماتوعدهم الله - تعالى - بقوله: ﴿لهم في الدنيا خزي﴾ فخزي المنافقين في الدنيا فضيحتهم، وهتك أستارهم بظهور نفاقهم فيما بين المسلمين. وأما خزي اليهود فالذل والجزية والافتضاح بظهور كذبهم في كتبهم آيات التوراة!

وكذا ماتوعدهم الله - جل وعلا - به في قوله: ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ وكفى بجهنم عذاباً ونكالاً^(١)!

وفي سورة الحج يقول ربنا الرحمن:

﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾^(٢).

لقد جاء لفظ الفتنة هنا في أسلوب الشرط المكون من أداة الشرط (إن) وفعل الشرط (أصاب) والجواب وهو: (انقلب على وجهه).

وهذا فيه بيان لحال بعض ضعاف الإيمان والمنافقين ممن ليسوا في سكون وطمأنينة، بل في اضطراب وقلق، وصفت سبحانه حالهم بأنهم على طرف، مثل الذي يكون على طرف العسكر إن أحسن بغنيمة قرّ وسكن، وإن كانت هزيمة فرّ وهام على وجهه.

إن الآية الكريمة تقرر بوضوح أن من الناس من ليس له ثبات في أمر دينه، بل هو مَرَجَحٌ مضطرب مُدْبَذَب، يعبد الله - تعالى - على وجه التجربة انتظاراً للنعمة، فإن أصابه خير بقي مؤمناً، وإن أصابه شر من سقم أو ضياع

(١) انظر تفسير أبي السعود (٣/٣٨).

(٢) الحج: (١١).

مال، أَوْ فَقَدَ وَلَدٍ تَرَكَ دِينَهُ، وارتد كافرًا - عيادًا بالله - .
فهذا الإنسان أصابته الفتنة، ونزلت به المحنة، فما صبر ولا صابر؛ لأنه
كان خبيث الطوية، فاسد النية، فما كان من جراء ابتلائه إلا أن وقع في فتنة
شديدة، ومحنة عظيمة من النكوص والإدبار: ﴿وإن أصابته فتنة انقلب على
وجهه﴾ ثم كان من جراء ذلك أن خسر دنياه وآخرته ﴿خسر الدنيا والآخرة
ذلك هو الخسران المبين﴾ .

وزيادة على انقلابه ونكوصه راح يدعو مالا يضره، ومالا ينفعه من الأصنام
والأنداد، يستغيث بها، ويستنصرها، ويسترزقها، وهي لا تنفعه ولا تضره.
نعوذ بالله - تعالى - من الخذلان .

المبحث الحادي عشر الاستثناء (*)

ففي سورة الأنعام يقول ربنا الكبير المتعال عن المشركين المعاندين في الآخرة: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ (١). فقد أخبر الله - عز وجل - عما يخاطب به الكفار والمشركين في الآخرة، حين

(*) الاستثناء هو الإخراج بإلّا أو إحدى أخواتها بما كان داخلياً أو في حكم الداخل، من مذكور أو متروك.

فالإخراج بإلّا يعني: أن يخرج المستثنى وهو ما بعد إلّا من الدخول في حكم المستثنى منه وهو ما بعد إلّا بأداة الاستثناء، وهي إلّا أو إحدى أخواتها مثل خلا، عدا، حاشا. بما كان داخلياً: إشارة إلى المستثنى المتصل، وهو ما كان بعضاً من المستثنى منه، محكوماً عليه بنقيض ما قبله، مثل كل التلاميذ مجدّون إلا بكاراً.

أو في حكم الداخل: إشارة إلى المستثنى المنقطع، وهو بخلاف المتصل، إما لأنه فقد المخالفة في الحكم لما قبله نحو: ﴿لا يدوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ الدخان: (٥٦)، أو لأنه ليس بعضاً نحو: جاء بنوك إلا ابن خالد.

من مذكور أو متروك: إشارة إلى انقسام الاستثناء إلى تام ومفرغ، فالتام هو ما ذكر فيه المستثنى نحو قام الطلاب إلا علياً. والمفرغ ما لم يذكر فيه المستثنى، أو ما لا يتم فيه المعنى إلا بذكر ما بعد إلّا نحو الآيتين المذكورتين في هذا المبحث، ومثل ما قام إلا زيد.

انظر في تعريف الاستثناء وشرحه «عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك» لمحيي الدين عبد الحميد مع كتاب «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» لابن هشام الأنصاري (٢/ ٢٤٩ - ٢٥٠) و«معجم النحو» لعبد الغني القرص ٣٤١، ٣٤٢.

(١) الأنعام: (٢٣).

يحشرهم ومعبوداتهم من دون الله ، حيث يقول لهم : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنها تشفع لكم عند الله ، أو أنها تنصركم عند الحاجة .
فَهَا قَدْ خُلِيَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا ، فَأَيْنَ الْمَفْرَإِ إِلَى اللَّهِ ؟ !
وَلِمَنْ تُلْجَأُونَ إِلَّا إِلَى اللَّهِ ؟ !
وَمَنْ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ إِلَّا اللَّهُ ؟ !
وَمِنَ الضَّارِّ وَالنَّافِعِ إِلَّا اللَّهُ ؟ !
ها قد بان الحق ، واتضح السبيل :

﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم ﴾ .
ولقد تأمل هؤلاء المشركون في جوابهم على سؤال الباري - تبارك وتعالى - فلم يجدوا من ذلك إلا الكذب والتمويه حين قالوا : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فهم في الآخرة يحلفون كذباً ودجلاً وتموهاً : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ ^(١) .
إن قول المشركين ههنا : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ هذا هو الفتنة المشار إليها بقوله - جل شأنه - : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم ﴾ ^(٢) ، وقد رد سبحانه عليهم بقوله : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ ^(٣) .
وإن في محيى لفظ الفتنة هنا في أسلوب الاستثناء مزيد بيان وتحذير لأولئك المكذبين من المشركين ، تحذير لهم من التماذي في فتنتهم بالإشراك والتكذيب ، فإن وراءهم يوماً تكشف فيه سرائرهم ، وتفضح فيه مكائدهم ومؤامراتهم ،

(١) المجادلة : (١٨) .

(٢) هذا الفهم على قراءة الجمهور بالنصب على أنها خبر كان مقدم ، والمعنى : ما كان قولهم : والله ربنا ما كنا مشركين إلا فتنتهم . انظر «الحجة في القراءات السبع» لابن خالويه ص ١٣٧ ، و «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر» للبنا الدمياطي ص ٢٠٦ ، «والمغني في توجيه القراءات العشر» للأستاذ محمد سالم محيسن (٢/ ٣٧ ، ٣٨) .

(٣) الأنعام : (٢٣) .

ويندمون ندماً لا ينفعهم ، ولا يغني عنهم من الله شيئاً : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا
بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾^(١).

وفي سورة الأعراف يقول ربنا الغفار :

﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب
لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك
تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير
الغافرين ﴾^(٢).

لقد أخبر الله - عز وجل - عن نبيه موسى - عليه الصلاة والسلام - بعدما
حصل من قومه من الإغراض والصد والتكذيب والتطاول على الله - تعالى -
أخبر سبحانه عنه أنه قال : ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ وهذا منه - عليه الصلاة
والسلام - اعتذار عما صنعوا ببيان منشأ غلطهم ، فكأنه قال : ما الفتنة التي وقع
فيها السفهاء ، وقالوا بسببها ما قالوا وهو ﴿ أرنا الله جهرة ﴾^(٣).

هذا ما هو إلا فتنتك ومحتك وابتلاؤك الشديد ، حيث أسمعهم كلامك ،
فافتتنوا بذلك ، ولم يشبوا ، فطمعوا فيما فوق ذلك ، فوقعوا في الفتنة ، وفي ذلك
تحذير شديد من حصول فتنة عظيمة ، ورزية كبيرة ، تحل بكل مكذب لرسل
الله ، معاند لهم ، أولئك الفجار الذين أدى بهم إمهال الله - عز وجل - إلى
التمادي في العصيان والتكذيب ، حتى إذا آمنوا واطمئنوا أخذهم الله - تعالى -
أخذ عزيز مقتدر ، فلا تسأل بعد ذلك عن حالهم ومآلهم .

ولا شك أن محيى الفتنة هنا بأسلوب الاستثناء : ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾
أبلغ في التحذير ، وأقوى في التأكيد ، من لو قيل : هي فتنتك ، والله أعلم .

(١) الأنعام : (٢٤) .

(٢) الأعراف : (١٥٥) . وانظر تفسير أبي السعود (٢٧٧/٣) والطبري (٧٧/٦) .

(٣) النساء : (١٥٣) .

الباب الثالث
آثار الفتنة وسبل النجاة منها
ويشتمل على فصلين

الفصل الأول: آثار الفتنة

الفصل الثاني: سبل النجاة من الفتنة

الفصل الأول آثار الفتنة

وفيه ستة مباحث :

- المبحث الأول: تمييز الصادقين من الكاذبين
- المبحث الثاني: كشف أستار المنافقين وفضحهم
- المبحث الثالث: المغفرة والرحمة لمن فتن
فهاجر ثم جاهد وصبر
- المبحث الرابع: تمييز الصابرين والشاكرين
من القانطين والجاحدين
- المبحث الخامس: التنبيه لمحاولة أهل الكتاب
فتنة المسلمين عن دينهم
- المبحث السادس: الحذر من الشيطان وكيده

الفصل الأول آثار الفتنة

المبحث الأول تمييز الصادقين من الكاذبين

إنَّ من الأمور التي تقررت في شرع ربنا المطهر أن الصدق أساس الإيمان، وركنه الركين، وهو أساس قبول الطاعات والقربات عند الله - عزّ وجل - وعليه يترتب الثواب والأجر يوم القيامة، كما قال ربنا - عزّ وجل - : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار . ﴾^(١).

ولأن الصدق أساس الطاعات وجماعها فقد أصبح الصفة الفارقة بين المؤمنين والمنافقين، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « الصدق أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها، ويظهر ذلك من وجوه، منها :

١ - أن الصدق هو المُميز بين المؤمن والمنافق، وقد وصف الله - تعالى - المنافقين في القرآن بالكذب في عدة مواضع^(٢).

(١) المائدة : (١١٩).

(٢) مثل : ﴿ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ [التوبة : ١٠٧].

ومثل : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ [المنافقون : ١].

٢ - أن الصدق هو أصل البر، والكذب هو أصل الفجور كما ثبت هذا في الأحاديث الصحيحة^(١).

٣ - أن الصادق تنزل عليه الملائكة، والكاذب تنزل عليه الشياطين كما قال تعالى: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين﴾ تنزل على كل أفك أثيم* يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴿^(٢) (٣).

وكما أن الصدق أساس الإيمان، وركنه الركين، فإن الكذب - كما سبق - أساس السيئات ونظامها، ولهذا فإن الكذب، وأثره على الفرد والمجتمع والأمة ليس هيناً، وبخاصة في مجتمعاتنا اليوم التي كثر فيها الكذب والدجل والمداهنة، وقل الصدق فيها والصادقون، ولا يُعلم عصر ظهر فيه الكذب والنفاق بوسائله الماكرة المتطورة كما ظهر في عصرنا اليوم، حتى أصبح الكذب له مدارسه وأساليبه التي تعلم الناس كيف يكذبون، وكيف ينافقون ويدلسون، ولا يبالغ من يقول: إن وسائل الإعلام اليوم قد قامت في أغلب برامجها على الكذب، وقلب الحقائق، وتسمية الأمور بغير اسمها، بل لقد تجاوز الأمر حدّه حتى أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وظهر الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، وأصبح المسلم يسمع من يقول عن المؤمن الصادق الذي يتحرى الصدق إنه منافق يريد إثارة فتنة، في الوقت الذي يوصف فيه الكاذب المنافق بأنه السياسي الحكيم المحنك، إن مجتمعا كهذا حري بالسقوط، والدمار، ولا نجاة ولا فلاح إلا بالصدق، والأمة الصادقة مع ربها - سبحانه - ومع رسولها - ﷺ - لا تهزم أبداً.

ومن هنا يتبين لنا أنه في أيام الفتن خاصة يتميز الصادقون من الكاذبين.

(١) مثل حديث: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر...» أخرجه البخاري في كتاب الأدب (٥٠٧/١٠) برقم (٦٠٩٤).

ومسلم في كتاب البر (٢٠١٣/٤) برقم (٢٦٠٧).

(٢) الشعراء: (٢٢١ - ٢٢٢). (٣) مجموع الفتاوى (٧٥، ٧٤/٢٠).

نعم يتميز الذين صدقوا في دعوى الإيمان، ممن هم كاذبون في أقوالهم ودعاويهم. ويتميز المخلص من غير المخلص، والراسخ في الدين من المضطرب، والمتمكن من العابد، على حرف^(١).

نعم في زمن الفتن يتميز أهل الإيمان الحق من المنافقين الكاذبين، ويتميز ثبات الإيمان ورسوخه في قلب صاحبه من ارتفاع الإيمان وتزلزله. يظهر صادق الإيمان الذي إذا لحقه الفتون من أجل دخوله في الإسلام لم يعبأ بذلك، ولم يترك اتباع رسوله - ﷺ - وظهر أيضاً الكاذب في دعوى الإيمان، ذلك المنافق الذي ترك الإيمان لأدنى فتنة تصيبه، فاستبان من حال الأول رسوخ إيمانه، ورباطه عزمه، حيث كان الإيمان صادقاً وحقاً، وتبين من حال الثاني عدم رسوخ الإيمان وتزلزله^(٢)، وصدق الله:

﴿ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾^(٣).
وإن من الفتن التي يتميز فيها الصادقون من الكاذبين فتنة القتال والحرب، بين الحق والباطل، والإسلام والكفر.

نعم يتبين في هذه الفتنة من يثبتون في الحرب، ممن يولون الأدبار، وينهزمون كما قال الشاعر:

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا ما الليث كذب عن أقرانه هرما^(٤)
يتبين الصادقون الذين يطلبون الموت مظانه، من أولئك الجبناء الخواريين الذين توعدهم الله - تعالى - بقوله: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾^(٥).

(١) تفسير الكشاف (٤٣٩/٣).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (٢٠/٢٠٥). (٣) العنكبوت: (١ - ٣).

(٤) تفسير الطبري (٢١٦/١٣)، والبيت لم أقف على قائله. (٥) الأنفال: (١٦).

ومن الفتن التي يتميز فيها الصادقون من الكاذبين فتنة الأمة في دينها، وابتلاؤها في عقيدتها، يوم تقلب الحقائق، ويجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، هنا يظهر الصادقون الذين يراقبون الله - تعالى - في كل حركة من حركاتهم، وكل سكون من سكناهم، ويقولون كلمة الحق ولو كانت الدنيا كلها ضدهم، وينبذون الباطل ولو كانت الدنيا كلها معه.

وعلى النقيض من ذلك يظهر أيام الفتنة الكذابون الدجالون، الذين استهوتهم الشياطين، فأشغلتهم بالدنيا عن الدين، فكانوا في الآخرة من الخاسرين.

نعم يظهر في أيام الفتن الكذابون الدجالون، والذين تتوسع الفتنة، وتشتد إثر كذبهم ودجلهم، خاصة من يكذب، ويترتب على كذبه إيذاء للعباد وخاصة الصالحين منهم، وهذا مما كثر حدوثه على مرّ الأيام وتعاقب الدهور، وزاد حدوثه في هذا العصر الذي كثر فيه أولئك الدجالون والكذابون.

ووالله إن من المؤسف جداً أن نرى في غير المسلمين من يصدقون حين نزول المحن والفتن^(١)، وترى في المنتسبين للإسلام من يخون الأمانة، فيكذب عند نزول الفتنة بالمسلمين ابتغاء عرض من الدنيا قليل، ألا ساء ما يعملون! نعم إننا نجد في هذا العصر الذي نعيشه من يدعي التدين والاستقامة، ثم عندما تحل المحن، وتنزل الفتن، ويهاجم العلماء الربانيون لأشياء... إلا لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ففي هذا الظرف القاسي والوقت المخرج تجد من هؤلاء الحسدة المفتونين من يكذب، ثم يكذب، ولقد استمعت إلى جمع من هؤلاء المفتونين، سمعتهم يهاجمون عدداً من رجال الإسلام، من

(١) انظر مثلاً إلى الحوار الذي دار بين أبي سفيان - يوم كان مشركاً - وهرقل ملك الروم لما سأله عن الرسول - ﷺ - فما قال فيه كذبة واحدة، راجع صحيح البخاري كتاب بدء الوحي (٣١/١) برقم (٧).

حملوا في قلوبهم هموم هذا الدين ، لقد سمعت من يهاجم هؤلاء ، ويصفهم كذباً ودجلاً بأنهم من المفسدين .

فيا الله ! ما أعظم الفرية ، وما أشد البهتان !
أو مَنْ يصدق مع ربه وأمته ، وينصح لله ولرسوله ولأمرته يحارب العقيدة ،
ويثير الفتنة !

● إن الوزر الذي يتحملة أولئك الأفاكون الآثمون في هذا الوقت الحرج أعظم ، وذنبهم أشد وأفطع ، ولهذا جاء الوعيد ضد هؤلاء وأمثالهم في الحديث الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال : « رأيت الليلة رجلين أتياني ، قالا لي : الذي رأيته يُشق شذقه فكذاب ، يكذب الكذبة ، فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق ، فيصنع به ما رأيته إلى يوم القيامة »^(١) .

* ومن الفتن التي يتميز فيها الصادقون من الكاذبين الامتحان بالغنى والسعة في الرزق ، كما قرر ذلك ربنا - عز وجل - في قوله سبحانه : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴿^(٢) (٣) .
ففي الآيات الكريمة بيان بأن حصول الفتنة والاختبار يظهر ويكشف

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، الباب (٩٣) (٢٥١/٣) برقم (١٣٨٦) من حديث سمرة بن جندب - رضي الله عنه - .

(٢) التوبة : (٧٥ - ٧٧) .

(٣) ماجاء في عدد من الروايات أن الآيات نازلة في ثعلبة بن حاطب ، هذه الروايات كلها ضعيفة جداً ، لأن طرقها كلها قد اجتمعت في علي بن يزيد الألهاني الدمشقي ، من الطبقة السادسة وهو ضعيف . راجع التهذيب (٢٤٩/٤) والتقريب ص ٤٠٦ وميزان الاعتدال (١٦١/٣) .

الصادق من الكاذب، والآيات هنا تحكي ما التزم به طائفة من المنافقين بأنهم إن أغناهم الله - عز وجل - فسوف يتصدقون، فلما فُتِنُوا بالغنى نكصوا على أعقابهم، وكذبوا فيما التزموا به، ونقضوا العهد الذي أبرموه مع الله - تعالى - فعاقبهم بحرامتهم من أعز ما يملكه الإنسان وهو التفكير السليم، والإدراك الصحيح، حيث ختم على قلوبهم بالنفاق إلى أن يموتوا، نعوذ بالله - تعالى - من الخذلان.

ويشبه هؤلاء الذين تحدث عنهم الآيات أولئك الذين يعطون من أنفسهم الوعود على القيام بأعمال الإصلاح إذا أصبحوا مسئولين عن شيء من أعمال المسلمين، فإذا استلموا زمام العمل خانتهم نفوسهم الضعيفة، وكذبوا في وعودهم، وغضوا النظر عن وجوه الفساد التي يرونها في محيط أعمالهم، وتجاهلوا عوامل التخريب التي يدبرها أصحابها تحت قيادتهم، ويستغلون أسماءهم للوصول إلى أهدافهم السيئة. وربما مالت بهم شهواتهم المنحرفة، فاستغلوا مناصبهم لمصالحهم الخاصة، ومصالح أقاربهم وأصدقائهم.

فهؤلاء الذين كذبوا في وعودهم، وأخلفوا مواعيدهم كانوا قبل تحملهم المسؤولية في سلامة من الإثم، ومنجاة من التبعة؛ لأنهم غير مسئولين عن أخطاء غيرهم، وإنما واجبههم إسداء النصيحة لهم، أما بعد أن حملوا المسؤولية فإنهم قد أدخلوا أنفسهم في فتنة لم يستطيعوا الخلاص منها، وامتحان كانت نتيجتهم فيه خاسرة، فباءوا بعد ذلك بعقوبة التقصير في أداء الواجب، وكفى بذلك ذنباً وإثماً^(١).

(١) المنافقون في القرآن، تأليف الأستاذ عبدالعزيز الحميدي ص ٤٢٦.

المبحث الثاني كشف أستار المنافقين وفضحهم

إن المتأمل في القرآن الكريم يجد هنالك ترابطاً قوياً بين الفتنة والنفاق، ولا غرابة في ذلك، فالمنافقون هم الحريصون كل الحرص على بث الفتنة ونشر المحنة في الصف المؤمن.

نعم إن كلمتي النفاق والفتنة متلازمتان تلازماً لا ينفك أبداً. ولقد نبأنا القرآن من أخبارهم بما يكفي لهتك أستارهم، وفضح أسرارهم؛ ذلك لأنهم قد خفوا على كثير من الناس، وكان منهم من يهش بهم، ويبش إليهم، فأجسامهم تدعو إلى الإعجاب، وأقلامهم تبرز الألباب، وقد طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين.

إن الله - عز وجل - يكشف أستار المنافقين بفتنهم، وامتحانهم حتى تعود الأمة إلى ربها، فتميز عدوها من وليها، وحتى لا تعود الشعارات البراقة، والدعاوى الجوفاء تصلح لتلميع الشخوص والأطروحات، وبكشف القرآن لهم علم هؤلاء المنافقون وأدركوا أن ألعابهم وأحابيلهم لا يمكن أن تنطلي على مؤمن متمسك بكتاب الله - تعالى - يقرأه قراءة المتدبر المتمعن، نعم لقد علم هؤلاء المنافقون بذلك، فأسقط في أيديهم، واستيقنوا أن الحق وأهله في ازدهار، وأن الباطل وحزبه في تراجع وانحسار.

إن الذي يقرأ الآيات التالية من سورة التوبة يظهر له بوضوح ما يكيده المنافقون للإسلام والمسلمين، ويتبين له أيضاً كشف الله - عز وجل - لأستار

هؤلاء، وفضحهم، يقول سبحانه: ﴿لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين﴾* لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون* ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾^(١).

ويمكن هنا أن أبين أستار المنافقين التي كشفها الله - عز وجل - في هذه الآيات من سورة التوبة وغيرها في الأمور التالية:

١ - أنه لو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون في القعود معكم أيها المؤمنون مازادوكم قوة ومنعة وإقداًماً، كما هو الشأن في القوى المتحدة في العقيدة والمصلحة، بل زادوكم اضطراباً في الرأي، وضعفاً في القتال، ومفسدة للنظام كما حدث ذلك في غزوة حنين^(٢) في السنة الثامنة من الهجرة، حيث ولّى المنافقون الأدبار في أول المعركة، وولّى على إثرهم ضعفاء الإيثار، ومن ثم اضطرب نظام الجيش، فولّى أكثر المؤمنين معهم بلا تدبر ولا تفكير، كما هو الشأن في مثل هذه الأحوال التي يبرز فيها المنافقون^(٣).

٢ - أنهم لو خرجوا لأوضعوا وأسرعوا في الدخول فيما بين المؤمنين سعياً في النميمة، وتفريق الكلمة، يبغون بذلك تشييطهم عن القتال، وتهويل أمر العدو، وإيقاع الرعب في قلوبكم^(٤).

٣ - أن أولئك المنافقين كانوا من قبل مصرين على إيقاع الاضطراب في صفوف المسلمين، كما حصل من ابن سلول يوم أحد، حين اعتزل صفوف المؤمنين بثلاث الجيش، وقال ما قال^(٥)، وقد ذكر الله - عز وجل - في سورة

(١) التوبة: (٤٧ - ٤٩).

(٢) حنين: وإذ قريش من الطائف، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً. انظر معجم ما استعجم (٢/٤٧١).

(٣) انظر سيرة ابن هشام (٢/٤٤٥).

(٤) (٥) راجع إن شئت فصل «بث الفرقة والاختلاف» في الباب الأول من هذا البحث.

الأحزاب حرص هؤلاء المنافقين على نشر الفتنة بين المؤمنين عندما بين سبحانه أنهم عندما يطلب منهم نشر الفتنة في الصف المؤمن بالتفريق والتخذيـل فإنهم يسارعون إلى ذلك، يقول سبحانه: ﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً﴾^(١).

يقول صاحب التحرير والتنوير عند هذه الآية: «والمعنى: لو دخلت جيوش الأحزاب المدينة، وبقي جيش المسلمين خارجها. . وسأل الجيش الداخل الفريق المستأذنين أن يلقوا الفتنة في المسلمين بالتفريق والتخذيـل لخرجوا لذلك القصد مسرعين، ولم يثبطهم الخوف على بيوتهم أن يدخلها اللصوص، أو ينهبها الجيش، إما لأنهم آمنون من أن يلقوا سوءاً من الجيش الداخل لأنهم أولياء له ومعاونون، فهم منهم وإليهم، وإما لأن كراحتهم الإسلام تجعلهم لا يكثرثون نهب بيوتهم»^(٢).

وبين الله - عز وجل - في آيات أخرى من سورة الأحزاب أيضاً ما وقع للمنافقين في غزوة الأحزاب سنة خمس من الهجرة، تلك الغزوة التي أجمعت على المسلمين فيها قوى الكفر والطغيان من كل مكان، وابتلى المؤمنون، وزلزلوا زلزالاً شديداً، في هذه الفتنة، وفي هذه المحنة بأن الحق، واتضح السبيل، وظهرت علامات المنافقين، وكشفت أستارهم، ومزقت أقنعتهم المغطاة بالحق والكيد للإسلام والمسلمين، جاءت الفتنة، فإذا بها تكشف أسرار المنافقين الذين أخذوا يقولون بكل سذاجة وسوء أدب: ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ ثم ماذا؟ أخذوا يخذلون أصحاب محمد - ﷺ - فيقولون: ﴿يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا﴾

(١) الأحزاب: (١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٢٨٨).

يقولون: لقد قربت هزيمتكم، فلا تستمروا في المقاومة، فانكصوا على أعقابكم^(١).

ولا غرابة في هذا التحذيل، فلقد استأذنوا هم أنفسهم بالرجوع إلى أهليهم وأموالهم المقتونين بها؛ لأنه ليس عندهم إيمان يردعهم، أو خوف من الله يؤنبهم، استأذنوا مدعين كذباً وزوراً أن بيوتهم عورة، ليس دونها ما يحميها من العدو، وأنهم يخشون عليها، ولعمر الله لقد كذبوا في ذلك، فما أرادوا بذلك إلا الفرار والهروب من الزحف:

﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾* وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستئذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً^(٢).

وهكذا يكون دأب المنافقين في كل زمان ومكان، فهم يدبرون الحيل والمكائد ليدمروا الصف المؤمن، وكان لأولئك المنافقين ضلّع مع اليهود، وضلع مع المشركين في كل مافعلا من عداوته - ﷺ - وقتال المؤمنين، حتى جاء النصر الذي وعد الله به رسوله - ﷺ - وعلا شرعه بالتنكيل باليهود الغادرين، والنصر على المشركين بفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجا.

٤ - فضح الله - تعالى - احتجاجهم عن التخلف عن القتال بأنهم يخشون الفتنة بينات بني الأصفر^(٣).

(١) انظر «زاد المسير» (٦/١٩٤).

(٢) الأحزاب: (١٢ - ١٣).

(٣) راجع مبحث «التفريع» من الفصل الماضي: أساليب القرآن في التحذير من الفتنة.

لقد كشف الله - عز وجل - مكرهم وخبثهم ههنا حين رد عليهم شبهتهم بقوله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ فليعلموا أنهم بمقاتلتهم هذه سقطوا وتردوا في هاوية الفتنة حين اعتذروا بالمعاذير الكاذبة من حيث يزعمون انقواء التعرض للإثم بالنظر إلى جمال نساء الروم، وشغل القلب بمحاسنهن، ولهذا توعدهم الله - عز وجل - بقوله: ﴿وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فهذا بيان واضح بأن النار محيططة بمن كفر بالله، وجحد آياته، وكذب رسله، وأنها جامعة لهم يوم القيامة، وكفى بها نكالاً ووبالاً.

نعم إن هذا وعيد لهم على الفتنة التي تردوا فيها، وبيان بأن عقابهم بإحاطة جهنم بهم عقاب على الكفر الذي حملهم على ذلك الاعتذار، والنار إنما تحيط بمن أحاطت بهم خطاياهم حتى لا رجاء في توبتهم منها كما قال - جل وعلا -: ﴿بَلَىٰ مِنْ كَسْبٍ سَيِّئَةٍ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَةٌ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في مجموع الفتاوى تعليقاً على قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾: يقول: «إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء، فلا يفتن بهن، فيحتاج إلى الاحتراز من المحذور، ومجاهدة نفسه عنه، فيتعذب بذلك أو يواقعه فيأثم، فإن مَنْ رأى الصور الجميلة وأحبها فإن لم يتمكن منها إما لتحريم الشارع، وإما للعجز عنها يعذب قلبه، وإن قدر عليها وفعل المحذور هلك. وفي الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء، فهذا وجه قوله: (ولا تفتني) قال الله - تعالى -: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ يقول: نفس إعراضه عن الجهاد والواجب، ونكوله له، وضعف إيمانه، ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهاد: فتنة عظيمة قد سقط فيها، فكيف يطلب

(١) البقرة: (٨١).

التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته؟
والله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (١) فَمَنْ
ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة: فهو في الفتنة ساقط بما وقع
فيه من ريب قلبه، ومرض فؤاده، وتركه ما أمر الله به من الجهاد» (٢).
وهكذا تكشف لنا الآيات الكريمة أستار المنافقين، وتفضح ألاعيبهم
ومكرهم، وتزيح أعدارهم، وتسلي رسول الله - ﷺ - والمؤمنين معه.
وفي سورة التوبة أيضاً يكشف الله - عز وجل - لنا وللناس جميعاً سترًا آخر
من أستار المنافقين الخفية، يقول سبحانه: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ* أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ
فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (٣).
ففي هاتين الآيتين بين الله - عز وجل - حال المنافقين فيما يعرض له من
ضروب الابتلاء والفتنة التي تظهر استعداد النفوس للإيمان والكفر،
والفرقة بين الحق والباطل، وينظرون إلى الآيات الدالة على صدق النبي
- ﷺ - في كل ما أخبر به من نصر الله - عز وجل - لمن اتبعه، وخذلان
أعدائه، ووقوع ما أئذروهم به، ومن إنباء الله - تعالى - لهم بما في قلوبهم،
وفضيحتهم بما يكتُمون من أعمالهم، ومع ذلك تمرّ على هؤلاء المنافقين
الأعوام تلو الأعوام، ولا يتوبون من نفاقهم، ولا يتعظون بما يحل بهم من
العذاب، فالله - جل وعلا - هنا يكشف أستار المنافقين بأنهم يفتنون
ويتبلون أشد الابتلاء، ولكنهم مع هذا لا يتوبون، ولا يتعظون بما يحل
بهم من العذاب.

(١) الأنفال: (٣٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦٦/٢٨، ١٦٧).

(٣) تفسير المراغي (٥١/١١) وانظر تفسير المنار (٨٤/١١).

أفبعد هذا برهان على قلة الاستعداد للإيمان ، وانطفاء نور الفطرة؟ والله در القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم^(١) وهاهو موقف آخر من مواقف المنافقين يصوره لنا القرآن ، كاشفاً لنا سترًا آخر من أستارهم ، يقول سبحانه : ﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرًا﴾^(٢) .

إن القرآن هنا يقف ليرسم لنا صورة نفسية لأولئك المنافقين في غزوة الأحزاب ، والذين في قلوبهم مرض ، نعم يرسم لنا صورة نفسية داخلية لوهن العقيدة ، وخور القلب ، والاستعداد للانسلاخ من الصف بمجرد مصادفة ، غير مبقين على شيء ، ولا متجملين لشيء .

ذلك كان شأنهم ، والأعداء بعدُ خارج المدينة ، ولم تقتحم عليهم بعد . ومهما يكن الكرب والفرع ، فالخطر المتوقع غير الخطر الواقع ، ولو وقع واقتحمت عليهم المدينة (ثم سئلوا الفتنة) وطلبت إليهم الردة عن دينهم^(٣) لآتوها سراعاً غير متلبثين ، ولا مترددين إلا قليلاً من الوقت ، أو قليلاً منهم يتلبثون شيئاً ما قبل أن يستجيبوا ويستسلموا ، ويرتدوا كفاراً ،

(١) تفسير المراغي (٥١/١١) وانظر تفسير المنار (٨٤/١١) .

(٢) الأحزاب : (١٤) .

(٣) أي طلب منهم الكفر بالله - تعالى - ، انظر في تفسير الفتنة بالكفر تفسير الطبري (٢٧١/١٠) وابن كثير (٤٧٣/٣) ، والقرطبي (٩٨/١٣) والكشاف (٥٢٨/٣) .

وقد سبق أن ذكرت في هذا المبحث أن الآية الكريمة جاءت لكشف أستار المنافقين ببيان حرصهم على التخذيل ونشر الفتنة بين المؤمنين ، ولا تعارض بين هذا وذاك ، إذ يترتب على قبول الكفر والردة عن الإسلام الحرص على محاربة الإسلام والمسلمين بالتخذيل ونشر الفرقة ، وتدمير الصف بما يبثونه من أراجيف باطلة ، وحيل مأكرة ، والله أعلم .

حيث إنهم يتعللون بإعوار بيوتهم، ويتمحلون ليفروا عن نصره رسول الله ﷺ - والمؤمنين، وعن مصافحة الأحزاب الذين أوقعوا فيهم رعباً وهولاً الأحزاب كما هم لو كسبوا وأغاروا عليهم فجأة، واقتحموا أرضهم وديارهم، وعرض عليهم الكفر، وقيل لهم كونوا على المسلمين لسارعوا إليه، وتعللوا بشيء، وما ذاك إلا لمتهم الإسلام، وشدة بغضهم لأهله، وحبهم الكفر، وتهالكهم على حربه^(١).

نعم إنها عقيدة واهنة لا تثبت، وهو جبن غامر لا يملكون معه مقاومة. وهكذا يكشفهم القرآن، ويقف نفوسهم عارية من كل ستار، ويصمهم بعد هذا بنقض العهد، وخلف الوعد، وَمَعَ مَنْ؟ مع الله - تعالى - الذي عاهدوه من قبل على غير هذا، ثم لم يرعوا مع الله وعداً ولا وعهداً:

﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مستولاً﴾^(٢).

(١) الكشف (٥٢٨/٣).

(٢) الأحزاب: (١٥).

المبحث الثالث

المغفرة والرحمة لمن فتن فهاجر ثم جاهد وصبر

لقد رتب الله - عز وجل - المغفرة والرحمة لكل من فتن في دينه ، وابتلي بالبلاء الشديد ، ثم هاجر ، وجاهد ، وصبر .

نعم رتب الله - جل وعلا - المغفرة لمن فتنه الكفرة والطغاة في دينه بالعذاب ، وهاجر في الله ، والله ، يبتغي مرضاة الله - عز وجل - والدار الآخرة ، صابراً على تكاليف الدعوة ، موقناً بنصر الله ، هؤلاء كلهم يبشرون بمغفرة الله ورحمته ، ذلك يوم تشغل كل نفس بأمورها ، ولا تلتفت إلى سواها ، وتوفى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون .

هؤلاء يبشرون بالمغفرة والرحمة ، لأنهم هاجروا في سبيل الله ، وخلّوا أوطانهم ومسقط رأسهم ، وقصدوا أرضاً يتمكنون فيها من شرائع دينهم ، والدعوة إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مستظلين بحكم حاكم مسلم ، لا يقف عقبة في سبيل الدعاة إلى الله - تعالى - .

نعم يُبشر هؤلاء بالمغفرة والرحمة ، لأنهم فتنوا في دينهم ليرجعوا إلى الكفر ، فثبتوا على الإيمان .

وبشرون بالمغفرة والرحمة لأنهم جاهدوا أعداء الله ليدخلوهم في دين الله ، جاهدوهم بألستهم وأيديهم ، وصبروا على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس .

نعم إن هذه أكبر الأسباب التي نال بها هؤلاء المؤمنون أعظم العطايا ،

وأفضل المواهب، إنها مغفرة الذنوب صغيرها وكبيرها، والمتضمن زوال كل مكروه، ثم رحمته - عز وجل - العظيمة التي بها صلحت أحوالهم، واستقامت أمور دينهم ودنياهم^(١)، وصدق الله:

﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾^(٢).

وإن هذه المغفرة والرحمة التي صرحت بها الآية الكريمة قد قررتها آيات أخر، ففي سورة البقرة يذكر سبحانه رحمته التي يرجوها من يؤذون ويفتنون في سبيله، فيهاجرون من أجله مجاهدين صابرين، يقول ربنا - عز وجل -:

﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾^(٣).

إن الله - عز وجل - هنا يقرر أن المؤمنين الذين ثبتوا على الإيمان، وهاجروا، وبذلوا جهدهم في إعلاء كلمة الله - تعالى - ومقاومة الكفار، ونصر المؤمنين هؤلاء هم الذين يرجون رحمة الله وإحسانه، وإن رجاءهم رحمة الله لا يخيبه الله أبداً، ولقد سمع أولئك النفر المخلص من المؤمنين المهاجرين^(٤) هذا الوعد الحق، فجاهدوا وصبروا حتى حقق الله - تعالى - لهم وعده بالنصر أو الشهادة، وكلاهما خير، وكلاهما رحمة، وفازوا بمغفرة الله ورحمته ﴿والله غفور رحيم﴾ وهذا هو طريق الإيمان.

وفي سورة آل عمران يرتب الله - عز وجل - حصول تكفير السيئات، ونيل

(١) تفسير السعدي (٤/٢٤٦).

(٢) النحل: (١١٠).

(٣) البقرة: (٢١٨).

(٤) سنائي بيان هجرة الصحابة - رضي الله عنهم - إلى الحبشة والمدينة إن شاء الله.

الثواب والجزاء لكل مَنْ فُتِنَ في دينه، فهاجر وجاهد، يقول سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ﴾^(١).

ففي هذه الآية الكريمة رتب الله - تعالى - حصول تكفير السيئات، والثواب والجزاء لكل مَنْ فُتِنَ في دينه، وأُودِيَ في سبيل عقيدته، لا في أي غاية سواها، ثم قاتل، وقُتل.

نعم إنها صورة أصحاب هذه العقيدة في صميمها، في كل أرض وفي كل زمان حين تتعرض للأذى والمطاردة، ثم تملك الصمود والمقاومة والدفاع عن نفسها، فيكون القتال، ويكون القتل.

إن هذا هو الطريق الذي يأتي بسببه الأجر، ويحصل الثواب! إنه طريق المنهج الرباني الذي قدّر الله - تعالى - أن يكون تحقّقه في واقع الحياة بالجهاد البشري، وعن طريق هذا الجهد، وبالقدر الذي يبذل له المؤمنون المجاهدون في سبيل الله، ابتغاء مرضاة الله.

وفي موضع آخر من سورة النحل يقرر سبحانه هذه الحقيقة بوضوح، فيقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآ أَجْرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

لقد أخبر الله - عزّ وجل - في هذه الآية الكريمة أن الذين فارقوا قومهم، ودورهم، وأوطانهم، وذهبوا إلى بلاد أخرى احتساباً لأجر الله - تعالى - ونيلاً لمرضاته من بعد ما نالهم من الكفار من أذى وفتنة في أنفسهم وأموالهم هؤلاء

(١) آل عمران: (١٩٥).

(٢) النحل: (٤١).

سوف يعوضهم الله - عز وجل - خيراً منها في الدنيا، ثم هناك في جنات النعيم، التي لا يفنى نعيمها، ولا يزول خيرها.

وفي سورة الحج يبين الله - جل وعلا - الأجر العظيم المترتب على الهجرة في سبيل الله بعد الإيذاء والفتنة، فيقول سبحانه: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله هو خير الرازقين* ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حلیم﴾ (١).

لقد كافأ الله - عز وجل - هذه الطائفة بهذا الأجر العظيم؛ لأن في الهجرة في سبيل الله بعد الفتنة تجرداً من كل ما تهفوله النفس، ومن كل ما تغتر به وتحرص عليه: الأهل والديار والوطن والذكريات والمال وسائر أعراض الحياة، وإثثار العقيدة على هذا كله ابتغاء رضوان الله، وتطلعاً إلى ما عنده، وهو خير مما في الأرض جميعاً.

نعم لقد نالوا هذا الأجر العظيم لأنهم خرجوا من ديارهم وأموالهم في سبيله، مستعدين لكل مصير، واستروحوا الشهادة في هجرتهم على أي طريق، وضحوا بكل عرض الحياة وتجردوا بهذا لله، فتكفل الله - تعالى - لهم بالعوض الكريم عما فقدوه.

فهذا ما ذكره الله - عز وجل - في القرآن من الأجر العظيم لكل من فُتن فهاجر ثم جاهد وصبر.

وإذا أردنا أن نستعرض نماذج وأمثلة لمن فُتن، فلم تهن عزيمته، ولم تضعف، بل جاهدوا، وصبروا، فما أكثر الأمثلة على ذلك؛ لأن خيرية هذا الدين وأهله باقية إلى أن يرث الله الأرض، ومن عليها.

هاهم أصحاب محمد - ﷺ - لما رآهم، ورأى ما يصيبهم من قبل كفر

(١) الحج: (٥٨).

قریش من الأذى حثهم على الهجرة إلى الحبشة^(١)، ليفروا بدينهم، ولينجوا بعقيدتهم من تسلط الكافرين، وخطرستهم، فيقول: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»^(٢).

ثم هاهم يخرجون - رضي الله عنهم - في الهجرة الثانية إلى المدينة النبوية زرافاتٍ ووحداناً، يخرج معهم في هذه المرة رسول الله - ﷺ - مع أبي بكر - رضي الله عنه - يخرجون فراراً بدينهم من أذى قریش وفتنتها بعد أن عاهد أهل المدينة على أن يمنعوه - ﷺ - مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم، واستمر - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه في المدينة حتى جاءت السنة الثامنة من الهجرة، فدخل رسول الله - ﷺ - مكة البلد الأمين فاتحاً منتصراً، واندحر الشرك، وهوت عناكب الظلم، وارتفعت رايات الإسلام.

• *** •

ولا يزال التاريخ يزودنا بنماذج من هجرة الأبرار من هذه الأمة، الذين فتنوا في دينهم، وحوربوا، فلم تن لهم عزيمة، ولم تسقط لهم راية. وإننا إذا تأملنا واقعنا اليوم وجدنا نماذج من ذلك، لا تعد، ولا تحصى. لقد حُورب كثير من دعاة الإسلام في بلادهم، وفتنوا في دينهم. لا شيء إلا لأنهم يريدون أن تكون شريعة الله - عز وجل - هي المهيمنة على كل شأن من شؤون الحياة، فلما لم يجدوا مكاناً في بلادهم، يبلغون فيه دعوة الله - عز وجل -

(١) في المعجم الوسيط: «الحبشة: الحبش وبلاد الحبشان [أثيوبيا] وهي في إفريقية الشرقية»
١. هـ «المعجم الوسيط» تأليف إبراهيم أنيس وزملائه (١٥٢/١) مادة (حَبَش).

(٢) أخرجه ابن هشام في السيرة (٣٢١/١، ٣٢٢)، وإسناد الحديث حسن، انظر «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» لمهدي رزق الله ص ١٩٧.

وجل - وخوفاً من الفتنة في دينهم ، تركوا أوطانهم وراء ظهورهم ، وضربوا في أنحاء الأرض حتى وجدوا - برحمة الله وفضله - مكاناً ملائماً ، وأرضاً خصبة ، بلغوا فيها دين الله - عز وجل - فأقاموا المساجد ، وأنشأوا المدارس ، وكتب الله - تعالى - على أيديهم خيراً كثيراً ، ونفعاً عظيماً ، مع الأجر العظيم ، والثواب الجزيل الذي ينتظرهم في الآخرة - إن شاء الله - إن استمروا في إخلاصهم وصدقهم مع ربهم - عز وجل - .

ولا يسعني هنا إلا أن أدعو هؤلاء الدعاة من المهاجرين في سبيل الله إلى أن يطمئنوا على ما لهم عند الله - تعالى - من تكفير السيئات ، وجزاء الحسنات ، والصبر على تكاليف الدعوة ، والجهاد ، فإنهم إن ثبتوا وأخلصوا وصدقوا مع ربهم وهم يواجهون الفتن والأخطار فإن المستقبل المشرق ، والجزاء الطيب ينتظرانهم في نهاية المطاف ، وإنه لحسب المؤمن ، حتى ولو فاته في الحياة الانتصاف .

وإنه إذا تقرر مما سبق حصول المغفرة والرحمة لمن فتن ، فقاوم وهاجر ، ثم جاهد وصبر ، فإن النقيض وهو العذاب والبوار يحصل لكل من فتن ، ثم استطاع الهجرة والجهاد فلم يفعل ، قال سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (١) .

ومن هنا كان وجوب الهجرة مستمراً على كل من لم يقدر على إظهار دينه في أي بلد يغلب عليها الكفر أو البدع المضلة ، إذ لا يجوز للمؤمن أن يقيم ببلاد

(١) النساء : (٩٧) .

يفتن فيها عن دينه، أو يفتن أولاده، بأن يؤذى إذا صرح باعتقاده، أو عمل بما يجب عليه من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولو كان ببلاد يحكمها من صنف المسلمين الضعفاء، أو الجهلة، أو المنحرفين، بحيث لا يقدر المسلمون فيها على التصريح بعقيدتهم قولاً، أو كتابة في الصحف بكل ما يعتقدون، فإنهم إن وجدوا بلداً غيرها يحصل لهم متنفس وجبت عليهم الهجرة إليها، وهكذا.

والتأمل في وجه التشديد في وجوب الهجرة، وعقوبة تاركها يجد ذلك يكمن في ثلاثة أسباب:

١ - لأنه لا قيمة لإسلام المسلم في بلد مضغوط عليه، مكبوتة أنفاسه، مخرس لسانه، إنه في هذه الحالة ينصهر في بوتقة الكفر، حتى إنه لا يقدر على تربية عياله بما يريد.

٢ - لأنه يمد المجتمع المضاد له بعناصر القوة والنماء، فحياته في هذه الحالة ليست مدداً لعقيدته، ولا لأهل عقيدته، بل مدد لضدها.

٣ - لأنهم قد يجبرونه في حالة حرب المسلمين على الخروج معهم، فيكون على الأقل مكثراً لسوادهم، بل تؤخذ أولادهم للخدمة العسكرية التي يطبعونهم فيها بما شاءوا من أنواع التربية المخالفة لدين الإسلام، وشعائره، وأخلاقه^(١).

ولا يفوت التنبيه ههنا إلى أن حديث «لا هجرة بعد الفتح...»^(٢) إنما المقصود منه نفي الهجرة من مكة بعد أن خذل الله - تعالى - الشرك وأهله،

(١) «صفوة الآثار والمفاهيم» للشيخ عبدالرحمن الدوسري (٣/٣٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب وجوب النفير (٦/٣٧) برقم (٢٨٢٥)، ومسلم في كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلوها وشجرها ولقطنها إلا لمنشد على الدوام (٢/٩٨٦) برقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -.

وَعَلَّتْ فِيهَا كَلِمَةُ الْحَقِّ، فَصَارَتْ دَارَ إِسْلَامٍ، حَيْثُ عَادَ أَهْلُهَا إِلَى الدِّينِ الْحَنِيفِ، وَلَيْسَ هَذَا الْحَدِيثُ عَامًّا فِي نَفْيِ الْهَجْرَةِ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ، كَمَا تَوَهَّمَهُ بَعْضُهُمْ، أَوْ كَمَا يُلَوِّيه عَنْ حَقِيقَةِ مَعْنَاهُ بَعْضُ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ الَّذِينَ رَخِصَتْ عَلَيْهِمْ عَقِيدَتُهُمْ^(١).

وَلَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لَا تَنْقُطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقُطَعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقُطَعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٢)، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ نَفْسًا، ثُمَّ كَمَلَهُمُ الْمِائَةَ، فَأَمَرَهُ الْمُفْتِي الثَّانِي بِالْهَجْرَةِ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بَلَدٍ فِيهَا صَلاَحٌ، حَدِيثٌ مَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ^(٣).

(١) صفوة الآثار والمفاهيم (٣/٣٥٠، ٣٥١)، وانظر فتح الباري (٦/٣٩).

(٢) أخرجه أبوداود في كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، (٣/٣) برقم (٢٤٧٩)، والدارمي في سننه (٢/٢٣٩، ٢٤٠) وأحمد في المسند (٤/٩٩)، من حديث معاوية - رضي الله عنه -. وإسناده صحيح. انظر «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» للألباني (٣٣/٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، (الباب رقم ٥٤ (٥١٢/٦) برقم (٣٤٧٠)، ومسلم في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، وإن كثرت قتلته (٤/٢١١٨) برقم (٢٧٦٦) كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -.

المبحث الرابع تمييز الصابرين من القانطين والساكرين من الجاحدين

كما قسمت الفتنة الناس إلى صادقين وكاذبين، فقد قسمتهم كذلك إلى صابرين وقانطين، وإلى ساكرين وجاحدين.

نعم إن الفتنة إذا نزلت وحلت أظهرت الصابرين، وميزتهم عن القانطين والآيسين، كما قرر ذلك ربنا - عز وجل - في قوله: ﴿وجعلنا بعضهم لبعض فتنة أتصبرون﴾^(١).

فقد بين - عز وجل - في الآية الكريمة أن من آثار فتنة المؤمنين من الفقراء بالكافرين تمييز طائفة الصابرين، تلك الطائفة التي تصبر على ما تسمع من الكلام المؤذي من الكافرين، وعلى ما يرى من أخلاقهم السافلة، وأعمالهم القبيحة، ويتبع الهدى والنور من كتاب ربه، وسنة نبيه - ﷺ - دون أن يفت في عضدها سخرية ساخر، أو بطش كافر، أو كيد منافق وفاجر.

نعم إنه بهذه الفتنة يتم تمحيص هذه الطائفة ذي الصفة العظيمة من طائفة أخرى، إيمانها ضعيف، وعقيدتها مهزوزة، إذ بمجرد تسلط الكافرين عليها تفقد زمام الصبر، وتنحدر في سبيل القنوط واليأس الذي قد يؤدي بها إلى الردة عن الدين - عياداً بالله تعالى -.

ولهذا فقد بين الله - عز وجل - هذه الطائفة ذات الصفة المردولة، وضمها في قوله سبحانه: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾^(٢).

(٢) العنكبوت: (١٠).

(١) الفرقان: (٢٠).

فهؤلاء الذين تتكلم عليهم الآية الكريمة أناس لم يواجهوا الفتنة بالصبر كما هو المطلوب، إنما واجهوها بالقنوط، حيث توقوا فتنة الناس، وأهملوا جانب عذاب الله - عز وجل - فلم يكثرثوا به إعمالاً لما هو عاجل، ونبذاً للآجل، وكان الأحق بهم أن يجعلوا عذاب الله - تعالى - أعظم من أذى الناس^(١).
ومن قنوط هذا الصنف الذين تتحدث عنهم الآية أن الواحد منهم إذا أصابته محنة وفتنة، اعتقد أن هذا من نقمة الله - تعالى - به، فارتد عن الإسلام، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «فتنته أن يرتد عن دينه إذا أؤذي في الله، وكذا قال غيره من علماء السلف»^(٢).

وفي السنة الشريفة الصحيحة ضرب رسول الله - ﷺ - مثلاً واضحاً لصحابته الكرام - رضي الله عنهم - حين طلب أحدهم منه أن ينتصر لهم، فحثهم في هذا المثال على الصبر، وحذّره من القنوط، يوضح لنا هذا كله الحديث الصحيح، حديث خباب بن الأرت - رضي الله عنه - قال: أتيت النبي - ﷺ - وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه، فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنتين، ما يصرفه ذلك عن دينه...»^(٣) الحديث.

فهذا الحديث الشريف فيه حث للصحابه الكرام - رضي الله عنهم - على الصبر أمام الفتن، وتحذير لهم من القنوط واليأس، والاستسلام للعدو الماكر.

(١) التحرير والتنوير (٢٠/٢١٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٤٠٥).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/١٠٩)، والبخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٦/٦١٩) برقم (٣٦١٢).

مهما كانت أساليبه في محاربة المؤمنين، وقمعهم، وهذا من أهم الأمور التي تحتاجها الأمة في هذا العصر الذي اجتمعت فيه قوى الكفر والطغيان على المسلمين، وتكالبوا فيه على هذه الأمة المحمدية من كل حذب وصوب، وإن بعض الإسلاميين الذين وقعوا في مصيدة الكفار، واستسلموا لهم في الفتنة، إنَّ هؤلاء ماوقع منهم ذلك إلا عندما غفلوا عن هذا الأصل العظيم في ديننا من ضرورة التنبيه لقضية الصبر في مواجهة المد الكافر الملحد.

ولابد من التنبيه ههنا إلى جانب آخر مهم، ينبغي أن لا يغفل عنه المسلم، وبخاصة من يعمل في حقل الدعوة إلى الله - عز وجل - ذلك هو قضية الإكراه على النطق بكلمة الكفر مع اطمئنان القلب بالإيمان، فإن هذا مما أباحه الله - تعالى - في كتابه عند قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ بخلاف ما إذا انقاد واستسلم وانشرح بالكفر صدراً ﴿وَلَكِنْ مِنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾ فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم^(١).

وكما أنه بالفتنة يتميز الصابرون من القانطين، بالفتنة أيضاً يتميز الشاكرون من الجاحدين.

يتميز الشاكرون، أولئك الناس الذين هم أطيب الخلق نفوساً، وأشرحهم صدوراً، وأقرهم عيوناً، أولئك القوم الذين قلوبهم ملائنة من تعظيم ربهم - عز وجل - والاعتراف بنعمه، والاغتراب بكرمه، والابتهاج بإحسانه. أولئك القوم الذين ألسنتهم رطبة في كل وقت بحمده وذكره، وقلوبهم في كل وقت متطلعة للمزيد، وطمعهم ورجاؤهم في كل وقت بفضل ربهم يقوى، ويزيد^(٢).

(١) النحل: (١٠٦).

(٢) الرياض الناضرة للشيخ عبدالرحمن السعدي ص ٨٤.

إنه لا بد عند انكشاف الفتنة، ونزول الرحمة من الشكر، وإظهار آثار الشكر، ليتبين تميز الشاكرين لنعم الله من الجاحدين لها، ولهذا يذكر عن النجاشي^(١) أنه أرسل ذات يوم إلى جعفر بن أبي طالب^(٢) وأصحابه وقت هجرتهم إلى الحبشة، فدخلوا عليه وهو في بيت، عليه خُلُفَان^(٣)، وهو جالس على التراب، فلما رأى مافي وجوههم بشرهم بنصر النبي - ﷺ - وأصحابه على المشركين في بدر، المكان الذي كان يرعى به إبلًا لرجل من بني ضمرة، ثم سأل جعفر عن سبب جلوسه على التراب، ليس تحته بساط، مع هذه الأخلاق التي عليه، فقال: إنا نجد فيها أنزل الله - عز وجل - على عيسى - عليه السلام -: «إن حقاً على عباد الله أن يحدثوا الله تواضعاً عندما يحدث لهم نعمة» فلما أحدث الله نصر نبيه - ﷺ - أحدث له هذا التواضع^(٤).

وإن الإنسان عندما يشكر الله - عز وجل - حال الفتنة بالنعمة، فينبغي له أن يعلم أن شكره للنعمة هو بذاته يحتاج إلى شكر آخر، ولقد أحسن الشاعر عندما قال:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة عليّ وفي أمثالها يجب الشكر

(١) هو أصحمة، ملك الحبشة، وهو ممن حسن إسلامه، ولم يهاجر، ولا له رؤية، فهو تابعي من وجه، صحابي من وجه، توفي في حياة النبي - ﷺ - فصلى عليه كما ثبت في البخاري وغيره صلاة الغائب، ولم يثبت أنه صلى - ﷺ - على غائب سواه - رضي الله عنه - انظر سير أعلام النبلاء (١/٤٢٨).

(٢) هو علم المجاهدين، أبو عبد الله، ابن عم رسول الله - ﷺ - وأخو علي بن أبي طالب. هاجر الهجرتين، وهاجر من الحبشة إلى المدينة، فوافى المسلمين وهم على خير إثر أخذهما، فأقام بالمدينة أشهراً، ثم أمره رسول الله - ﷺ - على جيش غزوة مؤتة، فاستشهد بها سنة ثمان من الهجرة. انظر الإصابة (١/٢٣٧، ٢٣٨) وسير أعلام النبلاء (١/٢٠٦).

(٣) أي ثياب بالية، وهو جمع، مفردة خلق. انظر مختار الصحاح ص ١٨٧ مادة (خَلَقَ).

(٤) كتاب الشكر لابن أبي الدنيا ص ٤٠، ٤١.

فكيف وقوع الشكر إلا بفضلِهِ وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مُس بالضرء عم سرورها وإن مس بالضرء أعقبها الأجر
ولا منهما إلا له فيه منة تضيق بها الأوهام والبر والبحر^(١)
وإذا أطلقت كلمة الشكر فلا بُد أن ينتبه المرء إلى أنه يجمعها عدة قواعد،
من لم يتصف بها فليس بشاكر، وهذه القواعد هي :

اعتراف الشاكر للمشكور بنعمته، وخضوعه له^(٢)، وثناؤه عليه بها^(٣)،
وحبه له وأن لا يستعمل نعمته فيما يكره^(٤).

وهذه القاعدة الأخيرة تحتاج إلى توضيح ؛ لأنها تتعلق بالطائفة التي تبرز
عند الفتنة بالنعمة، وهي طائفة الجاحدين، ذلك أن فعل الشكر، وترك الكفر
والجحود لما يبطل به الإنسان من النعم لا تتم ولا تحصل إلا بمعرفة ما يحبه الله
- عز وجل - إذ إن معنى الشكر استعمال نعمه - تعالى - فيما يحب، ومعنى الكفر
والجحود نقيض ذلك، ومنه استعمال النعم فيما يكرهه سبحانه.
ولتمييز ما يحبه الله - عز وجل - فيما يكرهه :

- ١ - السمع، ومستنده الآيات القرآنية، وهذا واضح.
- ٢ - إدراك نعمة الله - عز وجل - في كل مخلوق خلقه، فإن كل من استعمل
شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها فقد كفر نعمة الله - تعالى - فيه، فمن
ضرب غيره مثلاً بيده بغير حق فقد كفر نعمة الله - تعالى - في اليد، لأنها

(١) المرجع السابق ص ٢٧ والشاعر هو محمود الوراق.

(٢) ولهذا عرفه بعضهم بقوله: «الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع». مدارج السالكين
(٢/٢٥٤).

(٣) ولهذا قال بعضهم: الشكر: «الثناء على المحسن بذكر إحسانه» «مدارج السالكين»
(٢/٢٥٤)، ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة ص ٢٧٧.

(٤) مدارج السالكين (٢/٢٥٤).

خلقت ليدفع بها عن نفسه مايؤذيه، ويتناول مايُنفعه، لا ليؤذي بها غيره، وكذلك العين إذا نظر بها إلى محرم فقد كفر نعمتها، ومن استعمل يده اليمنى في قضاء حاجته من البول والغائط فقد كفر نعمتها إلا لضرورة، وهكذا في كل شيء يستعمله الإنسان في غير موضعه الذي وضعه الله - تعالى - فيه فقد كفر نعمته.

وهنا ينبغي التعرض لقضية أخرى ذي أهمية كبرى، تلك هي أن من يفتن بالنعمة فلا يحدث بها، ويأخذ يعدد المصائب فهو من الجاحدين، ولهذا قال بعضهم عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾^(١): هو من يعدد المصائب، وينسى النعم^(٢).

ونظم بعضهم أبياتاً في هذا المعنى فقال:

يَا أَيُّهَا الظَّالِمُ فِي فِعْلِهِ وَالظُّلْمُ مُرَدُّ عَلَى مَنْ ظَلَمَ
إِلَى مَتَى أَنْتَ؟ وَحَتَّى مَتَى تَشْكُو الْمَصِيبَاتِ وَتَنْسَى النِّعَمَ؟^(٣)
ومن هنا فإنه إذا كان من يعدد المصائب، وينسى النعم من الجاحدين فإن من يستبدل الشكر بالاستهزاء أشد جحوداً، وأعظم كفراً، كما هو حال بني إسرائيل الذين قال الله - تعالى - فيهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فبذل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجلاً من السماء بما كانوا يفسقون^(٤).

ولقد كان استهزاء هؤلاء متمثلاً في كونهم بدّلوا قول الله - عزّ وجل -

(١) العاديات: (٦).

(٢) انظر «زاد المسير» (٣٠٩/٨) وكتاب الشكر لابن أبي الدنيا ص ٢٣.

(٣) كتاب الشكر ص ٢٣، والقائل هو محمود الوراق.

(٤) البقرة: (٥٨ - ٥٩).

﴿ادخلوا الباب سجداً﴾ بدّلوه بأن دخلوا يزحفون على عجائزهم، وبدّلوا قول الله - تعالى - : ﴿قولوا حطة﴾ بقولهم : حنطة، ولم يهتموا بذنوبهم، وإنما كان همهم أمراً مادياً، وهو إشباع بطونهم، وترك العنان لشهواتهم، وملذاتهم^(١). وهنا لا بد من التعرض أيضاً لأمر آخر، لا يقل أهمية عن سابقه فيما يتعلق بأمر الجحود، وهو محاولة خداع الله - عزّ وجل -، ذلك أن كثيراً من الناس حينما يغشاهم الكرب، وتحل بهم الفتنة، سرعان ما يلجؤون إلى الله - عزّ وجل - بطلب كشف الضر، وإزالة البأس.

ففي سورة لقمان بين الله - عزّ وجل - حال الكافرين أمام الخطر، والموج يغشاهم كالظلل، والفلك كالريشة الحائرة في الخضم الهائل، حيث تتعرى نفوسهم من القوة الخادعة، وتتجرد من القدرة الموهومة التي تحجب في ساعات الرضاء حقيقة فطرتها، وتقطع ما بين هذه الفطرة وخالقها، حتى إذا سقطت هذه الحوائل، وتعرّت الفطرة من كل ستار استقامت إلى ربها، واتجهت إلى بارئها، وأخلصت له الدين، ونفّت كل شريك، ونبذت كلّ دخيل، ودعت الله - تعالى - مخلصاً له الدين، فلما نجاها إذا بطائفة تجحد نعمة الله، وتنكر آياته بمجرد زوال الخطر، وعودة الرخاء:

﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور﴾^(٢).

ومن هنا يتبين لنا أن الكافر عند انكشاف الفتنة، وزوال البلاء يجحد ويطغى، ويتناقض مع نفسه، وينسب ما يحل به من كشف الفتنة والضر إلى

(١) انظر تفسير الطبري (٣٤٣/١) و «أحكام من القرآن الكريم» للشيخ محمد بن صالح

العثيمين ص ٢٣٦.

(٢) لقمان: (٣٢).

نفسه كما قال سبحانه: ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور﴾ (١).

يقول ابن القيم - رحمه الله - : «فقد استبدل هذا الكافر بحمد الله وشكره والثناء عليه عند الابتلاء بالنعماء إذ كشف عنه البلاء استبدل بالحمد والشكر قوله: ذهب السيئات عني، ولو أنه قال: أذهب الله السيئات عني برحمته ومنه لما دُمَّ على ذلك، بل كان محموداً عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها، ونسب الذهاب إليها وفرح وافتخر.

فإذا علم الله - سبحانه - هذا من قلب عبد فذلك من أعظم أسباب خذلانه، وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة، كما قال تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾* ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ (٢)، فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر، يمنع وصولها إليهم، وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها» (٣).

وقريب من هذا الجحود ما جاء في قوله - عز وجل - في سورة الزمر: ﴿فإذا مس الإنسان ضر دعائنا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ (٤).

نعم إن أمر هذا الكافر الذي تتحدث عنه الآية الكريمة عجيب غريب، يدعو المتأمل في حاله إلى الدهشة والحيرة، ذلك أن المشرك إذا أصيب بضر من

(١) هود: (٩).

(٢) الأنفال: (٢٢ - ٢٣).

(٣) «الفوائد» لابن القيم ص ٢٦٦.

(٤) الزمر: (٤٩).

فقر أو مرضٍ جأر إلى الله - تعالى - واستعان به لكشف ذلك الضر عنه، وإذا تغيرت الحال - وهو الشاهد هنا - ونال شيئاً من الرخاء، أو زال مابه من العلة، قال: إنما أوتيت هذا العلم بوجوه المكاسب، وجدي واجتهادي، أو لذهابي إلى الأطباء، واهتمامي بالعلاج، فلم أدخر دواءً نافعاً إلا بذلت نفيسَ المال للحصول عليه، وهذا منه تناقض عجيب، ففي الحال الأولى يستغيث بربه، وفي الحال الثانية ينسب السلامة إلى نفسه، ويقطع صلتها عن المنعم بها، الذي أوجدها، وأرادها، والحقيقة أن ما أعطيه من النعم إنما هو فتنة له واختبار، أي شكر، أم يكفر ويحسد، أيطيع أم يعصي؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون أن ذلك استدراج من الله، وامتحان لهم، ومن ثم يقولون ما يقولون، ويدعون من الدعوى مالا يفقهون، وبين الله - جل وعلا - ههنا أن هذه مقالة، ليست وليدة أفكارهم، بل سبقهم بها كثير ممن قبلهم، حيث زعم مثل هذا الزعم، وادعى مثل هذه الدعوى كثير ممن سبقهم من الأمم، فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم، وما كانوا يكسبون. وحل بهم جزاء سيئات ما كسبوا من الأعمال، فعوجلوا بالخزي في الدنيا كالخسف الذي لحق بقارون، والصاعقة التي نزلت بقوم لوط^(١).

ومن أصناف الجحود التي تتبين وتنكشف عند الفتنة والاختبار، وبه أختتم الكلام على هذا المبحث، مذكره الله - عز وجل - من قصة قوم صالح - عليه السلام - ذلك أنهم فُتِنُوا وابتُلُوا، فانقسموا قسمين: فريق مؤمن شاكِر، وفريق كافر جاحِد، وهو ما أشار إليه ربنا - تعالى - في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون* قالوا

(١) انظر تفسير ابن كثير (٥٧/٤). والفوائد ص ٢٦٥، وتفسير المراغي (١٨/٢٤).

اطيرنا بك وبمن معك قال طائرکم عند الله بل أنتم قوم تُفْتَنُونَ ﴿١﴾ .
نعم لقد عرف هذا الفريق نعمة الله - عز وجل - برسولهم صالح - عليه السلام - الذي جاء ليدعوهم إلى عبادة الله - وحده - والخضوع له ، فما كان منهم إلا أن قابلوا هذه الإنعام بالكفر والجحود ، وتشاءوا بنبي الله ، وأصحابه المؤمنين ، قائلين : مارأيتنا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً ، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه ، فلم يكتفوا بالجحود ، بل تشاءوا وتطيروا ، فأخبرهم صالح أن الله - تعالى - سيجازيهم على جحودهم وضلالهم ، وقرر لهم أنهم يستدرجون فيما هم فيه من الضلال ، حتى إذا استمروا في عنادهم وجحودهم أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، كما قرره في كثير من الآيات مثل قوله سبحانه : ﴿ فَأَخَذْنَاهُم بِالرَّجْفَةِ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ ﴾ ^(١) ، وقوله : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ الثَّمُودِ ﴾ ^(٢) ، وقوله : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذْنَاهُم الْعَذَابَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣) .

(١) التمل : (٤٥ - ٤٧) .

(٢) الأعراف : (٧٨) .

(٣) هود : (٦٧ - ٦٨) .

(٤) الشعراء : (١٥٧ - ١٥٨) .

المبحث الخامس التنبيه لمحاولة أهل الكتاب فتنة المسلمين عن دينهم^(١)

إن المتأمل في واقع أهل الكتاب من اليهود والنصارى على مدى التاريخ الإسلامي الطويل إلى وقتنا هذا يجد محاولات هؤلاء واضحة بينة .
ففي عهد الرسول - ﷺ - تسلل أهل الكتاب بين مختلف القوى والفرقاء ، يكيدون ويخططون ، وبالاتفاق معها ، أو يسيرونها للوقوف في وجه الدعوة الإسلامية ، وفي وجه حكومة الإسلام النبوية ، فكان تعاونهم مع القبائل العربية المختلفة ، وقريش ، ومع المنافقين ، يجزبون الأحزاب ، ويشيرون التناقضات داخل المجتمع المسلم الوليد بين الأوس والخزرج من الأنصار من جهة ، وبين الأنصار والمهاجرين من جهة أخرى . ويضعون الخطط للقضاء على هذا المنافس الخطير في الحجاز ، وفي جزيرة العرب ، بل وأدركوا خطر منافسته على النطاق العالمي ، فأخذوا يكيدون له على المستوى العالمي ، فتعاونوا مع دولة الفرس والروم والحبشة في عهد مبكر من عهود الدولة الإسلامية إدراكاً منهم لطبيعة المد الإسلامي ، وبأنه لا يعترف بفواصل أو حدود ، وأن محمداً - ﷺ - أرسل إلى الناس كافة ، المسلمون كلهم كالجسد الواحد ، لا فرق بين عربي وعجمي ، ولا بين أبيض وأسود إلا بالتقوى .

وفي عهد الخلفاء الراشدين ظهر أثر أهل الكتاب في عهد أبي بكر - رضي

(١) هذا المبحث معناه : أن مايفعله الكفرة من محاولة فتنة المسلمين عن دينهم ، هذه المحاولة فتنة ، ومن آثارها أن ينتبه المسلمون لها ، ويسلكوا الطرق التي يقاومون بها هذه الفتنة .

الله عنه - في حركة الردة التي كانت تعبيراً عن محاولة أهل الكتاب إعادة الجزيرة إلى ماكانت عليه قبل الإسلام ليتسلموا زعامتها، ويسيطروا على مقدرات سكانها، ولتبقى سوقاً ومسرحاً يمثلون عليه ماشأؤوا، وميداناً لنزاعهم السلمي بعد أن تحولت الأقطار الأخرى إلى مسرح لنزاعهم الدامي !

وبوعي الحاقدين من أهل الكتاب افتعلوا التناقضات، فتظاهر بعضهم بالإسلام، ومنهم عبدالله بن سبأ اليهودي^(١)، الذي استطاع أن يجمع حوله بعض المسلمين في عهد عثمان - رضي الله عنه - ممن هم حديثو عهد بالإسلام، وكذلك أولئك المستترين بالإسلام، والأعراب الأجلاف الذين لم يدخل الإسلام قلوبهم، وحاول هذا الخبيث تحريك المشاعر، وإثارتها ضد عثمان - رضي الله عنه - في العراق، ومصر والشام، والحجاز، وتحركت هذه الأمصار في حركة هوجاء مضطربة دون وعي من عناصرها بعمق المؤامرة، ومحركيها. فأوى سيل الأحداث المتدفق الجارف إلى فتنة قتل عثمان - رضي الله عنه - وكان ذلك صدعاً لا يلتئم في تاريخ الإسلام، وأصبح قميص عثمان مثلاً دارجاً سائراً إلى اليوم، فالله المستعان.

ثم أجاد الحاقدون من أهل الكتاب دورهم، فتسللوا إلى مختلف الفئات الإسلامية، وأدت تطورات الأحداث التي أحسنوا حبكها إلى قتل الخليفة الراشد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -^(٢).

(١) عبدالله بن سبأ هو الذي تنتسب إليه طائفة السبئية، وهم الغلاة من الرافضة، أصله من اليمن كان يهودياً، وأظهر الإسلام، وطاف بلاد المسلمين ليفتنهم عن طاعة الأئمة، ويدخل بينهم الشر، وكان ظهوره من أسباب تألب الأحزاب على عثمان بن عفان - رضي الله عنه - انظر البداية والنهاية (١٨١/٧) وتاريخ الطبري (٤/٣٤٠).

(٢) انظر «أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول» تأليف الأستاذ جميل المصري ص ٥٦٠، ٥٦١، وكتاب «عبدالله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام» الفصل الثالث والرابع.

إنني أريد من هذا التمهيد أن أقول: إن هذه المحاولات من اليهود والنصارى قد أنبأنا بها القرآن الكريم في كثير من آياته البينة.

ففي سورة البقرة يقول سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١)، فقد بين سبحانه في هذه الآية الكريمة أن أهل الكتاب المتعصين لدينهم من حيث هو جنسية لهم تقوم بها منافع جنسهم، لم يكتفوا بكفرهم بالنبي - ﷺ - والكيد له، ونقض ما وعدهم عليه حسداً له، ولقومه على نعمة النبوة، بل هم يزيدون على ذلك بحسد المسلمين على نعمة الإسلام التي عرفوا أنها الحق، وأن وراءها السعادة في الدارين، ولكنهم شقَّ عليهم أن يتبعوهم، فتمنوا أن يجرموا هذه النعمة، ولو لم تكن ضارة به، فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من أثرها المحسود عليه، وإدخاله تحت سلطانه، كما كان يتوقع علماء يهود في عصر التنزيل^(٢).

ولقد قرر سبحانه أيضاً هذا الأمر في سورة آل عمران حيث يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُوا عَلَيَّكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣).

وزاد الله - تعالى - الأمر وضوحاً وكشفاً في السورة نفسها عندما قال: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَّهَ النَّهَارَ

(١) البقرة: (١٠٩).

(٢) تفسير المنار (١/٤٢٠). وانظر تفسير ابن كثير (١/١٥٣).

(٣) آل عمران: (١٠٠ - ١٠١).

واكفروا آخره لعلمهم يرجعون^(١) وقال: ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾^(٢).

ولقد كان الرعيل الأول من أصحاب محمد - ﷺ - ممن تنزلت فيهم هذه الآيات النيرات، كانوا ذا علم ومعرفة وتنبه لخطط الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم ممن يريدون بها فتنة المسلمين عن دينهم، ففي معركة أحد كانت طليعة قریش لحرب رسول الله - ﷺ - تتكون من أبي عامر الراهب في نفر من الأوس، وبعض عبيد مكة. فتقدم يحرض الأوس المسلمين على التخلي عن رسول الله - ﷺ - والانضمام إلى المشركين، فنادى: يامعشر الأوس، أنا أبوعامر، فبماذا أجابه الأوس - رضي الله عنهم -؟

استمع إلى إجابتهم تخبرك بتنبههم لمحاولة هذا الخبيث نشر الفتنة بينهم، قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يافاسق، فجعل يقول: لقد أصاب قومي بعدي شر، فأشعل نار الحرب بأن قاتل قومه قتالاً شديداً، ثم راضخهم بالحجارة^(٣). ولا يفوتني ههنا أن أذكر المقطع الرائع النفيس الطويل، الذي أورده صاحب تفسير المنار عن الشيخ محمد عبده^(٤)، وهو يدعو إلى وجوب التنبه لمحاولة أولئك الكفرة من اليهود والنصارى، ومن نحاً نحوهم فتنة المسلمين عن

(١) آل عمران: (٧٢).

(٢) آل عمران: (٦٩)، والمراد بالإضلال الإهلاك، انظر تفسير الطبري (٣/٣٠٦).

(٣) الطبقات الكبرى (٢/٢٨)، وأثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول ص ١٠٣، ١٠٤.

(٤) هو محمد عبده بن حسن خير الله، مفتي الديار المصرية في وقته، وأحد رجال الإسلام الكبار في بداية القرن الرابع عشر، كان ممن قاوم الإنجليز لما احتلوا مصر، حتى سجن ثلاثة أشهر، ثم نفي إلى بلاد الشام إلى أن سمح له بدخول مصر، فعاد إليها سنة ١٣٠٦هـ وظل بها إلى أن توفي سنة ١٣٢٣هـ، من كتبه «تفسير القرآن» ولم يتمه، و«رسالة التوحيد» انظر الأعلام (٦/٢٥٢).

دينهم، قبل أن تحل بهم نتيجة لذلك الرزايا، وتنزل المصائب، يقول - رحمه الله - :

«قالوا: تصان البلاد، وحرس الملك بالبروج المشيدة، والقلاع المنيعة، والجيشوش العاملة والأهب الوافرة، والأسلحة الجيدة. قلنا: نعم، هي أحراز وآلات لا بد منها، للعمل فيما بقي البلاد، ولكنها لا تعمل بنفسها، ولا تحرس بذاتها، فلا صيانة بها، ولا حراسة، إلا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة، وأولو رأي وحكمة، يتعهدونها بالإصلاح زمن السلم، ويستعملونها فيما قصدت له من زمن الحرب، وليس بكافٍ حتى يكون رجال من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر الشؤون، ويراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها، بل ويحملوها على أجنحة السياسة القويمة إلى أسمى مكانة تمكن لها .

ومن تتبع التواريخ التي تمثل لنا أحوال الأمم الماضية، وتحكي لنا عن سنة الله، - تعالى - في خليقته، وتصريفه لشؤون عباده رأى أن الدول في نموها، وبسطتها ما كانت مصونة إلا برجال منها، يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم، وما كان شيء من أعمالها بيد أجنبي عنها، وإن تلك الدول ما انخفض مكانها، ولا سقطت في هوة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في أعمالها، فإن ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار، خصوصاً إذا كان بين الغرباء والدولة التي يتناولون أعمالها منافسات، وأحقاد، مزجت بها دماؤهم، وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة.

نعم كما يحصل الفساد في بعض الأخلاق، والسجاياء الطبيعية بسبب العوارض الخارجية، كذلك يحصل الضعف والفتور في همة أبناء الدين أو الأمة، ويطرأ النقص على شفقتهم ومرحمتهم، فينقص بذلك اهتمام العظماء

منهم بمصالح الملك إذا كان وليُّ الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها، وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة، فيقع الخلل في نظام الأمة، ويضرب فيها الفساد، ولكن ما يكون من ضرره أخف وأقرب إلى التلافي من الضرر الذي يكون سببه استلام الأجانب لهامات الأمور في البلاد، لأن صاحب اللحمة في الأمة، وإن مرضت أخلاقه، واعتلت صفاته إلا أن مأودعته الفطرة، وثبت في الجبل لا يمكن محوه بالكلية، فإذا أساء في عمله مرة أزعه من نفسه صائح الوشيجة الدينية أو الجنسية، فيرجع إلى الإحسان مرة أخرى، وإن ماشد بالقلب من علائق الدين، أو الجنس لا يزال يجذبه آونة بعد آونة، لمراعاتها والالتفات إليها، ويميله إلى المتصلين معه بتلك العلائق، وإن بُعدوا.

لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق، وأخص من بينهم أمراء المسلمين، حيث سلّموا أمورهم، ووكّلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم، بل زادوا في موالة الغرباء، والثقة بهم حتى ولّوهم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم، بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم، بعدما رأوا كثرة المطاعم فيها لهذا الزمان، وأحسوا بالضغائن، والأحقاد الموروثة من أجيال بعيدة، بعدما علمتهم التجارب أنهم إذا ائتمنوا خانوا، وإذا عززوا أهانوا، يقابلون الإحسان بالإساءة، والتوقير بالتحقير، والنعمة بالكفران، ويجازون على اللقمة باللطمة، والركون إليهم بالجفوة، والصلة بالقطيعة، والثقة فيهم بالخدعة.

أما أن لأمراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لا تنقض؟

ألم يأن لهم أن يرجعوا إلى حسمهم، ووجدانهم؟

ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث؟ ودلتهم عليه الرزايا والمصائب؟

ألم يحن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بأيديهم ، وأيدي أعدائهم ؟
 ألا أيها الأمراء العظام ، مالكم ، وللأجانب عنكم ؟
 ﴿هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾ (١) .
 قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة في أمرهم ﴿إن تمسكم حسنة تسوءهم وإن
 تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ (٢) .
 سارعوا إلى أبناء أوطانكم ، وإخوان دينكم وملتكم ، وأقبلوا عليهم ببعض
 ماتقبلون به على غيرهم تجدوا فيه خير عون ، وأفضل نصير ، اتبعوا سنة الله فيما
 ألهمكم ، وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين ، وراعوا حكمته البالغة فيما
 أمركم ، وما نهاكم كيلا تضلوا ويهوي بكم الخطل إلى أسفل سافلين .
 ألم تروا ؟ ألم تعلموا ؟ ألم تحسبوا ؟ ألم تجربوا ؟
 إلى متى ؟ إلى متى ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون» (٣) .

وبعد هذا الكلام القوي الرصين في الحث على وجوب التنبه لمحاولة
 الأعداء فتنة المسلمين ومنهم اليهود والنصارى ، أقول : إنه لا بد أن يتنبه المسلمون
 أيضاً إلى الوسائل التي يسلكها اليهود والنصارى لفتنة المسلمين عن دينهم ، فإن
 الله - عز وجل - إنما نبهنا في القرآن لمحاولتهم الفتنة لنحذرها ، ونتعرف على
 أساليبها وطرقها ، ونكشفها للأجيال المسلمة ، حتى لا تخدع بها .
 * فهم يحاولون القضاء على الحكم الإسلامي في أي بلد يستطيعون الوصول
 إليه ، ومنعهم من أي قوة عسكرية أو صناعية .
 * وهم يحاولون القضاء على القرآن ومحوه وتخريفه بأي طريقة كانت .

(١) آل عمران : (١١٩) .

(٢) آل عمران : (١٢٠) .

(٣) تفسير المنار (٤/ ٨٤، ٨٨) .

- * ويحاولون تدمير أخلاق المسلمين وعقولهم، وصلتهم بالله، وإطلاق شهواتهم في أي فرصة تحين لهم، ومأمر الدشوش عنا ببعيد!
- * ويحاولون كذلك إفساد المرأة المسلمة بأي وسيلة قريبة أو بعيدة.
- * ويحاولون القضاء على الوحدة الإسلامية، والرابطة الإيمانية التي تجمع المسلمين، وذلك بما يثيرونه بينهم من خلافات، وقال قائلهم في ذلك: «إذا اتحد المسلمون في دولة إسلامية موحدة أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير»^(١).

إن على المسلمين جميعاً أن يعدوا العدة لمجابهة هذه الحرب الفاتنة التي يقودها اليهود والنصارى، وأذناهم من العلمانيين والمنافقين، ومن هنا فإنه يحسن بي الآن وقد جئت إلى ختام هذا البحث أن أختمه بإشارات موجزة سريعة إلى تسع وعشرين طريقة، مما ذكره أحد الدعاة في هذا العصر، ليتسنى للمسلمين عن طريقها - بإذن الله - مواجهة تلك الحملات الشنيعة، والفتن المتلاطمة التي يقود زمامها الصهيونيون والصليبيون، فإلى بيان أهم هذه الطرق:

- ١ - اليقظة لنشاطات اليهود والنصارى، وتكثيف المراقبة عليهم.
- ٢ - توسيع نشاط الدعوة إلى الله - تعالى - في أوساط اليهود والنصارى في بلاد المسلمين.
- ٣ - نشر العلم الصحيح بين المسلمين، وتنوعيتهم.

(١) راجع كتاب «قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله» لجلال العالم ص ٥٧ - ٧٥ وكتاب الاستشراق «الذرائع والنشأة والمحتوى» للأستاذ السيد أحمد فرج ص ٨٦، وكتاب «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي» للدكتور محمد البهي ص ٢٨، «وجذور البلاء» للأستاذ عبد الله التلّ ص ٢٧٥.

- ٤ - بذل الجهود لحماية الشباب والفتيات من الغزو السلوكي المنحرف.
- ٥ - بناء المراكز الإسلامية المتكاملة في العالم.
- ٦ - قيام المؤسسات الطبية الخيرية الإسلامية لتطبيب المسلمين في كل مكان.
- ٧ - التحرك في أوقات الأزمات بصفة استثنائية لإغاثة المنكوبين.
- ٨ - إيجاد اللجان والجمعيات التي تعنى بدراسة الخطط التي يمارسها ويعدها اليهود والنصارى لفتنة المسلمين عن دينهم.
- ٩ - محاربة أي بضاعة أو مواد، تمت إلى التنصير بصلة.
- ١٠ - إبعاد جميع العاملين من اليهود والنصارى عن بلاد المسلمين.
- ١١ - منع إنشاء المدارس الأجنبية في بلاد الإسلام.
- ١٢ - مقاومة البث الإعلامي التخريبي، والذي يقوده اليهود والنصارى.
- ١٣ - منع الشركات الأجنبية من الدعوة إلى الأعياد النصرانية.
- ١٤ - إصدار الفتاوى الصريحة والواضحة في حكم استقدام النصارى على كافة الأصعدة.
- ١٥ - ضرورة وجود كوكبة من الدعاة المخلصين المتفرغين لجوب بلاد المسلمين، لمعرفة أحوال المسلمين في العالم.
- ١٦ - رسم المناهج المناسبة لدعوة غير المسلمين للإسلام.
- ١٧ - الحسم الصارم، والقضاء العاجل على أي بادرة تهويدية أو تنصيرية يتم اكتشافها.
- ١٨ - الحذر من القيادات العلمانية والحداثية.
- ١٩ - إصلاح مناهج التعليم بما يضمن تخريج الطالب المؤمن.
- ٢٠ - حماية الشباب من الاختلاط بغير المسلمين، ومنع وسائل تشجيع ذلك.
- ٢١ - تخريج فرق من الدعاة المتخصصين في دراسة اليهودية والنصرانية.
- ٢٢ - دعم المسلمين الذين يحاربون اليهود والنصارى.

- ٢٣ - العناية بالمناطق النائية.
- ٢٤ - استخدام أسلوب المناظرة العلمية مع رجال الطائفتين اليهودية والنصرانية.
- ٢٥ - إبراز قصص من أسلموا من اليهود والنصارى.
- ٢٦ - إخراج جميع اليهود والنصارى من البلاد المقدسة.
- ٢٧ - التنبيه والحذر من الدور الذي تقوم به السفارات اليهودية والنصرانية.
- ٢٨ - إنشاء الهيئات والجمعيات ذات الطابع الشمولي في الدعوة إلى الله - تعالى - ومحاربة التهويد والتنصير.
- ٢٩ - تذكير من يجيدون اللغة الإنجليزية بأن عليهم واجباً عظيماً في الدعوة إلى الإسلام، وكشف مخططات اليهود والنصارى ضد المسلمين^(١).

(١) هذه الطرق مستقاة من ملحق (٢) المدرج في نهاية كتاب «تجربة فتاة مسلمة في مستشفى الراهبات» تأليف ابتهاج قُدّور ص ٦٩ - ٧٤.

المبحث السادس الحذر من الشيطان وكيدِهِ

بيّن الله - عزّ وجل - لنا في القرآن حرص الشيطان على فتنة بني الإنسان، مهما وجد إلى ذلك سبيلاً، وبيّن لنا فتنته لنحذرهما، ونبتعد عن أسبابها، يقول سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا﴾^(١).

ولأن فتنة الشيطان كبيرة، وخطرهما عظيم، فقد حذّر الله - تعالى - بني آدم من هذا العدو اللدود في آيات كثيرة، وبيّن لهم شدة عداوته لهم، وتربصه بهم الشر في كل مجال من مجالات الحياة، وكيدِهِ لهم، وشراسة صراعه معهم كي يصرفهم عن منهج الله، الذي شرعه لهم، وحثهم على التمسك به. ولقد وجّه الإسلام قوى المؤمن كلّها لكفاح الشيطان، والشر الذي ينشئه في الأرض، والوقوف تحت راية الله وحزبه، في مواجهة الشيطان، وحزبه. وإنها لمعركة دائمة، لا تضع أوزارها؛ لأن الشيطان لا يمل هذه الحرب التي أعلنها منذ لعنه وطرده، وواجب على المسلم أن لا يغفل عنها، ولا ينسحب منها. وهو يعلم أنه إما أن يكون ولياً لله، وإما أن يكون ولياً للشيطان، وليس هنالك وسط...

(١) الأعراف: (٢٧).

استمع إلى هذه التحذيرات الربانية من اتباع الشيطان وكيده:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(١).

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٢).
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...﴾^(٣).

وفي معرض بيان الله - تعالى - لبني آدم فتنة الشيطان، وأمره لهم أن يعتبروا بغواية هذا العدو لأبينا آدم وزوجه، وما كان من عاقبة هذه الغواية من إخراج أبينا من الجنة، ولكي لا يستمر خداع الشيطان لبني آدم يقول تعالى كما تقدم في آية الأعراف: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتُهُمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٤).

نعم إن هذه العداوة تكمن في أنها من عدو خفي، فهو يأتي الإنسان ويؤثر فيه من حيث لا يراه، وحينئذ يجب أن تكون مواجهة الإنسان لهذا العدو، واتقاء خطره على مستوى أساليبه التي يدخل بها على الإنسان، فنقاومه كما نقاوم الأمراض التي لا نراها، مثل «الميكروبات» ونحوها من الأمراض التي تفتك بالإنسان من حيث لا يراها، ولكل علاج يناسبه.

ومع تحذير الله - تعالى - عباده من هذا العدو الخطير، وبيان عداوته لهم، وتربصه بهم الشر في كل ميدان من ميادين حياتهم، فإن الإنسان توجه بكل

(١) البقرة: (٢٠٨).

(٢) الأنعام: (١٤٢).

(٣) النور: (٢١).

(٤) الأعراف: (٢٧).

مآتاه الله - تعالى - من قدرة فكرية، وتسخير لثروات هذا الكون إلى إقامة الحواجز بينه، وبين كل أنواع الشرور، وسدَّ بابها، وسعى بكل جهده إلى إيجاد أسباب الأمن والسلامة في جميع مجالات الحياة، إلا أنه غفل أو تغافل عن رأس الشر ومصدره «إبليس». !

ففي حين حرص الإنسان بشتى الوسائل إلى إيجاد الحياة الآمنة والسليمة من الشرور والآفات إلا أنه يسرَّ أسباب منافذ الشيطان، ووسَّع أبواب مداخله وتمكَّنه، وإذا لم تنجح تلك الجهود البشرية لإقامة الحياة الآمنة في ظل تلك الغفلة عن عدو الإنسان الأول، وذريته؛ فلأن إبليس قد سيطر على عقول كثير من بني آدم، ونفذ خططه فيهم بكل يسر وسهولة، وصار يقودهم إلى كل بلاء ومصيبة، خاصة في هذا العصر الذي ثبتت فيه أركان الشيطان، وأقيمت دولته نتيجةً لانتشار وسائل الإفساد، في زمن أصبح فيه اقتناء تلك الوسائل من مظاهر الرقي والحضارة، لا سيما وأن من يتولى إدارتها وتغذيتها بما تبثه من مواد فاسدة هم أتباع عدو الله وهم أولياؤه، فنشط إبليس في غوايتهم، وصرفهم عن صراط الله المستقيم، فأصبح لعدو الله صولات وجولات، لم يعهد لها في عهود ماضية، فما تلك الجرائم، والمشكلات، والمصائب التي تحدث في كثير من عالم البشرية اليوم إلا مؤثر واضح على قيادة هذا العدو اللدود لكثير من الناس حتى حقق فيهم وعيده الذي أقسم به: ﴿فبعزتكم لأغوينهم أجمعين﴾* إلا عبادك منهم المخلصين﴿^(١) .

«ولقد لعب الشيطان لعبته حينما سخر أدمغة هؤلاء المخربين للتفنن في وسائل تدمير الأخلاق الفاضلة، والقضاء على آخر رفق من الشعور برقابة الله - عز وجل - وخشيته وتذكر الآخرة، فلا تكاد تبزغ شمس الشباب المسلم إلا

(١) المنافقون في القرآن ص ١٠٧.

وهو في بخار من المستنقعات القذرة التي يخوض فيها أبناء جيله، ممن وقعوا في حبال هؤلاء المخربين، ولا ينجو من الوقوع في هذا الوحل إلا من عصمه الله - تعالى - بالإيمان القوي، وقليل ما هم ثم لا يكاد هذا الشباب ينجو من أحبولة نصبها المخربون إلا ويقع في أحبولة أخرى»^(١).

العجب أنك تجد المعنيين بوضع مناهج التربية، والسلوك، والأخلاق لم يغفلوا جانب النفس والعناية بها، بل اهتموا بها غاية الاهتمام، في حين أهملوا التعرف على عدوهم اللدود مع شدة خطره عليهم، وتمكنه منهم، علماً أن القرآن الكريم والسنة الشريفة عُنيا بذكر الشيطان أكثر من اعتنائها بذكر النفس.

وإن الله - عز وجل - إنما ابتلى الإنسان بتسليط عدوه عليه ليمحص الذين آمنوا ويمحق الكافرين، فجعل سبحانه مع كل إنسان شيطاناً ملازماً له، ومقترناً به، ليجاهده الإنسان، ويحذر من مزلقه ومداخله التي سبق أن بينت في مبحث سابق^(٢).

ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله - ﷺ - خرج من عند عائشة رضي الله عنها - ليلاً، قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أ صنع، فقال: «مالك يا عائشة، أغرت؟» فقلت: ومالي لا يغار مثلي على مثلك، فقال - ﷺ - : «أقد جاءك شيطانك؟» قالت: يا رسول الله، أو معي شيطان؟ قال: «نعم».

قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «نعم»، قلت: ومعك؟ يا رسول الله!

(١) المنافقون في القرآن ص ١٠٧.

(٢) راجع إن شئت مبحث «اتباع الشيطان» في الفصل الثاني من الباب الثاني.

قال: «نعم. ولكن ربي أعاني عليه فأسلم»^(١) (٢).

إذن فلا ينتصر الإنسان على الفساد والشر والرذيلة إلا إذا انتصر على عدوه إبليس الذي هو مصدر كل شر وفساد في الأرض، ولذا وعد الله - تعالى - عبده إذا انتصر على هذا العدو بما لا يخطر على قلب بشر من النعيم المقيم في الجنة، «فالله - تعالى - جعل الشيطان في حياة الإنسان لإقامة التوازن بين دوافع الخير، ودوافع الشر، والمحرضات عليهما، وليطرح الإنسان عليه قسماً من مسؤولية الخطيئة التي يقع بها، فيجد لنفسه عذراً بأن فعل الشر ليس من فطرته، وإنما كان بتأثير وساوس قرينه الشيطان الملازم له. وبهذا لا تظل صورة الخطيئة القبيحة ماثلة في نفس الإنسان، إذ يشعر بأن القبح ليس من شأنه. وهذا الشعور الذي يشعر به المخطيء قد يساعده على تقويم نفسه، مستعيذاً بالله من الشيطان، ساعياً في التخلص مما علق به من أدناس المعاصي، كما يساعده على نسيان خطيئته إذا هو استغفر الله - تعالى - وتاب إليه»^(٣).

وملازمة الشيطان للإنسان لا تعني أن له سلطاناً عليه، بل سلطانه على

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم (١٧/١٥٧): «فأسلم برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان، فمن رفع قال: معناه: أسلم أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال إن القرين أسلم من الإسلام، وصار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير، واختلفوا في الأرجح منهما، فقال الخطابي: الصحيح المختار الرفع، ورجح القاضي عياض الفتح وهو المختار لقوله - ﷺ -: «فلا يأمرني إلا بخير»، واختلفوا على رواية الفتح، قيل أسلم بمعنى استسلم وانقاد، وقد جاء هكذا في غير صحيح مسلم: فاستسلم، وقيل معناه: صار مسلماً مؤمناً، وهذا هو الظاهر».

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان، وبث سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قريناً (٤/٢١٦٨) برقم (٢٨١٥)، وأحمد في المسند (٦/١١٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٧/١٠٢) والحاكم في مستدركه (١/٣٥٢).

(٣) «الأخلاق الإسلامية وأسسها» تأليف الأستاذ عبدالرحمن الميداني (١/١٦٥).

من أسلم زمام قيادته لعدوه الشيطان، واختار سبل الشر والفساد:

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾^(١)

﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾^(٢).

فالشيطان إذاً لا يُضل ولا يفتن إلا من اتبعه، أما من استجاب لدعوة الله - تعالى - وتمسك بحبله المتين، وصراطه المستقيم فليس للشيطان عليه سبيل، وقد تؤثر فيه الوسواس أحياناً، لكنه سرعان ما يتوب، ويُثيب:

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾^(٣).

وبما ينبغي أن يتقرر في الأذهان أن عداوة الشيطان للإنسان عداوة دائمة مادام الإنسان في هذه الحياة، وهي عداوة لا يرجى زوالها، ولا ينتظر انقطاعها، فالإنسان يعيش بعمره القصير في صراع مستمر مع عدوه الشيطان، الذي يبارس ضده كل أنواع المكر والشر والفساد، ومسخرًا كل إمكاناته ووسائله وخبراته لكيد هذا الإنسان، وخذلانه، وإذا كان الله - تعالى - قد حذّرنا من هذا العدو اللدود، ومن تربصه الشر بنا في جميع نواحي الحياة، وكشف لنا عن خطط الشيطان، ووسائله الماكرة التي يكيد بها ضدنا فإن عناية الله - جل وعلا - لم تقتصر على البيان والتحذير من هذا العدو، وإنما دلّ - سبحانه - عباده المؤمنين على الوسائل والأسلحة التي يقاوم بها العبد شر هذا العدو، ويصد بها كيده ومكره، فينهزم صاغراً ذليلاً، ويندحر أمام قذائف الذكر على اختلاف أنواعه، وفي بيان هذه الحقيقة يقول سبحانه: ﴿قل أعوذ

(١) الحجر: (٤٢).

(٢) النحل: (٩٩ - ١٠٠).

(٣) الأعراف: (٢٠١).

برب الناس * ملك الناس * إله الناس * من شر الوسواس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس * من الجنة والناس» (١).

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «مامن مولود إلا على قلبه الوسواس، فإن ذكر الله خنس، وإن غفل وسوس، وهو قوله تعالى: ﴿الوسواس الخناس﴾» (٢).

وقد دلّ - سبحانه - عباده المؤمنين على الوسائل والأسلحة التي يقاومون بها شر هذا العدو، ويدرأون بها كيده، فيولي صاغراً ذليلاً.

نعم إن الله - تعالى - لم يترك عباده سُدى، يواجهون هذا العدو الخفي بجهودهم الضعيفة، واجتهاداتهم القاصرة، لا سيما أنهم يحاربون عدواً يراهم من حيث لا يرونه، ولكن من رحمة الله - عزّ وجل - أن أرشدهم إلى العلاج المناسب، والسلاح القوي الذي يحاربون به عدوهم القديم، فيحبطون خططه، ويخيبون مقصده، فيولي هارباً منهزماً، قد تفرق شمله، واندرح جنده، دون بلوغ مراده.

* وإن أهم الأشياء التي يقاوم بها العبد الشيطان معرفة مداخله، وهذا قد تقدم بيانه بالتفصيل، في مبحث «اتباع الشيطان» من الفصل الثاني في الباب الثاني.

* ومن الأمور المهمة التي يستطيع العبد عن طريقها مقاومة عدوه الشيطان مداومة ذكر الله - تعالى - هذا الأمر العظيم الذي يقول عنه الإمام ابن القيم - رحمه الله -: «والذكر منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عُزل. وهو قوت قلوب القوم، التي متى فارقتها صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً. وهو سلاحهم الذي

(١) سورة الناس.

(٢) تفسير الطبري (١٢/٧٥٣).

يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقههم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل، والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب» (١).

إذا فذكر الله - تعالى - أعظم سلاح يواجه به كيد الشيطان، فما حارب الإنسان عدوه الشيطان بشيء أقوى من ذكر الله - جل وعلا - حيث يتصاغر عدو الله، ويخنس كما تقدم بيانه، ولهذا ثبت في الحديث الصحيح، (وأمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثّل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله...) (٢).

يقول ابن القيم - رحمه الله - تعليقاً على الحديث: «فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة، لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله - تعالى - وأن لا يزال لهجاً بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غفل وثب عليه وافترسه. وإذا ذكر الله - تعالى - انخنس عدو الله - تعالى - وتصاغر، وانقمع» (٣).

ولابد في الذكر - أي ذكر - من توفر شرط، قليل من الناس من يعيه، ذلكم هو تواطؤ القلب مع اللسان، فإذا لم يتوفر هذا الشرط لم ينتفع صاحب

(١) «مدارج السالكين» (٢/٤٤٠)، وانظر «بدائع الفوائد» (٢/٢٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الأمثال، باب ماجاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (٥/١٤٨) برقم (٢٨٦٣) وأحمد في المسند (٤/٢٠٢) وعبدالرزاق في مصنفه (١١/٣٣٩ - ٣٤١) وأبو يعلى في مسنده (٢/٢٣٠) كلهم من حديث الحارث الأشعري - رضي الله عنه - . وهو صحيح . انظر صحيح سنن الترمذي للألباني، الحديث رقم (٢٢٩٨).

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ٤٤ - ٤٥.

الذكر بذكره انتفاعاً حقيقياً، ولهذا يقول الإمام ابن القيم: «وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء. وكان له عوضاً من كل شيء»^(١).

وقال بعض السلف: «إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان»^(٢).

وأود هنا التنبيه إلى أمر يتعلق بالذكر هو من أهم المهمات، ذلكم هو الاستعاذة من الشيطان وشره، ولذا جاء في السنة الحث على الاستعاذة من الشيطان، والمحافظة عليها في مواطن مختلفة، فمن ذلك:

١ - الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن، وفي الحديث: «ياأباذر»^(٣) تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن» قال: قلت: يا رسول الله، وهل للإنس شياطين، قال: «نعم»، الحديث^(٤).

٢ - الاستعاذة من تخطيط الشيطان عند الموت، وقد كان من دعائه - ﷺ - أنه

(١) مدارج السالكين (٢/٤٤١).

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) هو أبو ذر الغفاري، الزاهد، المشهور، الصادق للهجة، اسمه مختلف فيه، والمشهور: جندب بن جنادة بن سكن. أسلم مبكراً، وانصرف إلى بلاد قومه، فأقام بها حتى قدم رسول - ﷺ - المدينة، ومضت بدر وأحد ولم تهياً له الهجرة إلا بعد ذلك، وكانت وفاته بالريذة سنة ٣٢هـ على الأكثر، ويقال إنه صلى عليه ابن مسعود - رضي الله عنه - في قصة رُويت بسند لا بأس به. انظر ترجمته في الإصابة (٤/٦٣، ٦٤).

(٤) أخرجه أحمد في المسند، والنسائي في كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من شياطين الإنس (٢٤٢/٨) والطبراني في معجمه الكبير (٨/٢١٧)، وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/١٦٦) وقال بعد أن ذكر طرق الحديث: «فهذه طرق لهذا الحديث، ومجموعها يفيد قوته وصحته».

كان يقول: «وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت»^(١).

٣ - الاستعاذة من الشيطان عند محاولته تشكيك الإنسان بربه، فقد ثبت في الحديث الصحيح أنه - ﷺ - قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: مَنْ خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله وليتته»^(٢).

٤ - الاستعاذة من الشيطان عند الغضب، فقد ثبت في الحديث الصحيح أن رجلين استبا عند رسول الله - ﷺ - حتى إن أحدهما قد احمر وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال - ﷺ -: «إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه مايجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه مايجد»^(٣).

٥ - الاستعاذة من الشيطان في الصلاة، ولهذا لما أتى أحد الصحابة رسول الله - ﷺ - فقال: يارسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي. يلبسها عليّ. فقال رسول الله - ﷺ -: «ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا

(١) أخرجه أبوداود في كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة (٩٢/٢) برقم (١٥٥٢)، والطبراني في معجمه الكبير (١٧٠/١٩) والنسائي في كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من التردى والهدم (٢٤٩/٨) من حديث أبي اليسر - رضي الله عنه -، وإسناده صحيح، انظر «صحيح سنن أبي داود» للألباني (٢٨٨/١ و ٢٨٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنده (٣٣٦/٦) برقم (٣٢٧٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان (١٢٠/١) برقم (١٣٤) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٣) سبق تخريجه ص ٣٠٤.

أحسسته فتعوذ بالله منه ، واتفل عن يسارك ثلاثاً» قال : ففعلت ذلك ، فأذهب الله عني ^(١) ^(٢) .

ويأتي بعد الذكر من الأمور التي يتحصن بها العبد من الشيطان أمر لا يقل أهمية عن سابقه ، هو عدم موالاة الشيطان ، ذلك لأن من يوالي الشيطان ، ويعصي الرحمن فقد تنكب الطريق المستقيمة ، وخاب ، وخسر خسراناً مبيئاً ، ولتوضيح ولاية الشيطان يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله - : «فأين يذهب من تولى عن توحيد ربه وطاعته ، ولم يرفع رأساً بأمره ودعوته ، وكذب رسوله - ﷺ - وأعرض عن متابعته ، وجاد عن شريعته ، ورغب عن ملته ، واتبع غير سنته ، ولم يستمسك بعهدده ، ومكّن الجهل من نفسه ، والهوى والعناد من قلبه ، والجحود والكفر من صدره ، والعصيان والمخالفة من جوارحه ، فقد قابل خبر الله بالتكذيب ، وأمره بالعصيان ، ونهيه بالارتكاب ، يغضب الرب وهو راضٍ ، ويرضى وهو غضبان ، يحب ما يبغض ، ويبغض ما يحب ، ويوالي من يعاديه ، ويعادي من يواليه ، يدعو إلى خلاف ما يرضى ، وينهى عبداً إذا صلى ، قد ﴿اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ ^(٣) فأصممه وأبكمه وأعماه ، فهو ميت الدارين ، فاقد السعادتَيْن ، قد رضي بخزي الدنيا ، وعذاب الآخرة ، وباع

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة (٤/١٧٢٨) برقم (٢٢٠٣) ، وأحمد في المسند (٤/٢١٦) وعبد الرزاق في مصنفه (٢/٨٥) . والصحابي هو : عثمان بن أبي العاص - رضي الله عنه - .

(٢) وهناك مواضع أخرى للاستعاذة من الشيطان ، وردت في أحاديث صحيحة ، وذلك عند دخول الخلاء ، وعند دخول المسجد ، وعند المضجع ، وعند نهيق الحمير ، ومن أراد التوسع فليراجع كتاب الاستعاذة في كتب الحديث ، ففيه كفاية وغنية بإذن الله .

(٣) الجاثية : (٢٣) .

التجارة الرباحة بالصفقة الخاسرة، فقلبه عن ربه مصدود، وسبيل الوصول إلى جنته ورضاه وقربه عنه مسدود، فهو ولي الشيطان، وعدو الرحمن، حليف الكفر والفسوق والعصيان^(١)، وصدق الله:

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خَسْرَانًا مُبِينًا﴾^(٢).

إذاً إذا أراد الإنسان أن يحترز من الشيطان فليُنظر في أحوال قلبه وأعماله، هل هي كلها وفق مراد الله - تعالى - ومراد رسوله - ﷺ - أو لا؟ فإن كانت الأولى فهو وليٌّ من أولياء الرحمن، وإن كانت الأخرى فليتدارك حياته قبل الانتهاء فقد سار مع الشيطان في طريق واحدة، وإن لم يتدارك ذلك فقد ختم له بالسوء كما ختم لكثير من أهل الشرك والبدع والفجور^(٣)، نسأل الله - تعالى - السلامة والعافية.

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم ص ٢٦.

(٢) النساء: (١١٩).

(٣) انظر «الروح» لابن القيم ص ٣٩٣.

الفصل الثاني سُبل النجاة من الفتنة

وفيه تسعة مباحث :

- المبحث الأول: الاعتصام بالكتاب والسنة.
- المبحث الثاني: لزوم الجماعة.
- المبحث الثالث: قتال من يحاول فتنة المسلمين عن دينهم.
- المبحث الرابع: الصبر.
- المبحث الخامس: اللجوء إلى الله - تعالى - .
- المبحث السادس: مقاومة أسباب الفتنة.
- المبحث السابع: الحذر من الأعداء.
- المبحث الثامن: الحذر من الإشاعات.
- المبحث التاسع: الثقة بنصر الله - تعالى - .

الفصل الثاني سبل النجاة من الفتنة

المبحث الأول الاعتصام بالكتاب والسنة

إن الكتاب والسنة الصحيحة هما المصدر الأساسي للحق، والمنبع الصافي لدين الإسلام، فهما المنهج الكامل لحياة البشر، وهما الميزان الصحيح الذي توزن به الأقوال والأعمال والأفعال، وبالإعراض عنها، والصد عن سبيلهما تقع الفتن، وتحل الرزايا والمحن.

ولقد تضافرت أدلة الكتاب والسنة وأقوال السلف في التنبيه على هذا الأمر العظيم (الاعتصام بالكتاب والسنة)، وأن التمسك بهما سبب رئيس في النجاة من الفتن كلها.

فمن أدلة القرآن على وجوب الاعتصام بالقرآن قوله - عز وجل - :
﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾^(١)، وقد جاء عن السلف تفسيرات عديدة في المراد بالحبل، لا تعارض بينها، ومما ذكروا في تفسير الحبل أنه القرآن^(٢)، وقال الطبري عند قوله سبحانه: ﴿ولا تفرقوا﴾: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ولا تفرقوا﴾ ولا تفرقوا عن دين الله وعهده الذي عهد إليكم في كتابه من الائتلاف والاجتماع على طاعته وطاعة رسوله - ﷺ - والانتهاه إلى أمره»^(٣).

(١) آل عمران: (١٠٣).

(٢) تفسير الطبري (٣/٣٧٩).

(٣) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

وقد لخص الإمام ابن القيم - رحمه الله - حقيقة الاعتصام بالقرآن بقوله :
 «هو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم ، ومعقولاتهم ، وأذواقهم وكشوفاتهم
 ومواجيدهم . فمن لم يكن كذلك فهو مُنسل من هذا الاعتصام . فالدين كله
 في الاعتصام به وبجبله ، علماً وعملاً ، وإخلاصاً واستعانة ، ومتابعة ،
 واستمراراً على ذلك إلى يوم القيامة»^(١) .

وإن هذا الأمر وهو الدعوة إلى الاعتصام بالكتاب والسنة قد جاء مقررّاً في
 القرآن بأساليب الترغيب كما في قوله سبحانه : ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم
 ترحموا﴾^(٢) ، وقوله : ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله
 عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾^(٣) .
 ومن أسلوب التهيب قوله - جل وعلا - : ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول
 واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾^(٤) .

وقرر ربنا - تعالى - هذا الأمر العظيم - الاعتصام بالكتاب والسنة - بوضوح
 عند الحديث عن التحاكم ، وأنه يجب أن يكون إلى الكتاب والسنة ، وإلا وقعت
 الفتنة ، ونزلت المحنة .

﴿يأياها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن
 تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك
 خير وأحسن تأويلاً﴾^(٥) .

ففي هذه الآية الكريمة أمر - عز وجل - برد تنازع الناس كله ، في أصول

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٣٨) .

(٢) آل عمران : (١٣٢) .

(٣) النساء : (٦٩) .

(٤) المائدة : (٩٢) .

(٥) النساء : (٥٩) .

الدين وفروعه إلى الكتاب والسنة، وأن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، وأنه لا سلامة للأمة من جميع الفتن، وخاصة فتنة الافتراق والاختلاف إلا باتباعهما^(١).

وكما تواترت أدلة القرآن على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، فقد جاءت كذلك أدلة السنة على هذا النحو أيضاً، فقد ثبت في الحديث الصحيح أن الرسول - ﷺ - وعظ الصحابة موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، ف قيل: يا رسول الله، وعظتنا موعظة مودع، فاعهد إلينا بعهد، فقال - ﷺ -: «عليكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، وسترون بعدي اختلافاً شديداً. فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمور المحدثات، فإن كل بدعة ضلالة»^(٢). وفي الحديث الآخر: «يا أيها الناس: إني قد تركت فيكم، ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، كتاب الله وسنتي»^(٣). وفي الحديث الصحيح أيضاً: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا

(١) تفسير السعدي (٢/ ٨٩ - ٩٠) وانظر تفسير القرطبي (٥/ ١٦٩).

(٢) أخرجه أبوداود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٤/ ٢٠١) برقم (٤٦٠٧)، والترمذي في كتاب العلم، باب ماجاء في الأخذ بالسنة، واجتناب البدع (٥/ ٤٤) برقم (٢٦٧٦)، وابن ماجة في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (١/ ١٥) برقم (٤٢)، وأحمد في المسند (٤/ ١٢٦) والحاكم (١/ ٩٥) كلهم من حديث العرياض بن سارية - رضي الله عنه - وإسناد الحديث صحيح، انظر «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» للألباني (٨/ ١٠٧).

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب النهي عن القول بالقدر، ص ٦٤٨، برقم (١٦١٩)، والحاكم في مستدركه (١/ ٩٣)، وابن حزم في الأحكام (٦/ ٨٠٩)، وهو صحيح، من حديث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -.

يوشك رجل شعبان على أريكته^(١)، يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، وإن ما حرم رسول الله - ﷺ - كما حرم الله^(٢).

فهذا الحديث كله تخويف وتحذير من مغبة مخالفة سنة النبي - ﷺ - مما ليس له في القرآن ذكر، على ما ذهب إليه كثير من الفرق المبتدعة^(٣)، حتى فُتِنوا، وفتنوا^(٤).

وكما أجمعت الأدلة من السنة على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، وعرفنا أنه بالإعراض عنهما تحصل الفتنة، وتحل المحنة، فقد أجمعت كذلك أقوال السلف الصالح - رحمهم الله تعالى - على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، وأن الفتنة تحدث إذا خالف الناس هذين المصدرين العظيمين.

فهذا ابن عباس - رضي الله عنهما - يأتيه رجل، ويقول له: أوصني، فيقول - رضي الله عنه -: «عليك بالاستقامة، واتباع الأثر، وإياك والتبدع»^(٥).

وهذا الإمام القرطبي - رحمه الله - يقول - وهم يعلق على قوله تعالى:

(١) الأريكة: السرير، انظر «مختار الصحاح» ص ١٤ مادة (أرَك).

(٢) أخرجه أبوداود في كتاب السنة، باب لزوم السنة (٢٠٠/٤) برقم (٤٦٠٤)، والترمذي في كتاب العلم، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي - ﷺ - (٣٧/٥) برقم (٢٦٦٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦/١) برقم (١٢)، وأحمد في المسند (١٣٠/٤)، والحاكم (١٠٨/١، ١٠٩) وصححه، ووافقه الذهبي.

والحديث من رواية المقداد بن معديكرب.

(٣) مثل المعتزلة والرافضة قديماً، والقرآنيين والمستشرقين وتلاميذهم حديثاً.

(٤) انظر «الإبانة» لابن بطة (٢٢٣/١).

(٥) أخرجه الدارمي في سننه (٥٣/١) وابن بطة في الإبانة (٣٣٧/١ - ٣٣٩).

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾^(١): «أوجب تعالى علينا التمسك بكتابه، وسنة نبيه - ﷺ -، والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمر بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً، وذلك سبب اتفاق الكلمة، وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين»^(٢).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «يجب أن يعلم يقيناً أنه لا يسوغ لأحد كائناً من كان ما كان يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة، وهذا مما اتفق عليه أولياء الله - عز وجل -، ومن خالف في هذا فليس من أولياء الله - سبحانه - الذين أمر الله باتباعهم، بل إما أن يكون كافراً، وإما أن يكون مفرطاً في الجهل، وهذا كثير في كلام المشايخ، كقول الشيخ أبي سليمان الداراني^(٣): إنه يقع في قلبي النكته من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة»^(٤).

وهكذا نرى توافر الأدلة على هذا الأصل العظيم، مما يبرهن بوضوح أن المسلم لا يمكن أن ينجو من الفتن، كل الفتن، إلا إذا تمسك بهذا الأصل، واتخذ منه جأ يسير عليه، ويثبت عليه حتى الممات، وأن الإعراض عن تحكيم هذين المصدرين العظيمين سبب كبير لحصول الفتن، وبخاصة عند الاختلاف، فإن مسائل النزاع التي تتنازع فيها الأمة في الأصول والفروع، إذا لم ترد إلى الكتاب

(١) آل عمران: (١٠٣).

(٢) تفسير القرطبي (١٠٥/٤).

(٣) هو عبدالرحمن بن أحمد بن عطية العنسي الداراني، نسبة إلى (داريا) قرية من قرى دمشق، إمام كبير، وزاهد مشهور، توفي سنة ٢١٥هـ.

انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٨٢/١٠ - ١٨٦) وحلية الأولياء (٢٥٤/٩).

(٤) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ص ١٦١، وانظر «مجموع الفتاوى» (٦٢٣/١١).

والسنة الصحيحة لم يتبين فيها الحق ، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم ، فإن رحمهم الله - تعالى - أقرَّ بعضهم بعضاً ، ولم ينبغِ بعضهم على بعض ، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم ، فبغى بعضهم على بعض ، إما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه ، وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله ، وأيُّ فتنة أعظم من هذه الفتنة ؟!

المبحث الثاني لزوم الجماعة

إن من أهم الأمور التي ينجو بها المسلم من فتنة الصد عن سبيل الله - تعالى -، وفتنة الاختلاف والتفرق لزوم الجماعة(*)، والحذر من أسباب الفرقة والاختلاف.

وإن في شرع ربنا المطهر، المتمثل في الكتاب والسنة ما يدعو إلى لزوم الجماعة بقوة، ويحذر من الاختلاف ألياً تحذير.

قال ربنا - عز وجل - : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾^(١)، وما جاء في تفسير الحبل ههنا أنه : لزوم الجماعة^(٢)، وقال عبدالله بن المبارك^(٣) - رحمه الله - :

(*) المراد بالجماعة هنا : الفرقة الناجية التي أمر الله - تعالى - بلزومها إذا وقعت الفرقة، وهي السواد الأعظم، الموافقون لما كان عليه النبي - ﷺ - . انظر «وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق» لجمال بادي ص ٩٨.

(١) آل عمران : (١٠٣).

(٢) انظر تفسير الطبري (٣/٣٧٨)، والقرطبي (٤/١٠٢).

(٣) هو عبدالله بن المبارك بن واضح، أبو عبدالرحمن الحنظلي، عالم زمانه، وأحد أعلام الإسلام الكبار، ارتحل طلباً للعلم إلى الحرمين، والشام، ومصر، والعراق، والجزيرة، وخراسان، وحديث بأماكن، وصنف المصنفات النافعة، ومناقبه وفضائله كثيرة جداً، توفي سنة ١٨١ هـ. انظر سير أعلام النبلاء (٨/٣٧٨)، وتهذيب التهذيب (٣/٢٤٧).

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا منه بعروته الوثقى لمن دانا^(١)
وثبت في الحديث الصحيح : «نضر الله عبداً سمع مقالتي هذه، فحملها،
فرب حامل الفقه فيه غير فقيه، ورب حامل الفقه إلى مَنْ هو أفقه منه، ثلاث
لا يغفل عليهن صدر مسلم، إخلاص العمل لله - عز وجل - ومناصحة أولي
الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»^(٢).
وثبت في الحديث الصحيح كذلك: «إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة،
ويد الله مع الجماعة، ومن شذَّ شذَّ إلى النار»^(٣).
وفي الحديث الآخر: «لا يجمع الله هذه الأمة على ضلالة أبداً - قال: يد
الله على الجماعة، فاتبعوا السواد الأعظم، فإنه من شذَّ شذَّ في النار»^(٤).

وإذا كانت أدلة الكتاب والسنة قد جاءت بالحث على لزوم الجماعة، فقد
جاءت أدلة أخرى أيضاً بالتحذير من الفرقة والاختلاف.
قال الله - تعالى - : «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم
البينات وأولئك لهم عذاب عظيم»^(٥)، وقال سبحانه : ﴿إن الذين فرقوا دينهم

(١) تفسير القرطبي (٤/١٠٢).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٨٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» برقم (٩٤) من حديث
أنس بن مالك - رضي الله عنه - وإسناد الحديث صحيح . انظر السلسلة الصحيحة
للألباني برقم (٤٠٤).

(٣) رواه أبوداود في كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها (٤/٩٨) برقم (٤٢٥٣)،
والترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة (٤/٤٦٦) برقم (٢١٦٧)، وابن
بطة في «الإبانة» (١/٣٤٧ - ٣٤٨) برقم (٢٢٢)، وإسناد الحديث صحيحه الألباني في
تخريج المشكاة ص ١٧٣، والحديث من رواية عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - .

(٤) رواه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» برقم (١٥٤) من حديث ابن عمر - رضي الله
عنهما - وقال محقق الكتاب : سنده حسن . (٥) آل عمران : (١٠٥).

وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يعملون»^(١).

يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله - تعليقاً على الآية الكريمة: «والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله - ﷺ - بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد، لا اختلاف فيه، ولا افتراق، فمن اختلفوا فيه وكانوا شيعاً وفاقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله قد برأ رسول الله - ﷺ - مما هم فيه»^(٢).

وكما جاء القرآن بالتحذير من الفرقة، فقد جاء ذلك أيضاً في السنة الشريفة، فقد ثبت في الحديث الصحيح أنه - ﷺ - قال: «من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربة الإسلام من عنقه»^(٣).

وثبت في الحديث الصحيح كذلك: «من فارق الجماعة فإنه يموت ميتة جاهلية»^(٤)، وفي الحديث الآخر: «إن الله أمرني بالجماعة، وأنه من خرج من الجماعة شبراً فقد خلع ربة الإسلام من عنقه»^(٥).

(١) الأنعام: (١٥٩).

(٢) تفسير ابن كثير (١٩٦/٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٨٠/٥) والحاكم (١١٧/١)، وأبوداود في كتاب السنة، باب في قتل الخوارج (٢٤١/٤) برقم (٤٧٥٨) من حديث أبي ذر - رضي الله عنه - وصححه الألباني. انظر صحيح سنن أبي داود (٩٠٢/٣).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (١٣٣/٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» برقم (٩١) من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما -، وإسناده حسن، انظر السلسلة الصحيحة للألباني (٧١٥/٢) برقم (٩٨٤).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (١٣٠/٤، ٢٠٢)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» برقم (١٥٧) وقال محقق الكتاب: إن هذا الحديث بمجموع طرقه حسن.

وكما جاءت الآيات والأحاديث بالحث على لزوم الجماعة، والتحذير من
الفرقة، فقد اتبع سلفنا الكرام هذا الإرشاد من الكتاب والسنة، وحرصوا على
التآلف والاجتماع حتى وإن كانوا مختلفين في مسائل يقع فيها الاجتهاد، ولم يكن
ذلك الاختلاف سبب تفرق ووحشة، أو نزاع ومخاصمة، أو مفاصلة وهجران،
بل بقيت الأخوة الإيمانية، والمودة قائمة وثابتة.

نعم لقد كان ذلك دأب السلف الصالح، الذين كانوا يختلفون،
ويتناظرون مناظرة مناصحة ومشاورة، مع بقاء الألفة والمحبة بينهم.

فالصحابة كم حصل بينهم من مسائل النزاع من هذا النوع في أبواب
العبادات والمعاملات؟ بل وفي مسائل قليلة من أمور الاعتقاد، وكتب أهل
العلم مليئة بالأمثلة..

ومع ذلك لم يعرف أن ذلك كان سبب خصومة وشقاق وهجران بينهم،
وخُذ على سبيل المثال هذه القصة التي كانت من عبدالله بن مسعود - رضي الله
عنه - فإن عثمان - رضي الله عنه - لما أتم صلاة الظهر والعصر بمنى أربعاً قال
عبدالله: لركعتان متقبلتان أحب إليّ من أربع، ولكنني أكره الخلاف في الدين،
وصلّى مع الخليفة أربعاً مع أن له مستنداً من سنة الرسول - ﷺ -، ولم يؤد
الاختلاف بين الصحابين إلى شقاق أو بغضاء^(١).

ثم تأمل كذلك هذه الحادثة التي وقعت للإمام الشافعي - رحمه الله - فإنه
لقي يوماً يونس الصدي^(٢) - رحمه الله - فناظره في مسألة، فافترقا، ثم لقيه بعد

(١) انظر «مراجعات في فقه الواقع السياسي والفكري» إعداد وحوار الأستاذ عبدالله الرفاعي

ص ٨٩.

(٢) هو يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة بن حفص بن حيان الصدي المصري، المقرئ الحافظ،
كان من كبار العلماء في زمانه، وكان ذا عقل وحفظ، مقدماً في العلم والخير والثقة حتى قال =

ذلك، فأخذ بيده، وجعل يقول: ألا يستقيم أن نكون إخواناً، وإن لم نتفق في مسألة^(١).

هذا وإن مما ابتليت به أمتنا اليوم ذلك التعصب الممقوت، لأشخاص معينين، ومعادة آخرين رغم أنهم من حملة الإسلام، ودعاة القرآن، وإن هذا لنذير هلاك إن لم نتبه لذلك، ونتدارك أنفسنا بالتآلف فيما بيننا، وترك التحاسد والتباغض، فلقد حذر سلفنا الكرام من هذا الفعل الذميمة، والجرم الشنيع؛ كل ذلك لما يترتب عليه من نتائج فاسدة، وعواقب وخيمة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته، ويوالي، ويعادي عليها، غير النبي - ﷺ -، ولا ينصب لهم كلاماً يوالي عليه ويعادي غير كلام الله ورسوله، وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرقون به بين الأمة، يوالون به على ذلك الكلام، أو تلك السنة، ويعادون»^(٢).

= عنه يحيى بن حسان التَّيْسِي: يونسكم هذا ركن من أركان الإسلام، توفي غداة يوم الاثنين سنة ٢٦٤ هـ.

انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٣٤٨/١٢) وتهذيب التهذيب (٢٧٨/٦).

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/١٦)، وانظر «فقه التعامل مع المخالف» للأستاذ عبدالله الطريقي ص ٥١ وما بعدها.

(٢) مجموع الفتاوى (١٦٤/٢٠).

* أسباب التفرق والاختلاف

إن المتأمل في أسباب الفرقة والاختلاف يجد أن أبرزها ثلاثة أسباب :
الابتداع ، واتباع الهوى ، والتعصب والتحزب .

١ . الابتداع

والابتداع هو : ما خالف الكتاب والسنة أو إجماع سلف الأمة ، من
الاعتقادات والعبادات ، وكل من دان بشيء لم يشرعه الله فذاك بدعة ، وإن كان
متأولاً فيه^(١) .

وإن مما لا شك فيه أن للبدعة أثراً كبيراً في إلقاء العداوة ، والبغضاء بين
أهل الإسلام ، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « والبدعة
مقرونة بالفرقة ، كما أن السنة مقرونة بالجماعة »^(٢) .

وزيادة على أن البدعة تورث العداوة والبغضاء بين الناس ، فهي تورث
أهلها الخزي في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -
عند قوله - تعالى - : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾^(٣) قال : « تبيض وجوه
أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة »^(٤) .

(١) انظر مجموع الفتاوى (٣٤٦/١٨) والاستقامة لشيخ الإسلام (٤٢/١) ، ومقدمات في
الأهواء والافتراق والبدع للأستاذ ناصر العقل ص ٢٦ .

(٢) الاستقامة (٤٢/١) .

(٣) آل عمران : (١٠٦) .

(٤) تفسير ابن كثير (٣٩٠/١) .

وفي الحديث الصحيح : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(١) .
وقال ابن مسعود - رضي الله عنه - : «الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة»^(٢) .

ومن هنا يتبين لنا أن البدع هي سبب كل بلاء، وعلة كل فتنة، فقد كان المسلمون أمة واحدة، وجماعة واحدة، متآلفين على عقيدة واحدة، ومنهج واحد، على أيام رسول الله - ﷺ - ثم في خلافة أبي بكر وعمر، وبعد مقتل الخليفة الثاني بدأت الفتنة تطل برأسها، ولا زال أهل الشر يسعون في الغواية حتى قُتل عثمان - رضي الله عنه - فتوالت الفتن، وتتابع، وبدأت فرق الأهواء والبدع في الظهور^(٣)، ففرقت الكلمة، وبدأ الانشقاق عن جماعة المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

٢. اتباع الهوى

وهو في اللغة : «حبة الإنسان للشيء، وغلبته على قلبه»^(٤) .
وفي الاصطلاح : «ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع»^(٥) .
واتباع الهوى من أهم أسباب نشأة كثير من الفرق الضالة، والطوائف

-
- (١) أخرجه البخاري في كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، (٣٠١/٥) برقم (٢٦٩٧) ومسلم في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٣٤٣/٣) برقم (١٧١٨) كلاهما من حديث عائشة - رضي الله عنهما - .
(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (١٠٣/١) وصححه، ووافقه الذهبي .
(٣) مثل الرافضة، والخوارج، والمرجئة، والجهمية .
(٤) لسان العرب (٣٧٢/١٥) مادة (هوا) .
(٥) «التعريفات» للجرجاني ص ٣٢٠ .

المنحرفة، لأن أصحاب هذه الفرق قدّموا أهواءهم على الشرع أولاً، ثم حاولوا جاهدين أن يستدلوا بالشرعية على أهوائهم، وحرفوا النصوص والأدلة لتوافق ما هم عليه من البدع، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، بل اعتمدوا على آرائهم وعقولهم في تقرير ما هم عليه، ثم جعلوا الشريعة مصدراً ثانوياً، نظروا فيها بناءً على مآزره وأصلوه، ولأجل ذلك كان السلف يطلقون على أهل البدع، وفرق الضلال لفظة «أهل الأهواء»^(١).

وإن جميع البدع والمعاصي التي تنتشر في المجتمعات إنما تنشأ من تقديم هوى النفوس على ما في كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - ﷺ - ولذا جاء التحذير في الكتاب والسنة من اتباع الهوى، فقال سبحانه: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾^(٢)، وقال: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾^(٣).

وثبت في الحديث الصحيح: «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء»^(٤).

وفي الحديث الآخر: «إن مما أخشى عليكم بعدي بطونكم وفروجكم ومضلات الأهواء»^(٥).

حقاً إن الهوى أصل كل شر، وأساس كل بلوى، وإحداث في الدين على

(١) وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق ص ١٨٩.

(٢) القصص: (٥٠).

(٣) ص: (٢٦).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات، باب دعاء أم سلمة (٥/٥٧٥) برقم (٣٥٩١) وهو في صحيح سنن الترمذي للآلباني برقم (٢٨٤٠).

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة برقم (١٤)، وصححه الآلباني.

غير منهج قويم ، ولا طريق مستقيم ، ومن هنا يتبين لنا أن اتباع الهوى مما يوقع في الفرقة والاختلاف والخروج عن الجماعة التي أمر الإنسان بلزومها ، وخاصة فيما يتعلق باتباع الهوى في الديانات ، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الهوى في الشهوات »^(١) .

وكان اتباع الهوى موجباً للفرقة والاختلاف لأنه خروج عن الالتزام بالكتاب والسنة ، وإخراج المرء من اتباع الهوى من أعظم مقاصد الشريعة ، « فإن المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً »^{(٢)(٣)} .

٣ . التعصب والتحزب

وأعني بالتعصب أن يجعل العبد ما يصدر عن شخص مامن الرأي والاجتهاد حجة عليه وعلى سائر العباد .

وأعني بالتحزب : التجمع لشخص أو طائفة أو نحوهما ، والاعتقاد أنهم على حق ، وغيرهم على باطل .

والتعصب والتحزب شيمة من شيم الضعف ، وخلتان من خلل الجهل ، يبتلى بهما الإنسان ، فتعميان بصره ، وتغشيان على عقله ، فلا يرى حسناً إلا ما حسن في رأيه ، ولا صواباً إلا ما ذهب إليه ، أو من يتعصب ويتحزب له .

(١) مجموع الفتاوى (١٣٢/٢٨) .

(٢) « الموافقات في أصول الشريعة » للشاطبي (١٢٨/٢) .

(٣) إذا أراد المرء أن ينظر إلى مثال يبين له أن اتباع الهوى يوقع في الفرقة والاختلاف ، فلي نظر إلى سبب نشأة كثير من الفرق الضالة ، والمذاهب المنحرفة ، فإنه سيجد أن نشأتها بسبب مسلك من مسالك الهوى الخفية ، حتى حاولوا بعد ذلك البحث عن دليل شرعي ، ليبرروا لأنفسهم ولغيرهم صحة ما هم عليه !

ولهذا ذمَّ الله - تعالى - ورسوله - ﷺ - هذه الخصلة ، وحذراً منها أياً تحذير ، قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ ﴾ (٢) .

وثبت في السنة الشريفة أن عدي بن حاتم (٣) - رضي الله عنه - قال : « أتيت النبي - ﷺ - وفي عنقي صليب من ذهب ، فقال لي : « اطرح هذا الوثن من عنقك » ، قال : فطرحت . قال : وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة ، وقرأ هذه الآية : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٤) قال : فقلت : يا رسول الله ، إنا لسنا نعبدهم ، قال : « أليس يحرمون ما أحل الله ، فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه ؟ » قال : قلت : بلى . قال : « فترك عبادتهم » (٥) .

هذا وإن مما يؤلم القلوب ، ويقطع الظهور هذا الخلاف الواقع بين كثير من المنتسبين للإسلام (أحين غرهم الشيطان ، وضحك عليهم ، فزين لهم الاقتتال فيما بينهم بحرب كلامية) لا تزيدهم إلا تباعضاً وحقداً وأشغلهم (عن النظر

(١) البقرة : (١٧٠) .

(٢) البقرة : (٩١) .

(٣) هو عدي بن حاتم بن عبد الله بن الحشر الطائي ، أسلم في سنة تسع أو عشر من الهجرة ، وكان نصرانياً قبل ذلك ، وثبت على إسلامه في الردة ، وشهد فتح العراق ، ثم سكن الكوفة ، وأثر عنه أنه قال : ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلّا وأنا على وضوء ، توفي سنة ٦٨ هـ ، قيل وهو ابن مائة وعشرين سنة .

انظر ترجمته في «الإصابة» (٢/٤٦٨) .

(٤) التوبة : (٣١) .

(٥) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة التوبة (٥/٢٧٨) برقم (٣٠٩٥) .

وحسنه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي (٣/٥٦) برقم (٣٣٠٦) .

في أمور المسلمين، فلم تؤلهم دماء الأبرياء من المسلمين، التي تنزف تحت برائن القهر الكافر، ولم تقض مضاجعهم أعراض المسلمين التي تنتهك تحت وطأة المجرمين، ولم يوجع قلوبهم تفشي الجهل في كثير من المنتسبين إلى الإسلام! أقول: هذا الخلاف الواقع بين أولئك قد علا سهمه، وراج سوقه، ونفقت بضاعته، رغم أنه خلاف في مسائل اجتهادية، يعذر المخالف فيها^(١). ولقد وُجد في زماننا هذا أناس قد غرهم الشيطان، وزين لهم أعمالهم، فهم يعمهون!

أناس سمووا أنفسهم بالسلفيين، ورموا غيرهم بالابتداع، ووصفوههم بالأوصاف السيئة، والحصال الشنيعة، ممن لا يصدق عليهم هذا الوصف مطلقاً، فنشأت عن ذلك حزبية ممقوتة، وتعصب مذموم، لا تزال آثارها الموجعة، تعصف بأبناء الأمة إلى وقتنا هذا!

وكان مما ألمني وأثار أشجاني وآلامي أنني قابلت أحد السالكين لهذا المسلك المشين، فحدثني، وحدثته، ولم أكن أعرف سلوكه هذا إلا بعد أن أنكر عليّ أني أهل بين يدي كتاباً لداعية من أكبر دعاة الإسلام في هذا العصر^(٢)، وكأنه مستدع من أكبر مبتدعي هذا الزمان، ولم يكن إنكاره عليّ لشيء إلا لأن شيوخه الذين يتسمون بالسلفيين لا يحبونه، ولا يقرأون له، يفعل ذلك رغم أن السلف حذروا من محاكاة الرجال في اعتقاداتهم وأقوالهم، وإن كانوا مشهورين^(٣).

ولابد من الإشارة هنا إلى أنه وإن وردت كلمة «السلفية» في الآثار إلا أنها إذا استخدمت للتحزب والتعصب إلى فريق معين فإنها تكون ممقوتة في الشرع،

(١) قد تقدمت بُد من كلام السلف، تبين أن الخلاف في المسائل الاجتهادية لا يجوز أن يؤدي إلى الخصام، ونشوء الأحقاد.

(٢) هو الأستاذ محمد قطب - ثبته الله -، والكتاب هو: «العلمانيون والإسلام».

(٣) انظر «أدب الدنيا والدين» للماوردي ص ٧٨، و«موقف المسلم من الخلاف» للشيخ عبد الرحمن البراك ص ٢٩.

فقد جاء في السيرة في أحد مغازي النبي - ﷺ - أنه أقتل غلامان : غلام من المهاجرين ، وغلام من الأنصار ، فنادى المهاجر : ياللمهاجرين ، ونادى الأنصاري : يالأنصار ، فخرج رسول الله - ﷺ - فقال : «ما هذا ، دعوى أهل الجاهلية ؟ ! دعوها فإنها منتنة»^(١) ، مع أن هذين الاسمين (المهاجرين والأنصار) جاء بهما القرآن ، وهما محبوبان لله - تعالى - ، ولرسوله - ﷺ - ، ولما استخدمنا لنوع من العصبية صار ذلك من فعل الجاهلية ، وأخبر - عليه الصلاة والسلام - أن هذه الدعوى منتنة ؛ لأنها تدعو إلى التفرق والتفكك^(٢) .

وقريب من هذا ما حصل لابن عباس - رضي الله عنهما - حين سُئل : أنتت على ملة عليّ ، أو على ملة عثمان ؟ فقال : لست على ملة علي ولا على ملة عثمان ، بل أنا على ملة رسول الله - ﷺ -^(٣) .

ولقد كان من آثار ذلك التحزب الممقوت أنه نشأ فثام من الناس ، غلّوا في طائفة من العلماء ، وأعرضوا بكليتهم عن جمع من العلماء والدعاة والمصلحين ، من أولئك الرجال الذين يستنار بأقوالهم ، ويستفاد من فهمهم ، وماذاك إلا من تلبس الشيطان عليهم ، ثم إن شيوخ هؤلاء لو كانوا عقلاء حقاً لأنكروا عليهم هذا الفعل الذميم ، كما كان السلف يفعلون ذلك ، فهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول على المنبر : «إذا أصبت فأعينوني ، وإذا أخطأت فقوموني» فقال له رجل من بين الناس : «إذا أخطأت قومناك بسيوفنا» ! يقول عمر ما قال ، ويرضى بالرد ، لأنه لا يرضى بتعبيد الناس للناس ، ومصادرة

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً (٤/١٩٩٨) برقم (٢٥٨٤) من حديث جابر - رضي الله عنه - .

(٢) «الهوى وأثره في الخلاف» للأستاذ عبد الله الغنيان ص ١٩ .

(٣) «الإبانة» لابن بطة ، الحديث رقم (٢٣٨) .

عقولهم، وتغيبهم عن الساحة، بل يطالبهم بالمشاركة، والناس لا يرضون بالتبعية والعجز، وهكذا تبني الأمم.

وإن من المؤسف جداً أنه بلغ من جراء ذلك التحزب لطائفة معينة أن بعضهم قد ضحك الشيطان عليهم، فتركوا الاشتغال بعيوب أنفسهم، وصار همهم الأوحـد، وشغلهم الشاغل أن ينصبوا شبابهم لرجال من علماء الإسلام ودعاته، قد سخرُوا جهودهم وطاقاتهم لخدمة الإسلام وأهله، فأخذ هؤلاء يرمونهم بأبشع الألفاظ، وأخس الأفعال، بل لقد بلغ بهم الخذلان من الله - تعالى - أنهم أخذوا يطلقون لفظ «الكفر» على هؤلاء العلماء والدعاة - عياداً بالله تعالى -.

وهذا والله من أعظم البلاء الذي أصيب به بعض الناس في هذا العصر. وإن رمي الإنسان بالكفر وهو منه براء جرم عظيم، وخطر كبير، ذلك لأن من رمى أحداً بالكفر وهو منه بريء - رجع عليه - ولربما ختم له بالسوء، فمات كافراً، - نعوذ بالله تعالى - من هذه الحال.

ومن هنا فإنه ينبغي أن يفهم جيداً أنه ليس من حق كل أحد أن يطلق التكفير، أو يتكلم بالتكفير على الجماعات، أو على الأفراد، إذ هو من صلاحيات أهل العلم، الراسخين فيه، الذين يعرفون الإسلام ونواقضه، ويدرسون واقع الناس والمجتمعات، هؤلاء هم أهل الحكم بالتكفير، أما الجهال، وأفراد الناس، وأنصاف المتعلمين فلا يجوز لهم التكفير، وإن لم يتوبوا من هذا الفعل فهم على خطر عظيم^(١).

(١) انظر «مراجعات في فقه الواقع السياسي والفكري» ص ٥١، ٥٠، «إلى متى هذا الخلاف» لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ص ٥٣.

المبحث الثالث قتال من يحاول فتنه المسلمين عن دينهم

إن الجهاد في سبيل الله - تعالى - ليس من الأمور الاختيارية التي يسع المسلمين تركها، ولا لهم مندوحة في عدم أدائها، ولكنه قاعدة عريضة من قواعد الدين، ومطلب من متطلباته الحتمية، وهي أساس عز المسلمين، وفلاحهم في الدنيا والآخرة.

ولو أن الأمة الإسلامية تقاعست عن الجهاد، وفضلت السلامة، وأخلدت إلى الراحة، وركنت إلى الدعة، واستبدلت الجهاد بالقصور والانكباب على الملذات والشهوات لسلط الله عليها أعداءها، فأذاقوها لباس الذل والهوان، والخوف والبؤس، وهذه كلها داخلة في الفتنة المذكورة مرتين في قوله تعالى: ﴿والفتنة أشد من القتل﴾^(١) ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾^(٢).

وما حصل هذا الذل الذي تعيشه الأمة اليوم من تسلط الأعداء، وشماتة الخبيثاء إلا لأنها تركت هذا الواجب العظيم في دينها، هذا الواجب الذي إذا قام به المسلمون خير قيام اندفعت عنهم مكائد الكافرين، ونالوا بذلك العزة في الدنيا والآخرة: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل

(١) البقرة: (١٩١).

(٢) البقرة: (٢١٧).

والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم»^(١).

لقد أبلى رسول الله - ﷺ - وأصحابه في قتال الكفار بلاءً حسناً، حتى أظهر الله - تعالى - دينه، ونعم الخلق بحكم القرآن، وعدل المسلمين، وانكسرت شوكة الكفر، واختفى أهل الباطل، وزالت العوائق كلُّها، وصارت كلمة الله - تعالى - هي العليا، والقوة تحميها وتسندها، وكلمة الباطل هي السفلى، وأهلها مخذولون.

ولقد استغرق القرآن الكريم والسنة الشريفة في توضيح هذا المعنى، ولم يتركاً مزيداً عليه.

فلماذا كل هذا الاعتناء بهذه الشعيرة الإسلامية؟

لماذا هذا الاهتمام البالغ، والعناية الكبيرة بأمر الجهاد؟

ذلك لأن المجتمع المسلم ذا الطبيعة الرسالية مهدد بنزول الفتنة في صفوفه، وبالتدهور من أركانه نحو نهايته، وبسوء المصير حين يفتر أو يغفل عن الجهاد في سبيل الله - عز وجل -.

نعم إن الجهاد في الإسلام هو أساس قوة الأخلاق والسلوك، وأساس قوة التربية والإيمان، وأساس قوة الدولة والسياسة، كما أنه أساس قوة المجتمع المسلم النفسي والمعنوي.

الجهاد في سبيل الله «هو الفكرة المصلحة، تريد أن تضرب في الأرض وتعمل»^(٢).

(١) التوبة : (١١١).

(٢) «المشوق في الجهاد» تأليف الأستاذين عدنان الرومي وعلي الهزاع ص ١١١.

* الهدف من قتال الكفار^(١)

المتأمل في الهدف الذي شرع له القتال في الإسلام يجد أنه لا يخرج عن هدفين رئيسين:

١ - دفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الدين، ويعلنون تحررهم من حاكمية الإنسان ويرجعون بعبوديتهم لله وحده، ويخرجون من العبودية للعبيد في جميع الصور والأشكال، فهذا لا يتم إلا بوجود عصابة مؤمنة ذات تجمع حركي تحت قيادة تؤمن بهذا الإعلان العام، وتنفذه في عالم الواقع، وتجاهد كل طاغوت يعتدي بالأذى والفتنة على معتنقي هذا الدين، أو يصد بالقوة، وبوسائل الضغط والقهر والتوجيه من يريدون اعتناقه .
وجعل الله - عز وجل - الغاية من القتال زوال الفتنة عن الدين، لأن القيمة للعقيدة، والقتال من أجلها، والموالة والمعاداة في سبيلها، والجنابة على العقيدة أشد من الجنابة على النفس والمال والوطن، ولهذا لا تجوز مسالة الجاني على العقيدة بمختلف المطاعن، في أي وسيلة من وسائل الشر الظاهر أو الدس الخفي في وسائل التعليم، وإن أبدى المسالة والمصادقة في الأمور السياسية رعاية لمصالحه، فإنه لا يجوز للقيادة الإسلامية تركه يستجم، وينمو على حساب العقيدة أبداً .
ومن كانت غضبته لمصالحه أو كرامته الشخصية أشد من غضبته للدين فليس من الله في شيء، حيث لا يغضب إلا لنفسه، ويسالم الجاني إذا تمّلقه .

(١) كلمة الكفار هنا عامة، تصدق على كل من لم يتمثل الإسلام حياة ومنهجاً وسلوكاً، سواء كان من اليهود أو النصارى، أو العلمانيين، أو المنافقين، أو الرافضة، أو غيرهم من طوائف الكفر والضلال .

إن الواجب على كل مسلم التمعن في حقيقة قوله - عز وجل - : ﴿والفتنة أشد من القتل﴾^(١)، والتمعن أيضاً في سبب عداوة الكافر والملحد والمنافق للدين بقوله تعالى : ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾^(٢) فإنهم لا يتركون حرب المسلمين بجميع أنواع الحرب الكاوية والباردة، الحرب الفكرية والعسكرية حتى يردوا من استطاعوا رده عن دينه شيباً وشباباً، رجالاً ونساءً^(٣).

نعم إن قتال هؤلاء الكفار حماية للأرواح والأموال من القتل والنهب، وحماية للدين والعقيدة من أن تحرف، أو تغير وتُبدل.

حماية للأرواح من القتل والإزهاق، وحماية للأموال والممتلكات من الإتلاف، وأهم من ذلك كله حماية العقيدة التي يحملها المسلمون في قلوبهم، ويدخل في حماية العقيدة إزالة الضغوط والحواجز التي تحول بين الناس والإسلام. وإن تلك الضغوط والحواجز كانت ولا تزال قائمة في كثير من البلاد، سواء تمثلت في أوضاع وأنظمة قائمة على الكفر والجاهلية، مسيطرة على الحياة العامة، يترتب عليها الناس، أو تمثلت في قوانين تمنع من الدخول في الإسلام، أو تمثلت في تعذيب من أسلم، وإكراهه على الردة.

فرفع راية الجهاد إذاً هو تحرك عملي مشروع لرفع هذه الفتنة، وإزالتها بالكلية، أو تخفيفها والحد منها^(٤).

٢ - تحطيم كل قوة في الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر في صورة

(١) البقرة: (١٩١).

(٢) البقرة: (٢١٧).

(٣) «صفوة الآثار والمفاهيم» للشيخ عبدالرحمن الدوسري - رحمه الله - (٣/٢٢٦، ٢٢٧).

(٤) «وسائل دفع الغربة» للشيخ سلمان العودة ص ٥٤، ٥٥.

من الصور، لضمان الهدف الأول، ثم لإعلان الوهية الله - تعالى - وحدها في الأرض كلها، بحيث لا تكون هناك دينونة إلا لله وحده، وتحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله - تعالى - في الأرض، أو بالتعبير القرآني الفريد: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾^(١).

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾^(٢) (٣). وإذا تقرر في أذهاننا هذان الهدفان الرئيسان من قتال الكفار، فينبغي أن يتقرر في أذهاننا أيضاً أن القتال في الإسلام لا يعني فقط قتال من يحاول الفتنة، بل إن من حق الإسلام المطلق أن ينطلق في الأرض كلها لتحرير البشرية من العبودية للعباد، وردها إلى الله - تعالى - وحده حيثما كان ذلك ممكناً له.

وإذا ألغينا هذا المبدأ الحق فإن دين الله - عز وجل - يفقد حقه في أن يزيل العقبات المادية عن طريق الدعوة، ويفقد كذلك جديته وواقعه في مواجهة الواقع البشري بوسائل مكافئة له في مراحل متعددة، بوسائل متجددة، ويصبح عليه أن يواجه القوى المادية بالدعوة العقيدية، وهو هزال لا يرضاه الله - تعالى - لدينه في هذه الأرض.

وإن مما يؤكد هذه الحقيقة - أعني حقيقة أن القتال في الإسلام ليس دفاعاً فقط - أنه لم يكن أحد من الصحابة والسلف الكرام يُسأل عما أخرجهم للجهاد فيقول: خرجنا ندافع عن وطننا المهدد، أو نصُدُّ عدوان الفرس أو الروم علينا نحن المسلمين، أو خرجنا نوسع رقعتنا، ونستكثر من

(١) الزخرف: (٨٤).

(٢) يوسف: (٤٠).

(٣) انظر «الظلال» (١٥٠٨/٣)، و«معالم في الطريق» لسيد قطب - رحمه الله - ص ٦٦، ٦٧.

الغنيمة، لقد كانت قولتهم في هذا هي قوله ربعي بن عامر^(١) - رضي الله عنه - لما سُئل عما جاء به ومن معه قبل أن يدخلوا معركة القادسية^(٢)، قال: «الله جاء بنا، وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعواهم إليه، فمن قبل منا قبلنا منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر»^(٣).

وهاهي الآيات القرآنية تتوالى في تقرير ماتقدم من الهدف من قتال الكفار، وأنه خشية الفتن والمحن التي تلحق المؤمنين بسبب الكفار لو تركوا من غير قتال، يقول سبحانه:

(١) هو ربعي بن عامر بن خالد بن عمرو، كان من أشرف العرب، وله ذكر في غزوة نهاوند، وولاه الأحنف لما فتح خراسان على طخارستان، وكان ممن أمدَّ به عمر بن الخطاب المثنى بن حارثة في فتح العراق.

انظر ترجمته في «الإصابة» (١/٥٠٣).

(٢) القادسية: قرية قرب الكوفة من جهة البر، وعندها كانت الوقعة العظيمة بين المسلمين والفرس، قُتل فيها أهل فارس، وفتحت بلادهم على المسلمين. انظر «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» (٣/١٠٥٤).

(٣) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٢/٣٢٠)، وفي كلام ربعي - رضي الله عنه - ردّ واضح على أولئك السفلة من المستشرقين والمبشرين الذين يهاجمون الإسلام ودعائه المجاهدين، ويصفونهم بأنهم سفاكون، مصاصو دماء، يقولون ذلك كذباً ودجلاً ليميتوا فريضة الجهاد في نفوس المسلمين، ويتناسون ما فعله التتار والصليبيون في بلاد المسلمين. ولزيد بيان حول هذا الموضوع الخطير انظر الظلال (٣/١٤٣٣) ومابعداها، و«القتال في الإسلام» للشيخ محمد الجعوان ص ١٠٨ ومابعداها.

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾^(١).

وقال سبحانه: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾^(٢).

إن هذه الآيات الكريمة تقرّر بوضوح مبررات مطاردة الشياطين، ومناهج الشياطين، وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس، والناس عبيد لله - تعالى - وحده، لا يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه، وبشرعية من هواه ورأيه.

نعم إن كل جماعة أو دولة أو نحوها ممن يريد أن يقطع الصلة بين الناس وربهم - جل وعلا - لابد أن يقاتلوا حتى لا يخرجوا الناس من هذا الدين الذي يصل بين الإنسان وربّه بالعبودية الخالصة، والطاعة المطلقة^(٣). وإن الذي يعنيه قوله - جل وعلا - في آية الأنفال السابقة ﴿ويكون الدين كله لله﴾ هو إزالة الحواجز المادية، المتمثلة في سلطان الطواغيت، وفي الأوضاع القاهرة للأفراد، فلا يكون حينئذٍ سلطان في الأرض لغير الله، ولا يدين العباد يومئذٍ لسلطان قاهر إلا سلطان الله - عزّ وجل -، فإذا أزيلت هذه الحواجز المادية ترك الناس أفراداً يختارون عقيدتهم فراراً من كل ضغط.

وإن البشرية كل البشرية لن تنال الكرامة التي وهبها الله - تعالى - لها، ولن يتحرر الإنسان من الأرض إلا حين يكون الدين كله لله - تعالى -، فلا تكون هنالك دينونة لسلطان سواه، وهذه الغاية الكبرى تقاتل العصبة المؤمنة: ﴿حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾.

(١) الأنفال: (٣٩)

(٢) التوبة: (٢٩).

(٣) «معالم في الطريق» لسيد قطب - رحمه الله - ص ٨٣.

فمن قَبِلَ هذا المبدأ، وأعلن استسلامه له قَبِلَ المسلمون إعلانه هذا واستسلامه، ولم يفتشوا عن نيته، وما يخفي صدره، وتركوا هذا الله الذي يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور:

﴿فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

* تنبيه لأبد منه

لقائل أن يقول: إذا كانت فتنة الكفار تندفع بقتالهم وجهادهم، فلم إذا لم يفعل ذلك المسلمون في صدر الإسلام في مكة، رغم اشتداد المحنة، وتفاقم الفتنة؟

والجواب على ذلك يمكن إيجازه في سبعة أمور^(١):

- ١ - أن الكف عن القتال في مكة ربما كان لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين، ومن أهداف التربية في مثل هذه البيئة تربية الفرد على الصبر على مالا يصبر عليه عادة من الضيم حين يقع عليه، أو على من يلودون به.
- ٢ - أن الدعوة السلمية كانت أشد أثراً، وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية، والشرف، والتي قد يدفعها القتال معها في مثل هذه الفترة إلى زيادة العناد، ونشأة ثارات دموية.
- ٣ - لاجتناب إنشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت، إذا لم تكن هنالك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد، ولو أذن بالقتال لوقعت معركة ومقتلة في كل بيت، ثم يقال: هذا هو الإسلام.

(١) انظر هذه الأمور السبعة مفصلة في: «الظلال» (٢/٧١٤)، ومعالم في الطريق ص ٧٧، و «الولاء والبراء في الإسلام» ص ١٦٩ وما بعدها.

٤ - لما يعلمه الله - عز وجل - من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ، ويعذبونهم هم أنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلصين .

٥ - لأن النخوة العربية في بيئة قبلية من عاداتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى ، وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم^(١) .

٦ - لقلة عدد المسلمين حينذاك ، وانحصارهم في مكة ، وفي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ، ولا يقدم للإسلام في الأرض نظام ، ولا يوجد له كيان واقعي ، وهو دين جاء ليكون منهج حياة ، ونظام دنيا وآخرة .

٧ - أنه لم تكن هناك ضرورة قاهرة ملحة ، لتجاوز هذه الاعتبارات كلها ، والأمر بالقتال ، ودفع الأذى ؛ لأن الدعوة قائمة ، وقائد الدعوة موجود يمكن له ، لم يجروا أحد على منعه من إبلاغ دعوته ، وإعلانها في ندواتهم ، وتجمعاتهم .

فهذه الاعتبارات كلها كانت بعض الأسباب التي دعت المسلمين للكف عن القتال في بداية الدعوة في مكة ، وحثهم على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لتتم تربيتهم ، وإعدادهم ، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة في الموقف المناسب ، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها ، فلا يكون لذواتهم فيها حظ ، لتكون خالصة لله ، وفي سبيل الله ، والله أعلم .

(١) من الأمثلة على ذلك أن ابن الدغنة - وهو رجل جاهلي - لم يرض أن يترك أبي بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ، ويترك مكة ، بل رأى في ذلك عاراً على العرب ، وعرض عليه جواره وحاميته !

انظر «الإصابة» (٢/٣٤٤) .

المبحث الرابع الصبر

من أعظم الأسلحة النافعة في أيام الفتن والمحن سلاح «الصبر» .
الصبر أمام الفتن التي يتميز بسببها الصادقون من الكاذبين، والمؤمنون من
المنافقين، والطيبون من الخبيثين .

الفتن التي من صبر عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره تجاهها من فتنة
أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها^(١) .
نعم . . إن الصبر أمام الفتن تربية للنفوس، وإعداد لها كي لا تطير شعاعاً
مع كل نازلة، ولا تذهب حسرة مع كل فاجعة، ولا تنهار جزعاً أمام الشدة .
إنه التجميل والتماسك والثبات حتى تنقشع الغاشية، وترحل النازلة، ويجعل الله
- تعالى - بعد عسر يسراً^(٢) .

وكل صعب به يهونُ	الصبر مفتاح ما يُرجى
فربما أسلس الحرون ^(٣)	فأصبر، وإن طالَّت الليالي
ما قبل هيهات لا يكون ^(٤)	وربما نيل باصطبار

(١) انظر إغاثة اللفهان ص ٥٣٦ .

(٢) «طريق الدعوة في ظلال القرآن» لأحمد فائز ص ٢٠٠ .

(٣) الحرون: الفرس الذي لا ينقاد، مختار الصحاح ص ١٣٣ مادة حَرَنَ .

(٤) «الصبر في القرآن» ليوسف القرضاوي ص ١٦ .

بصبر شديد عظيم، وتعب جسيم»^(١).

ومن المعاصي الفاتنة التي يجب مواجهتها بالصبر ما يكون ميسراً فعله كمعاصي اللسان من الغيبة والنميمة، والكذب، والمراء ونحوها، فإن الصبر على مثل هذه المعاصي أثقل، وقد يرى الإنسان يلبس حريراً فيستنكر ذلك، ويعتاب أكثر نهاره، فلا يستنكر ذلك، فأى فتنة أعظم من هذه الفتنة، وأي صبر أعظم من الصبر عن مثلها^(٢).
هذا فضلاً عن المعاصي الأخرى التي عمت وطمت هنا وهناك^(٣)، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن الفتن التي لا بد للإنسان أن يقف أمامها سلاح الصبر فتنة الدنيا وزينتها، تلك الفتنة التي إذا أقبلت على الإنسان أخذت بمجامع قلبه ونفسه، ولم يسلم منها إلا متبته متيقظ. إنها الفتنة بالسراء لا بالضراء، وبالغنى لا بالفقر، وقد قال سبحانه: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾^(٤).
نعم إن المؤمن محتاج إلى الصبر على فتن الدنيا وشهواتها، فلا يطلق لنفسه العنان للجري وراء شهواتها. فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال، والركون إليها، والانهاك فيها أخرجته ذلك إلى البطر والطغيان، فوقع في الفتنة.

(١) «من وسائل دفع الغربة» للشيخ سلمان العودة ص ٢١٧.

(٢) انظر «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة ص ٢٧١.

(٣) للأستاذ محمد بن صالح المنجد كتاب قيم بعنوان «محرمات استهان بها كثير من الناس». يحسن بكل واحد الاطلاع عليه.

(٤) الأنبياء: (٣٥).

ولهذا قال بعض الصالحين: البلاء يصبر عليه المؤمن والعوفي^(١) لا يصبر عليها إلا صديق^(٢).

وقال أحدهم: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء، ولما فُتحت أبواب الدنيا على الصحابة الأبرار - رضي الله عنهم - قال بعضهم: «ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر»^(٣).

ومن الصبر على فتن الدنيا الصبر على التطلع إلى دنيا الآخرين، والاغترار بما ينعمون به من مال وبنين، وبخاصة الطغاة المغرورين منهم، فإن مافي أيديهم إنما ظاهره نعمة، وباطنه نقمة:

﴿ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾^(٤).

نعم إنه لا بد من الصبر على ما يفعله بعض الحكام - وخاصة في هذا الزمان - من محاولة لإغراء العلماء والدعاة بالمال والمنصب والجاه وسائر الحظوظ الدنيوية لصرفهم عما هم عليه، لا بد هنا من الصبر ومقاومة الإغراء، ولا بد كذلك إذا استعلى العالم أو الداعية على الإغراء المادي أن يصبر على التهديد والتخويف والتضييق، ولربما أخرج من بلده، أو قُتل، أو أُوذي في نفسه وأهله وماله، ولا بد من احتمال هذا الأذى أيضاً في سبيل الله - تعالى -.

ولا بد كذلك من الصبر على الفتنة التي تصيب الإنسان في نفسه أو ماله أو ولده أو دعوته، قال سبحانه: ﴿ولتبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من

(١) جمع عافية.

(٢) «الصبر في القرآن» للأستاذ يوسف القرضاوي ص ٤٢.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة، الباب (٣٠) (٦٤٢/٤) برقم (٢٤٦٤) عن

عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - وإسناده صحيح، انظر «من وسائل دفع الغربة» ص

(٤) طه: (١٣١).

٢٢٠.

الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين* الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴿١﴾.

فالفتنة هنا فتنة عامة، تصيب القلوب بالخوف، والبطون بالجوع، والأموال بالنقص، والأنفس بالموت، والثمرات بالآفات..

ولقد ضرب الله - عز وجل - في القرآن أمثلة، هي زاد لكل من ابتلي بمثل هذه الأمور، لأن يواجهها بسلاح الصبر، كيف لا وهي أمثلة من واقع حياة الأنبياء، أفضل الخلق على الإطلاق.

فحين أخبرنا الله - عز وجل - عن نبيه أيوب - عليه الصلاة والسلام - لما ابتلاه بالمرض بين لنا أنه واجه هذه الفتنة بسلاح الصبر، فقال سبحانه: ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾ (٢).

ولما ابتلي يعقوب - عليه الصلاة والسلام - بفراق ابنه، وقرة عينه يوسف - عليه السلام - اعتصم بالصبر، فقال: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ (٣).

اعتصم بالصبر، ولجأ إلى الله - عز وجل - لأن تلك المؤامرة لم تكن من أعداء غرباء، أو قطاع طريق أشقياء، إذ لو كان الأمر كذلك لكان الخطب، ولسهلت المصيبة، لكن المكر والكيد والخداع جاء من إخوة لأخيهم، والكذب من أبناء على أبيهم، وقد قيل:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وضع الحسام المهند (٤)

(١) البقرة: (١٥٥ - ١٥٦).

(٢) ص: (٤٤).

(٣) يوسف: (١٨).

(٤) «الصبر الجميل في ضوء الكتاب والسنة» للأستاذ سليم الهلالي ص ٧٤.

وهاهو موسى كلیم الله - ﷺ - بعثه الله - تعالى - ليواجه طاغوت فرعون، وجبروت هامان، وكبرياء قارون.

فما أن بلغ موسى رسالة ربه حتى قام فرعون يرغي ويزبد، ويهدد ويتوعد، تارة بالسجن:

﴿قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾^(١).

وطوراً بالقتل:

﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾^(٢).

ومع تفاقم هذا البلاء، وشدة هذه الفتنة نجد موسى - ﷺ - يصبر على هذا كله، ويوجه قومه إلى معين الصبر ليغترفوا منه، ويواجهوا به الفتنة: ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾^(٣).

* ولا بُد كذلك من الصبر عند حدوث الفتنة المتمثلة في ظهور أصحاب البدع والأهواء من الفرق الضالة، والمذاهب المنحرفة، إذ إنَّ بعضهم على الباطل بلا خفاء، لكن طوائف أخرى تلبس الحق بالباطل، فيغتر بها الناس، ويقبلون ما عندهم من الحق والباطل بلا تمييز، وهذه الفتنة المتمثلة في محاولة هؤلاء إضلال الناس تحتاج إلى صبر ومجاهدة في بيان الحق للناس، وتحذيرهم من ضده، وتحتاج كذلك إلى وجود قيادات سنية ظاهرة، يتبعها الناس؛ لأن العامة من الناس في كل زمان لا تملك التمييز بنفسها، بل بواسطة من تثق به

(١) الشعراء: (٢٩).

(٢) غافر: (٢٦).

(٣) الأعراف: (١٢٨).

من العلماء الربانيين الصابرين^(١).

* ولابد كذلك من الصبر عند مواجهة الفتنة المتمثلة في الحرب الكلامية التي يعلنها اليهود والنصارى لتشويه دعوة المؤمنين، وتلويت سمعتهم، والتشكيك في سيرتهم وسريرتهم، إنها حرب أسلحتها الدس والتحريف والافتراء، فلا بد للمؤمنين عند مواجهة هذه الفتنة أن يوطنوا أنفسهم على احتمال مكارهها، ويصبروا على تجرع غصصها حتى يحق الله الحق، ويبطل الباطل، قال الله - تعالى -:

﴿تَبْلُون فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٢).

* وههنا أمر مهم جداً يتعلق بعلماء الإسلام، ودعاته، الذين يتعرضون للفتنة والمحنة، بسبب دعوتهم إلى الله - تعالى - إذ لابد لهم عند مواجهة الفتنة من الصبر والاحتفال، وإلا وقعوا في فتنة أعظم، وبليّة أكبر.

هاهو القرآن العظيم يحث نبيّ الله محمداً - ﷺ - وهو موعظة لكل مؤمن يسير على نهجه - عليه الصلاة والسلام - يحثه على مواجهة فتنة قومه بالصبر والمصابرة في أكثر من موضع من القرآن الكريم:

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(٣).

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾^(٤).

(١) انظر «من وسائل دفع الغربة» ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) آل عمران: (١٨٦).

(٣) النحل: (١٢٧).

(٤) الأحقاف: (٣٥).

﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً﴾^(١).

نعم إن هذه الآيات الكريمة درس بليغ، وموعظة عظيمة لكل داع إلى الله - تعالى - يواجهه من قومه الاضطهاد والتعذيب.

درس له أن يأخذ من هذا التوجيه الرباني زاداً يتزود به في هذا الطريق الشاق الذي إذا صبر عليه الإنسان نال العاقبة الحميدة، لأن الله - تعالى - يقول وقوله الحق: ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾^(٢).

وإن من كان على هذه الطريق فقد استحق الإمامة في الدين مصداقاً لقول العليم الخبير:

﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾^{(٣) (٤)}.

وإذا ما صبر العالم والداعية على هذه الفتنة فلن يخرج ذلك عن طوره، ولن يدعوه إلى التسرع أو التهور أو الاستعجال، بل سيظل على منهجه الذين آمن به، واطمأن إليه، ولن يستجيب لا ستفزاز الذين لا يوقنون، وهذا من أعظم أسباب التمكين في الأرض.

(١) المزمّل: (١٠).

(٢) هود: (٤٩).

(٣) السجدة: (٢٤).

(٤) انظر «مجموع الفتاوى» (٣٩/١٠) وطريق الدعوة في ظلال القرآن ص ١٩٨.

المبحث الخامس اللجوء إلى الله - تعالى - .

اللجوء إلى الله - عز وجل - وبخاصة في أيام الفتن من أهم الأمور، وأقوم السبل للخلاص والنجاة من الفتن كبيرها وصغيرها .

نعم إن المرء إذا تأمل في أي فتنة من الفتن، فتنة الدنيا بما فيها من شهوات وأهواء، وفتنة الممات والحشر والنشر وأهوال الآخرة، فتنة التسلط والقتال والحرب، فتنة الغرور والإعجاب بالنفس، فتنة قلب الحقائق، واختلال الموازين، وكبت صوت الحق، وارتفاع صوت الباطل، كل هذه الفتن، وتلك المحن لا بد للنجاة منها من لجوء إلى الله - تعالى - وابتهاال بين يديه أن ينقذ النفوس منها، وينجيهم من شرها .

* ففتنة الدنيا بما فيها من نساء وملهيات وشهوات لا بد فيها من لجوء إلى الله - تعالى - .

فالنساء مثلاً من أخطر الفتن وأشدّها على الرجال، ولهذا قال نبي الله يوسف - عليه الصلاة والسلام - عندما خشي الفتنة بالنساء: ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾^(١) .

وفتنة الأموال لا بد فيها من لجوء إلى الله - تعالى - أيضاً، ولهذا كان نبي الهدى - ﷺ - يستعيذ من شر فتنة الغنى، فيقول - عليه الصلاة والسلام - كما

(١) يوسف: (٣٣) .

في الحديث الصحيح ، في أثناء استعاذته من فتن الدنيا المتعددة : «ومن شر فتنة الغنى»^(١).

والأهل والولد فتنة من أعظم فتن الدنيا : ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾^(٢) ، ولهذا نجد في القرآن أن من صفات عباد الرحمن - جل وعلا - أنهم يدعون ربهم - تعالى - ويلجؤون إليه أن يجعل الأزواج والأولاد قرة أعين لهم ، وما هذا إلا لأنهم يعلمون عظم الفتنة بهم ، يقول سبحانه : ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً﴾^(٣).

فالدينا إذاً بكل مافيهما من شهوات فتنة تصد العبد عن ربه - عز وجل - ولا بد للعبد من لجوء إلى ربه - سبحانه - أن يصرف عنه فتنتها ، كما كان نبينا - ﷺ - يفعل ذلك ، حيث كان من دعائه : «وأعوذ بك من فتنة المحيا»^(٤).

* وفتنة الشيطان - هذا العدو اللدود الذي يزين تلك الشهوات والشبهات للإنسان ليضله عن سواء السبيل - من أعظم الفتن التي يمر بها الإنسان منذ ولادته وإلى حين وفاته ، ولهذا حثنا الله - تعالى - في القرآن العظيم على الاستعاذة من همزات الشياطين ، فقال : ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ وأعوذ بك رب أن يحضرون^(٥).

(١) جزء من حديث صحيح أخرجه البخاري في كتاب الدعوات ، باب التعوذ من المأثم والمغرم (١٧٦/١١) برقم (٦٣٦٨) من حديث عائشة - رضي الله عنها -.

(٢) التغابن : (١٤).

(٣) الفرقان : (٧٤).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات ، باب التعوذ من المحيا والممات (١٧٦/١١) برقم (٦٣٦٧).

(٥) المؤمنون : (٩٧ - ٩٨).

وبين نبي الله - ﷺ - أن ذكر الله - عز وجل - وهو دعاء أقوى الأمور التي يجابه بها المسلم الشيطان الرجيم، ولهذا ثبت عنه - ﷺ - من حديث عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات لم يضره شيء»^(١) ولما طلب أبو بكر - رضي الله عنه - من الرسول - ﷺ - أن يذكر له كلمات يقولها ويدعو بها إذا أصبح وأمسى، فكان مما قال له أنه حثه على أن يستعيذ بالله من الشيطان وشركه فيقول: ﴿وأعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه﴾^(٢).

ورحم الله تلك المرأة الصالحة في عهد التابعين، التي كانت تدعو، وتقول: «اللهم إن إبليس عبد من عبيدك، ناصيته بيدك، يراني من حيث لا أراه، وأنت تراه من حيث لا يراك. اللهم إنك تقدر على أمره كله، وهو لا يقدر من أمرك على شيء. اللهم إن أرادني بشر فأردّه، وإن كادني فكده، أدركك في نحره، وأعوذ بك من شره»^(٣).

(١) أخرجه أبوداود في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (٣٢٣/٤) برقم (٥٠٨٨) والترمذي في كتاب الدعوات، باب ماجاء إذا أصبح وإذا أمسى (٤٦٥/٥) برقم (٣٣٨٨)، وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح، وإذا أمسى (١٢٧٣/٢) برقم (٣٨٦٩)، وأحمد في المسند (٦٣، ٦٢/١)، وإسناده حسن، انظر صحيح سنن الترمذي للألباني (١٤١/٣) برقم (٣٦٢٨).

(٢) أخرجه أبوداود في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (٣١٧/٤) برقم (٥٠٦٧)، والترمذي في كتاب الدعوات، باب (١٤) (٤٦٧/٥)، برقم (٣٣٩٢)، وأحمد في المسند (٢٩٧/٢) والحاكم في مستدرکه (٥١٣/١) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) «نساء زاهدات» لـ محمد خير يوسف ص ٣١.

* والفتنة بقتال الكفار من أعظم الفتن التي تواجه المؤمنين في كل مكان وزمان. ولهذا ذكر الله - عز وجل - عن المؤمنين من أصحاب طالوت - عليه السلام - أنهم لما لاقوا أعداءهم من جالوت وجنوده لجؤوا إلى الله - تعالى - بالدعاء، قال سبحانه: ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾^(١).

ولنتأمل أيضاً لجوء إبراهيم وموسى - عليهما الصلاة والسلام - وقومهما من المؤمنين إلى الله - تعالى - ودعاءهم إياه أن لا يجعلهم فتنة للذين كفروا، فيسلطوا عليهم بالفتنة والصد عن سبيل الله، قال - عز وجل - في شأن قوم موسى: ﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين* ونجنا برحمتك من القوم الكافرين^(٢)، وذكر - جل وعلا - عن إبراهيم وقومه المؤمنين أنهم دعوا الله - تعالى - قائلين: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾^(٣).

وثبت في الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله - ﷺ - إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً. فاستقبل نبي الله - ﷺ - القبلة. ثم مَدَّ يديه، فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم آت ما وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» فما زال يهتف بربه، ماداً يديه، مستقبلاً القبلة، حتى سقط رداؤه على منكبيه. فأتاه أبوبكر، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه. ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله! كذاك مناشدتك

(١) البقرة: (٢٥٠).

(٢) يونس: (٨٣-٨٦).

(٣) الممتحنة: (٥).

ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله - عز وجل -: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفَلَاحِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدَفِينَ﴾ فأمده الله بالملائكة.. الحديث (١).

وهنا أود التنبيه إلى أمر غفل عنه كثير من المسلمين في هذا الزمان، ذلكم هو اللجوء إلى الله - تعالى - بالدعاء أن يكشف البلاء عن المؤمنين الذين يشنون ويتألمون تحت وطأة القهر الصليبي والصهيوني والعلماني في كثير من بلاد الإسلام (٢).

أقول: لا بد أن يشعر الواحد منا بأنه مع هؤلاء المستضعفين من المؤمنين كالبنين المرصوص، يشد بعضه بعضاً، فيلجأ إلى الله - تعالى - بالدعاء أن يكشف البلاء عنهم عاجلاً غير آجل، إضافة إلى المظلومين والمقهورين من أبناء الإسلام الصادقين ودعاته المخلصين في الأرض كلها، وإننا إذا لم نفعل ذلك فلربما اتصفنا بصفة من صفات أعداء الله من الكافرين، حيث قال عنهم سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (٣).

* ومن الفتن التي يجب أن يلجأ فيها إلى الله - تعالى - بالدعاء فتنة الغرور والإعجاب بالنفس، تلك الصفة التي قال الله عنها: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طَوْلاً﴾ (٤)، ويخص بذلك من كانت عليه واجبات تجاه دينه وأمه، من نشر علم ودعوة وجهاد ونحو ذلك مما

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (٣/١٣٨٣) برقم

(١٧٦٣) وأحمد في المسند (١/٣٠). والآية المذكورة في سورة الأنفال: (٩)

(٢) مثل فلسطين ومصر والجزائر وكشمير والفلبين، والبوسنة، والشيستان وغيرها.

(٣) المؤمنون: (٧٦).

(٤) الإسراء: (٣٧).

يحتاجه المسلمون في هذا الزمان، فهؤلاء لابد أن يحذروا من هذه الفتنة بكثرة اللجوء إلى الله - تعالى - والانكسار بين يديه أن لا يجعل أعمالهم من الأعمال التي قال عنها سبحانه: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾^(١). وإن للعاملين في حقل الدعوة إلى الله - تعالى - قدوة حسنة بنبي الهدى - ﷺ - الذي كان يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل»^(٢).

وهذا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي ذل له شيطانه، فما يستطيع أن يسلك طريقاً يسلكه عمر، وهذا الإمام العادل مع فتوحاته المظفرة، وانتصاراته العجيبة، وعدله الذي اعترفت به العرب والعجم، رغم هذا كله لم يتطرق الغرور إلى قلبه طرفة، ولم يقترب من نفسه مرة واحدة، حتى إنه لما طعن قال لابنه عبدالله كلاماً، ستظل الأجيال تردده مهما طال الزمان، قال لابنه عبدالله، وكان رأسه على فخذ هذا الابن البار: ضَعْ رأسي على الأرض، قال عبدالله: فقلت: وما عليك، كان على فخذي أم على الأرض؟ قال: ضَعْه على الأرض. قال: فوضعت على الأرض، فقال عمر: ويلي، وويل أُمِّي إن لم يرحمني ربي^(٣).

وانظر معي إلى حال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - ذلك العَلَمُ الرباني المجاهد، الذي بلغ علمه الآفاق، وانتشرت كتبه في كل مكان، ولم

(١) الفرقان: (٢٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل (٢٠٨٥/٤) برقم (٢٧١٦)، وأخرجه أيضاً أبوداود في كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة (٩٢/٢) برقم (١٥٥٠) والنسائي في كتاب السهو، باب التعوذ في الصلاة (٤٧/٣) كلهم من حديث عائشة - رضي الله عنها -.

(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٥٢/١).

يسمع به كثير من المؤمنين في عصره والعصر الذي بعده إلى اليوم، إلا انتفع به، وشهد له بالخير، هذا الإمام الذي اعترف بعلمه القاضي والداني كان يقول كثيراً: «مالي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء». وكان كثيراً ما يمثل بهذا البيت: أنا المكدي وابن المكدي. وهكذا كان أبي وجدي^(١) وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: «والله إني إلى الآن أجدد إسلامي، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً»^(٢).

إنها أعمال جليلة، وصور مشرقة من أحوال سلفنا الكرام، تعطي الدعاة إلى الله - تعالى - زاداً يحملونه في مسيرتهم الطويلة أن لا يغتروا بأعمالهم مهما بلغت، وأن يتذكروا أنهم إلى ربهم - تعالى - قادمون غداً، فمجزيون بتلك الأعمال، فحذار أن يلقي الواحد منا ربه وفي قلبه عجب أو غرور، ولتكن هذه الآية الكريمة أمام ناظرينا دائماً وأبداً: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾^(٣).

وفتنة الآخرة وما فيها منذ دخول العبد القبر إلى يوم القيامة وما فيه من أهوال، كل هذا لا بد فيه من لجوء إلى الله - عز وجل - حتى يسلم العبد من أهوالها، ويدخل - بفضل ربه ورحمته - واسع رحمته وجنته. فمن أعظم فتن الآخرة فتنة القبر حين يُسأل العبد عن ربه ودينه ونبيه - ﷺ -، فإن كان مستقيماً على منهج الله - تعالى - نجاء، وتكلم بما يرضي الرحمن، وإن كان مفرطاً ظالماً لنفسه بآء بالخسران، وتكلم بالكفران، نعوذ به - تعالى - من الخذلان.

ولهذا ثبت في الحديث الصحيح أن النبي - ﷺ - كان يستعيز من عذاب

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (١/٥٦٢).

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) الزمر: (٤٧).

القبر، فيقول: «وأعوذ بك من عذاب القبر»^(١)، وماذا لك إلا لأن للقبر فتنة لا ينجو منها إلا امرؤ صالح مستقيم.

* وفتنة المسيح الدجال فتنة من أعظم الفتن التي ستمر بالإنسان قبيل قيام الساعة، لأنه من علامات الساعة الكبرى، وإذا ظهر المسيح الدجال فقد قرب قيام الساعة، وأزف تحول الدنيا^(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب التعوذ من المحيا والممات (١١/١٧٦) برقم (٦٣٦٧).

(٢) والمراد بفتنة الدجال هو ما بينه الرسول - ﷺ - في سنته كما ثبت في الحديث الصحيح من حديث أبي أمامة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: «يا أيها الناس، إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال، وإن الله - عز وجل - لم يبعث نبياً إلا حذر أمته من الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة، وإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم، فأنا حجيج لكل مسلم، وإن يخرج من بعدي فكل حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، وإنه يخرج من حلة بين الشام والعراق. فيبعث يميناً وشمالاً. يا عباد الله: أيها الناس، فاثبتوا، فإنني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه قبلي، إنه يبدأ فيقول: أنا نبي، ولا نبي بعدي. ثم يثني فيقول: أنا ربكم، ولا ترون ربكم حتى تموتوا وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور. . . وإن من فتنته أن معه جنة وناراً، فناره جنة، وجنته نار، فمن ابتلي بناره فليستغث بالله، وليقرأ فواتح الكهف، فتكون عليه برداً وسلاماً، كما كانت النار على إبراهيم. وإن من فتنته أن يقول لأعرابي: أرايت إن بعثت لك أباك وأمك، أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني، اتبعه، فإنه ربك. وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فيقتلها، وينشرها بالمنشار حتى يلقي شقين، ثم يقول: انظروا إلى عبدي هذا فإنني أبعثه الآن، ثم يزعم أن له رباً غيري، فيبعثه الله، ويقول له الخبيث: من ربك؟ فيقول: ربي الله، وأنت عدو الله، أنت الدجال، والله ما كنت بَعْدَ أَشَدِّ بصيرة بك مني اليوم وإن من فتنته أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت، فتنبت. وإن من فتنته أن يمر بالحي، فيكذبوه، فلا تبقى لهم سائمة إلا هلك. . . وإن من فتنته أن يمر بالحي، فيصدقونه، =

والمهم الذي أريد بيانه هنا هو أنه لا نجاة من هذه الفتنة إلا باللجوء إلى الله - عز وجل - ولهذا كان نبي الله - ﷺ - يستعذ بالله - تعالى - من فتنة الدجال، فيقول: «أعوذ بك من فتنة المسيح الدجال»^(١).

وثبت في الحديث الصحيح أن من قرأ العشر الأوائل من سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال، كما قال - ﷺ -: «من قرأ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال» وفي رواية: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال»^(٢).

وسر العصمة من الدجال لمن قرأ أوائل الكهف وأواخرها - والله أعلم - أن فيها لجوءاً واعتصاماً بالله - عز وجل - كما أن الحقائق التي جاءت في أولها وآخرها حقائق عظيمة، مَنْ قرأها متديراً فإن الكذابين لا يستطيعون أن يموهوا عليه، وعلى رأسهم المسيح الدجال.

* ومن فتنة الآخرة فتنة عذاب جهنم - أعاذنا الله منها - وكفى بها فتنة

= فيأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تثبت، فتثبت، حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن مكائت وأعظمه، وأمدّه خواصر، وأدره ضروعاً. وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه إلا مكة والمدينة، لا يأتيها من نقب من نقابها إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلتاً. حتى ينزل عند الظريب الأحمر، عند منقطع السبخة، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فتنفي الخبث منها كما ينفي الكير خبث الحديد، ويُدعى ذلك اليوم يوم الخلاص» الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب فتنة الدجال، والحاكم في مستدرکه (٤/ ٤٣٦ - ٤٣٧) وصححه، ووافقه الذهبي، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٤٥٧).

(١) جزء من حديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التعوذ من المأثم والمغرم (١١/ ١٧٦) برقم (٦٣٦٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (١/ ٥٥٥) برقم (٨٠٩).

وعذاباً، ولهذا حثنا الله - تعالى - في القرآن على الاستعاذة من عذاب جهنم،
عندما ذكر سبحانه أن من صفات عباده الصالحين أنهم يدعون ربهم
- سبحانه - أن ينجيهم من النار وعذابها، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
اصْرِفْ عَنَا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ إنها ساءت مستقراً
ومقاماً^(١).

وكان النبي - ﷺ - يستعيذ بالله - تعالى - من جهنم وعذابها، فيقول كما
ثبت في الحديث الصحيح: «اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهزم، والمأثم
والمغرم، ومن فتنة القبر، ومن فتنة النار، وعذاب النار»^(٢).
فنسأل الله - تعالى - أن يحفظنا من الفتن مظهر منها وباطن، وأن يعيذنا
من عذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال، إنه أرحم
الراحمين، وأكرم الأكرمين.

(١) الفرقان: (٦٥ - ٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب التعوذ من المأثم والمغرم (١٧٦/١١) برقم
(٦٣٦٨).

المبحث السادس مقاومة أسباب الفتنة

تقدم في الفصل الثاني من الباب الثاني التفصيل في أسباب الفتنة، وذكرت أنها تكمن في خمسة أسباب هي :

١ - الأموال والأولاد .

٢ - المعصية .

٣ - اتباع الشيطان .

٤ - موالاة الكافرين .

٥ - اتباع المتشابه .

* فأما ما يتعلق بفتنة الأموال والأولاد فقد تقدم في المبحث نفسه طريقة مقاومة هذه الفتنة، وأزيد هنا أمراً مهماً يتعلق بكيفية اتقاء هذه الفتنة، وهو أن يجعل المسلم طاعة ربه، وذكره، والثناء عليه ديدنه في كل وقت وأن، فإذا ما جعل هذا الأمر طريقه الذي يسلكه لم يهمله المال، ولم يفتنه، وصار وجوده مثل عدمه، إن جاءه أنفقه على أهله وأولاده، وتصدق به هنا، وهناك في وجوه الخير، وسبيل الرشاد، ويفعل هذا كله خشية الفتنة بالمال كما حصل من فتنة قارون وصاحب الجنتين وغيرهما ممن يسلك مسلكهما إلى يوم القيامة، ويتيقظ إلى أنه إن جعل نفسه ميّالة إلى المال ميلاً يؤدي به إلى عبادته، وميلاً يؤدي به إلى عدم إخراج زكاته، وميلاً يؤدي إلى الشح والبخل به عن إنفاقه على المحتاجين والمُعوزين من الفقراء والمساكين وغيرهم من ذوي الحاجات، فإنه والحالة هذه مفتون مفتون، يُخشى أن يكون من الهالكين .

نعم لابد أن يكون راسخاً في ذهنه أنه إن لم يكن في ماله شيء يخدم به دينه، ويعلي رؤية إسلامه، فيخشى أن يكون من أهل هذه الآية: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾^(١). فهذا ما يتعلق بكيفية توقي فتنة المال.

أما فتنة الولد فسيأتي في مبحث اللجوء إلى الله - تعالى - بيان له^(٢)، وأزيد هنا شيئاً لابد منه، وهو أن مقاومة هذه الفتنة - فتنة الولد - ليس فقط بمجرد ولادته، إنما قبل ولادته، وذلك عندما يعزم الإنسان على الزواج، ولهذا حث النبي - ﷺ - على اختيار الزوجة الصالحة، فقال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»^(٣).

ومن طرق مقاومة فتنة الولد الحرص على ذكر الله - تعالى - عند الجماع، ولهذا قال - ﷺ -: «أما إن أحدكم إذا أتى أهله، وقال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقنا، فرزقا ولداً لم يضره الشيطان»^(٤).

ومن طرق مقاومة فتنة الولد كذلك أن يحرص الوالدان على تربيته تربية إسلامية صحيحة، على منهج الكتاب والسنة، وطريق سلف الأمة، وأن يلهجا

(١) التوبة: (٥٥).

(٢) كما تقدم تفصيل لذلك أيضاً في السبب الأول من أسباب الفتنة، وذلك في المبحث الأول من الفصل الثاني في الباب الثاني.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين (١٣٢٩) برقم (٥٠٩٠)، ومسلم في كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين (١٠٨٦/٢) برقم (١٤٦٦)، كلاهما من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣٣٥/٦) برقم (٣٢٧١)، ومسلم في كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (١٠٥٨/٢) برقم (١٤٣٤) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -.

بالدعاء فإن ذلك كله كفيل - بإذن الله - في وقاية المرء من شر هذه الفتنة العظمى..

وأما المعصية، وهي السبب الثاني من أسباب الفتنة فإن توقيها يكون على النحو التالي:

أ - فيما يتعلق بمعصية الإنسان :

هذه الفتنة يكمن توقيها في أمرين :

١ - إشعار النفس بعظم الذنب الذي تأتبه، وأن هذا الذنب حتى ولو كان في نظره صغيراً فربما صار بعد الاستمرار عليه كبيرة من الكبائر، قد تؤدي به إلى سوء الخاتمة - عياداً بالله تعالى منها -.

٢ - تجديد التوبة والاستغفار، كلما تكرر الذنب، ومعاودة الله - تعالى - على عدم العودة إلى هذا الذنب مرة أخرى، فإن عاد تاب، وهكذا.

ب - أما ما يتعلق بكيفية توقي معاصي الآخرين :

فإن ذلك يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له وسائل متعددة، يمكن ذكرها باختصار في الأمور التالية:

١ - سلاح الكلمة، ويشمل الأمر والنهي باللسان، أو بالكتابة، بأي طريقة كانت.

٢ - الاهتمام بتربية الجيل وبنائه بناءً إسلامياً متكاملًا، والتركيز على البناء الخلقي والسلوكي والعقلي والعاطفي، والعناية بغرس قضية الدعوة إلى الله - تعالى - والجهاد في سبيل الله باللسان والسنان، والغيرة على الحرمات، وهو ما يجعل حلقات الدروس والعلم محاضن لتربية الجيل، وحمايتهم من فساد البيئة، وتهيئة الجو المعين على الاستقامة والصلاح.

٣ - ضرورة العمل الجاد على تدعيم مكانة العلماء والدعاة والغيورين في

المجتمعات الإسلامية، حتى تكون كلمتهم نافذة، ورأيهم مسموعاً، فإن الثقل الذي يملكه العالم أو الداعية بين الناس من أقوى الوسائل في تغيير المنكرات وهزها، بل وهز أصحابها والمنافحين عنها.

٤ - اعتزال المنكرات وهجرها، ومجانبة أصحابها والقائمين عليها، فإن الواجب على مَنْ لا يرضون المنكر ألا يتلبسوا بشيء منه، وألا يجالسوا متعاطيه مجالسة المقر والمؤيد والموافق.

وقد بين الله - تعالى - أن منهج الأنبياء وأتباعهم اعتزال المنكرات، واعتزال أهلها والداعين إليها، كما ذكر سبحانه قول إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لقومه: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً﴾^(١).

وهذا الأمر، وهو اعتزال المنكر ومكان فعله وفاعليه وإن كان في الظاهر شيئاً سلبياً إلا أن له أثراً عظيماً، يتمثل في الآتي:

أ - إشعار الواقعيين في المنكر المقترفين له بخطأ ما هم عليه وخطره، ومخالفته للشرع، إشعاراً عملياً قوياً، وليس بمجرد القول باللسان، وهذا قد يدعوهم إلى ترك المنكر، والتوبة منه.

ب - تبليغ الناس كافة بأن هذا العمل منكر، وأن هؤلاء القوم الفاسقين مخطئون، مخالفون للشرع، متعدون لحدود الله.

ج - حماية المؤمنين المتعدين عن المنكر من آثار المنكر وأضراره، إذ إن اعتيادهم على رؤية المنكر، ومعاشته، ومصاحبة أهله دون أي جهد منهم في الإنكار عليهم، هذا الأمر يضعف من اليقظة الإيمانية في قلوبهم ضد هذه المعاصي والفواحش، وقد يتدرج الحال بهم إلى مواقععتها أو إلى إلفها وعدم

(١) مريم: (٤٨).

إنكارها بالعكس ، وهذه نهاية خطيرة ؛ لأنها تعني زوال أضعف الإيمان من القلب ، وماذا يبقى من الإيمان إذا زال أضعفه^(١) .

وأما السبب الثالث من أسباب الفتنة وهو اتباع الشيطان فإن توقي هذه الفتنة يكون بالحدز من الشيطان وكيده ، وهذا قد سبق الحديث عنه مفصلاً في الأثر السادس من آثار الفتنة ، وهو المبحث السادس من مباحث الفصل الأول في الباب الثالث .

وأما السبب الرابع من أسباب الفتنة فهو موالة الكافرين ، وتوقي هذه الفتنة يكون باتباع الخطوات التالية :

- ١ - عدم الرضى بكفر الكافرين ، وإشعارهم بأنهم أعداء لنا ، وأنها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نجاريهم على مذاهبهم الإلحادية^(٢) .
- ٢ - عدم اتخاذهم أعواناً وأنصاراً وأولياء .
- ٣ - عدم الإيمان بما هم عليه من الكفر ، أو التحاكم إليهم دون كتاب الله - تعالى -^(٣) .
- ٤ - ترك مودتهم ومحبتهم^(٤) .
- ٥ - عدم طاعتهم فيما يأمر به ويشيرون^(٥) .
- ٦ - عدم الدخول عليهم وقت استهزائهم بآيات الله - تعالى -^(٦) .

(١) انظر «من وسائل دفع الغربة» للشيخ سلمان العودة ص ١٦١ - ١٨٣ .

(٢) انظر مجموعة التوحيد ص ٢٧١ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٥٠٧/١) ومجموع الفتاوى (١٩٩/٢٨) .

(٤) انظر «الإيمان» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٣٩ .

(٥) انظر الولاء والبراء في الإسلام ص ٢٤١ .

(٦) انظر مبحث «موالة الكافرين» في الفصل الثاني من هذا البحث .

- ٧ - عدم توليتهم أمراً من أمور المسلمين كالإمارة والكتابة ونحوها^(١).
- ٨ - الحذر من الرضى بأعمالهم، أو التشبه بهم، والتزّي بزيمهم^(٢).
- ٩ - الحذر من مساعدتهم على الظلم والعدوان^(٣).
- ١٠ - ترك تعظيمهم، وإطلاق الألقاب عليهم^(٤).
- ١١ - الحذر من السكنى معهم في ديارهم من غير ضرورة^(٥).
- ١٢ - الحذر من التآمر معهم، وتنفيذ مخططاتهم، والدخول في أحلافهم وتنظيماتهم، والتجسس من أجلهم، ونقل عورات المسلمين وأسرارهم إليهم، والقتال في صفهم^(٦).
- وأما السبب الخامس من أسباب الفتنة فهو اتباع المتشابه، وتوقي هذه الفتنة ومقاومتها يكون بالحذر من أولئك الذين يتبعون المتشابه ليضلوا، ويضلوا، مما تقدم في مبحث «اتباع المتشابه» بيان أمثلتهم من الزنادقة والجهمية والمعتزلة، ممن يلوي أعناق النصوص لجعلها متمشية مع المنهج الضال الذي يريد إثباته، وتقريره، والحذر منهم يكون بالنظر في كتب التفسير المعتمدة، والتي سلكت مسلك السلف، وبخاصة في المسائل العقدية، ومنها على سبيل المثال تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير.
- والحذر منهم أيضاً يكون بقراءة الكتب التي صنف للتحذير من مناهجهم الضالة مثل كتاب «الرد على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد والمجلد الخامس من مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ونحوها من الكتب.
- والله أعلم.

(١) انظر الولاء والبراء ص ٢٤٢.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٤.

(٣) (٤) (٥) (٦) انظر الولاء والبراء ص ٢٤٥، ٢٤٦.

المبحث السابع الحذر من الأعداء

إن من أعظم الموضوعات الإسلامية التي يجب أن يفقهها المسلمون جميعاً موضوع الولاء والبراء في الإسلام . وهذا المبحث الذي بين أيدينا جزء لا يتجزأ من هذا الموضوع العظيم ، موضوع الولاء والبراء .
وإن الناظر والمتأمل في هذه الفتن والمحن التي عصفت بكثير من المجتمعات الإسلامية اليوم يجد أن من أكبر أسبابها ، وأعظم عللها عدم إعداد العدة ، وترك الحذر من الأعداء ، وخصوم العقيدة .
إذاً فالنجاة من الفتن والمحن كامن في أمور عديدة ، والحذر من الأعداء ، وإعداد العدة لمواجهةهم من أعظم هذه الأمور .
وسأوجز الحديث في هذا المبحث الخطير حول مطلبين رئيسين :

أ - الأعداء الذين يجب الحذر منهم . ب - طرق مقاومة هؤلاء الأعداء .

أ - فأما الأعداء الذين يجب الحذر منهم فهم كثر ، وسأذكر ههنا ما يخص وقتنا المعاصر ، وهم ثلاث طوائف :

١ - اليهود ، والنصارى^(١) . ٢ - الشيعة الإمامية . ٣ - المنافقون .

(١) تقدم في مبحث «التنبه لمحاولة أهل الكتاب فتنه المسلمين عن دينهم» التفصيل في موضوع أخذ الحذر من اليهود والنصارى ، ولا مزيد بيان ههنا فيما يتعلق بالنصارى ، أما اليهود فذكروا هنا لأن فيه زيادة بيان عما تقدم في المبحث السابق ، ولذا جرى هذا التنبيه .

١. اليهود

حذرنا الله - تعالى - من هذه الطائفة الخبيثة بقوله - عز وجل - :

﴿واحذرهم أن يفتنوك﴾^(١)، ويمكنني أن أبين خطر هذه الطائفة فيما يلي :

لقد كان النفوذ اليهودي قائماً في العالم الغربي من الثورة الصناعية التي وقعت تلقائياً في أيدي المرايين اليهود، ولكنه لم يتغلغل، ولم يبرز قط كما تغلغل بعد الحرب العالمية الثانية، وسيطر على كلا المعسكرين في الشرق والغرب، وصارت السياسة العالمية في يد اليهود، بمساعدة الدولتين الخبيثتين : أمريكا وروسيا، حتى وصل اليهود إلى قلب المنطقة الإسلامية، وأقاموا دولتهم في فلسطين، وسخّروا لذلك كلاً من الدولتين المتوحشتين المتسلطتين، فكانت أمريكا أول دولة اعترفت بالدولة اليهودية، وبعدها بعشر دقائق أعترفت روسيا بالدولة القائمة صراحة على أساس ديني، بينما المذهب الشيوعي كله يرفض ذلك رفضاً باتاً، ويندد به^(٢).

وبعد ذلك سعى اليهود بمساعدة أمريكا وروسيا إلى مرحلة التخطيط

العنيف، متمثلة في خطين رئيسيين :

١ - التذبيح الوحشي للمسلمين .

٢ - التفتيت المستمر للدول القائمة في العالم الإسلامي، والعالم العربي

بصفة خاصة .

فأما التعذيب الوحشي فقد سعى إليه اليهود بمساعدة بريطانيا حين بدأ

(١) المائدة : (٤٩).

(٢) واقعنا المعاصر ص ٥٣٠ .

اعتقال الإخوان المسلمين^(١) في مصر، وقتل قائد الجماعة الأستاذ حسن البنا^(٢) - رحمه الله -، وتوالى المذابح الوحشية^(٣)، وتصدت معها في الوقت ذاته محاولة إفساد الأخلاق في جميع المجالات^(٤).

وأما الخط الثاني، وهو التفتت المستمر للدول القائمة في العالم الإسلامي، والعالم العربي بصفة خاصة فيكفي في بيانه المقال الذي نشر في صحيفة يهودية^(٥) قبل ثلاثة عشر عاماً تقريباً، وذلك لبيان السياسة المطلوب اتباعها في المنطقة المحيطة بإسرائيل، وأنا الآن أذكر مقتطفات من هذا المقال الخطير؛ لنرى هذا المكر الكبار الذي يحاك لنا ونحن نائمون:

١ - «الوضع الاقتصادي في مصر، وطبيعة النظام الموجود بها، وسياساتها العربية، كل هذا سيؤدي إلى مجموعة ظروف تدفع بإسرائيل إلى التدخل.. فمصر بسبب نزاعاتها الداخلية لم تعد تشكل بالنسبة لنا

(١) «الإخوان المسلمون» كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة، نادت بالرجوع إلى الإسلام كما في الكتاب والسنة، داعية إلى تطبيق الشريعة في واقع الحياة، وقد وقفت متصدية لموجة المد العلماني في المنطقة العربية والإسلامية، وعندها بعض المخالفات. انظر الموسوعة الميسرة في الأديان ص ٢٣.

(٢) هو الأستاذ حسن بن أحمد عبدالرحمن البنا، مؤسس جماعة «الإخوان المسلمين» في مصر، وكان نشيطاً في الدعوة إلى الله - تعالى - عن طريق الدروس والمحاضرات والندوات، حتى نغم عليه الحاقدون من الأعداء، فاغتاله ثلاثة منهم أمام مركز جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة سنة ١٣٦٨هـ، انظر الأعلام (١٨٣/٢).

(٣) وكان منها قتل الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - سنة ١٣٨٦هـ، لأنه ممن كان يحذر من اليهود والأعيهم الخبيثة لتدمير المسلمين، والتي بينها في كثير من كتبه بعمامة وفي الظلال على سبيل الخصوص.

(٤) تم التفصيل في هذا الموضوع عند الحديث عن وسائل الكفار للصد عن سبيل الله، وذلك في المبحث الثاني والثالث من الفصل الثالث من الباب الأول.

(٥) هي صحيفة «كيفونيم» وانظر «واقعنا المعاصر» ص ٥٣٢، وملف إسرائيل: دراسة للصهيونية العالمية لـ روجيه جارودي ص ١٦١ - ١٦٤.

مشكلة استراتيجية... لقد ماتت أسطورة مصر «زعيمة العالم العربي» وفقدت مصر ٥٠٪ من قدرتها.. وكبناءً موحد أصبحت مصر جثة هامدة، وبخاصة إذا أخذنا في الاعتبار المجابهة المتزايدة والمتصاعدة بين المسلمين والمسيحيين بها. ويجب أن يكون هدفنا هو تقسيمها إلى أقاليم جغرافية متباينة في الثمانينات.

٢ - فإذا ماتت تجزئة مصر، وإذا فقدت سلطتها المركزية، فلن تلبث بلدان مثل ليبيا والسودان، وبلدان أخرى أبعد من ذلك أن يصيبها التحلل. وتشكيل حكومة قبطية في مصر العليا، وإقامة كيانات صغيرة إقليمية، هو مفتاح تطور تاريخي، يؤخره حالياً اتفاق السلام، ولكنه تطور آتٍ لا محالة على الأجل الطويل.

٣ - ومشكلات الجبهة الشرقية أكثر وأشد تعقيداً من مشكلات الجبهة الغربية. وهذا على عكس ما يبدو في الظاهر. وتقسيم لبنان إلى خمسة أقاليم... يوضح ما يجب أن ينفذ في البلدان العربية. وتفتت العراق وسوريا إلى مناطق تحدد على أساس عنصري أو ديني، يجب أن يكون هدفاً ذا أولوية بالنسبة إلينا، على الأجل الطويل. وأول خطوة لتحقيق ذلك هو تدمير القوة العسكرية لتلك الدول.

٤ - والتشكيل السكاني لسوريا يعرضها لتمزق قد يؤدي إلى إنشاء دولة شيعية على الساحل، ودولة سنية في منطقة حلب، وأخرى في دمشق...

٥ - وأما العراق فهي غنية بالبترو، وفريسة لصراعات داخلية، وسيكون تفككها أهم بالنسبة لنا من تحلل سوريا، لأن العراق يمثل على الأجل القصير أخطر تهديد لإسرائيل. وقيام حرب سورية عراقية سيساعد على تحطيم العراق داخلياً قبل أن يصبح قادراً على الانطلاق في نزاع كبير ضدنا. وكل نزاع داخلي عربي سيكون في صالحنا، وسيساعد على تفكك

العرب . . . وربما ساعدت الحرب العراقية الإيرانية على ذلك الانحلال،
والضعف في صفوف العرب . . .

فإذا كانت هذه مخططات بني صهيون لتدمير المسلمين وإضعافهم أو ليس
جديراً بنا نحن المسلمين أن ندرك الخطر، ونحذر هذا الماكر العنيد قبل أن
يحكم قبضته علينا.

٢ - الشيعة الإمامية^(١)

فهذه الفرقة الخبيثة من ألد أعداء هذا الدين، الذين سعوا لفتنة المسلمين
عن دينهم، ومحاولة استئصال شأفتهم، وتمزيق وحدتهم، ومافعله أجدادهم
القرامطة بالحجاج من تذيبح وتشريد إلا أكبر دليل على ذلك، وسوف أعرض
الآن لشيء قليل من كثير كثير، يبين لنا خططهم الخبيثة، وأساليبهم الرعناء التي
يريدون من ورائها الكيد للإسلام وأهله، فيلى بيانها:

١ - تخطيطهم لقتل أهل السنة :

فإن من صميم عقيدتهم الفاسدة أنه سيخرج قائمهم أو من يقوم مقامه
موتوراً، غضبان أسفاً، يجرد السيف على عاتقه، فيحصد أهل السنة الذين
تلقبهم وثائق الرافضة بالمرجئة حتى قالوا: «ويح هذه المرجئة، إلى من يلجئون
غداً إذا قام قائمنا، يذبحهم والذي نفسي بيده، كما يذبح القصاب شاته»^(٢).

(١) الشيعة الإمامية: هي تلك الفرقة من أولئك الناس الذين تمسكوا بحق علي في وراثة الخلافة
دون الشيخين وعثمان - رضي الله عنهم أجمعين - . وكفروا الشيخين وأكثر الصحابة، وهم
القسم المقابل لأهل السنة في آرائهم وأفكارهم. انظر «الملل والنحل» (١/١٨٩) والتفسير
والمفسرون للذهبي (٢/٧) والموسوعة الميسرة في الأديان ص ٢٩٩.

(٢) «بروتوكولات حكماء قم» تأليف الأستاذ عبد الله الغفاري ص ٧٧. وقد أجال في هذا
المخطط إلى كتاب «بحار الأنوار» للمجلسي (٣٥٧/٥٢) و«الغيبة» للنعماني ص ١٩٠.

٢ - تخطيطهم لقتل الحجاج بين الصفا والمروة :

فقد جاء من ضمن بروتوكولاتهم السرية المقدسة مانصه :
«كأني بحمران بن أعين وميسر بن عبدالعزيز يخبطان الناس بأسيافهما بين الصفا والمروة»^(١) وهذا نص خطير، وحلم رافضي قديم، كان رؤساء الرافضة يمنون أتباعهم بحصوله، ويترقبون وقوعه بين حين وآخر.

٣ - قطع أيدي وأرجل المشركين على الحرم :

فمن ضمن نصوصهم المقدسة :
«كيف بكم (يعني الحجة على الكعبة) لو قد قطعت أيديكم وأرجلكم، وعُلقت في الكعبة، ثم يقال لكم : نادوا : نحن سراق الكعبة»^(٢).
٤ - القذف العام بالزنا للناس كلهم ماعدا طائفتهم :

فمن نصوصهم :
«إن الناس كلهم أولاد بغايا، ماخلا شيعتنا»^(٣).
٥ - هدم الحجرة النبوية، وإخراج الجسدين الطاهرين للخليفيتين الراشدين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما -

يقول أحد نصوصهم :
«وأجىء إلى يثرب، فأهدم الحجرة، وأخرج من بها، وهما طريان، فأمر بهما تجاه البقيع، وأمر بخشبتين يصلبان عليهما، فتورقان من تحتها، فيفتن الناس بهما أشد من الأولى»^(٤).

-
- (١) المرجع السابق ص ٥١، وعزاه إلى «بحار الأنوار» (٤٠/٥٣).
(٢) المرجع السابق ص ٥٤، وعزاه إلى «الغية» للنعماني ص ١٥٦.
(٣) المرجع السابق ص ٦١، وأحال على «بحار الأنوار» (٣١١/٢٤).
(٤) المرجع السابق ص ٦٦، وأحال على «بحار الأنوار» (١٠٥، ١٠٤/٥٣).

٦ - هدم المسجد الحرام، والمسجد النبوي :

حيث يقرر القوم عبر بروتوكولاتهم بأن منتظرهم سيقوم بهدم المسجدين الشريفين، ويتستر بدعوى أنه سيردهما إلى أساسهما:
يقول بعضهم:

«إن القائم يهدم المسجد الحرام حتى يرده إلى أساسه، ومسجد الرسول ﷺ - وآله إلى أساسه»^(١).

٧ - محاولة تغيير الكتاب والشرعة :

فأما محاولة تغيير الكتاب «القرآن» فيقول نصهم: «كأنى بالعجم، فساطيطهم في مسجد الكوفة، يعلمون الناس القرآن كما أنزل. قلت (الراوي): أوليس كما أنزل؟ قال: لا، محي منه سبعون من قریش بأسمائهم، وأسماء آباء آبائهم، وماترك أبو لهب^(٢) إلا إزرأء على رسول الله - ﷺ - وآله؛ لأنه عمه»^(٣).

وأما محاولة تغيير الشريعة فإن دولة الغائب أو نائبه (حسب مذهب الرافضة) تقوم على الحكم لأهل كل ملة بكتابهم مع أن الإسلام لم يجز لأحد أن يحكم بغير شريعة القرآن باتفاق المسلمين، تقول بروتوكولاتهم:
«إذا قام القائم استخرج التوراة وسائر كتب الله - تعالى - من غار بأنطاكية^(٤) حتى يحكم بين أهل التوراة بالتوراة، وبين أهل الإنجيل

(١) المرجع السابق ص ٧١، وأحال على «بحار الأنوار» (٣٣٨/٥٢).

(٢) قيل اسمه عبد العزى. وهو الذي نزلت فيه سورة المسد ﴿تبت يدا أبي لهب وتب...﴾ لما دعا رسول الله - ﷺ - الكفار إلى الإسلام، وقال لهم: ﴿فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ فقال: أبو لهب: تباً لك ألهذا دعوتنا، فنزلت السورة.

انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير (٧٣٦/٨) برقم (٤٩٧١).

(٣) بروتوكولات حكماء قم ص ٩٩، وعزاه إلى «الغنية» للنعماني ص ١٧١، ١٧٢.

(٤) بتحفيظ الياء، مدينة من الثغور الشامية، معروفة. انظر «معجم ما استعجم» (٢٠٠/١).

بالإنجيل، وبين أهل الزبور بالزبور، وبين أهل القرآن بالقرآن^(١). وهكذا يتبين لنا من خلال هذه المخططات التي نصت عليها كتب الشيعة أنفسهم يتبين لنا مدى الخطر العظيم الذي سيحدث بالمسلمين ما لم يتبهاوا لهم.

٣. المنافقون

فإن المتأمل في تاريخ الإسلام العريض يجد أن المنافقين كان لهم دور كبير في الانتكاسات التي مرت بها دولة الإسلام، والتي أفضت إلى زوالها، أو كادت، ثم في الفوضى الخلقية التي عمرت كثيراً من المجتمعات الإسلامية. هؤلاء هم الذين حذرنا الله - تعالى - من مكائدهم بقوله: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم﴾^(٢).

ومن أراد أن ينظر إلى مثال يبين له خطر المنافقين، وحرصهم على الفتك بالإسلام وأهله، مما يوجب الحذر منهم، والوقوف بالصمود أمامهم، فليُنظر إلى هذا المثال، وهو ثورة المنافقين على الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه -.

كان الذي دبّر هذه الثورة هو عبدالله بن سبأ، وهو يهودي أظهر الإسلام نفاقاً ليصل إلى أغراضه الهدامة في تفريق المسلمين إلى أحزاب متعارضة، وهدم الخلافة الإسلامية، ولهذا الهدف طاف في بلاد الإسلام، وأخذ ينفث فيها سمومه القاتلة، وكانت باكورة عمله هي إثارة الناس على عثمان - رضي الله عنه - فجاء إلى العراق، ووجد في أهلها بعض الاستجابة لأفكاره، فكوّن له

(١) بروتوكولات حكماء قم ص ١٠٣، وعزاه إلى «الغيبة» للنعماني ص ١٥٧، وبحار الأنوار (٣٥١/٥٢).

(٢) التوبة: (٤٧).

فيها أنصاراً، وانتقل إلى مصر، فوجد فيها جواً صالحاً لنشر أفكاره، واستطاع أن يستميل عدداً كبيراً من أهلها، ولما تم له ما أراد من تأليب الناس على الخليفة بدأ الثورة من هناك، فخرج من مصر، ومعه من تأثر به من أهلها، بعدما اتفق مع أهل العراق على الخروج في وقت محدد، ووصلوا المدينة، فحاصروا عثمان - رضي الله عنه -، وجرت منهم إهانات كثيرة له - رضي الله عنه - ثم قتلوه بعدما أبى أن يستجيب لمطلبهم في خلع نفسه من الخلافة^(١). ولم يكتف ابن سبأ «الخبث» بهذا القدر من محاولة هدم الخلافة، وإثارة النزاع بين المؤمنين، بل أصبح يتابع الحلقات التي بدأها بمقتل عثمان - رضي الله عنه - فصار يثير الخلاف بين الصحابة كلمات تقاربوا، وأوشكوا على الاتفاق واجتماع الكلمة^(٢).

وهكذا أنجز ابن سبأ هذه الإنجازات الضخمة من أعمال الهدم والإفساد في سنوات قلائل، وكان العامل الأول في نجاحه هو تستره بالنفاق، إضافة إلى غفلة المسلمين عن أعدائهم من المنافقين، وضعف تلك الحواجز الواقية التي تحول بين المؤمنين، وتسرب مثل هذه السموم إلى مجتمعهم.

• العلمانيون والحداثيون

ولا يمكنني هنا وأنا أتحدث عن الحذر من المنافقين أن أغفل الحديث عن ذنب من أذناهم الخبيثة الفاجرة، هي طائفة العلمنة والحداثة^(٣)، واللذان تسييران

(١) المنافقون في القرآن ص ٤٤٧.

(٢) انظر «عبدالله بن سبأ، وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام» تأليف الأستاذ سليمان بن حمد العودة ص ١٨٨، وهذا الكتاب من أحسن الكتب التي تكلمت في هذا الموضوع.

(٣) الحداثة: مذهب فكري غربي، ولد ونشأ في الغرب، ثم انتقل إلى بلاد المسلمين، محاولاً =

جنباً إلى جنب، وفي خط واحد لمحاربة الإسلام!
* إن من يتأمل أفعال هؤلاء يجد حرصهم الدؤوب على وضع المناهج التعليمية الفاسدة التي تدفع المسلمين دفعاً في تيار التغريب الذي تنصهر فيه شخصيتهم، ويؤدي بهم إلى الضياع، وإن تعلموا من العلم بعض القشور، وذلك بدلاً من المناهج الدينية الصالحة التي كانت تعلم الناس أن الإسلام هو الأصل في حياة المسلمين، وأنه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.

* تأمل أفعالهم تجد حرصهم على نشر الخمر، والتعالي بها، حتى أعطيت لهم التصاريح الرسمية لفتح حانات الخمر، وكتب عليها مشروبات روحية، على نفس الطريقة التي أصبح الاحتلال بها استعماراً، واللا دينية علمانية^(١).
* تأمل أفعالهم تجد تعظيم الملحدين، والزنادقة، وتمجيدهم، ورفع مكانتهم رغم فحشهم وفسادهم^(٢).

* تأمل أفعالهم تجد حرصهم على نشر الفاحشة، وإغراء المرأة بخلع حجابها، وخروجها بعد ذلك سافرة كاسية عارية، فضلاً عن تجريدتها من حياتها الفطري على الشواطيء التي تختلط فيها كتل اللحم العريان^(٣).

= التشكيك في العقيدة، والسخرية منها، ونبد كل ماهو شريف عن طريق مايسميه أصحابه بالأدب! فهم إذاً مع العلمانيين وجهان لعملة واحدة.

انظر «الحدائث في ميزان الإسلام» لعوض القرني.

(١) انظر «العلمانيون والإسلام» للأستاذ محمد قطب ص ١١٢.

(٢) وذلك من أمثال الخلاج، وابن عربي، ومحمود درويش، وأدونيس، ولطفي الخولي، انظر

«الحدائث في ميزان الإسلام» ص ٧٨، ١١٢.

(٣) العلمانيون والإسلام ص ١١٣، و «كيف نكتب التاريخ الإسلامي» لمحمد قطب ص

٢٠٥.

نعم إنهم يريدون من بناتنا ونسائنا أن يخرجن متبرجات ، ملقيات للحجاب الذي أمرهن به ربهن - جل وعلا - ، يريدون منهن أن يختلطن بالأجانب من الفساق ، ويجلسن بينهم في الصفوف ، وبجانبهم في المقاعد ، كما حصل هذا منهم أنفسهم في مهرجاناتهم^(١) ، لا بارك الله فيها ، ولا في القائمين عليها .
* تأمل أفعالهم تجد الاستهزاء بالله - تعالى - وبرسوله - ﷺ - وبدين الله . هاهو أحدهم يقف فيسخر من الله الذي خلقه وأنطقه ، فيقول - تعالى الله عما يقول هذا الأفاك علواً كبيراً - يقول :

«الله في مدينتي يبيعه اليهود
الله في مدينتي مشرد طريد
أراد الغنى زاة أن يكــــون
لهم أجيراً شاعراً قــــواد
يخدع في قيثاره المذهب العباد
لكنه أصيب بالجنــــون
لأنه أراد أن يصون زنايق الحقول من جرادهم
أراد أن يكــــون»^(٢)

فأي إلحاد وفسوق بعد هذا الكلام!!!

— ومن استهزائهم بالرسول - ﷺ - مايقوله أحدهم ضمن قصيدة له يسخر فيها منه - ﷺ - ، وينبزه بأنه حول الأرض التي بلغ فيها رسالة الإسلام إلى أرض قاحلة ، غارقة في الظلام ، فيقول :

أرضنا البيد غارقة
طوف الليل أرجاءها

(١) انظر «واقعنا المعاصر» لمحمد قطب ص ٢٥٠ - ٢٩٥ .

(٢) «الحدائث في ميزان الإسلام» ص ٩٣ .

وكساها بعسجده الهاشمي فدانت لعادته مَعْبَدًا^(١)

واستمع إلى آخر وهو يكتب عن الغناء، وأزمة الفن بأسلوب، يسخر فيها بطريقة المسلمين في حفظ السنة النبوية، حين قال، وبئس ما قال، :

«حدثنا الشيخ إمام، عن صالح بن عبدالحفي، عن سيد بن درويش، عن أبيه، عن جده، قال: «يأتي على هذه البلاد زمان، إذا رأيتم فيه أن الفن أصبح جثة هامدة فلا تلوموه، ولا تعذلوه أهله، بل لوموا أنفسكم، قالها وهو ينتحب، فتغمده الله برحمته وغفر له ذنوبه»^(٢)!

وهكذا لم يجد هذا الحدائي الأفاك طريقةً يتحدث بها عن الغناء والمغنين، إلا أن يقلّد سند حديث النبي - ﷺ -، بل يقلّد الحديث الشريف ذاته في ألفاظه، فحسبنا الله، ونعم الوكيل.

ب - طرق مقاومة هؤلاء الأعداء :

وبعد أن عرفنا أعداءنا، وتبينت لنا طرقهم الماكرة، ووسائلهم الخبيثة لفتنة المسلمين عن دينهم، فإن مقاومة متهم هي الحل الوحيد لكف شرهم، ويمكنني أن أوجز طرق مقاومة متهم في الأمور التالية :

١ - الاعتناء الشديد بأمر الجهاد في سبيل الله - تعالى - وإعداد العُدّة الكافية لملاقاة الأعداء عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(٣)، ذلك أن روح الجهاد متى ماسادت أي مجتمع إسلامي أدى ذلك إلى حماية وجوده، وتعزيز وحدته، وضمان ديمومته العقائدية،

(١) المرجع السابق، ص ٦٩.

(٢) المرجع السابق ص ٧١.

(٣) الأنفال: (٦٠).

وإبداعه الحضاري ، واتساع ميادين نشاطه في العالم ، وحيثما افتقدت هذه الروح الجهادية وطمس عليها في مجتمع آخر فإنه يفقد وجوده ، وتتمزق وحدته ، وتتباطأ اندفاعيته العقائدية ، ويتسلط أعداؤه عليه ، وتضمحل منجزاته الحضارية ، ويتقلص دوره في العالم ، ويؤول أمره إلى التدهور والسقوط ، وإن تاريخنا المعاصر ليقدم لنا عشرات الأمثلة التطبيقية على صدق هذه المعادلة ، ولقد كان أبوبكر - رضي الله عنه - واضح الرؤية عندما قال مخاطباً منتخبيه : «إنه ماترك قوم الجهاد قط إلا عمهم الله - تعالى - بالبلاء»^(١).

- ٢ - محاولة الدراسة العميقة لمؤامرات الأعداء ، وخططهم لاحتلال البلاد الإسلامية ، أو إضعافها ، ثم إصدار الأوامر الجادة التي تنفذ فوراً لمقابلة الهجمات الصليبية والصهيونية الموجهة لبلاد المسلمين .
- ٣ - تمكين العلماء الربانيين ، من فضح مخططات هؤلاء الأعداء ، وكشف ألاعيبهم ومؤامراتهم . .
- ٤ - الاهتمام الكبير بإنشاء هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمقاومة الإفساد والمفسدين ، والضرب بيد من حديد على يد كل من تسول له نفسه العبث ، والفساد .
- ٥ - إيجاد الدراسات الإسلامية القوية ، والبحوث العميقة التي تكشف ألاعيب هؤلاء الأعداء ، وتحذر منهم .
- ٦ - إصدار التعليمات لكل القطاعات في الدول الإسلامية ، ووسائل الإعلام فيها ، والتعليم ، والنشر ، بتمكين العلماء من أداء واجبهم الشرعي ، والأخذ بنصائحهم . ويشجع هؤلاء العلماء لبيان الحق ، والدعوة إليه في

(١) «التفسير الإسلامي للتاريخ» للأستاذ عماد الدين خليل ص ٢٩٣ .

كل المجالات، وفي التجمعات العامة، وفي المناسبات التي تمر بالأمة،
وفي الصحف والمجلات.

٧ - تمكين العلماء والمصلحين، وأهل الرأي من المساهمة في البرامج الإعلامية
لنفع الناس وتعليمهم، ومنع كل ما يفسد العقائد والسلوك، والوسائل
الموصلة إليه، ومنع الجرائد والمجلات والكتب التي تروج أفكار الكفر،
والزندقة، والعلمنة، والسفور، والخلاعة، مما غزا به الكفار بلاد المسلمين
لقصد الفتنة، والله أعلم.

المبحث الثامن الحذر من الإشاعات

الإشاعات جمع إشاعة، والإشاعة في اللغة تعني الذبوع والانتشار، يقال: شاع الشيب أي انتشر، وشاع الخبر أي ذاع. والشاعة: الأخبار المنتشرة، ورجل مشيع أي مذياع لا يكتم سراً، ويقال: شاع القوم أي انتشروا^(١). وأما الإشاعة المقصود بها هنا، والتي تسبب في ظهور الفتن فهي الأحاديث والأقوال والأخبار التي يتناقلها الناس، والقصص التي يروونها دون التثبت من صحتها، أو التحقق من صدقها مما له أثر في إذكاء العداوة بين المؤمنين، وإيجاد الفرقة والاختلاف بينهم.

ومن خلال تعريف الإشاعة الأنف الذكر يمكن القول، بأن كثيراً من الفتن، سببها الإشاعات، وإليك أمثلة على ذلك:

١ - ففي العهد الأول وقعت شائعات متعددة، كان لها آثارها في حدوث الفتنة ونزول المحنة.

فمن ذلك الشائعة التي انتشرت أن كفار قريش أسلموا، وذلك بعد الهجرة الأولى للحبيشة، فكان من نتيجتها أن رجع عدد من المسلمين إلى مكة، وقبل دخولهم علموا أن الخبر كذب، فدخل منهم من دخل، وعاد من عاد، فأما الذين دخلوا فأصاب بعضهم من عذاب قريش ما كان فاراً

(١) انظر «لسان العرب» (٨/١٩١) مادة شَيَّعَ.

منه^(١)، فله الأمر من قبل ومن بعد.
* وفي معركة أحد، عندما أشاع الكفار أن الرسول - ﷺ - قد قتل، فت ذلك في عضد كثير من المسلمين، حتى إن بعضهم ألقى السلاح، وترك القتال^(٢).

* وإن ينس المرء الشائعات فلن ينسى حادثة الإفك، تلك الحادثة التي هزت بيت النبوة شهراً كاملاً، بل هزت المدينة كلها^(٣).

٢ - وأدت الشائعات الكاذبة ضد الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - إلى تجمع أخلاط من المنافقين، ودهماء الناس، وجهلتهم، وأصبحت لهم شوكة ومنعة، فقتل على إثرها خليفة المسلمين بعد حصاره في بيته، وقطع الماء عنه^(٤).

ومن هنا فإنه يقال: إن أعظم الناس نشرًا للشائعات هي طائفة المنافقين، فإنهم لا يزالون يندسون في صفوف الأمة، يثيرون الفتنة بإشاعات يختلقونها، يوغرون الصدور بها، ويصدّعون الصفوف، وربما تزيوا بزي الصالحين، بل وربما شاركوا في الأعمال الصالحة الظاهرة كالصلاة، كما كان المنافقون يفعلون ذلك في زمن نبينا - ﷺ - كل ذلك ليستروا شخصيتهم الحقيقية، ومآربهم الأصلية، وربما شاركهم في أعمالهم أصحاب المطامع الأرضية الذين يتخذون النميمة سلعة يتأكلون بها^(٥).

نعم إن من تأمل أحوال المنافقين، ومن نحا نحوهم وجدهم أشد الناس

(١) انظر «سير ابن هشام» (١/٣٦٤).

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» (٢/٧٩، ٨٣)، والبداية والنهاية (٤/٣٦).

(٣) سيأتي ذكر هذه الحادثة المؤلة قريباً - إن شاء الله -.

(٤) انظر «عبدالله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام» ص ١٦٠، ١٦١.

(٥) «مسئولية الكلمة» للأستاذ عبدالله بن وكيل الشيخ ص ٥٢، ٥٣.

نشراً للشائعات، كل ذلك ليتهموا البريء بما ليس فيه، ويزرعوا الخوف والذعر في صفوف المسلمين، ثم ينشروا بمثل هذين الفعلين الأثمين الخصومة والبغضاء بين الأفراد والجماعات، فتفكك بذلك وحدة الأمة، وتضعف معنويات أفرادها، وتعرض سلامتها لأكبر الأخطار.

ولعل أبرز هذين الأمرين بشيء من التفصيل؛ نظراً لأهميتهما:

١ - اتهام البريء بما ليس فيه :

إن اتهام البريء بما ليس فيه، واختلاق الأكاذيب، وتلفيق الاتهامات ضد المؤمنين الصادقين سمة من سمات المنافقين الخبيثة، وعلامة من علاماتهم المنكرة، وهل ينسى المسلم ما فعله المنافقون في زمن الرسول - ﷺ - حين اتهمت الطغمة الفاجرة من المنافقين عرض أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -، ذلك العرض الذي ماعرف غير الطهر والعفاف، فأشاع المنافقون هذه الفرية، ولققوا هذه التهمة ليزعزعوا كيان الأمة، ويصدعوا صفوفها، حتى تأثر بإشاعاتهم الخبيثة من تأثر، فينزل القرآن محذراً من تصديق هذه الفرية الظالمة، والإشاعة الآثمة:

﴿إِذْ تَلَقَوْهُ بِالْأَسْتِمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتُحْسِنُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾

ثم يحذر - تعالى - المؤمنين من العودة مرة أخرى إلى تصديق مثل هذا الافتراء العظيم ، فيقول سبحانه :

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

(١) النور: (١٥ - ١٦).

(٢) النور: (١٧).

إن المتأمل في عصرنا هذا يرى هذا الهجوم الشرس، والتخطيط المحكم من أعداء الرسالة المحمدية لنشر الشائعات، وترويج الكذبات التي يساعد على نشرها الإعلام الخارجي، ضد علماء الأمة ودعاتها الربانيين، يتهمون الأبرياء بما ليس فيهم، ليقطعوا الصلة بين الأمة ودعاتها الصادقين، حيث يصفونهم بأنهم يثيرون الفتنة! لا شيء إلا لأنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وإن الواجب على الأمة، كل الأمة، تجاه مثل هذه الإشاعات المغرضة، والكذبات المنتنة أن يتصدوا لها بقوة المؤمن الواعي لما يدبر حوله، ويكاد له، مُفهمين إياهم أن أي تطاول على علمائهم ودعاتهم هو تطاول عليهم.. هذا هو منهج المؤمنين الصادقين تجاه مثل هذه الأكاذيب الفاجرة، والافتراءات الظالمة.

٢ - إثارة الخوف والذعر:

ولقد أوضح القرآن هذا الأمر، فلم يعد خفياً على أحد، قال سبحانه: ﴿لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم﴾^(١).

فالمنافقون إذاً وقت الشدة والبأس والحرب ربما يخرجون مع المسلمين متظاهرين بأنهم يقاتلون معهم، فإذا ماسنحت لهم الفرصة قاموا بنشر الشائعات في صفوف المؤمنين، وأخذوا يصفون أعداءهم بأنهم أقوياء، لن يستطيعوا مجابتهم، والتصدي لهم..

نعم إن هذا الفعل هو ديدن المنافقين في كل زمان ومكان، يصفون أولياءهم من الكافرين بأنهم الكبراء الأقوياء الذين لا يغلبون ويتحركون بخفية لمساعدة أوليائهم هؤلاء، قاصدين من كل ذلك إضعاف شوكة المسلمين،

(١) التوبة: (٤٧).

والتخذيل في صفوفهم ، ألا ساء ما يفعلون !
إذا فالإشاعة وسيلة من الوسائل الحربية الفتاكة ، إذا استخدمت بمهارة
- خاصة أيام الفتن - كما يفعل المنافقون في هذا الزمان ، وفي كل زمان كان لها
الأثر الكبير على مجريات الأحداث ، فكم من أمة عانت طويلاً طويلاً بسبب
إشاعة أطلقها أعداؤهم .

* العلاج

وإذا عرفنا مما سبق خطر الإشاعة ، وأثرها في إحداث الفتن وتفريق
الصفوف ، وتحطيم العزائم ، ونشر العداوات ، وشيئة الأعداء ، فإن علاج ذلك
إنما يكون بالحذر منها ، ولذا فإني أبرز الآن أهم الأمور التي يمكن من خلالها
الحذر من الإشاعات ، في النقاط التالية :

- ١ - تذكير الناقل بالله - تعالى - وتحذيره من مغبة القول على الله بلا علم .
- ٢ - تذكير الناقل بالعاقبة المتحصلة إذا كانت الإشاعة كذباً أو مبالغاً فيها .
- ٣ - عدم التعجل في تقبل الإشاعة دون استفهام أو اعتراض .
- ٤ - عدم ترديد الإشاعة ؛ لأن في ترديدها زيادة انتشار لها ، مع إضفاء كثير من
الكذب عليها ، وكما قيل في المثل الروسي : (الكذبة كرة ثلجية تكبر كلما
دحرجتها) .
- ٥ - اقتفاء خط سير الإشاعة ، وتتبع مسارها للوصول إلى جذورها ، ووضع
اليده على مطلقها ، ومحاسبتهم بحزم^(١) .
- ٦ - عدم المبالاة ، أو إظهار التعجب والاهتمام عند سماع الإشاعة من أطراف
أخرى ، والتشكيك في صحتها ، فهذا يحد ذاته يخفف وطأة ناقلها

(١) «الإشاعة» للأستاذ أحمد نوفل ص ١٤٣ .

الإشاعة، ويجعلهم يراجعون أنفسهم قبل بث تلك الإشاعة. وليعلم أن الإعراض عن الإشاعة وعدم الاكتراث بها سبب رئيس في إخماد الإشاعة، «إذ الإعراض عن القول المطروح أخرى لإماتته وإخماد ذكر قائله، وأجدر أن لا يكون ذلك تنبيهاً للجُهاال عليه»^(١).

٧ - عدم الاستماع بالمرة إلى مايقوله الكذابون والمنافقون والمغتابون، وأصحاب القلوب المريضة، وعدم الرضى بذلك، كما هو منهج السلف - رحمهم الله -.

وإن الفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء، فصار الأكابر عاجزين عن إطفاء الفتنة، وكف أهلها، وهذا شأن الفتن، إذا وقعت لم يسلم من التلوث بها إلا من عصمه الله - تعالى -^(٢).

٨ - أن يحاول الرد على الإشاعة في الصحف وماشاكلها إذا كانت الإشاعة ناشئة من الصحف، أو أنها بلغت بين الناس مبلغاً عظيماً، فإن في بيان بطلان الإشاعة أمام أكثر عدد من الناس أسرع وسيلة للقضاء عليها، وإخماد ذكرها، وإن لم يحمد ذكرها بالكلية فعلى الأقل إزالة القناعة التامة بها من أذهان الناس^(٣).

٩ - أن يسارع من تُنقل إليه الإشاعة إلى استشارة أهل العلم والفضل في أمر هذه الإشاعة، وعليه أن يأخذ بمشورتهم، فإنهم أدري بالمصلحة، بحكم علمهم وتجربتهم، بل قد بين الله - تعالى - في محكم التنزيل أن هذا المسلك هو المنهج السليم في مثل هذا.

(١) مقدمة صحيح مسلم (٢٩/١).

(٢) انظر «منهاج السنة النبوية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣٤٣/٤).

(٣) «أخي، احذر الإشاعة» للشيخ عبدالعزيز السدحان ص ٣٩.

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) .
يقول الشيخ عبدالرحمن بن سعدي (٢) - رحمه الله - تعليقاً على هذه الآية الكريمة :

« هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق ، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة ، والمصالح العامة ، ما يتعلق بالأمن ، وسرور المؤمنين ، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم ، أن يتثبتوا ، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر ، بل يردونه إلى الرسول ، وإلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل ، والرزانة ، الذين يعرفون الأمور ، ويعرفون المصالح وضدها .

فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين ، وسروراً لهم ، وتحرزاً من أعدائهم فعلوا ذلك . وإن لم يروا فيه مصلحة ، أو فيه مصلحة ، ولكن مضرت تزيده على مصلحته لم يذيعوه ، ولهذا قال : (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أي يستخرجونه بفكرهم ، وآرائهم السديدة ، وعلومهم الرشيدة . وفي هذا دليل لقاعدة أدبية ، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور

(١) النساء : (٨٣) .

(٢) هو الشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر بن حمد آل سعدي ، المكنى بأبي عبدالله ، الشهير بعلامة القصيم ، فقيه ، أصولي ، محقق ، مدقق ، كان على جانب كبير من التواضع ولين الجانب ، وهو مرجع بلاده وعمدتهم في جميع أموالهم وشئونهم ، وبخاصة مدينة عنيزة مسقط رأسه ، وفاته سنة ١٣٧٦ هـ .

انظر « الشيخ عبدالرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة » تأليف عبدالرزاق العباد ص ١٧ وما بعدها .

ينبغي أن يولّى من هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ. وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام، والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيقوم عليه الإنسان، أم لا؟ فيحجم عنه»^(١) . ا. هـ.

(١) تفسير السعدي (١١٣/٢ - ١١٤).

المبحث التاسع الثقة بنصر الله - تعالى -

إن استحضر الثقة بنصر الله - تعالى - زمن الفتن والمحن أمر يجب أن لا يغفل عنه المسلمون، وبخاصة من يقودون طلائع الجهاد الإسلامي، ومراكز الدعوة في بلاد الإسلام.

وإن من يستعرض الواقع التاريخي للإسلام يجد ما يؤكد هذه الحقيقة بدون لبس أو غموص، فبينما سراقه بن مالك^(١) يطارد رسول الله - ﷺ - وصاحبه أبابكر - رضي الله عنه - وهما مهاجران خفية عن أعين الناس، وبينما كان سراقه يعثر به فرسه كلما هم أن يتابع الرسول - ﷺ - وصاحبه طمعاً في جائزة قریش المغرية التي رصدتها لمن يأتيها بمحمد - ﷺ - وصاحبه، أو يخبر عنها، وبينما هو يهيم بالرجوع، وقد عاهد النبي - ﷺ - أن يكفيا من من وراءه، في هذه اللحظة قال النبي - ﷺ - : «ياسراقه؛ كيف بك وسواري كسرى؟»^(٢) يعده سواري كسرى، شاهنشاه الفرس (ملك الملوك!).

(١) هو سراقه بن مالك بن جعشم بن مالك الكناني المدلجي، أبو سفيان، صحابي، له شعر، كان في الجاهلية قائفاً يقتص الأثر، أسلم يوم الفتح، وتوفي في خلافة عثمان - رضي الله عنه - سنة ٢٤هـ - وقيل بعدها. انظر «الإصابة» (١٩/٢).

(٢) قصة سراقه مع الرسول - ﷺ - من غير هذه الزيادة ثابتة في البخاري برقم (٣٩٠٦) ومستدرک الحاكم (٦/٣) أما هذه الزيادة فذكرها ابن حجر في الإصابة (١٩/٢)، وفي إسناده نظر، انظر «السير النبوية في ضوء المصادر الأصلية» للأستاذ مهدي رزق الله ص ٢٨٠.

نعم لقد كان رسول الله - ﷺ - عارفاً بالحق الذي معه ، معرفته بالباطل الذي عليه الجاهلية في الأرض كلها يومذاك . . وكان واثقاً من أن هذا الحق لا بد أن ينتصر على هذا الباطل . وأنه لا يمكن أن يوجد الحق في صورته هذه ، وأن يوجد «الباطل» في صورته هذه ، ثم لا يكون مايكون !

ولقد كان سراقه يدرك تماماً بعدما ساخت قوائمه فرسه في الأرض أن هنالك قدراً علوياً يحرك الأحداث ، ويدفعها لصالح الحق ، والحق فقط ، ولهذا كان يقول مخاطباً أباجهل :

أبا حكم والله لو كنت شاهداً لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمداً رسول برهانٍ فمن ذا يقاومه؟^(١)

ونحن اليوم في مثل هذا الموقف بكل ملابساته ، وكل سيئاته مع الجاهلية كلها من حولنا ، فلا يجوز - من ثم - أن ينقصنا اليقين في العقابة المحتومة .
العاقبة التي يشير إليها كل شيء من حولنا على الرغم من جميع الفتن المحيطة بنا .

«إن حاجة البشرية اليوم إلى ذلك المنهج ليست بأقل من حاجتها يومذاك . . وإن وزن هذا المنهج اليوم بالقياس إلى كل مالدى البشرية من مناهج لا يقل عنه يومذاك .

ومن ثم لا ينبغي ألا نخالجن الشك في أن ماوقع مرة في مثل هذه الظروف لا بد أن يقع .

ولا يجوز أن يتطرق إلى قلوبنا الشك بسبب مانراه من حولنا ، من الضربات الوحشية التي تكال لطلائع الجيل المسلم العائد إلى الله - تعالى - في كل مكان ، ولا بسبب مانراه كذلك من ضخامة الأسس التي تقوم عليها

(١) الإصابة (١٩/٢) .

الحضارة المادية . . إن الذي يفصل في الأمر ليس هو ضخامة الباطل ، وليس هو قوة الضربات التي تكال للإسلام ، إنما الذي يفصل في الأمر هو قوة الحق ، ومدى الصمود للضربات»^(١) .

نعم إن الإسلام أضخم حقيقة ، وأصلب عوداً ، وأعمق جذوراً من أن تفلح في معالجته الجهود ، كل الجهود ، ولا هذه الضربات الوحشية التي تكال للمسلمين في كثير من بلاد الإسلام ، لأن المستقبل لهذا الدين ، وهذا الدين له دوره الكبير في هذه الأرض هو مدعو لأدائه ، أراد أعداؤه أم لم يريدوا ، وإن عنصر القوة كامن في طبيعته ، كامن في بساطته ووضوحه وشموله ، وملاءمته للفترة البشرية ، وتلبية حاجاتها الحقيقية ، كامن في الاستعلاء عن العبودية للعباد بالعبودية لله رب العباد ، وفي رفض التلقي إلا منه ، ورفض الخضوع إلا له من دون العالمين ، كامن كذلك في الاستعلاء بأهله على الملابس العارضة ، كالوقوع تحت سلطان المتسلطين . فهذا السلطان يظل خارج نطاق الضمير مهما اشتدت وطأته ، ومن ثم لا تقع الهزيمة الروحية طالما عمر الإسلام القلب والضمير ، وإن وقعت الهزيمة الظاهرية في بعض الأحيان .

ومن أجل هذه الخصائص في الإسلام يحاربه أعداؤه هذه الحرب الماكرة ، لأنه يقف لهم في الطريق ، يعوقهم عن أهدافهم الاستعمارية الاستغلالية ، كما يعوقهم عن الطغيان والتأله في الأرض كما يريدون !

ومن أجل هذه الخصائص يطلقون عليه حملات القمع والإبادة ، كما يطلقون عليه حملات التشويه والخداع والتضليل .

ومن أجل هذا يريدون أن يستبدلوا به قيماً أخرى ، وتصوراتٍ أخرى ، لا تمت بسبب إلى هذا المناضل الكبير ، لتستريح الصهيونية العالمية ، والصليبية العالمية ، والاستعمار العالمي من هذا العملاق الوحيد .

(١) «المستقبل لهذا الدين» تأليف الأستاذ سيد قطب ص ١١٦ ، ١١٧ .

نعم إن خصائص الإسلام الذاتية هي التي تقف ضد الفتن التي يثيروها أعداؤه الطامعون في أسلاب الوطن الإسلامي ، هذه هي حقيقة المعركة ، وهذا هو دافعها الأصيل^(١) .

نعم إنها الحقيقة التي لا بد أن تستقر في ذهن كل مؤمن ، وتتربع في قلب كل جيل من هذه الأمة - وهم يواجهون الفتن من مصائب وكوارث وتسجين وتقتيل - أن يعتقدوا اعتقاداً جازماً لا يتطرق إليه أدنى شك أن النصر لهذا الدين مهما تكالبت عليه قوى الأرض جميعاً :

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير* الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾^(٢) ، ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون* هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾^(٣) .
ثم على هؤلاء أيضاً أن يتذكروا صراع الأنبياء مع أقوامهم ، ولمن كانت الغلبة؟

﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين* إنهم لهم المنصورون* وإن جنودنا لهم الغالبون﴾^(٤) .

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد* يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾^(٥) .

(١) «المستقبل لهذا الدين» ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٢) الحج : (٣٩ - ٤٠) .

(٣) التوبة : (٣٢ - ٣٣) .

(٤) الصفات (١٧١ - ١٧٣) .

(٥) غافر : (٥١ - ٥٢) .

وإن هذه الحقيقة التي قررها القرآن لم تغفلها أيضاً السنة الصحيحة، فقد ثبت في الحديث الصحيح أنه - ﷺ - قال: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله إياه بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر»^(١).

وإنه إذا أراد المشككون من المنافقين ونحوهم أن يزيلوا هذه الحقيقة من قلوب المسلمين، واستمع لهم من استمع، وصدّق كلامهم من صدّقه، فإني أوجه الخطاب لهؤلاء جميعاً أن ينظروا إلى المذابح والتشريد الذي تعرض له المسلمون في كثير من بلاد الإسلام، هل أخذهم؟ هل قضى عليهم؟ هل أوقف المد الإسلامي؟ لقد قُتل مئات وألوف تحت القمع الصليبي والصهيوني والعلماني، فإذا بالقاعدة تتسع بعد كل مذبحه، وجاءت عينات من الشباب المسلم الواعي أكثر صلابه، وأشدّ بأساً، وأكثر وعياً وتصميماً على المضي في المشوار الطويل^(٢).

وإذا تقرر مما سبق أنه عند الفتن خاصة لا بد من استحضار الثقة بنصر الله - تعالى - إذا تقرر هذا فلا بد أن يعلم أن الإسلام لا يعمل وحده، إنما يعمل من خلال البشر الذين يؤمنون به، وإن المسلمين اليوم وهم ينظرون إلى إخوانهم الذين يواجهون الفتنة في دينهم، ثم لا تذرف لهم دمعة، ولا يتحرك لهم ساكن، بل يتخاذلون عن نصره إخوانهم في العقيدة، هؤلاء إن لم يفيقوا من غفلتهم، وينفضوا التراب عن رؤوسهم، فإن الله - تعالى - قادر على أن

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٠٢/٤) وابن حبان في صحيحه برقم (١٦٣١) (١٦٣٢) وصح

إسناده الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/١).

(٢) انظر «واقعنا المعاصر» للأستاذ محمد قطب ص ٥٣٥، ٥٣٦.

يستبدل قوماً خيراً منهم: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾^(١).

ومما ينبغي أن يتقرر في الأذهان أن الثقة بنصر الله - تعالى - عند الفتن لا تجدي إذا تقهقر المسلمون، وخذلوا دينهم، وسلكوا ألوان الفساد الموجودة من خور ومخدرات، إلى جريمة، إلى زيف عقدي، إلى ألوان الجنس المختلفة، والفتن المتنوعة، من جنون كرة، إلى جنون جنس، إلى جنون دش . . الخ .
فهل يعي المسلمون أنهم إن سلكوا هذه الطرق، ونهجوا هذه السبل أنهم لن ينصروا ولو كانت الدنيا كلها معهم، لأن الله - تعالى - ليس معهم^(٢).
وهل يعون أنهم إن نصروا الله - تعالى - في أنفسهم فسينصرهم الله القوي العزيز، ولو كانت الدنيا كلها ضدهم، هل يعون هذا كله؟

ومن الأمور التي ينبغي أن يفهمها المسلمون مما يدخل في الثقة بنصر الله عند مواجهة الفتن أن ذلك التمكين لأعداء الله - عز وجل - إنما يجري بمقتضى السنن الربانية . والبوار الذي ينتظر الغرب مالم يغيروا مابأنفسهم يجري كذلك بمقتضى السنن الربانية :
﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾^(٣).

﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾^(٤).

(١) محمد : (٣٨).

(٢) انظر «العلمانيون والإسلام» للأستاذ محمد قطب ص ١٣٣ .

(٣) الأنعام : (١١٥).

(٤) فاطر : (٤٣).

ومن هنا فإن على الذين يستبعدون انهيار «الحضارة الغربية» ويوسوس لهم الشيطان أن الله - تعالى - لا يمكن أن يدمر عليهم، وهم يملكون هذا القدر الهائل من أدوات التمكين، نحيلهم إلى أكبر انهيار في التاريخ، لأكبر قوة طاغية في التاريخ، وهي قوة الشيوعية، متمثلة في الاتحاد السوفيتي، الذي انهيار كأنها في لحظات.

والغرب دوره في الطريق، ولن تمنعه قوته المادية، ولا الحرية، ولا السياسية عن مصيره المقدر في سنة الله - تعالى -:

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ (١).

وإذا انهارت «الحضارة الغربية» فإن البديل هو الإسلام، والإسلام وحده فقط، فهل يعي المسلمون وهم يواجهون الفتن من الكافرين هل يعون هذه الحقيقة الربانية، والسنة الإلهية؟

وهل يعون أيضاً أن الغرب نفسه بدأ يعترف بأن مصيره إلى الهاوية مالم يعدل من حاله التعيسة، ومصيره الشقي المنكود، حتى قال أحدهم في تعليق له على ما يجري في أمريكا من فساد أخلاقي: «أنا لا أعتقد أن الخطر الأكبر الذي يهدد مستقبلنا يتمثل في القنابل النووية أو الصواريخ الموجهة آلياً، ولا أعتقد أن نهاية حضارتنا ستكون بهذه الطريقة، إن الحضارة الأمريكية ستزول وتنهار عندما تصبح عديمي الاهتمام، وغير مباليين بما يجري في مجتمعنا، وعندما تموت العزيمة على إبقاء الشرف والأخلاق في قلوب المواطنين» (٢).

نعم إن هتافات كثيرة من هنا وهناك تنبعث من القلوب الخائرة، وترتفع

(١) يونس: (٢٤).

(٢) «السقوط من الداخل» تأليف الأستاذ محمد البشر ص ٨٧.

من الخناجر المتعبة، تهتف بمنقذ من الفتن - كل الفتن - وتتلقت على «مُخلّص»
وتتصور لهذا المخلّص سماتٍ وملامح معينة تطلبها فيه، وإن هذه السمات،
وتلك الملامح لا تنطبق إلا على الإسلام، والإسلام فقط، فهل يعود المسلمون
اليوم إلى دينهم عوداً حقيقياً يدركون به هذه الحقيقة الربانية العظيمة التي
سطرتها آيات القرآن، وأوضحتها سنة رسولنا - ﷺ -؟!!

**** تم البحث بحمد الله - تعالى - ****

الخاتمة

وبعد أن عشت هذه الفترة الطويلة مع هذا الموضوع الخطير «الفتنة وموقف المسلم منها في ضوء القرآن» والذي أحمد الله - تعالى - على تيسيره لي بالانتهاء منه أذكر أهم ماتوصلت إليه من نتائج ، وذلك في الأمور التالية :

١ - اتضح لي أهمية دراسة بعض الموضوعات القرآنية دراسة موضوعية ، حيث تكشف لنا مثل هذه الدراسة عن جوانب مهمة ، يصعب الوصول إليها عن طريق الدراسة التحليلية ، وبخاصة إذا كانت هذه الموضوعات من الموضوعات المستجدة ، والمرتبطة بواقع العصر مثل موضوع «الفتنة» .

٢ - علمنا من خلال التعريف اللغوي لكلمة الفتنة دوران الكلمة حول عدة معانٍ ، أكثرها ارتباطاً بموضوعنا أن الفاء والتاء والنون من هذه الكلمة أصل صحيح يدل على الابتلاء والاختبار ، إلا أن الفرق بين الفتنة والابتلاء أن الفتنة أعم من الابتلاء ، والفتنة كذلك ابتلاء وزيادة ، كما أن أفعال الابتلاء تأتي مسندة إلى الله - تعالى - بالاسم الظاهر ، وبالضمير العائد إليه سبحانه ، بخلاف الفتنة فلا تأتي الأفعال منها مسندة إلى الاسم الظاهر مطلقاً ؛ لأن من معاني الفتنة ما لا يكون حسناً .

وعرفنا من خلال ذكر معاني الفتنة في القرآن أن لفظ الفتنة في القرآن قد جاء على عدة معانٍ ، منها : الابتلاء ، والصد عن السبيل ، والعذاب . . . الخ .

٣ - أوضحت في مجالات الفتنة في القرآن ثلاثة أمور أولها: الابتلاء، وذكرت هنا ابتلاء الأنبياء، - عليهم الصلاة والسلام - وماواجهوه من فتن ومحن، وأثرها في تقوية إيمانهم برهم - تعالى - وفندت ماجاء ضد بعضهم من إسرائيليات منكرة، لا تليق بمقام الأنبياء، وأوضحت المعنى الصحيح لفتنتهم.

وذكرت كذلك في مجال الابتلاء ابتلاء أقوام الأنبياء، وكيف أن الفتنة قد محّصت المؤمنين الصادقين من الكافرين المعاندين، وبينت كذلك ابتلاء الكافرين بالمؤمنين والعكس، وأثر ذلك في بيان حقيقة كل فريق على حدة، كما بينت في هذا المجال ابتلاء الناس كلهم بالخير والشر، وأثر ذلك على الجميع.

وفي المجال الثاني من مجالات الفتنة وهو بث الفرقة والاختلاف ذكرت دور المنافقين في زعزعة الصف المؤمن، فهم تارة يثيرون الفرقة والاختلاف بين المسلمين عن طريق الدعوة إليه كما في قصة بناء مسجد الضرار، والمحت إلى صور ونماذج مما يفعله منافقو هذا الزمان، بما يشبه فعل سلفهم ببناء مسجد الضرار، مما يؤكد على أن طبيعة النفاق واحدة في كل عصر وزمن، وأن وسيلة المنافقين لا تتبدل، ولا تختلف.

وهم تارة يثيرون الفرقة بمحاولة الإفك على دعاة الإسلام، والافتراء عليهم، واختلاق التهم الباطلة ضدهم كما حصل ذلك في قصة الإفك، والتي يتكرر أمثالها في عصرنا الحاضر.

والمنافقون تارة يثيرون الخلاف بين المسلمين عن طريق التشكيك في صدق نبي الإسلام - ﷺ - كما حصل في قصة الجلاس بن سويد بن الصامت لما قال: «والله إن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول لنحن شر من الحمير»

وبينت ههنا مايفعله بعض المنافقين في عصرنا هذا مما هو أشد من كلام الجلاس .

وذكرت كذلك في مجال بث الفرقة والاختلاف دور المنافقين في إثارة العصبية والتحزب بين المسلمين ، وأوردت أمثلة توضح ذلك ، كما في قول ابن سلول في غزوة بني المصطلق - وهو يخاطب الأنصار محرضاً لهم ضد المهاجرين : « هذا ما فعلتم بأنفسكم ، احللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ! » وقد ربطت الموضوع بالعصر الحاضر فذكرت نماذج لما يفعله منافقو هذا العصر وأذناهم من اليهود والنصارى لمحاولة بث الفرقة بين المسلمين عن طريق إثارة العصبية والتحزب بينهم .

وفي المجال الثالث من مجالات الفتنة وهو الصد عن سبيل الله - تعالى - ذكرت دور أعداء الله - تعالى - من الكافرين ومن نحنا نحوهم من شياطين الإنس ، في الصد عن سبيل الله - تعالى - ، وحصرت الحديث في هذا المجال حول ثلاثة أمور ، يسلكها هؤلاء ليؤدوا مهمتهم في الصد عن سبيل الله - تعالى - فالأمر الأول هو الإغراء والإغواء ، وركزت فيه على قضيتين خطيرتين الأولى : محاولة الشيطان إغراء الإنسان وإغواءه وذكرت مثالين لذلك ، والثانية : محاولة الزعماء والكبراء من شياطين الإنس إغراء أتباعهم وإغواءهم ، وبينت أثر الانقياد لهم بأنه الخسارة في الدنيا ، والهلاك في الآخرة .

وأما الأمر الثاني فهو محاولة صرف الناس عن القرآن ، وفيه بينت تحذير الله - تعالى - لنبيه - ﷺ - من أن يصد الكفار عن آيات ربه بعد إذ أنزلت إليه ، لما يعلم سبحانه من محاولاتهم المتتابعة لصرفه - ﷺ - عن القرآن ، وبينت في ذلك الأثر الذي يحدثه هذا التحذير الإلهي على علماء الإسلام

ودعائه أن يتنبهوا لمكائد الكفار في ذلك ، ويقفوا أمامها كالجبال الشوامخ ،
ولو كان ذلك على حساب الجماجم والأشلاء .

وأن لا ينخدعوا بما أُخدع به أولئك المنهزمون الذي يبيعون دينهم مقابل
إرواء النزوات ، وإشباع الشهوات .

وأما الأمر الثالث : فهو محاولة خداع الناس وإغراقهم بالشهوات ، وفيه
بينت الأهداف التي يفعلها الكفار لتحقيق هذا الأمر ، في مجال التربية
والتعليم ، وفي وسائل الإعلام المقروءة والمرئية ، وفي الخمور والمخدرات ،
ثم أخيراً في الرياضة والكرة .

ثم ختمت هذا المبحث الهام بذكر بعض التوصيات التي تمثل ما أراه علاجاً
نقف به ضد تلك الأهداف الخبيثة والمؤامرات الحاقدة .

٤ - تبين لنا من خلال دراسة مظاهر الفتنة في القرآن خمسة مظاهر ، أولها :
الكفر والشرك ، وتبين لنا من دراسة هذا المظهر الوسائل التي يسلكها
المجرمون لإدخال المؤمنين في الشرك والكفر . والمظهر الثاني : النساء ،
وعرفنا عظم الفتنة بهن ، وواجب الأمة في الحذر منهن ، ومحاربة كل من
يدعو إلى فسقهن ومحوهن ، والمظهر الثالث : إتيان الذكران ، وعرفنا أنه من
أعظم الفتن وأكبر المحن التي تنزل بسببها النقم والبلبات ، وبيننا في ذلك
سبل الوقاية والعلاج . والمظهر الرابع : الحكم والسلطة ، وبيننا أنه من أشد
الفتنة لما جُبِل عليه الإنسان من حب التملك والتسلط ، وعرفنا أن من أكبر
أسبابها الحاشية الفاسدة ، وأن هنالك شروطاً وواجبات للحاكم ، إذا التزم
بها وطبقها كان ذلك عوناً له على النجاة من هذه الفتنة . والمظهر الخامس
والأخير : السحر ، وعرفنا أنه من أعظم الفتن التي تمر بالمجتمعات
الإسلامية لما له عليها من آثار موجعة ، وظهر لنا من خلال دراسة هذا
المظهر الأضرار العظيمة الناتجة من ظهور هذه الفتنة ، وبيننا الأمور التي
تساعد على الخلاص من هذا الشر العريض .

- ٥ - اتضح لنا من خلال دراسة أسباب الفتنة في القرآن خمسة أسباب ؛ الأموال والأولاد، والمعصية، واتباع الشيطان، وموالاة الكافرين، واتباع المتشابه، وعرفنا من خلال استعراض كل سبب من هذه الأسباب كيف يقع الإنسان بسببه في الفتنة، وشرحنا ذلك شرحاً مفصلاً.
- ٦ - تبين لنا من خلال دراسة أساليب القرآن في التحذير من الفتنة جمع من الأساليب القرآنية، فهذا أمر، وذاك نهي، وهذا تهديد وذاك تقييد، وهذا نفي، وذاك استفهام، وهذا تعجب، وذاك خبر، وهذا دعاء، وذاك شرط. . . وعرفنا كيف دل كل واحد من هذه الأساليب على التحذير من الفتنة، وبيننا الفتنة التي يحذر منها في كل أسلوب ذكرناه.
- ٧ - عرفنا من خلال استعراض آثار الفتنة في القرآن ستة آثار، حيث انكشف لنا أن الفتن تبين الصادقين، وتميزهم عن الكاذبين، كما أن أنها تكشف أستار المنافقين والأعيبهم، وتفضحهم على الملأ، وعند حدوث الفتن والصبر عليها ينال المؤمنون بصبرهم عليها، وجهادهم المغفرة والرحمة من رب العالمين، ويحدث الفتن والبلايا يتميز الصابرون والشاكرون الذين صبروا عند البلاء، وشكروا عند الرخاء، وكلاهما فتنة، يتميز هؤلاء من أولئك القانطين من رحمة الله، الجاحدين لنعمه وآلائه.
- وعرفنا أنه بحدوث الفتن يعرف المسلم عدوه الشيطان، فيحذر من كيده، ويتنبه لطرقه في الصد والإضلال لئلا يقع فيها.
- كما أنه بالفتن يعرف المسلم أعداءه من اليهود والنصارى وأذئابهم، فيتنبه لمكرهم، ويحذر من الوقوع في شباكه.
- ٨ - اتضح لنا من خلال مداورة سبل النجاة من الفتنة تسعة أمور، فأولها الاعتصام بالكتاب والسنة، وثانيها لزوم الجماعة، وعرفنا أن أكثر الفتن التي نزلت بأممتنا إنما هي بسبب إهمال هذين الأمرين العظيمين.

وثالثها: إعلان الجهاد ضد الكفار، وإبراز القوة ضدهم، إذ إن كثيراً من الفتن التي حلت بالمسلمين وأهمها تسلط الكافرين ما وقعت إلا عندما أهمل المسلمون هذا الجانب العظيم في دينهم.

ورابعها: الصبر، إذ إن كثيراً من الناس قد وقع في الفتنة، وماذا كان إلا بسبب تركه للصبر، هذا السلاح العظيم.

وخامسها: اللجوء إلى الله - تعالى - فإن كثيراً من الخلق لا يكون بينه وبين الفتنة إلا شعرات، فما ينقذه من الوقوع فيها إلا لجؤوه إلى ربه، واستغاثته به، كما عرفنا ذلك من خلال آيات القرآن، وسنة نبينا الكريم - عليه الصلاة والسلام -.

وسادسها: مقاومة أسباب الفتنة التي تقدم بيانها، إذ إن المسلم إذا لم يعرف أسباب الفتنة، ويقاومها بالطرق السليمة الصحيحة فربما وقع في الفتنة وهو لا يدري، فيندم بعد ذلك، ولات ساعة مندم.

وسابعها: الحذر من الأعداء، وعرفنا أن أهم الأعداء الذين تواجههم الأمة في هذا العصر ثلاث طوائف: اليهود والنصارى، والشيعية الإمامية، والمنافقون من علمانيين وحدائيين ونحوهم، واتضح لنا من خلال هذه السبيل الطرق التي يجب علينا اتخاذها لنقاوم بها فتن هؤلاء الأعداء.

وثامنها: الحذر من الإشاعات، وعرفنا هنا خطر الإشاعات، وآثارها المدمرة في الفرد والأمة، وكشفنا عن الطرق التي يمكن سلوكها للنجاة من هذه الفتنة العمياء.

وتاسعها: - وهو آخرها - الثقة بنصر الله - تعالى - للمؤمنين، واليقين بأن المستقبل لهذا الدين مهما تكالب عليه الأعداء والحاقدون، ومهما داهمته الفتن، واجتمعت عليه الرزايا والمحن، وشرحنا ذلك شرحاً مفصلاً كما شرحه كتاب ربنا، وأوضحته سنة رسولنا - ﷺ - وكشفه لنا تاريخنا.

ونبهت ههنا إلى أن الثقة بنصر الله - تعالى - لا تعني أن يعرفها المسلم ،
ويترك العمل لدينه ، بل لابد مع هذه الثقة أن يسعى لخدمة دينه ، والدفاع
عن أبناء ملته من المستضعفين من المؤمنين في كل مكان ، وأن تتحرك كل
ذرة في جسده للعمل الجاد الصالح ، وإن الله - تعالى - إذا علم من العبد
صدقه في ذلك وفقه وأعانه ، ويسر له السبل في ذلك مهما بلغت مشقتها ،
فإنه بيديه وحده - سبحانه - مقاليد الأمور ، وهو الذي يقول للشيء كن
فيكون ، وهو سبحانه الغالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

الفهارس

١ - فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	رقم الآية	الصفحة
البقرة	ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون	١٢	١١٩
—	صم بكم عمي فهم لا يرجعون	١٨	٣٥٢
—	وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية	٥٨ - ٥٩	٣٩٦
—	بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته	٨١	٣٧٩
—	وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله		
—	قالوا نؤمن بما أنزل علينا	٩١	٤٤٠
—	واتبعوا ما تلتوا الشياطين على ملك سليمان	١٠٢	٢٥٥
—	ولقد علموا لمن اشتراه ماله		
—	في الآخرة من خلاق	١٠٢	٢٦٠
—	وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله	١٠٢	٢٦٢
—	ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا		
—	المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم	١٠٥	٣٠٥
—	وذكر كثير من أهل الكتاب لو يردونكم		
—	من بعد إيمانكم كفاراً	١٠٩	٣٠٥
—	ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى		
—	حتى تتبع ملتهم	١٢٠	٢١٨ - ٣٠٨
—	وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات	١٢٤	٢٧ - ٢٥
—	ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع	١٥٥ - ١٥٦	٤٥٧

١٧٤	١٦٧-١٦٦	إذ تبرأ الذين اتَّبَعُوا من الذين اتَّبَعُوا	—
		وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا	—
٤٤٠	١٧٠	بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا	—
٢١١-١٨٩	١٩١	والفتنة أشد من القتل	—
٤٤٧-٤٤٤			
٢٩٢	٢٠٨	يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة	—
٣٥٥-١٨٩	٢١٧	والفتنة أكبر من القتل	—
٤٤٤			
		ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن	—
٤٤٧-٢١٨	٢١٧	دينكم إن استطاعوا	—
		إن الذين آمنوا والذين هاجروا	—
٣٨٤	٢١٨	وجاهدوا في سبيل الله	—
٣١٨	٢٢٨	والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء	—
		ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا	—
٤٦٥	٢٥٠	أفرغ علينا صبراً	—
		آل عمران فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون	—
٣١٦-٣١٣-٣١	٧	ما تشابه منه ابتغاء الفتنة	—
٣٢٢-٣٢٠			
٢٢٣	١٥	زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين	—
٣٠٧	٢٨	لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون الله	—
٣١٧	٥٩	إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم	—
٤٠٤	٦٩	ودت طائفة من أهل الكتاب لو يردونكم	—

		وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي	—
١٨٨-٤٠٣	٧٢	أنزل على الذين آمنوا وجه النهار	—
٣٠٦	٧٥	ومنهم من إن تأمنه بدینار لا يؤده إليك	—
٣١٧	٩٧	ومن دخله كان آمناً	—
١٥٣	٩٨-٩٩	قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله	—
		يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين	—
١٥١-١٥٣	١٠٠	أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين	—
٥	١٠٢	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته	—
٤٢٩-٤٢٥	١٠٣	واعتصموا بحبل الله جميعاً	—
٤٣١			
٤٣٦	١٠٦	يوم تبيض وجوه وتسود وجوه	—
٣٠٥-٣٠٤	١١٨	يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم	—
٤٠٧-٣٠٤	١١٩	ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم	—
٤٠٧-٣٠٥	١٢٠	إن تمسكم حسنة تسوهم	—
٤٢٦	١٣٢	وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول لعلمكم ترهون	—
٣٢٤	١٤٢	ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم	—
٢٧	١٥٢	ثم صرفكم عنهم ليبتليكم	—
٢٩٠	١٦٥	أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها	—
٤٦٠	١٨٦	لتبلون في أموالكم وأنفسكم	—
		فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم	—
٣٨٥	١٩٥	وأوذوا في سبيلي	—
٣٠٧	٥١	النساء ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب . . .	—
		يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا	—
٤٢٦	٥٩	الرسول وأولي الأمر منكم	—

		ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين	-
٤٢٦	٦٩	أنعم الله عليهم	
		وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف	-
٤٩٨	٨٣	أذاعوا به	
٣٨٨	٩٧	إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم	-
٣٣-٢٧	١٠١	إن خفتهم أن يفتنكم الذين كفروا	-
		ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمتم طائفة	-
١٨٦	١١٣	منهم أن يضلوك	
		ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله	-
٤٢٢-٢٩٣	١١٩	فقد خسر خسراً مبيناً	
٣٣١	١٢٢	ومن أصدق من الله قيلاً	-
		وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا	-
٣٠٨	١٤٠	سمعتم آيات الله يكفر بها	
٣٦٤	١٥٣	فقالوا أرنا الله جهرة	-
		المائدة	
١٦٦-١٦٥	٢٧-٣٠	واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا	
٣٥٩-٣٢	٤١	قرباناً فتقبل من أحدهما . . .	-
١٨٣	٤٨	ومن يرد الله فتنته فلن نملك له من الله شيئاً	-
٣٣٤	٤٨	فاحكم بينهم بما أنزل الله	-
١٨٢-٢٩	٤٩	ولا تتبع أهواءهم	-
٤٧٩-٣٣٣		واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك	-
		ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا	-
٢٢٠	٥٦	فإن حزب الله هم الغالبون	
٣٥٣	٧١-٧٠	وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا	-

٢١١	٧٣	لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة	—
٢٩٦	٩١	إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء	—
٤٢٦	٩٢	وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا	—
٣٦٩	١١٩	قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم	—
٣١٩	٣	والأنعام وهو الله في السموات والأرض	—
		ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن	—
٢٥٤	٦	مكناهم في الأرض	—
		ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا	—
٣٦٣-٣٦٢-٣٣	٢٣	ما كنا مشركين	—
٣٦٤	٢٤	ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين	—
١٠٢	٥٣-٥٢	ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي	—
		وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً	—
٤٠	١١٢	شياطين الإنس والجن	—
٥٠٥	١١٥	وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً	—
٤١٢	١٤٢	ولا تتبعوا خطوات الشيطان	—
٤٣٣	١٥٩	إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً	—
١٦٠	١٦	الأعراف قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم	—
		يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً	—
١٦٣	٢٦	يواري سوءاتكم . .	—
٢٩١-١٦٢	٢٧	يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان	—
٤١٢			

		ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم	-
١١	٤٢	بالبأساء والضراء	
١٠٤	٤٩	أهلؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة	-
٧٨	٧٥	قال الملأ الذين استكبروا للذين استضعفوا . .	-
		قالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت	-
٧٧	٧٧	من المرسلين	
٤٠٠	٧٨	فأخذتهم الرحفة فأصبحوا في دارهم جاثمين	-
		أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد	-
٢٣٤	٨٠	من العالمين	
٢٣٨			
		وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا	-
١١١	٩٥-٩٤	أهلها بالبأساء والضراء	
١٦٩	١١٤-١١٣	قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين	-
٢٦٨	١١٨-١١٧	وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك	-
٤٥٩	١٢٨	قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا	-
٦٨	١٣٨	وجاوزنا ببني إسرائيل البحر	-
		واتخذ قوم موسى من بعده عجبلاً	-
٦٩	١٤٨	جسداً له خوار	
٣٦٤	١٥٥	واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا	-
١١١	١٦٨	وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون	-
		هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل	-
١٦٤	١٨٩-١٩٠	منها زوجها ليسكن إليها	
		إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من	-
٤١٦	٢٠١	الشیطان تذكروا	

الأُنفال	٩	٤٦٦	إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة	—
—	١٦	٣٧١	وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً	—
—	١٧	٢٧	إن شر الدواب عند الله الصم البكم	—
—	٢٢-٢٣	٣٩٨	واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة	—
—	٢٥	٢٨٥-٢٨٦	واعلموا أنها أموالكم وأولادكم فتنة	—
—	٢٨	٢٧٢-٢٧٩	ويمكرون ويمكر الله	—
—	٣٠	٣٥٦	وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة	—
—	٣٩	٢١١-٣٨٠	وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم	—
—	٤٨	٢٩٣	وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة	—
—	٦٠	٤٨٩	التوبة	—
—	٨	٣٠٥	كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة	—
—	٢٣	٣٠٥	يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء	—
—	٢٩	٤٥٠	قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر	—
—	٣١	٤٤٠	اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله	—
—	٣٢-٣٣	٥٠٧	يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم	—
—	٣٤-٣٥	٢٧٣	والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب إليم	—

١٢٠ - ٣٤	٤٧	ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة	—
٤٨٥ - ٣٧٦			
٤٩٥			
٣٤٥	٤٩	ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني	—
٤٧٣ - ٢٧٨	٥٥	فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم	—
١٤٢	٧٤	يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر	—
٣٧٣	٧٧ - ٧٥	ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن	—
٢٧٨	٨٥	ولا تعجبك أموالهم وأولادهم	—
١٢٧ - ١٢٣	١١٠ - ١٠٧	والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً	—
		إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم	—
٤٤٤	١١١	وأموالهم بأن لهم الجنة	—
		ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من	—
٣٣٥	١٢٠	الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله	—
		أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام	—
٣٥٠	١٢٦	مرة أو مرتين	—
٥٠٦	٢٤	حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت	يونس
٢٦٨	٨٢ - ٧٩	وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم	—
٣٥٧	٨٣	فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه	—
		وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله	—
٤٦٥ - ٣٥٧	٨٤	فعليناه توكلوا	—
١٨٤	٩٥	ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله	—
		ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن	هود
٤٩٨	٩	ذهب السيئات عني	—

٤٦١	٤٩	فأصبر إن العاقبة للمتقين	—
٧٨-٧٧-٧٥	٦٤	ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية	—
٢٣٥	٨٣-٧٧	وجاء قومه يهرعون إليه	—
٢٤١	٨٢	فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها	—
٩٩	١٠٥	وما تؤخره إلا لأجل معدود	—
٣٠٧	١١٨	ولا تركنوا إلى الذين ظلموا	—
٧٠	٥٣	يوسف إن النفس لأمارة بالسوء	—
٢٢٥	٣٢	ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن	—
٢٢٥	٣٢	قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه	—
٢٢٥	٣٣	وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن	—
٤٤٨	٤٠	إن الحكم إلا لله	—
٧٠	٥٣	إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي	—
١٠٧	٧	إبراهيم وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم	—
٤١٦	٤٢	الحجر إن عبادي ليس لك عليهم سلطان	—
٧٩	٨٤-٨٠	ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين	—
٣٨٥	٤١	النحل والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا	—
٢٧	٩٢	لنبؤثهم في الدنيا حسنة	—
٤١٦	٩٩-١٠٠	إنما ييلوكم الله به	—
٣٩٣	١٠٦	إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا	—
		إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان . . .	—

		ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا	-
٣٨٤-٣٠	١١٠	ثم جاهدوا وصبروا . . .	
٤٦٠	١٢٧	واصبر وما صبرك إلا بالله	-
١٠٧	٢٠	الإسراء كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء	
٤٦٦	٣٧	ولا تمش في الأرض مَرَحاً	-
		وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب	-
٧٩	٥٩	بها الأولسون	
٩٠-٨٩-٨٥	٦٠	وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس	-
١٧٨	٧٤-٧٣	وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك	-
١٨٣	٧٥	إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات	-
		وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا	-
٩٠	٩٣-٩٠	من الأرض ينبوعاً	
٣٠٨	٢٨	الكهف ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا	
		وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه	-
٢٧٥	٤٤-٤٢	على ما أنفق فيها	
٢٩١	٥٠	أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني	-
٢٧٦	٨٠	وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين	-
٢٩٢	٤٤	مريم يابأت لا تعبد الشيطان	
٤٧٥	٤٨	وأعترلكم وما تدعون من دون الله	-
٥٠	٣٦	طه قال قد أوتيت سؤالك يا موسى	
٤٢، ٢٨، ٢٥	٤٠	وفتناك فتونا	-

		قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون	-
٢٦٨	٦٩-٦٥	أول من ألقى	
٦٧	٧٦-٧٢	قالوا لن نؤترك على ماجاءنا من البيئات	-
٦٩	٨٩	أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً	-
٦٩	٩٠	ولقد قال لهم هارون يا قوم إنما فتنتم به	-
		قال ما خطبك يا سامري* قال بصرت بما	-
٧٠	٩٦-٩٥	لم يبصروا به	
٣١٢	١٢٦-١٢٣	فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى	-
٤٥٧-١١٢	١٣١	ولا تمدن عينيك إلى مامتعنا به أزواجاً منهم	-
١١٠	٣٥	كل نفس ذائقة الموت	الأنبياء
٤٥٦	٣٥	ونبلوكم بالشر والخير فتنة	-
٩٨	١٠٨	قل إنما يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد	-
٩٧	١١١-١٠٩	فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء	-
٣٦٠	١١	ومن الناس من يعبد الله على حرف	الحج
٥٠٣	٤٠-٣٩	أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا	-
٢٥٣	٤١	الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة	-
		فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى	-
١٣٩-٦٩	٤٦	القلوب التي في الصدور	
		والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا	-
٣٨٦	٥٨	ليرزقهم الله رزقاً حسناً	
		المؤمنون ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا	
٤٦٦	٧٦	لربهم وما يتضرعون	

٤٦٣	٩٨-٩٧	وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين	-
١٣٥	٢٠-١١	إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم ...	النور
٤١٢-٢٩٢	٢١	يأياها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان	-
		ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين	-
٢٢٨	٣١	من زيتتهن	
		وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون	-
٢٤١	٣١	لعلكم تفلحون	
٣٣٥-٢٨٣	٦٣	لا تجعلوا دعاء الرسول كدعاء بعضكم بعضاً	-
٣٣٥	٦٣	فليحذر الذين يخالفون عن أمره	-
		والفرقان	
١٠٩	٨-٧	وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق	
٣٩١-١٠٨	٢٠	وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون	-
		وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه	-
٤٦٧	٢٣	هباء متشورا	
٤٠	٣١	وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين	-
١٨٤	٤٤	إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً	-
٤٧١	٦٦-٦٥	والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم	-
		والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا	-
٤٦٣-٢٧٩	٧٤	وذرياتنا قررة أعين	
		الشعراء	
٤٥٩	٢٩	قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك	
		من المسجونين	
٧٩	١٥٩-١٥٥	قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم	-

٢٣٥	١٦٦-١٦٠	كذبت قوم لوط المرسلين	-
٢٤١	١٧٢	ثم دمرنا الآخرين	-
٣٧٠	٢٢٢-٢٢١	هل أنبئكم على من تنزل الشياطين	-
٣٩٩	٤٧-٤٥	ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً	النمل
٧٤	٤٨	وكان في المدينة تسعة رهط	-
٧٥	٤٩	قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله	-
٧٦	٤٩	ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله	-
٨٤-٧٩	٥٣-٥٠	ومكروا مكراً ومكرنا مكراً	-
٤٤	٧	لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك	القصص
٤٥	٩	وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك	-
٤٥	١٠	وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً	-
٤٧	١٥	قال هذا من عمل الشيطان	-
٤٧	١٦	ربّ إني ظلمت نفسي	-
٤٨-٤٧	١٨	فأصبح في المدينة خائفاً يترقب	-
٤٨	١٩	ياموسى أتريد أن تقتلني	-
٤٣	٢٥	لا تخف نجوت من القوم الظالمين	-
٤٣٨	٥٠	ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله	-
٢٧٤	٧٨	قال إنما أوتيته على علم عندي	-
٢٧٥	٨١	فخسفنا به وبداره الأرض	-
١٨٣	٨٧	ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك	-

العنكبوت ألم* أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا
 آمنوا وهم لا يفتنون
 ٣٧١-٢٩ ٣-١

ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي	-		
في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله	١٠	٣٩١	
وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا	-		
سبيلنا ولنحمل خطاياكم	١٢-١٣	١٧١	
والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلنا	٦٩	٢٤١	-
الروم			
ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم			
أزواجاً لتسكنوا إليها	٢١	٢٦١	
ظهر الفساد في البر والبحر	٤١	٢٨٢	-
لقمان			
وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله			
مخلصين له الدين	٣٢	٣٩٧	
السجدة			
وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا	٢٤	٤٦١	
الأحزاب			
وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم			
مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً	١٢-١٣	٣٧٨	
ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا	-		
الفتنة لآتوها	١٤	٣٧٧-٣٨١	
ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل	١٥	٣٨٢	-
سبأ			
ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات	٤	٣٢٤	
ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم	٣٢-٣٩	١٧٢	-

٥٠٥	٤٣	فطر	فلن تجد لسنة الله تبديلاً
		—	ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك
٩٩	٤٥		على ظهرها من دابة
١٦٠	٣٢	الصفات	فأغويناكم إنا كنا غاوين
٩٣-٩٢-٨٩	٦٥-٦٢	—	أذلك خير نزلأ أم شجرة الزقوم
٣٤٨-٣٢	١٦٢	—	ما أنتم عليه بفاتنين
٥٠٣	١٧٣-١٧١	—	ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين
٥٢	٢٥-٢١	ص	وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب
٤٣٨	٢٦	—	ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله
٥٨	٣٥-٣٠	—	ووهبنا لداود سليمان نعم العبد
		—	قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي
٦٠	٤٠-٣٦		لأحد من بعدي
٤٥٨	٤٤	—	إنا وجدناه صابراً
٤٦٨	٤٧	الزمر	وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون
٣٩٨	٤٩	—	فإذا مس الإنسان ضر دعانا
٤٥٩	٢٦	غافر	وقال فرعون ذروني أقتل موسى
٢٤٧	٣٦	—	ياهامان ابن لي صرحاً لعلی أبلغ الأسباب
٢٤٧	٣٧	—	وكذلك زين لفرعون سوء عمله
٢٤٨	٣٧	—	وماكيد فرعون إلا في تباب
١٧٦	٤٨-٤٧	—	وإذ يتحاجون في النار
٥٠٣	٥٢-٥١	—	إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا

٣٥٨	٦٠	ادعوني أستجب لكم	-
		فصلت وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا لعمى	
٧٩	١٨-١٧	على الهدى	
		ولئن أذقناه رحمة من بعد ضراء مسته	-
١٠٧	٥٠	ليقولن هذا لي	
٣١٩	١١	الشورى ليس كمثله شيء	
٢٩٠	٣٠	وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم	-
٣٢٤	٢٢	الزخرف إنا وجدنا آباءنا على أمة	
		وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل	-
١٠٣	٣١	من القريتين عظيم	
٢٤٥	٥٠	ونادى فرعون في قومه	-
٢٤٥	٥١	أم أنا خير من هذا الذي هو مهين	-
٢٤٦	٥٢	فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب	-
٢٤٦	٥٣	فاستخف قومه فأطاعوه	-
٢٩٢	٦١	ولا يصدنكم الشيطان إنه لکم عدو مبين	-
٤٤٨	٨٤	وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله	-
٢٤	٣٣	الدخان وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين	
٣١٦	٣٦	فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين	-
٤٢١	٢٣	الجاثية أفرأيت من اتخذ إلهه هواه	

		الأحقاف وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان
١٠٣	١١	خيراً ما سبقونا إليه
٢٥٤	٢٦	ولقد مكناكم فيما إن مكناهم فيه
٤٦٠	٣٥	فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل
٥٠٥	٣٨	محمد وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم
٩٢	١١	الحجرات ولا تلمزوا أنفسكم
٢٩٨	١٢	يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن
١٦٨	٢٦-٢٣	ق وقال قرينه هذا مالدي عتيد
١٦٨	٢٩-٢٧	قال قرينه ربنا ما أطغيته
٣٤٦	١٤-١٠	الذاريات قتل الخراصون* الذين هم في غمرة ساهون
٣٥٢	٢٦	القمر سيعلمون غداً من الكذاب الأشر
٧٦-٧٢	٣١-٢٧	إنا مرسلو الناقة فتنة لهم
		الحديد يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين
٢٨٥	١٣	آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم
٣١	١٤	ولكنكم فتتم أنفسكم وتربصتم
		المجادلة لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من
٢٧٨	١٧	الله شيئاً
٣٦٣	١٨	يوم يبعثهم الله جميعاً . . .

٢٩٤	١٩	استحوذ عليهم الشيطان	-
		لا تحمد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر	-
٣٠٧	٢٢	يوادون من حاد الله ورسوله	
٢٩٤	١٦	كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر	الحشر
٦	٢١	لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً	-
		المتحنة قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم	
٣٥٧	٥ - ٤	والذين معه	
١١٩	٨	يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم	الصف
		المنافقون إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك	
١٥١	٨ - ١	لرسول الله	
		يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم	
٢٧٣	٩	وأولادكم عن ذكر الله	
٢٧٢ - ٢٧	١٥	التغابن إنما أموالكم وأولادكم فتنة	
٢٧٩ - ٢٧٦			
		يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم	-
٤٦٣	١٤	وأولادكم عدواً لكم	
٣٥١ - ٣٤	٦	بأيكم المفتون	القلم
٣٥٢	٢	ما أنت بنعمة ربك بمجنون	-

الجن	لأسقيناهم ماء غدقاً* لنفتنهم فيه	١٦-١٧	٢٧-١١٤
	ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً	١٧	١١٥
المدثر	وما أدراك ما سقر	٢٧-٣١	٩٤
	كل نفس بما كسبت رهينة	٣٨	١٦٨
المطففين	إن الذين أجمعوا كانوا من		
	الذين آمنوا يضحكون	٢٩-٣٦	١٠٥
البروج	وما نقيموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد	٨	٤٠
-	إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات . . .	١٠	٣٠-٣٤٣
الفجر	فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه		
-	ونعمه فيقول ربّي أكرمن	١٥-١٦	١٠٧
الشمس	كذبت ثمود بطغواها . . .	١١-١٥	٧٩
الليل	وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى	٨-١١	٧٩
العاديات	إن الإنسان لربه لكنود	٦	٣٩٦
الماعون	قويل للمصلين	٤	٣١٨
الكافرون	قل يا أيها الكافرون	١	٢٦٧

الإخلاص قل هو الله أحد

٢٦٨-١

الناس قل أعوذ برب الناس ..

٦-١

٤١٧

٢. فهرس الأحاديث الشريفة

طرف الحديث	الصفحة
أتدرون ما هذا؟	٨١
إذا انبعث أشقاها انبعث لها رجل	٨٠
إذا تبايعتم بالعينة	٢٨٩
أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة وجهينة خيراً من بني تميم	١٠٤
ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه	٤٢٧
اللهم أنجز لي ما وعدتني	٤٦٥
اللهم إني أسألك خيرها	٢٦٦
اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم	٤٧١
اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق	٤٣٨
اللهم من آمن بي وصدقني	٢٧٨
أما إن أحدكم إذا أتى أهله قال:	٤٧٣
أما إنه صدقك وهو كذوب	٢٦٧
إن إبليس يضع عرشه على الماء	٢٩٢
إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط	٢٣٦
إن الدنيا حلوة خضرة	٢٣٢
إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون	٢٩٧

٢٤٤	إنكم ستحرصون على الإمارة
٤٣٣	إن الله أمرني بالجماعة
١٥١	إن الله قد صدقك
٢٨٧	إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة
٤٣٨	إن مما أخشى عليكم بعدي بطونكم وفروجكم
٢٦٤	إنما هي ركضة من ركضات الشيطان
٨٢	إن هذا قبر أبي رغال
٤٢٠ - ٣٠١	إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد
١١٣	أو في شك أنت ابن الخطاب
٢٩٨	إياكم والظن
٤٠	أي الناس أشد بلاء

«ت»

٤٧٣	تنكح المرأة لأربع
-----	-------------------

«ح»

٢٩٨	الحسد يأكل الحسنات
-----	--------------------

«خ»

٢٤٥	الخلافة بعدي في أمي ثلاثون
-----	----------------------------

«د»

١٥٠	دعوها فإنها متنة
-----	------------------

«ذ»

٤٢٠	ذاك شيطان يقال له خنزب
-----	------------------------

«ر»

٣٧٣	رأيت الليلة رجلين أتياني
-----	--------------------------

«ص»

٢٢٦ صنفان من أهل النار لم أرهما

«ع»

٤٢٧ عليكم بتقوى الله والسمع والطاعة

«ف»

٢٦٧ فأتاه جبريل بالمعوذتين

٣٢٠ فإذا رأيت الذين يتبعون ماتشابه منه
فأولئك الذين سمي الله

«ق»

٥٩ قال سليمان : لأطوفن الليلة

٢١٤ قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل

«ك»

٢٦٦ كان إذا دخل الخلاء يقول : بسم الله

«ل»

٨١ لا تسألوا الآيات

١٦٧ لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها

٣٩٠ لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة

٣٠١ لا تغضب

٣٨٩ لا هجرة بعد الفتح

١٤٥ لعلك فعلت كذا وكذا

٣٩٢ لقد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد

٢٣٥ لعن الله من عمل عمل قوط لوط

٢٨٧ لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها

٢٨٧ لَمَّا وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهاهم علمواؤهم

٢٦٦ لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله

لو خرجتم إلى أرض الحبشة ٣٨٧
ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ٥٠٤

«م»

ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء ٢٢٣
ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟ ٣٤٥
مالك يا عائشة أغرت؟ ٤١٤
ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة ٤٦٤
ما هذا؟ دعوى أهل الجاهلية ٤٤٢
المؤمن أخو المؤمن ٢٩١ - ١٧

من احتسب ثلاثة من صلبه دخل الجنة ٢٨١
من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ٤٣٧
من اصطبح سبع تمرات عجوة ٢٦٥
من سكن البادية جفا ٢٥٠
من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام ٤٣٣
من قرأ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال ٤٧٠

«ن»

نضر الله عبداً سمع مقالتي هذه، فحملها ٤٣٢

«هـ»

هل لك من ولد ٢٨٠

«و»

وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت ٤٢٠
وأعوذ بك من عذاب القبر ٤٦٩
وأعوذ بك من شر نفسي ٤٦٤
وأعوذ بك من فتنة المحيا ٤٦٣
وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ٤٧٠

- وَأْمُرْكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ ٤٨١
 الولد محزنة مجبنة مبخلة ٢٧٩
 ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ٣٤٩
 ويل للعرب من شر قد اقترب ٤٥٥

«ي»

- ياأبا بكر، لعلك أغضبتهم ١٠٥
 ياأباذر، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن ٤١٩
 يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ ٤٢٠
 يأتي على الناس زمان ٤٥٥
 يا جلاس، أقلت كذا وكذا؟ ١٤١
 ياعائشة أما الله فقد برأك ١٣٤
 يامعشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ٢٤٢

٣ . فهرس الآثار

«أ»

الأثر	صاحبه	الصفحة
- ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا	عبد الرحمن بن عوف	٤٥٧
- وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر	أبوبكر	٢١٤
- أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله	ابن عباس	٤٤
- استأنف النهار يا ابن جبير		
- الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد		
- في البدعة	ابن مسعود	٤٣٧
- أمر الله المؤمنين ألا يقرؤا المنكر بين أظهرهم	ابن عباس	٢٨٦
- إنا نجد فيما أنزل الله - عز وجل - على عيسى	النجاشي	٣٩٤
- إي نزع الله عقولكم ، أصدقه بخبر السماء	أبوبكر	٨٦

«ع»

- عليك بالاستقامة واتباع الأثر	ابن عباس	٤٢٨
--------------------------------	----------	-----

«ل»

- لا يمكن الرجل حتى يتلى	الشافعي	٤١
- لقد رأيته يوماً وقد أوقدوا لي ناراً	خباب بن الارت	٢١٤
- لو أن لوطياً اغتسل بكل قطرة من السماء		
- لقي الله غير طاهر	الفضيل بن عياض	٢٣٦

«م»

— مامنكم من أحد إلا هو مشتمل على فتنة ابن مسعود ٢٧٢

«هـ»

— هي رؤيا عين ابن عباس ٨٥

٤ - فهرس الأعلام

7

العلف	الصفحة
إبراهيم - عليه السلام -	٤٧، ٤٤، ٤١، ٣٩، ٢٦، ٢٥
إبراهيم بن محمد علي	٤٧٥ - ٤٦٥
أحمد بن حنبل	(١٧٠) (١)
آدم - عليه السلام -	(٢٤٨)
إسماعيل بن أمية	١٦٣ - ١٦٢ - ٣٩
الأشعث بن قيس	٤١٢ - ٢٩١ - ١٦٤
الأصمعي	٨٢ - (٨١)
أعشى همدان	(٢٨٠)
الأقرع بن حابس	(١٩)
الالوسي	(١٩)
أنس بن مالك	(١٠٤)
أيوب السخيتاني	(٣١)
	(٢٨٠)
	(٣٢١)

(١) وضع هذه العلامة)

«ب»

بجير بن أبي بجير
أبو بكر الصديق

(٨٢)

- ٤٣٧ - ٢٨٨ - ٢١٤ - ١٢٨ - ٨٦

٥٠٠ - ٤٩٠ - ٤٦٥ - ٤٦٤

(٣٢٤)

ابن بطة

«ت»

تاكلي

ابن تيمية «شيخ الإسلام»

١٧٧

- ٣٦٩ - ٢٨٩ - ٢٨٨ - ٢٤٠ (١٤٢)

٤٧٧ - ٤٣٩ - ٤٣٦ - ٤٣٥ - ٤٢٩ - ٣٨٠

«ج»

جابر بن حيان

جابر بن عبدالله (الصحابي)

جبريل - عليه السلام -

(٢٥٧)

(٨٠)

٨٧

(٣٤٥)

الجد بن قيس

ابن جرير

- ١٦٤ - ٩٤ - ٩٣ - ٨٦ - ٧٤ - (٦٨)

- ٣٠٨ - ٢١١ - ٢١٠ - ١٧٩ - ١٦٦

٤٧٧ - ٤٢٥ - ٣١٩

(٣٩٤)

جعفر بن أبي طالب

الجلال بن سويد

الجنابي (زعيم القرامطة)

٥١١ - (١٤٠)

(٣١٧)

جندع بن عمرو

أبو جهل

١٧١ - ٩٤ - ٨٩ - (٣٩)

(١) ٣١٩

الجهم بن صفوان

جين مانسيفلد

١٩٥

(١) ترجم له ص ٣١٨.

«ح»

(٢٣٦)	ابن حجر
(٢٧٦)	الحسن بن علي
(٤٨٠)	حسن البنا
(٢٧٦)	الحسين بن علي
٢١٢	ابن الحضرمي
(١٠٠)	الحكم بن أبي العاص
٤٨٣	حمران بن أعين
١٦٤ - ١٦٢	حواء

«خ»

٣٩٢ - ٣١٦ - (٢١٣)	خباب بن الارت
(١٨)	الخليل

«د»

٢٨٧ - ٥٦ - ٥٤ - ٥٣ - ٥٢	داود - عليه السلام -
-------------------------	----------------------

«ذ»

(٤١٩)	أبوذر «الصحابي»
٧٣	ذؤاب ابن عمرو

«ر»

٧٣	رباب بن صعر
(٩٢)	الرازي
(٤٤٩)	ربيعي بن عامر
(٨١)	أبورغال

«ز»

(٢٧٧)	الزجاج
٨٠	أبورمعة

زيد بن أرقم
زيد بن أسلم

(١٥٠)
(٦٣)

«س»

السامري

سراقة بن مالك

أبو السعود

سعيد بن جبير

سعيد الحلبي

سعيد بن المسيب

أبوسفیان

سفيان الثوري

أم سلمة

أبو سليمان الداراني

سليمان بن داود - عليها السلام -

سيبويه

السيوطي

٢٥٥ - ٦٤ - ٦٣ - ٦١ - ٦٠ - ٥٨

(٢٠)

(٦٢)

«ش»

شاس بن قيس

الشافعي

شعيب - عليه السلام -

شهاب بن خليفة

١٥١

(٤٠)

٨٧

٧٤

«ص»

صالح - عليه السلام -

- ٧٨ - ٧٧ - ٧٦ - ٧٥ - ٧٣ - ٧٢

٣٩٩ - ١٣٦ - ١٣٣

صدوف بنت المحيا بن زهير
صفوان بن المعطل السلمي

٨١-٧٤
١٣٦-(١٣٣)

«ط»

أبوطالب المكي

(٤٥٥)

«ع»

العاصي بن وائل

(٣١٦)

أبو عامر الراهب

(١٢١)

عائشة

٤١٤-(١٣٢)

عبدالرحمن بن سعدي

(٤٩٨)

عبدالله بن أبي بن سلول

(١٣١)

عبدالله بن حذافة

(١٧٠)

عبدالله بن عباس

(٤٣)-٦٣-٤٤-٦٢-٨٥-٩١-

١٦٤-٢١١-٢١٢-٢٨٦-٣٩٢-

٤١٧-٤٢٨-٤٣٦-٤٤٢

عبدالله بن زمعة

(٨٠)

عبدالله بن سبأ

(٤٠٢)-٤٨٥

عبدالله بن عمر

(٨٣)

عبدالله بن عمرو

(٨٢)

عبدالله بن المبارك

(٤٣١)

عبدالله بن مسعود

(٢٧٢)-٢٨٧-٤٣٧-

العبد الصالح

(٢٧٦)

أبو عبيدة «معمربن المثنى»

(١٩)

عثمان

٢٨٨-٤٠٢-٤٣٧-٤٤٢-٤٦٤-

٤٨٥-٤٩٣

عدي بن حاتم

(٤٤٠)

(٢٨٧)
(٥٧)
(١١٤)
٢١٤
٤٤٢
١١٣ - ١٥٠ - ١٧١ - ٤٣٧ - ٤٤٢ -

٤٦٥ - ٤٦٧

(١٤١)

(٦٢)

٢٩ - ٤١ - ٢٨٧ - ٣١٧ - ٣١٩

«غ»

١٧٧

«ف»

(١٧)

٢٩ - ٣٩ - ٤٢ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٧ -

٦٥ - ١٦٩ - ٢٤٥ - ٤٥٩

(٢٣٦)

«ق»

١٦٦

٢٧٤ - ٣٩٩ - ٤٥٩

٣٣ - ٨٩ - ١٧٩

٧٤ - ٧٥

(٣٠) - ٣٣ - ٥٧ - ٩١ - ١٠٠ - ١٠١

١٢٤ - ٤٢٨

عدي بن عميرة

ابن العربي

عروة بن الزبير

عقبة بن أبي معيط

علي بن أبي طالب

عمر بن الخطاب

عمير بن سعد

عياض (القاضي)

عيسى - عليه السلام -

غلاذ ستون

ابن فارس

فرعون

الفضيل بن عياض

قابيل

قارون

قتادة

قُدار بن سالف

القرطبي

٤١٧-٣٩٨-٣٠٦-٢٩٤-(٢٨٤)

ابن القيم

٤٢٦-٤٢١-٤١٩-٤١٨-

«ك»

٢١١-٨٢-٦٣-٥٥-(٣١)

ابن كثير

٤٧٧-٤٣٣

(٦٢)

كعب الأحبار

٧٧

كلبة بنت السلق

«ل»

(٣٤٨)

لبيد بن ربيعة

(٩٨)

أبو لهب

٣٩٩-٢٣٤-٨٧

لوط - عليه السلام -

«م»

(٢٤٨)

المأمون

٢١٢-٢١١-(٦٣)

مجاهد

(٥٦)

محمد الأمين الشنقيطي

(١٤٣)

محمد بن عبد الوهاب «شيخ الإسلام»

(٤٠٤)

محمد عبده

(١٣٣)

أم مسطح بن أثانة

(٢٥٨)

مسلمة بن أحمد المجريطي

٧٤

مصرع بن الحيا

٧٤

مهرش بن غنمة

-٤٢-٤١-٣٩-٢٩-٢٧-٢٦

موسى - عليه السلام -

-٦٦-٦٥-٥٠-٤٩-٤٧-٤٦-٤٤

-٤٥٩-٢٥٨-١٦٩-٧٠-٦٨-٦٧

٤٦٥

ميسر بن عبدالعزيز

٤٨٣

«ن»

النجاشي

(٣٩٤)

النسائي

٢٨١ - (٤٣)

نمرود

٣٩

نوح - عليه السلام -

٨٧ - ٧٢ - ٤١

«هـ»

هاثيل

١٦٦

هارون - عليه السلام -

٧٠ - ٦٩ - ٦٧ - ٦٦ - ٤٩ - ٤٤

هامان

٤٥٩

أبوهريرة

(٢٦٦)

أبوهلال العسكري

(٢٦)

هود - عليه السلام -

٨٧

«و»

واصل بن عطاء

(٣٢٠)

وليم جيفور

١٧٧

«ي»

يوسف - عليه السلام -

٤٦٢ - ٢٢٥ - ٤٤

يونس الصديقي

(٤٣٤)

٥. فهرس الأشعار

الصفحة	الب
١٣٢	ح وكل مكر ودهاء
٢٢٤	أين الطريق إلى حمام منجباب
٧٤	إلى دين النبي دعوا شهاباً
٢٣	إذا ماتبينت لسم أرتب
١٤٨	غويت وإن ترشّد غزية أرشد
٤٥٨	على النفس من وقع الحسام المهند
٢٧٣	وعلى الدينار داروا
٣٩	صفوا من الآلام والأكدار
٢٩٣	إن الخبيث لمن والاه غرّار
٢٣	وكم من كريم يتلى ثم يصبر
١٦١	بنسو بهثة وبنو جعفر
٣٠٢	ونقري ماشئت أن تنقري
٣٩٤	عليّ وفي أمثالها يجب الشكر
٢١	والعيش فتنان فحلّو ومُرّ
٥٥	إذا آثر الأخبار جلاس قصاص
٢٢٩	بقامتها الهيفاء سهم من الخنف
٢٤١	فتعري ستره فانتهكها
٢٣	مرّ الليالي واختلاف الأحوال
	الحقد والكذب الصرا
	يارب قائلة يوماً وقد تعبت
	وكانت عصبة من آل عمرو
	كفاني البلاء وأني امرؤ
	وهل أنا إلا من غزية إن غوت
	وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
	أظهروا لله نسكاً
	جبلت على كدر وأنت تريدها
	دلاهم بغرور ثم أسلمهم
	بليت وفقدان الحبيب بلية
	تغاوت عليه ذئاب الحجاز
	خلا لك الجو فيضي واصفري
	إذا كان شكري نعمة الله نعمة
	إما على نفسي وإما لها
	ونؤثر حكم العقل في كل شبهة
	خليلي هل تأسو المراض خريدة
	رب مستور سبته شهوة
	والمرء يبليه بلاء السربال

- ٣٤٨ - يديه الخير ماشاء فعل
- ٤٥٤ - والدرب نعلم شائك وطويل
- ٥٠١ - لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه
- ١٩ - سعيداً فأمسى قد فلا كل مسلم
- ٢٢٠ - سواك عند حدوث الحادث العمم!
- ٤٣٢ - منه بعروته الوثقى لمن داننا
- ٢١ - ومكانهن الكور والنسعان
- ١٨ - م أمسى فؤادي بها فاتناً
- ١٠٧ - كذلك يحسن فيما بقي
- أحمد الله فلا ند له
- فاصبر فإنك في النوازل رائد
- أباحكم والله لو كنت شاهداً
- لئن فتنتني فهي بالأمس أفتنت
- يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به
- إن الجماعة حبل الله فاعتصموا
- فثبتت كفي والفتان ونمرقي
- رخيتم الكلام قطيع القيا
- لقد أحسن الله فيما مضى

٦ . فهرس الفرق والطوائف

الصفحة	الفرقة أو الطائفة
	«أ»
٤٨٠	الإخوان المسلمون
٣١٠	الاشتراكية
٣٤٥	بنو الأصفر
٤٤٢-٤٠١-١٥٠	الأنصار
١٠٠-٩١	بنو أمية
٤٠١-١٥٢-١٣٧-١٢٢	الأوس
	«ت»
٢٠١	التنار
	«ث»
٨٣-٨٢-٨٠-٧٦-٧٥-٧٤-٧٣-٧٢	ثمود
٨٢	ثقيف
	«ج»
٤٧٧-٣١٥	الجهمية
	«ح»
٤٨٦	الحداثيون
٣١٥	الحرورية

٤٠١-١٥٢-١٣٧	«خ»	الخزرج
٣١٤		الخوارج
٤٤٨-١٧٠-١٢٢-١١٣	«ر»	الروم
١٥٤		الروس
٤٨٧-٤٧٧-٣١٥	«ز»	الزنديق
٣١٥	«س»	السبئية
٢٥٧		السريانيون
٤٤١		السلفيون
٣١٨		السمنية
٦٤		السوفسطائية
٤٨٢	«ش»	الشيعة الإمامية
٥٠٦-٣٠٩		الشيوعيون
٢١٩-٢١٨-٢٠٠	«ص»	الصلبيون
٥٠٢-٤٥٤-١٩٧-١٩٤		الصهيونية
٤٨٦-٤٠٨-٣٠٢-١٢٦	«ع»	العلمانيون
٦٧	«ف»	الفرعونية الوثنية
٩٦		الفلاسفة اليونانيون

٤٤٨-١٣	فارس
	«ق»
٤٨٢-٣١٧	القرامطة
١٥٤	القومي
١٥٢	بنوقيلة
	«ك»
٢٥٧	الكلدانبيون
	«م»
٣٠٩	الماسونية
١٩٢	المبشرون
٤٨٢	المرجئة
١٩٠	المستشرقون
١٤٩	بنو المصطلق
٤٧٧-٣٢٠	المعتزلة
٤٤٢-٤٠١	المهاجرون

٧. فهرس الأماكن والبلدان

المكان أو البلد	الصفحة
«أ»	
أحد	١٢٢ - ٤٠٤ - ٤٩٣
إسرائيل	٤٨٠
أمريكا	١٩٨ - ٣١٠ - ٤٨١ - ٥٠٦
أندونيسيا	١٥٦
أنطاكية	٤٨٤
أوربا	١٧٧ - ٢١٩ - ٣١٠
«ب»	
بابل	٢٥٧ - ٢٥٨
باريس	١٩٩ - ٢٢٧
بدر	٢٩٣ - ٤٦٥
بريطانيا	٤٧٩
«ت»	
تبوك	٧٢ - ٨٣ - ١٤٠
تركيا	٢١٧
«ج»	
جزيرة العرب	١٤٣ - ٤٠١
الجزائر	٢١٩

«ح»	الحبشة
٣٨٧-٤٠١-٤٩٢	الحجاز
٧٢-١٦١-٤٠١	حلب
٤٨١-٤٥٥	الحِجْر
٨٠-٨٣	حنين
٣٧٦	
«د»	دمشق
٤٨١	
«ر»	روسيا
٤٧٩	
«س»	سدوم
٢٣٤	السودان
٤٨١	سوريا
٤٨١	
«ص»	الصفاء
٩٨-٤٨٣	
«ط»	الطائف
٨٧	
«ع»	العراق
٤٨١-٤٨٥	
«ف»	فلسطين
٤٧٩	
«ق»	القادسية
٤٤٩	قباء
١٢٢	

«ك»		الكوفة
٤٨٤		
«ل»		ليبيا
٤٨١		
«م»		مدين
٤٣		المروة
٤٨٣		مصر
٤٨٠-٤٨٦-٤٨١-٢٥٨-٢١٩-٢١٧-٦٨		
«ن»		نيويورك
٢٠٠		

٨. فهرس المراجع

- ١ - الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، لابن بطة، ط. دار
الراية، الرياض، الثانية ١٤١٥هـ.
- ٢ - الابتلاء، والمحن في الدعوات، تأليف محمد عبدالقادر أبوفارس، ط. دار
الفرقان، عمان الأردن.
- ٣ - اتباع الهوى، تأليف الشيخ: سليمان الغصن، ط. دار العاصمة، الأولى
١٤١٣هـ.
- ٤ - إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر، تأليف الشيخ: أحمد عبدالغني
الدمياطي، الشهير بالبناء. ط. دار الندوة الجديدة، بيروت.
- ٥ - الإتقان في علوم القرآن، تأليف: جلال الدين السيوطي، ط. دار الكتب
العلمية، بيروت، الثانية ١٤١١هـ.
- ٦ - أثر أهل الكتاب في الفتن والحروب الأهلية في القرن الأول الهجري، تأليف: د/
جميل عبدالله المصري، ط. مكتبة الدار بالمدينة النبوية.
- ٧ - أجنحة المكر الثلاثة لعبدالرحمن الميداني، ط. دار الفكر، دمشق، الثالثة
١٤٠٢هـ.
- ٨ - احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، تأليف الدكتور: سعد الدين
صالح، ط. دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، مصر الزقازيق، الثانية
١٤١٣هـ.
- ٩ - أحكام أهل الذمة لابن القيم حققه وعلق حواشيه الأستاذ: صبحي الصالح،
ط. دار الملايين، الثانية ١٤٠١هـ.

- ١٠ - الأحكام السلطانية للماوردي، ط. دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٢هـ.
- ١١ - أحكام من القرآن الكريم، لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع عبد الكريم بن صالح المقرن، دار طويق للنشر والتوزيع، الأولى ١٤١٥هـ.
- ١٢ - الأخلاق الإسلامية وأسسها، تأليف عبد الرحمن حسن حنكة الميداني، ط. دار القلم، دمشق، الأولى ١٣٩٩هـ.
- ١٣ - أخي احذر الإشاعة للشيخ عبدالعزيز السدحان، الأولى ١٤١٢هـ.
- ١٤ - الأدب المفرد للإمام البخاري ترتيب: كمال يوسف الحوت، ط. عالم الكتب، الأولى ١٤٠٤هـ.
- ١٥ - إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الثانية ١٤٠٥هـ.
- ١٦ - أزمة المثقفين في ديار الإسلام، تأليف جمال سلطان، دار الوطن، الأولى ١٤١٤هـ.
- ١٧ - أساس البلاغة للزخشي، ط. دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- ١٨ - أسباب النزول، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، دراسة وتحقيق السيد الجميلي، ط. دار الكتاب العربي، الرابعة ١٤١٢هـ.
- ١٩ - الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الأولى ١٤٠٤هـ.
- ٢٠ - الاستشراق (الذرائع - المنشأ - المحتوى) تأليف: د/ السيد أحمد فرج، ط. دار طويق للنشر والتوزيع، الأولى ١٤١٤هـ.
- ٢١ - أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، ط. دار الشعب - مصر.
- ٢٢ - الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للشيخ محمد بن محمد أبي شهبة، ط. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٣٩٣هـ.
- ٢٣ - الإسلام وأوضاعنا السياسية، تأليف الأستاذ: عبدالقادر عودة، ط. المختار الإسلامي للطبع والنشر والتوزيع.

- ٢٤ - الإضاءة لأحمد نوفل، ط. دار الفرقان، الأردن، الأولى ١٤٠٣هـ.
- ٢٥ - الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ط. دار صادر، بيروت، الأولى ١٣٢٨هـ.
- ٢٦ - إصلاح الوجوه والنظائر للدماغاني، ط. دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥م.
- ٢٧ - أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، ط. مكتبة ابن تيمية.
- ٢٨ - أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، تأليف: الشيخ حافظ الحكمي، دراسة وتحقيق: أحمد علي علوش مدخلي، ط. مكتبة الرشد، الرياض، الثانية ١٤١٤هـ.
- ٢٩ - الأعلام للزركلي، ط. دار العلم للملايين، العاشرة ١٤١٢هـ.
- ٣٠ - أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية، تأليف الأستاذ: عبدود شلبي، ط. دار المجتمع للنشر والتوزيع، الثانية ١٤٠٥هـ.
- ٣١ - ألفية السيوطي في علم الحديث بتصحيح وشرح الأستاذ أحمد شاكِر، ط. مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الثانية ١٤٠٩هـ.
- ٣٢ - إلى الإسلام من جديد، تأليف: أبي الحسن الندوي، ط. المختار الإسلامي للطبع والنشر، الرابعة ١٣٩٨هـ.
- ٣٣ - إلى متى هذا الخلاف؟ للشيخ محمد بن صالح العثيمين، ط. دار المجتمع، جدة.
- ٣٤ - الأمراض الجنسية، لعبد الحميد القضاة، ط. دار عالم الكتب، الرياض، الثانية ١٤٠٦هـ.
- ٣٥ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ط. دار الكتاب الجديد، بيروت، الثالثة ١٤٠٤هـ.
- ٣٦ - إنباه الرواة على أنباء النحاة لعلي بن يوسف القفطي، ط. دار الفكر العربي، القاهرة ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الأولى ١٤٠٦هـ.

٣٧ - إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً تأليف: يحيى غزاوي، ط. مؤسسة الريان، الأولى ١٤٠٢هـ.

٣٨ - الإنسان في القرآن الكريم، تأليف الأستاذ: محمد بن لطفي الصباغ، ط. مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤١٣هـ.

٣٩ - الإنصاف سبيل للائتلاف واجتماع الكلمة، إعداد عبيد بن نفيح الشعبي، ط. دار الوطن، الأولى ١٤١٣هـ.

٤٠ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل لليضاوي ط. مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الثانية ١٣٨٨هـ.

٤١ - الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، ط. دار الجليل، بيروت.

٤٢ - الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية تلخيص وتحقيق وشرح الأستاذ: حسين يوسف الغزال، ط. دار إحياء العلوم، بيروت، الأولى ١٤٠٤هـ.

٤٣ - الإيمان والحياة ليوسف القرضاوي، ط. مؤسسة الرسالة، الرابعة ١٣٩٩هـ.

٤٤ - البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ط. المكتبة التجارية بمكة المكرمة.

٤٥ - بحوث في الشريعة والقانون. المجموعة الثانية لمحمد عبد الجواد محمد، ط. جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، ١٩٧٧م.

٤٦ - بدائع الفوائد لابن القيم، ط. دار الكتاب العربي.

٤٧ - البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، ط. دار الريان للتراث، الأولى ١٤٠٨هـ.

٤٨ - البدار الطالع بمحاسن مابعد القرن السابع لمحمد بن علي الشوكاني، ط. دار المعرفة، بيروت.

٤٩ - البرهان في علوم القرآن، تأليف: بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، خرج أحاديثه وعلق عليه مصطفى عبدالقادر عطا، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى ١٤٠٨هـ.

٥٠ - بروتوكولات حكماء صهيون، ط. الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، الأولى ١٤٠٣هـ.

- ٥١ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. المكتبة العصرية.
- ٥٢ - البلاغة فنونها وأفنانها، تأليف الأستاذ: فضل حسن عباس، ط. دار الفرقان، الأردن، الأولى ١٤٠٧هـ.
- ٥٣ - بلغة المراد في التحذير من الافتتان بالأموال والأولاد، تأليف: شمس الدين محمد بن محمد البديري الدمياطي، ت ١١٤٠هـ، ط دار الصحابة للتراث بطنطا، الأولى ١٤١٢هـ.
- ٥٤ - البيان لأخطاء بعض الكتاب، تأليف الشيخ صالح الفوزان، ط. دار ابن الجوزي، الأولى ١٤١١هـ.
- ٥٥ - تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الزبيدي، طه. مكتبة دار الحياة.
- ٥٦ - تاريخ الأمم والملوك، لابن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار المعارف بمصر، الرابعة.
- ٥٧ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ط. دار الفكر.
- ٥٨ - تاريخ العلامة ابن خلدون، المقدمة، ط. دار الكتاب اللبناني، الثانية ١٩٧٩م.
- ٥٩ - التاريخ الكبير للبخاري، ط. دار إحياء التراث العربي، الثانية.
- ٦٠ - التبشير والاستعمار لعمر فروخ والخالدي، ط. المكتبة العلمية بيروت، الأولى ١٣٧٢هـ.
- ٦١ - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة للإسفراييني، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط. عالم الكتب، الأولى ١٤٠٣هـ.
- ٦٢ - التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري، تحقيق: علي البجاوي، ط. عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- ٦٣ - تجديد الفكر العربي لزكي نجيب محمود، ط. دار الشروق، الثانية ١٤٠٨هـ.

٦٤ - تجربة فتاة مسلمة في مستشفى الراهبات، تأليف: إقبال قدور، ط. دار الكتب والمعرفة، الأولى ١٤١٥هـ.

٦٥ - التحفة المهدية في شرح الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية تأليف الشيخ مهدي آل مهدي تصحيح وتعليق الأستاذ: عبدالرحمن المحمود، ط. دار الوطن، الأولى ١٤١٤هـ.

٦٦ - تخرّيج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب - رحمه الله - تأليف: علوي السقاف، ط. دار الهجرة للنشر والتوزيع، الأولى، ١٤١٢هـ.

٦٧ - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي، تحقيق وتعليق عزت علي عطية، وموسى محمد علي، ط. مكتبة ابن تيمية.

٦٨ - التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد بن عودة السعوي، الأولى ١٤٠٥هـ.

٦٩ - تذكرة الحفاظ، للذهبي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧٠ - التصاريغ، يحيى بن سلام، ط. الدار التونسية للتوزيع.

٧١ - تصنيف الناس بين الظن واليقين للشيخ بكر بن عبدالله أبوزيد، ط. دار العاصمة، الأولى ١٤١٤هـ.

٧٢ - التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الأولى ١٤٠٥هـ.

٧٣ - تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور، ط. الدار التونسية للنشر.

٧٤ - تفسير سورة النور، تأليف: أبي الأعلى المودودي، ط. مؤسسة الرسالة، ١٣٩٨هـ.

٧٥ - تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ط. دار المعرفة، ١٤١٤هـ.

٧٦ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ط. المكتبة التجارية الكبرى بمصر، الثالثة ١٣٧٣هـ.

٧٧ - التفسير الكبير للفيروز الرازي، ط. دار إحياء التراث العربي، الثالثة.

- ٧٩ - التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ، ط . دار إحياء التراث العربي ، الثانية ١٣٩٦هـ .
- ٨٠ - تقريب التهذيب لابن حجر، ط . الرشيد، سوريا، الثالثة ١٤١١هـ .
- ٨١ - تلبيس إبليس لابن الجوزي، ط . دار القلم، بيروت .
- ٨٢ - تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، هذبه عبدالقادر بدران، ط . دار المسير، الثانية ١٣٩٩هـ .
- ٨٣ - تهذيب التهذيب لابن حجر، ط . دار إحياء التراث العربي، الأولى ١٤١٢هـ .
- ٨٤ - تهذيب اللغة للأزهري، ط . دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م، تحقيق إبراهيم الأبياري .
- ٨٥ - التوراة السامرية مع مقارنة بالتوراة العبرانية، ترجمة الكاهن: السامري أبي الحسن إسحاق الصوري، نشرها وعرف بها أحمد حجازي السقاط، ط . دار الأنصار بمصر، الأولى ١٣٩٨هـ .
- ٨٦ - ثقافة الضرار، تأليف الأستاذ: جمال سلطان، دار الوطن الأولى ١٤١٣هـ .
- ٨٧ - جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري، ط . دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤١٢هـ .
- ٨٨ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ط . دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ .
- ٨٩ - جذور البلاء لعبدالله التل، ط . المكتب الإسلامي، الثالثة ١٤٠٥هـ .
- ٩٠ - جمهرة أنساب العرب، لعلي بن أحمد بن سعيد المعروف بابن حزم الأندلسي، تحقيق وتعليق عبدالسلام هارون، ط . دار المعارف .
- ٩١ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم، ط . مكتبة الرياض الحديثة .
- ٩٢ - حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي، الثالثة ١٤٠٥هـ .
- ٩٣ - حتى لا تغرق السفينة، تأليف الشيخ : سلمان بن فهد العودة، ط . دار الوطن، الأولى ١٤١٢هـ .

- ٩٤ - الحجة في القراءات السبع لابن خالويه تحقيق وشرح : د/ عبدالعال سالم مكرم، ط. مؤسسة الرسالة، الخامسة ١٤١٠هـ.
- ٩٥ - الحداثة في ميزان الإسلام للأستاذ: عوض القرني، تقرّظ سناحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، هجر للطباعة والنشر التوزيع، الأولى ١٤٠٨هـ.
- ٩٦ - الحدود والتعزيرات عند ابن القيم، تأليف الأستاذ: بكر أبوزيد، ط. المكتب الإسلامي ومكتبة المرشد، الأولى ١٤٠٣هـ.
- ٩٧ - حديث الإفك كما جاء في سورة النور ودور المنافقين فيه، رسالة ماجستير مقدمة من: عبدالحليم العبد اللطيف، كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لعام ١٤٠٤هـ.
- ٩٨ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، ط. دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٠٩هـ.
- ٩٩ - حوار مع المالكي في رد منكراته وضلالاته، تأليف الشيخ : عبدالله بن سليمان بن منيع، ١٤٠٣هـ.
- ١٠٠ - حول القيادة والسلطة في التاريخ الإسلامي، تأليف الأستاذ: عماد الدين خليل، ط. مكتبة النور، الأولى ١٤٠٥هـ.
- ١٠١ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبدالقادر البغدادي، تحقيق: عبدالسلام هارون، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م.
- ١٠٢ - الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي، تأليف: ماجد كيلاي، ط. الدار السعودية للنشر والتوزيع، الثانية ١٤٠٤هـ.
- ١٠٣ - الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، تأليف العلامة: محمد بن علي الشوكاني، ط. دار ابن خزيمة، الرياض، الأولى ١٤١٤هـ.
- ١٠٤ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي، ط. دار الفكر، الثانية ١٤٠٣هـ.
- ١٠٥ - دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية المعاصرة، تأليف:

- صلاح الدين مقبول، ط. مجمع البحوث العلمية، بالهند، الأولى ١٤١٢هـ.
- ١٠٦ - دلائل النبوة للبيهقي، ط. دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٠٥هـ.
- ١٠٧ - ديوان حسان بن ثابت - رضي الله عنه - حققه وعلق عليه الأستاذ: وليد عرفات، ط. دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م.
- ١٠٨ - ديوان الأستاذ يوسف القرضاوي نفحات ولفحات، جمعه وحققه وقدم له: حسن أدهم جرار، ط. دار الضياء للنشر، الأردن - عمان، الأولى ١٤٠٥هـ.
- ١٠٩ - ديوان لبيد بن ربيعة شرح الطوسي، قدم له ووضع فهارسه: حنا نصر الحلي، ط. دار الكتاب العربي، الأولى ١٤١٤هـ.
- ١١٠ - الذهب المسبوك في وعظ الملوك، تأليف: محمد بن أبي نصر الحميدي، ت ٤٨٨هـ، حققه الأستاذان: أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري وعبد الحليم عويس، ط. عالم الكتب الأولى ١٤١٢هـ.
- ١١١ - رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر تأليف الأستاذ: محمد قطب، دار الوطن الرياض الأولى ١٤١١هـ.
- ١١٢ - الرحيق المختوم تأليف صفى الدين المباركفوري، ط. مكتبة الصحابة، جدة، ١٤١١هـ.
- ١١٣ - الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد بن حنبل، ط. الدار السلفية للنشر، الكويت.
- ١١٤ - الرسائل المفيدة للشيخ: عبد اللطيف آل الشيخ، جمع وتعليق: سليمان بن سحمان، ط. فهد بن إبراهيم مقيل.
- ١١٥ - رسالة المسجد في الإسلام، تأليف: عبدالعزيز اللميلم، ١٤٠٧هـ.
- ١١٦ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع الثاني للألوسس، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ١١٧ - الروح لابن القيم، تحقيق ودراسة السيد الجميلي، ط. دار الكتاب العربي الأولى ١٤١٤هـ.
- ١١٨ - روضة المحبين، لابن القيم، ط. دار الكتب العلمية.

- ١١٩ - رياض الصالحين، تأليف الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، حققه وخرج أحاديثه: عبدالعزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق، وراجعه الشيخ شبيب الأرناؤوط، ط. دار المأمون ومكتبة المنار، العاشرة ١٤٠٩هـ.
- ١٢٠ - الرياض الفاخرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة، تأليف عبدالرحمن السعدي، ط. الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٤٠٥هـ.
- ١٢١ - زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ط. المكتب الإسلامي، دمشق، الأولى ١٣٨٥هـ.
- ١٢٢ - الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر العسقلاني، ط. دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ.
- ١٢٣ - سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام للشيخ الإمام محمد بن إسماعيل الصنعائي، صححه وعلق عليه وخرج أحاديثه: فواز أحمد زمرلي وإبراهيم الجمل، ط. دار الكتاب العربي، الثالثة ١٤٠٧هـ.
- ١٢٤ - السحر (حقيقته وحكمه والعلاج منه) تأليف الأستاذ: مسفر الدميني، ط. مكتبة المغني، الرياض، الثانية ١٤١٣هـ.
- ١٢٥ - السقوط من الداخل، تأليف الأستاذ: محمد بن سعود البشر، ط. دار العاصمة، ١٤١٥هـ.
- ١٢٦ - سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، ط. المكتب الإسلامي، الثانية ١٣٩٩هـ.
- ١٢٧ - السمط الثمين، تأليف أحمد بن عبدالله الطبري، المتوفى سنة ٦٩٣هـ، ط. مكتبة الكليات الأزهرية، ١٤٠٢هـ.
- ١٢٨ - السنة ومكانتها في التشريع الإسلام، تأليف الأستاذ مصطفى السباعي، ط. المكتب الإسلامي الثانية ١٤٠٢هـ.
- ١٢٩ - سنن ابن ماجه لمؤلفه أبي عبدالله القزويني (ابن ماجه) ط. دار الحديث، القاهرة.

- ١٣٠ - سنن أبي داود، ط. دار الدعوة ودار سحنون.
- ١٣١ - سنن الترمذي لمؤلفه أبي عيسى الترمذي، تحقيق: إبراهيم عطوه، ط. دار الحديث، القاهرة.
- ١٣٢ - سنن الدارمي، ط. دار الكتب العلمية.
- ١٣٣ - السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، وفي ذيله الجوهر النقي لابن التركماني، ط. دار الفكر.
- ١٣٤ - السنن الكبرى للنسائي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ.
- ١٣٥ - سورة طه تحليل معانيها وبسط أهدافها، رسالة دكتوراه، مقدمة من الأستاذ: صلاح المهداوي لكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مطبوعة على الآلة الكاتبة.
- ١٣٦ - السياسة الشرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط. دار الأوقاف الجديدة بيروت، الأولى ١٤٠٣هـ.
- ١٣٧ - سير أعلام النبلاء للذهبي، ط. مؤسسة الرسالة.
- ١٣٨ - السيرة النبوية لابن هشام، ط. دار الفكر، الأولى ١٤١٢هـ.
- ١٣٩ - السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية لمهدي رزق الله، ط. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الأولى ١٤١٢هـ.
- ١٤٠ - السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية، تأليف زياد أبوغنيمة، ط. دار عمّار، الأردن، الأولى ١٤٠٤هـ.
- ١٤١ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، ط. دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- ١٤٢ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم تأليف أبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي، تحقيق أحمد سعد حمدان، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع.
- ١٤٣ - شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، حققه جماعة من العلماء، وخرج

أحاديثه الشيخ : محمد ناصر الدين الألباني ، ط . المكتب الإسلامي ، التاسعة ١٤٠٨ هـ .

١٤٤ - شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تأليف : الشيخ صالح الفوزان ، ط . مكتبة المعارف ، الرياض ، السادسة ١٤١٣ هـ .

١٤٥ - الشريعة الإسلامية لا القوانين الجاهلية ، تأليف الأستاذ : عمر بن سليمان الأشقر ، ط . دار الدعوة ، الكويت ، الأولى ١٤٠٤ هـ .

١٤٦ - شريعة الله وشريعة المتألهين ، تأليف الأستاذ جابر الحاج ط . دار الاعتصام ، القاهرة ، الأولى ١٣٩٩ هـ .

١٤٧ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ، ط . عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة .

١٤٨ - الشيخ عبدالرحمن بن سعدي ، وجهوده في توضيح العقيدة ، بقلم : عبدالرزاق العباد ، ط . مكتبة الرشد ، الثانية ١٤١٤ هـ .

١٤٩ - الشيوعية والشيوعيون في ميزان الإسلام لعبد الجليل شلبي ، ط . دار الشروق ، القاهرة ، الثانية ١٤٠٦ هـ .

١٥٠ - البصائر البتار في التصدي للسحرة الأشرار ، تأليف : وحيد عبدالسلام باني ، ط . مكتبة الصحابة ، جدة ، الثالثة ، ١٤١٢ هـ .

١٥١ - الصبر الجميل في ضوء الكتاب والسنة ، تأليف : سليم الهلالي ، ط . دار ابن القيم ، الدمام ، الثانية ١٤١١ هـ .

١٥٢ - الصبر في القرآن ، للأستاذ : يوسف القرضاوي ، ط . مؤسسة الرسالة ، الرابعة ١٤٠٥ هـ .

١٥٣ - الصحاح للجوهري ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ، ط . دار العلم للملايين ، بيروت .

١٥٤ - صحيح الجامع الصغير وزياداته للألباني ، ط . المكتب الإسلامي ، الثالثة ١٤٠٨ هـ .

- ١٥٥ - صحيح مسلم بشرح النووي، ط. دار إحياء التراث العربي، الثانية ١٣٩٢هـ.
- ١٥٦ - الصلة لابن بشكوال، ط. الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ١٥٧ - صيد الخاطر تأليف الإمام أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق الأستاذ: عبدالرحمن البر، ط. دار اليقين، المنصورة مصر، الأولى ١٤١٣هـ.
- ١٥٨ - ضعيف سنن أبي داود، لمحمد ناصر الدين الألباني ط. المكتب الإسلامي الأولى ١٤١٢هـ.
- ١٥٩ - الطبقات الكبرى، لابن سعد، ط. دار صادر، بيروت.
- ١٦٠ - طبقات المفسرين للداودي، ط. الكتب العلمية، الأولى ١٤٠٣هـ.
- ١٦١ - طريق الدعوة في ظلال القرآن لأحمد فائز، ط. مؤسسة الرسالة.
- ١٦٢ - ظاهرة ضعف الإيمان، تأليف: محمد صالح المنجد، ط. دار الوطن. الأولى ١٤١٣هـ.
- ١٦٣ - عبدالله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام، تأليف سليمان بن حمد العودة، ط. دار طيبة، الرياض، الثانية.
- ١٦٤ - عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك لمحمد محيي الدين عبدالحميد بهامش كتاب «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» لابن هشام الأنصاري، ط. المكتبة العصرية، صيدا، بيروت بدون تاريخ.
- ١٦٥ - العزلة والخلطة أحكام وأحوال تأليف الشيخ سلمان بن فهد العودة، علق عليه ساحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، الأولى ١٤١٣هـ.
- ١٦٦ - عصمة الأنبياء للرازي، ط. دار المطبوعات الحديثة، الأولى ١٤٠٦هـ.
- ١٦٧ - علماء نجد خلال ستة قرون، تأليف الشيخ عبدالله البسام، ط. مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الأولى ١٣٩٨هـ.
- ١٦٨ - العلمانية للشيخ سفر بن عبدالرحم الحوالي، ط. مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي.

- ١٦٩ - العلمانيون والإسلام لمحمد قطب، ط. دار الوطن، الأولى ١٤١٤هـ.
- ١٧٠ - غريب الحديث لأبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي، ت ٢٨٥هـ، تحقيق د. سليمان العايد، ط. مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة الأولى ١٤٠٥هـ.
- ١٧١ - الغزو الثقافي للأمة الإسلامية، ماضيه وحاضره، إعداد منصور الخريجي، ط. دار الصمعي، ودار المعراج، الرياض، الأولى ١٤١٣هـ.
- ١٧٢ - غزو من الداخل للأستاذ: جمال سلطان، ط. دار الوطن، الأولى ١٤١٢هـ.
- ١٧٣ - الفاحشة، عمل قوم لوط، الأضرار والأسباب، سبل الوقاية، والعلاج، تأليف: محمد الحمد، ط. دار ابن خزيمة، الرياض ١٤١٥هـ.
- ١٧٤ - فتح الحق المبين في علاج الصرع والسحر والعين، تأليف الأستاذين: عبدالله الطيار، وسامي المبارك. ط. دار الوطن، الأولى ١٤١٥هـ.
- ١٧٥ - الفتح السماوي بتخريج أحاديث تفسير القاضي البيضاوي، تأليف: زين الدين عبدالرؤوف المناوي ودراسة وتحقيق وتعليق: أحمد السلفي، ط. دار العاصمة الرياض، الأولى ١٤٠٩هـ.
- ١٧٦ - فتح القدير الجامع بين في الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني، ط. دار الفكر، ١٤٠٣هـ.
- ١٧٧ - الفرق بين الفرق، تأليف: عبدالقاهر بن ظاهر البغدادي، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ط. دار المعرفة، بيروت.
- ١٧٨ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الإسلام ابن تيمية، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه الأستاذ: عبدالرحمن اليحيى، ط. دار طويق للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٤هـ.
- ١٧٩ - الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، ط. دار الكتب العلمية.
- ١٨٠ - فقه السيرة، للأستاذ: محمد سعيد البوطي، الطبعة السابعة ١٣٩٨هـ.
- ١٨١ - فقه السيرة لمحمد الغزالي، ط. دار الكتاب الإسلامي، مصر، الثامنة ١٤٠٢هـ.

- ١٨٢ - فقه الإسلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام لابن حجر، تأليف الأستاذ: عبدالقادر شيبه الحمد، الطبعة الثانية.
- ١٨٣ - فقه التعامل مع المخالف، تأليف الأستاذ: عبدالله الطريقي، ط. دار الوطن، الأولى ١٤١٥هـ.
- ١٨٤ - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، تأليف: د/ محمد البهي، ط. مكتبة وهبة، الحادية عشر ١٤٠٥هـ.
- ١٨٥ - الفهرست لابن النديم، ط. دار المعرفة، بيروت.
- ١٨٦ - الفوائد لابن القيم، ط. دار النفائس، الرابعة ١٤٠٣هـ.
- ١٨٧ - قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله، تأليف الأستاذ: جلال العالم.
- ١٨٨ - القاموس المحيط للفيروز آبادي، ط. مؤسسة الرسالة، السابعة، ١٤١٠هـ.
- ١٨٩ - القتال في الإسلام، محمد بن ناصر الجعوان، ط. الأولى ١٤٠١هـ.
- ١٩٠ - القدس بين الوعد الحق والوعد المفترى تأليف الشيخ سفر بن عبدالرحمن الخوالي، ط. مكتبة السنة، القاهرة، الأولى ١٤١٤هـ.
- ١٩١ - قرع السياط في قمع أهل اللواط، لأحمد بن محمد السفاريني، ط. دار الطحاوي، الرياض، الأولى ١٤١٢هـ.
- ١٩٢ - القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف، تأليف: إبراهيم البريكان، ط. دار الهجرة، الثانية ١٤١٥هـ.
- ١٩٣ - قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، تأليف أبي طالب المكي، ط. دار صادر.
- ١٩٤ - الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة للذهبي، ط. دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٠٣هـ.
- ١٩٥ - الكامل في التاريخ لابن الأثير، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، الرابعة ١٤٠٣هـ.
- ١٩٦ - الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي.

- ١٩٧ - كتاب التوحيد (الذي هو حق الله على العبيد مع المسائل) تأليف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ط. دار ابن خزيمة، الرياض ١٤١٤هـ.
- ١٩٨ - كتابان في اللواط (ذم اللواط للدوري - وتحريم اللواط للأجري) ط. مكتبة الصفحات الذهبية، الرياض، ١٤٠٩هـ.
- ١٩٩ - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزخشي، دار الكتاب العربي، الثالثة ١٤٠٧هـ.
- ٢٠٠ - الكفر والمكفرات للأستاذ أحمد البيانوني، ط. دار السلام، الثانية ١٤٠٥هـ.
- ٢٠١ - الكنى والأسماء لأبي بشر محمد بن أحمد الدولابي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت الثانية ١٤٠٣هـ.
- ٢٠٢ - كناشة النوادر، تأليف الأستاذ: عبد السلام هارون، ط. دار الطلائع، القاهرة، بدون تاريخ.
- ٢٠٣ - كيف نكتب التاريخ الإسلامي لمحمد قطب، ط. دار الوطن، الأولى ١٤١٢هـ.
- ٢٠٤ - لسان العرب لابن منظور، ط. دار الفكر، الأولى ١٤١٠هـ.
- ٢٠٥ - مآثر الخلافة للقلقشندي، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٥م.
- ٢٠٦ - الماسونية وموقف الإسلام منها، تأليف: د/ حمود الرحيلي، ط. دار العاصمة، الأولى ١٤١٥هـ.
- ٢٠٧ - المال والحكم في الإسلام للأستاذ: عبد القادر عودة، ط. المختار الإسلامي، الخامسة ١٣٩٧هـ.
- ٢٠٨ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيتمي، ط. مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ.
- ٢٠٩ - مجموعة التوحيد - كتب ورسائل للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ط. محمد العبيكان.
- ٢١٠ - مجموعة فتاوى سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، أشرف على طبعه وتحقيقه: محمد بن سعد الشويعر، ط. الثانية ١٤١٠هـ.

- ٢١١ - مجموعة فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي.
- ٢١٢ - مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان، دار الوطن، الأولى ١٤١٢هـ.
- ٢١٣ - محاسن التأويل للقاسمي، ط. دار الكتب العربية.
- ٢١٤ - المحرر الوجيز لابن عطية، ط. مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، ١٤١٣هـ.
- ٢١٥ - محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه، تأليف الأستاذ: مسعود الندوي، ترجمة وتعليق عبدالعليم بن عبدالعظيم البستوي، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٤هـ.
- ٢١٦ - محيط المحيط لبطرس البستاني، ط. مكتبة لبنان، ١٩٨٣م.
- ٢١٧ - مختار الصحاح للرازي، ط. دار القبلة ومؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٥هـ.
- ٢١٨ - مختصر منهاج القاصدين، تأليف الإمام: ابن قدامة المقدسي، علق عليه شعيب وعبدالقادر الأرناؤوطيين، ط. دار القبلة، جدة ومؤسسة علوم القرآن، دمشق، ١٤٠٧هـ.
- ٢١٩ - مدارج السالكين، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم ط. دار الحديث، القاهرة.
- ٢٢٠ - مراجعات في فقه الواقع السياسي والفكري، إعداد وحوار الأستاذ: عبدالله الرفاعي، ط. دار المعارج الدولية للنشر، الرياض، الأولى ١٤١٤هـ.
- ٢٢١ - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع لصفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق البغدادي ٧٣٩هـ، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، ط. دار الجيل، الأولى ١٤١٢هـ.
- ٢٢٢ - مسئولية الكلمة، تأليف: د. عبدالله وكيل الشيخ، ط. دار الوطن الأولى ١٤١٣هـ.
- ٢٢٣ - المستدرك لأبي عبدالله الحاكم النيسابوري، دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، ط. دار ثابت العلمية، بيروت، الأولى ١٤١١هـ.

- ٢٢٤ - المستقبل لهذا الدين، تأليف الأستاذ: سيد قطب، ط. الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، ١٤١١هـ.
- ٢٢٥ - مسند الإمام أحمد، ط. دار الدعوة ودار سحنون.
- ٢٢٦ - مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي الثالثة ١٤٠٥هـ.
- ٢٢٧ - مشكل الآثار، لأبي جعفر الطحاوي، ط. مجلس دائرة المعارف النظامية، في الهند، الأولى ١٣٣٣هـ.
- ٢٢٨ - مشكلات الشباب الجنسية والعاطفية تحت أضواء الشريعة الإسلامية، بقلم عبدالرحمن واصل، ط. دار الشروق، جدة، الأولى ١٤٠١هـ.
- ٢٢٩ - المشوق في الجهاد، تأليف الأستاذين: عدنان الرومي وعلي الهزاع، ط. دار الوطن، الأولى ١٤١٣هـ.
- ٢٣٠ - مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة، تأليف: شهاب الدين البوصيري، دراسة وتقديم كمال يوسف الحوت، ط. دار الجنان، الأولى ١٤٠٦هـ.
- ٢٣١ - المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبه، ط. دار المدني، جدة، الأولى ١٣٧٢هـ.
- ٢٣٢ - المصنف، لعبدالرزاق بن همام الصنعاني. تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط. المجلس العلمي، الأولى ١٣٩٢هـ.
- ٢٣٣ - المعاصي وأثرها على الفرد والمجتمع للشيخ حامد المصلح، ط. دار الضياء، الثانية ١٤١٠هـ.
- ٢٣٤ - معالم التنزيل للبغوي، ط. دار المعارف، بيروت، الثانية ١٤٠٧هـ.
- ٢٣٥ - معالم في الطريق لسيد قطب، دار الشروق، الخامسة عشرة ١٤١٢هـ.
- ٢٣٦ - معجم الأدباء لياقوت الحموي، ط. دار الفكر، صيدا بيروت.
- ٢٣٧ - المعجم الكبير للطبراني، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبدالمجيد السلفي، ط. دار إحياء التراث العربي.
- ٢٣٨ - معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، ط. دار إحياء التراث العربي.

- ٢٣٩ - معجم النحو، للأستاذ: عبدالغني الدقر، ط. الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، الثانية ١٤٠٢هـ.
- ٢٤٠ - المعجم الوسيط تأليف مجمع اللغة العربية بمصر، ط. الإدارة العامة للمجمعات وإحياء التراث.
- ٢٤١ - معجم ما استعجم لعبدالله بن عبدالعزيز البكري، ط. عالم الكتب، بيروت.
- ٢٤٢ - معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ط. مكتبة الخانجي بمصر، الثالثة ١٤٠٢هـ تحقيق: عبدالسلام هارون.
- ٢٤٣ - المغالطات وأثرها في الأمة، تأليف: محمود شاكر، ط. المكتب الإسلامي، بيروت، الأولى ١٤١٠هـ.
- ٢٤٤ - المغني لابن قدامة المقدسي، ط. دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ.
- ٢٤٥ - المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة، تأليف محمد سالم محيسن، ط. دار الجليل، بيروت، الثانية ١٤٠٨هـ.
- ٢٤٦ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تأليف الإمام ابن قيم الجوزية، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٤٧ - المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ط. دار المعرفة، بيروت.
- ٢٤٨ - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري، عُني بتصحيحه هلموت ريتز، الثانية ١٣٨٢هـ، ط. فرانز شتاينز.
- ٢٤٩ - مقدمات في الأهواء والافتراق والبدع، تأليف الأستاذ ناصر العقل، دار الوطن، الأولى ١٤١٤هـ.
- ٢٥٠ - من وسائل دفع الغربة، للشيخ: سلمان بن فهد العودة، ط. دار ابن الجوزي، الدمام، الأولى ١٤١٢هـ.
- ٢٥١ - المنافقون في القرآن الكريم، تأليف: د/ عبدالعزيز الحميدي، ط. دار المجتمع للنشر والتوزيع، الأولى ١٤٠٩هـ.
- ٢٥٢ - مناهل العرفان في علوم القرآن، بقلم الشيخ: محمد عبدالعظيم الزرقاني، ط. مؤسسة التاريخ العربي، ودار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ.

٢٥٣ - منهاج السنة النبوية، تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، ط. مؤسسة قرطبة، الأولى ١٤٠٦هـ.

٢٥٤ - منهج القرآن في تثبيت الرسول - ﷺ - رسالة ماجستير مقدمة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية من عبدالرحمن هوساوي، سنة ١٤١٢هـ.

٢٥٥ - الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي، ط. دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.

٢٥٦ - الموالات والمعاداة في الشريعة الإسلامية، تأليف: محاسن بن عبدالله الجلعود، ط. دار اليقين، الأولى ١٤٠٧هـ.

٢٥٧ - الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، تأليف: ناصر القفاري وناصر العقل، ط. دار الصميعي للنشر والتوزيع، الأولى ١٤١٣هـ.

٢٥٨ - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة. إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط. الندوة العالمية، الثانية ١٤٠٩هـ.

٢٥٩ - موطأ الإمام مالك، رواية يحيى بن يحيى الليثي، إعداد أحمد عرموش، ط. دار النفائس، الحادية عشرة ١٤١٠هـ.

٢٦٠ - موقف المسلم من الخلاف، للشيخ عبدالرحمن البراك، ط. دار الراية، الأولى ١٤١٤هـ.

٢٦١ - ميزان الاعتدال للذهبي، تحقيق علي البجاوي، ط. دار الفكر.

٢٦٢ - نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي، ط. مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٠٤هـ.

٢٦٣ - نساء زاهدات، تأليف محمد خير يوسف، ط. دار الوطن، الأولى ١٤١٣هـ.

٢٦٤ - نسب قريش، تأليف: أبي عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيدي، ط. دار المعارف، الثالثة.

٢٦٥ - النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية، تأليف فؤاد الرفاعي، ط. دار المجتمع.

- ٢٦٦ - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تأليف الإمام ابن القيم، خرج أحاديثه وعلق عليه: مصطفى أبو النصر الشلبي، ط. مكتبة السوادي للتوزيع، جدة، الثانية ١٤١٠هـ.
- ٢٦٧ - هل في الشر خير، تأليف الأستاذ: محمد سعيد الطنطاوي، ط. دار الفتح، الأولى ١٤١٣هـ.
- ٢٦٨ - الوابل الصيب من الكلم الطيب، تأليف الإمام ابن القيم، ضبطه وكتب هوامشه الشيخ: إبراهيم العجوز، ط. دار الكتب العلمية، بيروت. بدون تاريخ.
- ٢٦٩ - واقعنا المعاصر، للأستاذ: محمد قطب، ط. مكتبة الصحابة، جدة، الثالثة، ١٤١٠هـ.
- ٢٧٠ - وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق، تأليف: جمال بادي، ط. دار الوطن، الأولى ١٤١٢هـ.
- ٢٧١ - الوحي الرحاني والوحي الشيطاني، تأليف: عبد الخالق العطار.
- ٢٧٢ - وسائل الشيطان للعين لتمزيق وتفريق وتشتيت المؤمنين، تأليف الشيخ عبد الخالق العطار.
- ٢٧٣ - وفيات الأعيان لابن خلكان، ط. دار صادر، بيروت، تحقيق: إحسان عباس.
- ٢٧٤ - الولاء والبراء في الإسلام تأليف الشيخ محمد بن سعيد القحطاني تقديم الشيخ: عبدالرزاق عفيفي رحمه الله، ط. دار طيبة، الرياض، السادسة ١٤١٣هـ.
- ٢٧٥ - اليهودية لأحمد شلبي، ط. مكتبة النهضة المصرية، السابعة ١٩٨٤م.

٩ . فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
التمهيد: وفيه ثلاثة مباحث:	
المبحث الأول: مفهوم الفتنة في اللغة	١٧
المبحث الثاني: الفرق بين الفتنة والابتلاء	٢٣
المبحث الثالث: معاني الفتنة في القرآن	٢٩
الباب الأول: مجالات الفتنة	
وفيه ثلاثة فصول	
الفصل الأول : الابتلاء.	٣٩
المبحث الأول: ابتلاء الأنبياء	٤٢
* المطلب الأول: ابتلاء موسى - عليه الصلاة والسلام -	٤٢
* المطلب الثاني: ابتلاء داود - عليه الصلاة والسلام -	٥٢
* المطلب الثالث: ابتلاء سليمان - عليه الصلاة والسلام -	٥٨
المبحث الثاني: ابتلاء أقوام الأنبياء	٦٥
* المطلب الأول: ابتلاء قوم موسى - عليه الصلاة والسلام -	٦٥
* المطلب الثاني: ابتلاء قوم صالح - عليه الصلاة والسلام -	٧٢
* المطلب الثالث: ابتلاء كفار قريش	٨٥

٨٥	١ - ابتلاؤهم بالإسراء
٨٨	٢ - ابتلاؤهم بشجرة الزقوم
٩٤	٣ - ابتلاؤهم بعدد خزنة جهنم
٩٧	٤ - ابتلاؤهم بإمهال العذاب
١٠٢	* المطلب الرابع : ابتلاء الكافرين بالمؤمنين والعكس
١١٠	* المطلب الخامس : ابتلاء الناس جميعاً
١١٩	الفصل الثاني: بث الفرقة و الاختلاف
١٢١	المبحث الأول : محاربة الإسلام بادعاء الدعوة إليه
١٣١	المبحث الثاني : محاربة الإسلام بالإفك على رسول الله - ﷺ - وزوجه
١٤٠	المبحث الثالث : تشكيك الناس في صدق النبي - ﷺ -
١٤٨	المبحث الرابع : إثارة العصبية والتحزب بين المسلمين
١٥٩	الفصل الثالث : الصد عن سبيل الله - تعالى -
١٦٠	المبحث الأول : الإغراء والإغواء
١٦٢	* المطلب الأول : إغراء الشيطان لبني الإنسان وإغواؤهم
١٦٩	* المطلب الثاني : إغراء الزعماء والكبراء لأتباعهم وإغواؤهم
١٧٧	المبحث الثاني : محاولة صرف الناس عن القرآن
١٨٨	المبحث الثالث : محاولة خداع الناس ، وإغراقهم بالشهوات
١٩١	أهداف الغزو الفكري
١٩١	الأهداف الخاصة
١٩١	١ - في التربية والتعليم
١٩٤	٢ - في وسائل الإعلام
٢٠٠	٣ - في الخمور والمخدرات
٢٠٢	٤ - في الرياضة والكرة
٢٠٤	توصيات

**الباب الثاني: مظاهر الفتنة، وأسبابها، وأساليب
القرآن في التحذير منها، وفيه ثلاثة فصول:**

٢١١	الفصل الأول : مظاهر الفتنة
٢١١	المبحث الأول: الكفر والشرك
٢١٣	وسائل الكفار لنشر هذه الفتنة
٢١٣	١ - إلحاق الأذى الجسماني
٢١٧	٢ - فرض الأنظمة والأوضاع التي تحارب المسلمين في ديارهم
٢٢٠	٣ - حماية المزارات والقبور
٢٢٣	المبحث الثاني: النساء
٢٢٥	يوسف وامرأة العزيز
٢٢٦	سبب الفتنة بالنساء
٢٣٣	المبحث الثالث: إتيان الذكران « اللواط »
٢٣٤	أول من ابتدع هذه الفتنة الكبرى
٢٣٤	الآيات والآثار الواردة في ذم هذا العمل المشين
٢٣٨	تحريمه، وعقوبة مرتكبه
٢٣٩	أضرار هذا العمل المشين
٢٤١	سبل الوقاية والعلاج
٢٤٤	المبحث الرابع: الحكم والسلطة
٢٤٨	الحاشية الفاسدة سبب رئيسي في طغيان الحكام
٢٥٠	الحقوق والواجبات التي وضعها علماء الإسلام على الحكام
٢٥٥	المبحث الخامس: السحر
٢٥٦	تعريف السحر
٢٥٧	لمحة موجزة عن تاريخ السحر
٢٥٩	سبب إقدام الإنسان على تعلم السحر
٢٦١	الأضرار الناتجة عن هذه الفتنة

٢٦٣	أضرار أخرى للسحر
٢٦٥	سبل الوقاية والعلاج من فتنه السحر
٢٧١	الفصل الثاني : أسباب الفتنة
٢٧١	المبحث الأول : الأموال والأولاد
٢٨٢	المبحث الثاني : المعصية
٢٩١	المبحث الثالث : اتباع الشيطان
٢٩٤	طرق الشيطان المريد في إضلال العبيد
٣٠٣	المبحث الرابع : موالاة الكافرين
٣٠٦	صور موالاة الكافرين
٣١٠	عملاء الكافرين
٣١٢	كلمة أخيرة
٣١٣	المبحث الخامس : اتباع المتشابه
٣١٣	معنى المتشابه في اللغة
٣١٣	ماالمتشابه الذي يوقع اتباعه في الفتنة؟
٣١٤	من هم الذين يتبعون المتشابه؟
٣٢٢	المراد بالفتنة
	تنبيهات هامة :
٣٢٤	التنبيه الأول : الحكمة من إنزال المتشابه
٣٢٥	التنبيه الثاني : إثبات الصفات ليس من اتباع المتشابه
٣٣٣	الفصل الثالث : أساليب القرآن في التحذير من الفتنة
٣٣٣	المبحث الأول : الأمر
٣٣٩	المبحث الثاني : النهي
٣٤١	المبحث الثالث : التهديد
٣٤٥	المبحث الرابع : التبكيت والتقريع
٣٤٨	المبحث الخامس : النفى

٣٥٠	المبحث السادس : الاستفهام
٣٥٣	المبحث السابع : التعجب .
٣٥٥	المبحث الثامن : الخبر
٣٥٧	المبحث التاسع : الدعاء .
٣٥٩	المبحث العاشر : الشرط .
٣٦٢	المبحث الحادي عشر : الاستثناء

الباب الثالث : آثار الفتنة ،

وسبل النجاة منها ، وفيه فصلان :

٣٦٩	الفصل الأول : آثار الفتنة
٣٦٩	المبحث الأول : تمييز الصادقين من الكاذبين
٣٧٥	المبحث الثاني : كشف أستار المنافقين وفضحهم
٣٨٣	المبحث الثالث : المغفرة والرحمة لمن فُتن ، فجاهد وصبر
٣٩١	المبحث الرابع : تمييز الصادقين والساكرين من القانطين والجاحدين
٤٠١	المبحث الخامس : التنبيه لمحاولة أهل الكتاب فتنة المسلمين عن دينهم
٤١١	المبحث السادس : الحذر من الشيطان وكيده
٤٢٥	الفصل الثاني : سبل النجاة من الفتنة
٤٢٥	المبحث الأول : الاعتصام بالكتاب والسنة
٤٣١	المبحث الثاني : لزوم الجماعة
٤٣٦	أسباب التفرق والاختلاف
٤٣٦	١ - الابتداع
٤٣٧	٢ - اتباع الهوى
٤٣٩	٣ - التعصب والتحزب
٤٤٤	المبحث الثالث : قتال من يحاول فتنة المسلمين عن دينهم
٤٤٦	الهدف من قتال الكفار

٥٥٢

٤٥١	تنبيه لأبد منه
٤٥٣	المبحث الرابع: الصبر
٤٥٤	المقصود بالفتنة التي يقف المسلم تجاهها بالصبر
٤٦٢	المبحث الخامس: اللجوء إلى الله - تعالى -
٤٧٢	المبحث السادس: مقاومة أسباب الفتنة
٤٧٨	المبحث السابع: الحذر من الأعداء
٤٧٨	أ - الأعداء الذين يجب الحذر منهم
٤٧٩	١ - اليهود
٤٨٢	٢ - الشيعة الإمامية
٤٨٥	٣ - المنافقون
٤٨٩	ب - طرق مقاومة هؤلاء الأعداء
٤٩٢	المبحث الثامن: الحذر من الإشاعات
٤٩٢	أمثلة تبين أن كثيراً من الفتن حدثت بسبب الإشاعات
٤٩٦	العلاج
٥٠٠	المبحث التاسع: الثقة بنصر الله - تعالى -
٥٠٩	الخاتمة:
٥١٧	* الفهارس:
٥١٩	١ - فهرس الآيات القرآنية
٥٣٩	٢ - فهرس الأحاديث الشريفة
٥٤٥	٣ - فهرس الآثار
٥٤٧	٤ - فهرس الأعلام
٥٥٥	٥ - فهرس الأشعار
٥٥٧	٦ - فهرس الفرق والطوائف
٥٦١	٧ - فهرس الأماكن والبلدان
٥٦٥	٨ - فهرس المراجع
٥٨٧	٩ - فهرس الموضوعات